كتاب

حاضر المصريين أو سر تأخرهم

تأليف

محمد عمر

من مستخدمي مصلحة البوستة المصرية

دراسة وتقديم

د. مجدي عبد الحافظ



كتاب

حاضر المصريين أو سر تأخرهم

تأليف

محمد عمر

من مستخدمي مصلحة البوستة المصرية

دراسة وتقديم

د. مجدي عبد الحافظ

الناشر

المكتب المصري لتوزيع المطبوعات

حاضر المصريين

أو

سر تأخرهم

محمد عمر

كتاب

حاضر المصريين أو سر تأخرهم

دراسة وتقديم د / مجدي . ا ..

١٩٩٨

رقم الإيداع : ٢٩١٦/٩٨
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-5241-03-8

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

المكتب المصري لتوزيع المطبوعات

5 شارع مصطفى طموم – المنيل – القاهرة .

ت : ٣٦٥٥٤٨٧

تصـــدير

نحن أمام كتاب فريد في موضوعه، عجيب في محتواه، خاصة حين نعلم أنه قد نشر للمرة الأولي في عام ١٩٠٢، أي في بداية القرن العشرين وعلي حد علمنا، لا نعتقد أن هناك كتابا مصريا آخر في هذه الفترة قد وُضع بنفس هذا المنهج المحكم، الذي حرص علي المنحي الاحصائي الكمي، والبحث الميداني، أو أهتم بتلك التفصيلات الدقيقة التي أهتم بها كتاب «حاضر المصريين أو سر تأخرهم». إذ إستطاع الكاتب محمد عمر من خلال كتابه أن يجعلنا نعيش أجواء تلك الفترة بكل دقائقها، وألوانها، وروائحها، وأفكارها الشائعة، بحيث نعتقد أنه سيكون معينا أمينا لكل باحث جاد في أي مجال من مجالات المعرفة في بداية القرن في مصر، إذ لن يستطيع الإعراض عن تصفحه ومراجعته، نظراً لما أحتواه من معلومات تفيد الباحث في الأنثروبولوجيا والاجتماع، والفلسفة والاعلام والاقتصاد والتاريخ واللغة والسينما ... الخ، والمثقف بوجه عام.

ومما يضاعف من أهمية الكتاب هو احتواؤه علي الكثير من الشواهد التي نعايشها اليوم في سنة ١٩٩٨، ونحن علي أعتاب القرن الواحد والعشرين، وهي شواهد تكاد تتطابق مع ما كان يحدث في مصر في بداية القرن العشرين، ومنها سطوة اللغات والأنماط والأسماء الغربية، ووضع المرأة في المجتمع وقضية الحجاب، وقضايا الأحوال الشخصية المتعلقة بها، وقضايا التطرف، وتكفير الرأي الآخر، والوحدة الوطنية، والتعليم، علاوة علي إنتهاج الحكومة في هذا العصر نهجا ليبراليا خالصا قد يتشابه مع سياسة الخصخصة المعاصرة.

ويدورنا نتساءل ألم تتغير مصر منذ ما يقرب من مائة عام؟ إذ أن نفس القضايا والإشكاليات والهموم ما زالت مطروحة، علي الرغم من حالة الصعود النسبي التي بدأناها في بداية القرن، مما يفرض سؤالا آخر أكثر

إلحاحا. هل بعد قرن قادم سيجد حفادنا أنفسهم أمام نفس القضايا والإشكاليات والهموم؟!

ولا ننسي ونحن نضع هذا الكتاب الهام بين يدي القارئ بعد أقل قليل من قرن من الزمان أن نشكر الزميل العزيز آلان روسيون، والذي لولاه ما استطعت الحصول علي نسخة من هذا النص، والذي أمدني بها في باريس منذ حوالي سبعة أعوام، ومن يومها وتهافتت دور النشر علي إعادة طباعته نظراً لأهميته، ولم أختر من بينها إلا تلك الدار الناشرة.

كما أشكر الباحثة الأستاذة داره محمود علي ما تجشمته من جهد في البحث عن هذه النسخة للمرة الثانية، وكذا الدكتورة مني طلبة علي مراجعتها للتقديم كما اشكر الاستاذ سيد سرحان والذى قام بالمراجعة النهائية لنسخة الكتاب، وكذا الدكتور يحيى محمد محمود وجميع الأصدقاء ممن قاموا بجهد في إتمام واخراج هذا العمل كما أشكر المكتب المصري للنشر والقائمين عليه الذين أبدوا اهتماما فوق العادة، وتبنوا نشر الكتاب في صورته الحالية، إيمانا خالصا منهم بأهمية الكتاب العلمية، ودوره التنويري الذي يمكن أن يلعبه في حياتنا المعاصرة، وأكثر من ذلك تبنيهم لهذه السلسلة من النصوص المنسية في الفكر العربي الحديث والتي نستهلها بهذا الكتاب وسيعقبها كتب أخري ستنشر تباعا.

القاهرة في ٦ يوليو ١٩٩٧

مجدى عبد الحافظ

مقدمـــــة

محمد عمر ونصه المنسى
رؤية نقدية للواقع المصري فى بداية القرن

دراسة بقلم: د. مجدي عبد الحافظ

الخلفية التاريخية: -

في أعقاب إنتكاسة الثورة العرابية وإحتلال مصر في سنة ١٨٨٢، أصبحت البلاد مهيأة أكثر من أي وقت مضي أمام الأجانب، وبدون مقاومة تذكر لعمليات النهب المنظم، فقد اعتلي الأجانب للمناصب الكبري في الإدارة المدنية، وأصبحت محلاتهم تملأ شوارع المدن الهامة وعلي الأخص في القاهرة التي أصبحت مركزا للإدارة الاستعمارية ولكبريات الشركات والمنشآت الأجنبية، وفي الإسكندرية وبورسعيد. كما برزت أحياء خاصة للأجانب، وساعدت الامتيازات الأجنبية الممنوحة لهم، علي إنشاء المحاكم المختلطة التي دعمت تميزهم وسيادتهم علي المصريين، وأصبحت الحال التي وصلت إليها البلاد تدعو الوطنيين إلي الحسرة والألم لكونهم لا يملكون شيئا في بلادهم، وآلت مصائرهم إلي المحتل مالك سلطة القرار، ومقاليد الأمور، ذلك علي الرغم مما تمتع بع الخديوي أو نواب الأمة من كبار الملاك من سلطات شكلية.

هذا الواقع المرير جعل الوطنيين يمقتون سلطة الاحتلال، إلا أن المثقفين منهم وكان لهم تراثا في التعامل مع الغرب الأوربي، وذلك منذ أول صدمة حضارية فُرضت علي اسلافهم، وفي عقر دارهم يوم أن قرر بونابرت في عام ١٧٩٨ قطع الطريق علي الجحافل البريطانية للهند باحتلال مصر، فقد وقفوا وجه لوجه أمام حضارة جديدة جعلتهم يقارنون ما وصلوا إليه بما وصل إليه غازيهم السيد الجديد علي بلادهم، صحيح أن

الغزو الفرنسي قد عطل وللأبد التطور الجنيني الكامن في التربة المصرية، فقد فرض النموذج الحضاري الغربي الذي جذب أفكار المثقفين نفسه، وعطل قدراتهم علي التخيل والابداع المرتبط بإشكاليات واقعهم الملحة. فقد كان من المنتظر أن يبتكروا شكلا جديدا من أشكال التنظيم السياسي الذي بدأوه في عام الحجة سنة ١٧٩٥ مما كان سينعكس بأثره فيما بعد علي أوجه الحياة الأخري. إلا أن اكتشافهم للغرب وجه لوجه بتنظيماته، وقوانينه، وواقعه التقني والعسكري والعلمي والثقافي الذي رأوه يحقق نتائج ونجاحات علي أرض الواقع بهرهم بالشكل الذي جعلهم ينسون معه نموذجهم المحلي الواعد، وأخذوا يتطلعون إلي هذا النموذج الجاهز القادم مع غازيهم.

هذا الواقع الجديد خلق نوعا من الانفصام الفكري لدي مفكرينا إذ أنهم كانوا يتوقون إلي استعارة هذه الحضارة الجديدة ومظاهرها المادية والتنظيمية والثقافية إلي بلادهم، وفي نفس الوقت يودون دفع هذا الغازي وطرده من بلادهم، مما ولد شكلا من الازدواجية الفكرية التي انعكست علي سلوكهم تجاه المحتلين الفرنسيين، ولعل كتابات الجبرتي المترددة تعكس هذه الازدواجية، خاصة حينما يتحدث عن محاكمات الفرنسيين لبعض جنودهم الذي أتهموا بالنهب أثناء دخولهم القاهرة وإعدامهم، أو محاكمتهم لسليمان الحلبي المتهم بقتل الجنرال كليبر، وإمتداد المحاكمة أياما لسماع أقوال الشهود والإدعاء والدفاع، وكان في ذهن الجبرتي ممارسات المماليك السابقة وإنتقاماتهم الفورية وترويعهم للآمنين.

لعل هذه الأزدواجية قد غابت عن الطهطاوي حينما تعامل مع نفس الثقافة في عقر دارها ولذا كان أكثر قدرة علي الحركة والفهم والاستيعاب، بل والترجمة، فلم يكن يشعر بوطأة ما كان يشعر به اسلافه من المفكرين، إلا أن الوضع قد تغير حينما فقدت مصر إستقلالها الوطني مرة أخري وعاد غازٍ أوروبي جديد، يجوب جنوده أنحاء البلاد، إذ أصبح البريطانيون هم السادة الجدد.

في مواجهة الوضع الجديد أنقسم أصحاب الرأي من مثقفينا علي أنفسهم، فإذا كانوا قد أتفقوا جميعا علي اختلاف مشاربهم بضرورة الإستقلال وإنهاء الاحتلال، إلا أن اختلافهم كان علي الكيفية التي يحققون بها سيادتهم الوطنية تلك، وأخذ كل فريق تبعا لمصالحه الطبقية ورؤيته السياسية يختار الطريقة التي سيسلكها في مواجهة هذا الوضع الجديد.

كان علي رأس هذا الانقسام تياران أساسيان، الأول وطني ثوري، وهو ما أسفر عن الحزب الوطني فيما بعد وجريدته اللواء، والثاني مهادن وذلك لطبيعة تركيبته الطبقية من كبار الملاك الزراعيين، وأخذ هذا الاتجاه توجها ليبراليا، وهو ما تمخض عنه حزب الأمة وجريدة «الجريدة».

كانت تلك هي الخلفية التاريخية التي هيأت الطريق لخلق تيار ليبرالي بمصر، وهو مايهمنا في هذا البحث ، حيث تبني هذا التيار مواقف مهادنة لسلطة الاحتلال ، إلا أنه علي المستوي الفكري والثقافي قد تبني موقفا تنويريا تحديثيا ينبغي الاشادة به .

كانت فلسفته تنطوي علي أن الأمة المصرية بوضعها الراهن متأخرة إلي حد كبير علي كل المستويات العلمية المادية ، والثقافية والحضارية ، وبالتالي فهي أمة غير مؤهلة لتأخذ بيدها مقاليد أمورها. ومن أجل هذا عليها العمل من أجل الوصول إلي مصاف الدول المتقدمة وذلك عن طريق الترجمة ونشر الثقافات والعلوم الجديدة. وتعليم أبنائها ، وخلق أجيال جديدة وأفكار جديدة تخرجها من ليل التخلف إلي نور التقدم والمدنية. وعلي هذا وضع التيار الليبرالي علي عاتقه مهمة الوصول بالأمة المصرية إلي تطورها المنشود ، حتي تستطيع يوما أن تأخذ بيدها مصائر أبنائها وتحقيق إستقلالها. ونحن لا نقوم بالبحث فيما إذا كانت هذه الرؤية متسقة مع واقعها المعاصر أو متخلفة عنه، لكن بحثنا ينصب علي نتائج تلك

السياسة، وما أسفر عنها من تراكم معرفي حفز تحديث الفكر والمجتمع المصري.

أحمد فتحي زغلول (١٨٦٣ - ١٩١٤):-

كثيراً ما يُشار إلي شخصية أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) كأحد أبرز ممثلي هذا التيار، ونحن لا نشكك في هذا، فقد كان وبحق أستاذاً للجيل، إلا أن الكثير من المؤرخين والباحثين قد تجاهلوا أحمد فتحي زغلول، ربما عن عمد، أم عن غير قصد رغم الأهمية التي تحظاها أعماله المترجمة، ورؤيته الفكرية التي عبرت بوضوح شديد عن الأسس الفكرية لليبرالية الغربية، والتي تبناها التيار المصري الليبرالي، إلي أحمد فتحي زغلول يعود الفضل في انتشار هذه الأسس بين مثقفي عصره، وهذا ما سنعرفه - بعد قليل - باعتبار أن كتاب محمد عمر هو أحد تجليات الأفكار التي نشرها فتحي زغلول بين مواطنيه من المصريين.

لعل التجاهل الذي طمس شخصية أحمد فتحي زغلول، يعود في جزء كبير منه إلي دوره في مذبحة دنشواي فهو أحد القضاة المصريين الذي شاركوا في صياغة تلك الأحكام المشئومة والتي استنكرها المصريون علي إختلاف مشاربهم ومواقفهم، واستنكرها معهم العالم الحر، إضافة إلي ما أحيط بشخصيته من لغط كبير، خاصة فيما أتسم به سلوكه الشخصي من غيرة وأنانية وانتهازية. ورغم هذا فلا يمكن أن ننزع عنه الوطنية والاخلاص لبلاده، فأفكاره، وكتاباته تفرض علينا هذا، بل وتفرض احترامه واعادة الأعتبار له.

الحيرة والترد: - لقد كانت شخصية أحمد فتحي زغلول لا تختلف عن بعض الشخصيات التي نراها في واقعنا فهو إنسان سوي وطبيعي، إلا أن شخصيته كانت قلقة يتخللها الحيرة والتردد باستمرار، ارتبط بوظائف الدولة منذ تخرجه من مدرسة الحقوق بباريس بعد إيفاده من

قبل الحكومة المصرية في عام ١٨٨٧ وتعيينه بوظيفة مساعد مندوب بلجنة قضايا الحكومة، وتقلبه في وظائف النيابة، والقضاء المختلفة، حتي تم تعيينه وكيلا لنظارة الحقانية عام ١٩٠٧ حتي وفاته في سنة ١٩١٤. هذا الارتباط بوظائف الدولة العليا قد قيده وجعله حريصا علي ألا تزعج آراؤه رؤساءه، خاصة إذا كانت مخالفة لرأي الحكومة أو للخديوي، وذلك علي عكس أقرانه الذين تركوا وظائف الدولة، ومن ثم أصبحوا أحرارا فيما يقولون ويسلكون، وكان عليه أن يشيد بالحكومة والخديوي في أغلب مقالاته، فيقول في مقال تحت عنوان «التمدن والتقدم» «... وقد جاد الزمان علينا بمليك جمع بين كمال الأخلاق ورجاحة العقل ونشر لواء العدل في الآفاق ومال بجميع قواه إلي اسداء الخيرات وفعل المبرات وابلاغ رعاياه إلي أسمي الدرجات وهذه صفات انطوت عليها ذاته الشريفة وفطرت عليها ...» الخ[1]، وفي مقالة عن «التمدن والحرية» يري أن «حكومتنا السنية ثبت الله بالعدل أقدامها ونشر في سماء النصر اعلامها لما أطلقت الحرية لشعبها أنبأتهم بأنهم أحرار في أعمالهم القولية والفعلية بالمطابقة لقوانينها المتبعة وأوجبت الجزاء على من يخالفها لما يلزم على ذلك من فساد نطاق الهيئة الاجتماعية..»[2]، وفي مقالة أخري تحت عنوان «التنافس» يتحدث عن حال مصر قبل الثورة العرابية مباشرة فيصفها بأنها كانت «جادة في طريق التقدم يمهد لها أرباب الحل والعقد فيها وهم الخبيرون بمنافعها برعاية الخديوي السابق أسباب الوصول إلي الكمال ووسائل الترقي إلي مدارج المدنية، وينافسون الممالك التي سبقتها في سبيل الانسانية...»[3]، ولا ضير عنده في الكتابة ضد الثورة العرابية

(١) أحمد فتحي زغلول باشا، الآثار الفتحية - خواطر في العلم والأدب والاجتماع، عن بجمع شواردها عبدالعال أحمد حمدان، إلتزام مصطفى محمد الكبتي بخان الخليلي بمصر، بدون تاريخ، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) أحمد فتحي زغلول باشا، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٥.

لإسترضاء أصحاب السلطة الجديدة حيث يصف زعماء الثورة العرابية بالأشرار ويصف رجال الانجليز والخديوي بأهل الاصلاح فيقول: «..نحمد الله جل شأنه حيث لم يطل بالبلاد زمن أولئك الأشرار الذين قصروا تنافسهم علي البغي والاضرار وأقدر أهل الإصلاح علي كبح تلك الشرور وسهل لهم طرق العودة الي تكملة أعمالهم الخيرية التي أسستها أفكارهم السليمة علي القواعد الملائمة لمصلحة البلاد وأهاليها»[1].

ولعل الكتب التي ترجمها فتحي زغلول ولم يتم بعضها، أو أتمها ولم ينشرها، وهو ما ذكره أخلص أصدقائه أحمد لطفي السيد[2]، وهي العقد الاجتماعي لروسو، والاقتصاد السياسي لبورجار، وتمدن العرب لجوستاف لوبون، والفرد ضد المملكة لسبنسر، وجمهورية أفلاطون، إضافة إلي كتاب قد ألفه في التربية العامة ولم ينشره أيضا، نقول لعل هذه الكتب لم يقدم علي نشرها نظراً لطبيعتها، ولما كانت ستثيره من أمور ربما خاف من تبعاتها لدي رؤسائه، وهو الذي ظل حريصا حتي النهاية علي استرضائهم وخطب ودهم، حتي ولو علي حساب شقيقه سعد زغلول، ... لهذا أن شخصية فتحي زغلول كانت شخصية طموحة لدرجة كبيرة فهو يري أن قدراته تفوق قدرات أقرانه وأنه لم ينل ما يستحق من تقدير، ولم يستفد بما وهب من قدرات، لذا لم يكن يتردد في إتخاذ مواقف غير وطنية طالما ستحقق بعض طموحاته الشخصية مثل إنسلاخه عن جماعة «الجريدة» حينما أصبحت تكتب ضد اللورد كرومر وكان وثيق الصلة

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٢) أحمد لطفي السيد، قصة حياتي، المواجهة - التنوير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ١١٨، بالإضافة إلي أحمد لطفي السيد، تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، ط١، دار المعارف بمصر ١٩٦٠، ص ١٢٨-١٣٠.

به[1]، أو إشتراكه مع جلادي وقتلة الفلاحين في دنشواي عندما قبل مشاركته للقضاء في هذه المحاكمة الشهيرة، بل وصل الأمر إلي حد أن يشي بأخيه سعد زغلول لدي الخديوي أكثر من مرة، وهو ما تألم منه سعد زغلول في مذكراته[2]، ولعل هذا يدخل أيضا في مجال غيرته من أخيه الذي وصل إلي منصب الوزير، ولم يكن له من القدرات والكفاءات والمؤهلات ما لسنحي زغلول حسبما كان يعتقد[3]. إلا أنه مع كل هذا كان لديه إحساس قوى بالواجب الوطني الملقي علي عاتقه بحكم قدراته ومؤهلاته، وكان هذا الواجب الوطني هو ما دفعه دائما لنشر أفكاره وترجماته المختلفة، إضافة إلي مشاركته النشطة في العمل الاجتماعي العام، إذ كان عضوا مؤسسا ونشطا في الجمعية الخيرية الإسلامية التي أسسها الشيخ محمد عبده سنة ١٨٩٢ وحتي وفاته، كما أنه قد ساهم في وضع القوانين الخاصة بالمحاكم الشرعية، كما أسهم بدور بارز في وضع نظم المعاهد الأزهرية، ويبرز صديقه أحمد لطفى السيد بأن فتحى زغلول كان دائما «عمدة الحكومة في كثير من المشروعات الدقيقة التي تحتاج إلى مفاوضات بين جهات مختلفة وموضع الاستشارة عن نظارته وغير نظارته في وضع القوانين كما تشهد الألسن الرسمية والتقارير الرسمية[4]».

ولنا أن نتخيل شخصية هذا الرجل الذي تتنازعه متطلبات وظيفته من الولاء للحكومة، وفي نفس الوقت، كانت طموحاته الكبيرة تدفع به

(١) أحمد أحمد زكريا الشلق، رؤية في تحديث الفكر المصري - أحمد فتحى زغلول وقضية التغريب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، مصر النهضة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٩.

(٤) أحمد لطفى السيد، تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، ص١٣٥.

لكل ما هو مشروع وغير مشروع، إضافة إلي وطأة شعوره بواجبه الوطني مما أدي إلي تلك الحيرة، وذلك التردد في شخصيته ذلك التردد الذي لازم الكثيرين ممن عرفوه وحاولوا التعريف به أو الكتابة عنه، ولعل أفضل مثال علي ذلك هو تردد أمير الشعراء أحمد شوقي ما بين هجائه ومدحه إذ يقول:

إذا ما جمعتم أمركم وهممتم
بتقديم شيء للوكيل ثمينا
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعري عليه فحسبه
من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تقرأوه في «شبرد» بل انشروا
علي ملأ دنشواي حزين[1]

ويقول في مدحه لترجماته عند وفاة فتحي زغلول سنة ١٩١٤:

ومعربات كالمنار وأنها — لزيادة في رأس مال الضاد
وإذا المعرب نال أسرار اللغي — روي عبادا من اناء عباد
العلم عندك والبيان مواهب — حليتها بشمائل الأمجاد
ومن المهانة للنبوغ وأهله — شبه النبوغ تراه في الأوغاد
(فتحى) رثيتك للبلاد وأهلها — ولرائح فوق التراب وغاد

(١) كانت المناسبة دعوة أحمد شوقي لشبرد للمشاركة في حفل تكريم لفتحي زغلول بعد تعيينه وكيلا للحقانية بعد ثمانية شهور من محاكمة دنشواي، ولقد أرسل شوقي هذه الأبيات. نقلا عن زكريا الشلق، المرجع السابق، ص ٢٦.

وسبقت فيك القائلين لمنبر ... عال عليهم خالد الأعواد

مازلت تسمع منه كل بديهة ... حتى سمعت يتيمة الانشاد[١]

ويقول عما اسداه للعلم وللقانون والمعارف:

ياأحمد القانون بعدك غامض ... قلق البنود مجلل بسواد

والأمر أعوج والشؤون سقيمة ... مختلة الأصدار والايراد

والقول مختلط الفصيح بضده ... تبكى جواهره على النقاد

وأنت على الأقلام بعدك فترة ... فصحت وكانت مدمنات مداد[٢]

ترجماته وأثرها:-

بصرف النظر عن شخصية أحمد فتحي زغلول والتي قد يُختَلف في تفسيرها، وهو ليس مجالنا هنا، حيث سنهتم بما فرضه عليه الواجب الوطني خاصة فيما أتصل بمؤلفاته وبترجماته المنشورة نجد أن فتحي زغلول كان مقلاً في التأليف فهو لم يؤلف سوي «شرح القانون المدني» المنشور سنة ١٩١٣ ورسالة أخري قانونية تحت عنوان «التزوير في الأوراق الرسمية» ونشرت دون تاريخ، إضافة إلي كتاب «الآثار الفتحية» الذي ضم خواطره ومحاضراته ومقالاته في العلم والأدب والأجتماع وقد جمعه وصنفه عبد الخالق حمدان ونشره سنة ١٩١٤ بعد وفاة كاتبها. ولعل هذا الإقلال في التأليف الذي لم يخرج عن موضوعين قانونيين، لا يختلف أحد عليهما يتصل بأسباب شخصية، وكأنه قد آثر أن يفوت ما [illegible] لسان غيره من أخيارهم ليترجم آثارهم ليستطيع التعلم [illegible] عن آراء إذ لم يكن هو القائل، ولكنه المؤلف الأجنبي.

---

(١) أحمد فتحي [illegible] الآثار الفتحية... مرجع سابق، [illegible] ٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٠.

ويري لطفي السيد الصورة من وجهة نظر أخري نجملها فيما يلي: -

«لا أكاد أبرئ فتحي من الوقوع في حيرة اختيار الطريقة التي يجب عليه اتباعها لخدمة العلم في مصر: التأليف أو الترجمة وأيهما أنفع. وإذا كانت الترجمة فعلي أي نوع يقع الاختيار؟ حيرة لابد منها لشاب خارج من المدرسة تتضرم بين ضلوعه نار الشوق إلي مجد الوطن العلمي، خلو من التجارب لا يملك إلا كفاءته العلميـة». ويستطرد قائلا« نظر فتحي نظرة صادقة إلي حال الأمة المصرية وحكومتها، فرأي أننا أحوج ما نكون إلي معرفة المثل الأعلي الذي نبغي الوصول إليه من نظاماتنا السياسية والاجتماعية حتي تتحد أطماعنا الوطنية علي طريقة عامة واضحة. ورأي فوق ذلك أن أول خطوة يخطوها المصلحون العلميون هى نقل العلم إلي أوطانهم بالترجمة. إن هذه الطريقة كانت هي ألف باء النهضة العلمية في كل أمة وفي كل زمان»[1].

مهما كانت التفاسير المعطاة فهذا لا ينفي أعماله الخالدة في الترجمات التي نشرها ولاقت رواجا وتأثيراً بالغاً علي معاصريه. ولكي نستكمل وجهة نظر لطفي السيد بشكل متكامل في ترجمات فتحي زغلول ودوافعه وأغراضه منها، سوف نضيف لما سبق أن فتحي زغلول «منذ سنة ١٨٨٢ كان يري الأمة تتقلب في أغراض أحيانا متعاكسة ودائما مبهمة، فكان يسيئه هذا النظر ويود لو أن الشعور الوطنى الذى كان وقتئذ في حذر مستمر - يولي وجهة قبل الاستقلال علي نحو منتج . كان يود لو يدركون أن ابهام الغرض وعدم إدراكه بوضوح يجعله مستحيل المنال. لذلك أراد أن يقدم للجمهور «العقد الاجتماعي» لروسو حتي يتبين الجمهور حق الفرد وحق الأمة وما يجب أن يكون لها من السلطان»، ويأسف لطفي السيد علي عدم ظهور هذا الكتاب، «ولكنه أصدر بعد ذلك ترجمة بنتام في أصول الحقوق والواجبات، حتي جاء الزمن الأخير وظهر

(١) أحمد لطفي السيد، تأملات في الفلسفة والأدب...، مرجع سابق، ص١٢٨.

الشعور الوطني بمظهر جميل، ولكنه لا يزال في مقاصده بعض اللبس حتي فيما هو مكتوب من المبادئ في الصحف وما الصحف الا ترجمان الرأي العام»، ويحاول لطفي السيد أن يفهم بعض الدوافع التي أدت بفتحي زغلول للاستمرار في ترجماته حين يفترض الآتي: «ولعل فتحي باشا أمام هذه المشاهدة أشفق علي حرية الأفراد وتربية الأمة من الميل الظاهر إلي ما يشبه الاشتراكية . فإن الناس لم يقتصروا في طلبهم علي حقوق الأفراد من الحرية وحق الشعب من السلطة، بل أخذوا مع ذلك يطالبون الحكومة أن تقوم لهم بكل شيء. ومهما كان في أساليب هذه المطالب من الأنتقاد الضمني فإن مثل هذه الحركة من شأنها أن تجعل الحكومة هي كل شيء والفرد لا شيء.»، ويستطرد لطفي السيد قائلا: «الاشتراكية قد تكون معقولة إذا كان للأفراد شأن في تنصيب الحكومة، وإلا فإنما هي اشتراكية معكوسة النتائج. فأخذ فتحي باشا عن بعد يهدي الأفراد إلي وجوب الاستمساك بشخصيتهم، ويبين لهم أن التربية الشخصية هي التي كانت (سر تقدم الإنكليز السكسونيين). يطلب إلي المصريين أن يتشبهوا بهؤلاء، وألا يفنوا شخصيتهم، فيفني وجودهم. واستطرادا في هذا النظر تصدي إلى ترجمة (الفرد ضد المملكة) وروح الاجتماع وسر تطور الأمم. كل ذلك لينشر في الجمهور الأسس العلمية للرقي حتي يطبق الناس حالهم علي هذه الأصول فينتفعوا بتجارب الأمم»[1].

علي كل فقد قام أحمد فتحي زغلول بترجمة كتاب «أصول الشرائع» لبنتام، ونشره في جزءين عام ١٨٩٢، كما أنه قد ترجم كتاب الكونت هنري دي كاستري، تحت عنوان «الإسلام: خواطر وسوانح» ونشره سنة ١٨٩٧، وقام بترجمة ثلاث كتب لجوستاف لوبون، الأول منهما سنة ١٩٠٩ تحت عنوان «روح الاجتماع» والثاني تحت عنوان «سر تطور الأمم» والذي نشر ترجمته سنة ١٩١٣، والثالث تحت عنوان «جوامع

(١) أحمد لطفي السيد، تأملات في...، مرجع سابق، ص١٣٠-١٣١.

الكلم»، ولم ينشر إلا عقب وفاته سنة ١٩١٤، كما أنه قد ترجم خطاب الأمير مصطفي فاضل إلي السلطان عبد العزيز تحت عنوان «من أمير إلي سلطان»، ونشر لأول مرة دون تاريخ، إلا أن الترجمة التي تهمنا في موضوعنا هي ترجمته لكتاب أدمون ديمولان «سر تقدم الانكليز السكسونيين» والذي نشر لأول مرة سنة ١٨٩٩، وقدم الكتاب بمقدمة تقع في ٤٧ صفحة يري فيها وجه الشبه بين الأمة الفرنسية والمصرية في كثير من العادات والأخلاق والأفكار غير «أن الصغيره لديهم كبيره لدينا والاستثناء فيهم قاعدة عمومية عندنا». وفتحي زغلول يعي تماما أهمية الكتاب، وحاول من خلال ترجمته بث رسالة ذات أهمية لمواطنيه، وهي أن يحفزهم للانتباه إلي عوامل تراجعهم وانحطاطهم «ويحتاج سر تقدم الانجليز السكسونيين في مطالعته إلي دقة نظر وروية حتي لا يفوت الغرض المقصود لنا من ترجمته وهو تنبيه الفكر إلي أسباب ما نحن فيه من التأخر والانحطاط»، ويعترف كاتبنا بأن ترجمات كتلك لا تجد الأثر والتقدير الذي تستحق بين مواطنيه، ويري أن هذا الإعراض لم يكن إلا نتيجة للوجود التركي، وليس لبغض الناس للعلم أو نفورهم منه. هذه الحالة أوجدت خمولا عاماً حسبه الناس فطريا، ومن ثم أخذوا يقاومون كل من يحاول أن يخرجهم عنه باعتباره مارقا، وخارجا عن الطريق القويم، وما انتشار الخرافات، والتهافت علي اقتناء التافه من المؤلفات، وقلة كتب العلوم، إلا نتيجة للسبب السابق، إضافة إلي أن كتب العلوم تتطلب الجد والهمة، بل وتذكر بالواجب، بينما لا تتطلب الكتب التافهة ذلك الجهد، ومن هنا يرجع سبب إحراق البعض لترجمته لكتاب «الاسلام: خواطر وسوانح»، «ظنا بأن احراقه ينجيه من وصمة الخمول الذي أنغمس فيه».
ويضع فتحي زغلول برنامجا في مقدمته تلك يمكن لمن يسير عليه أن حدد مواطن الداء في مجتمعه، وبالتالي اكتشاف الدواء وانتشال الأمة من تأخرها وانحطاطها، والدفع بها نحو آفاق جديدة من التقدم والازدهار،

وهذا ما سار عليه محمد عمر في تأليف كتابه، وسوف نعرض في عجالة لأهم ما جاء في تلك المقدمة الهامة.

ملخص لأهم ما جاء . " مة تر . " كتاب، «سر تقدم الانجليز السكسونيين» لفتحي زغلول-

يستنكر أحمد فتحي زغلول في مقدمة ترجمته لكتاب إدمون ديمولان «سر تقدم الانكليز ...» ذلك النفور بين بني وطنه، واجتماعهم علي ما لا يفيد، مما سهل علي الأجانب الفوز دونهم - كما أنه عاب علي الجرائد المنتشرة في عصره عدم اهتمامها بنشر الفضيلة، ونبذ الرذيلة، واهتمامها بما لا يفيد، وعدم حثها للأمة علي النافع وترغيبها فيه، حتي تتخلص الأمة من أمراضها، وتتعرف علي مواطن الضعف حتي يسهل معرفة الدواء، وهو يعترف بتخلف أمته عن الغربيين في مجالات الزراعة المختلفة وأساليبها وأدواتها الحديثة، وما صاحب هذا من نظرة سلبية إلي الفلاح وثقافته وحياته، كما يعترف بتخلف أمته أيضا في مجالات الصناعة التي يمتلك الأجانب كل معاملها وبيوتها، ويظل دور المصري فيها قاصراً علي تنفيذ أوامر الأجنبي. ويتخلف أمته في مجالات التجارة التي يستأثر الأجانب بصادراتها ووارداتها وشركاتها. ويعيب علي أمته ضعفها في العلم، وإقتصارها فيه علي ما يتصل بالدين، ولذا فهو يتساءل: «أين فينا المؤرخ والنباتي والطبيب والكيميائي والمهندس والطبيعي والأديب والمنطقي واللغوي وعالم الأخلاق والحكيم والفلكي وعالم الزراعة وغير هؤلاء؟! نعم نحن لا نعدم نفرا منهم ولكنهم قليلون، بدليل أنه لو كان عندنا منهم عدد يكفينا لما وجد الأجنبي بيننا علي هذه الكثرة التي نشاهدها لأنه ما كان يجد عندنا ذلك المرتزق الفسيح»[1].

---

(١) د. زكريا الشلق، مرجع سابق، ص ٩٧.

وبعد أن يحدد ذلك الضعف المادي في أمته، يركز علي ضعفها المعنوي المتمثل في ضعف العزيمة والألفة والمودة، وضعف النخوة والشعور الملي والجامعة القومية، ويري أن أبناء وطنه ضعاف في الخيرات، وفي طلب حقوقهم، وفي أداء الواجب، وفي الاعتبار بالحوادث الماضية، وفي حفظ ما ترك الآباء من ثروات مادية، وفي تحصيل العلم. ويضع فتحي زغلول تصوره الليبرالي كاملا في هذه المقدمة، ذلك التصور الذي يتبناه محمد عمر كاملاً في كتابه، وهو تصور يرفع عن كاهل الحكومة مطالبة الأهالي لها بتحقيق كل شيء لهم، وهي مطالبة تعود إلي ضعفنا إذ نطالب الحكومة «بحفظ حياتنا وخصوبة أرضنا وترويج تجارتنا وتحسين صناعتنا. هي التي نطلب منها أن تربي الأبناء وتطعم الفقراء، وترزق العجزة وتنفي أسباب البطالة وتحفظ الأخلاق وتلم شعث العائلات وتجمع أشتات القلوب، هي التي نطالبها بتعويض ما نقص من إرادتنا وتقويم ما أعوج من سيرنا وسيرتنا وراء هجمات المزاحمين عنا والسهر علي مصالح كل واحد منا، فإذا تأخرت في عمل من تلك الأعمال باهمالنا رميناها بسوء الادارة وأتهمناها بحب الأثرة وألقينا عليها تبعة خمولنا كلها»[1].

كان فتحي زغلول لا يؤمن بأنه يجب علي الحكومة أن تلعب كل هذه الأدوار، فهي عنده ليست إلا وازع عام يدخل في اختصاصها فقط «تأييد النظام وحفظ الأمن واقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ومعاهدة بعضهم بعضا علي ما يضمن حرية التجارة، ويشجع أهل الصنائع والحرف كما تقتضية المصالح المشتركة وعلي قدر ما تسمح به الممكنات»[2]. وفي ظل هذا الجو من النظام والطمأنينة يجب علي الأمة أن تسعي في طلب منافعها في المجالات المختلفة (الزراعة، والصناعة، والتجارة، ولنشر المعارف، واحياء العلوم وأداء الواجب والمحافظة علي الحقوق).

(١) المرجع السابق، ص ٩٩.
(٢) المرجع السابق، ص ١٠٠.

ويجمل فتحي زغلول مصائب الأمة في جهلها بما تحتاج إليه،وتمسكها بأوهامها القديمة، ويري في تغلب الأجنبي علي الوطني من أبناء أمته نتيجة لعلم الأول، ولجهل وجبن الثاني. وإذا أردنا تغيير تلك المعادلة الأليمة فلا بأس ولا دواء - كما يري - إلا في نشر التربية والتعليم، وترويج المعارف والعلوم، ويري في عدم استقبال كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين بالاجلال الذي يستحق دليل علي النفور من الحقيقة وحب الأثرة والعزة الباطلة، ولا يستبعد أن يكون مصير ترجمة كتابه نفس مصير كتاب قاسم أمين، وكان توقعه في محله، حيث حرق بعض الأهالي فعلا الكتاب بعد نشره .

هذا ويحدد أحمد فتحي زغلول غرضه من ترجمة كتاب «سر تقدم الأنكليز ...» في النقاط التاليه: -

١ - جذب الإنتباه إلي حالة بلاده ومقارنتها بحالة الفرنسيين الذين علي الرغم من تقدمهم المعروف إلا أنهم كانوا في حاجة إلي إصلاح أوضاعهم ليستطيعوا منافسة الأمم الأخري، لذا رأي إنهُ من المجدي أن نعتبر بحال الفرنسيين أنفسهم.

٢ - جذب الإنتباه إلي التفكير في أحوال الأمة الانجليزية وهي التي تمثل القوة المحتلة للبلاد لاكتشاف السر في تقدم أبنائها وسيادتهم علي غيرهم من الأمم، لنفهم واجبنا القومي علي أساس عملي، وليس علي أساس خيالي حتي تتقدم أمتنا.

٣ - وضع مثال عملي أمام أبناء أمته من خلال المقارنة بين أمتين متقدمتين تتنازعان العالم، ثم تتقدم الأولي علي الثانية، مما يدفع الثانية إلي التفكير في الأسباب التي كانت سببا لضعفها، ومحاولة مثقفيها، وكتابها رصد أسباب الضعف، وتوسل سبل الإصلاح، ويشير فتحي زغلول إلي الكيفية التي استقبلت بها تلك الأزمة، فكانت سببا في تحفيز الأمة

للسعي في طلب الكمال والأرتقاء. علي أمتنا أن تستفيد من هذه الحكمة، ولا تعتمد إلا علي نفسها لعلها تفوز بمبتغاها في التقدم والنهوض. هكذا نكون قد فصلنا مايتصل بفتحي زغلول، لما كان له من أثر علي شخصية مؤلف الكتاب الذي نحن بصدده محمد عمر.

محمد عمر: -

قبل أن نقوم بدراسة الكتاب سنحاول التعرض لشخصية الكاتب «محمد عمر من مستخدمي مصلحة البوستة المصرية». هذا كل ما نعرفه عن هذه الشخصية من خلال غلاف الكتاب، فشخصية محمد عمر غير معروفة علي الاطلاق في هذا العصر، ولم يذكره أحد، ونجهل كل شيء عن حياته، وليست له كتابات أخري غير هذا الكتاب، مما دعا البعض إلي اعتبار أن محمد عمر شخصية وهمية لا وجود لها، وبالتالي نسب الكتاب إلي أحمد فتحي زغلول نفسه[1]. إلا أن د. زكريا الشلق، لا يعتمد هذا الرأي لعدة أسباب، منها أن فتحي زغلول «لم يكن لديه سبب يمنعه من التخفي وراء اسم آخر، كما أن الأفكار التي وردت بالكتاب تمثل تفصيلا لما أورده فتحي في مقدمته الطويلة لكتاب ديمولان، وكان ذلك أدعي لنسبة الموضوع إلي نفسه، كما أن أحدا من أصدقاء فتحي لم يشر إلي هذا المعني من قريب أو بعيد فيما رثوه به، أو فيما أعادوا طبعه من كتبه، وكان الكتاب بحق جديراً باعادة الطبع خليقا بأن ينسب إلي فتحي لو كان قد ألفه بالفعل، يضاف إلي ما سبق أن محمد عمر عقد فصلا قرظ فيه كتاب «سر تقدم الإنكليز الساكسونيين» لسعادة الفاضل أحمد بفتحي زغلول بك»[2]. ونحن نتفق تماما مع رأي د. الشلق، بل ونضيف إليه ما

(١) د. زكريا الشلق، مرجع سابق، نقلا عن محمد فهمي عبد اللطيف، صحيفة الأخبار، يوميات الأخبارفي ٨/ ٩/ ٨٢.

(١) المرجع السابق، ص ٣٤- ٣٥ .

يمكن إستخلاصه من دراسة نص الكتاب الذي نحن بصدده، فالكتاب يخلو تماما من الأساليب غير المباشرة والمداراة التي برع فيها فتحي زغلول، والتي نلاحظها من خلال قراءة مقالاته. فعلي العكس جاء أسلوب كتاب محمد عمر صريحا وواضحا ومباشرا، بل وأحيانا كثيرة موجعا، كما أنه جاء أيضا محملا باحصاءات وتعليقات وهوامش، مهتما بشكل لا حد له بابراز مصادره، بل وبمقابلاته كمقابلة محمد عمر صاحب الكتاب مع الشيخ محمد عبده، والشاعر أحمد شوقي، وغيرهما من قادة الفكر، وهو لا يتواني عن تسجيل شكره وتقديره لمدير مصلحة البوستة المصرية علي جهوده في خدمة المصلحة والصالح العام، وهو ما يمكن أن يقوم به موظف في مصلحة حكومية تجاه رئيس مصلحته، خاصة وأن هذا الشكر لم يأت بشكل مباشر ولكن جاء في المتن أثناء حديثه عن الاسراف، وإشادته ببنوك البوستة، وهو أيضا يضرب أمثلة بموظفين قد عملوا في مصلحة البوستة التي يعلم كل تفاصيل العمل بها، وكثيراً ما استند علي الاحصاءات الواردة من مصلحة البوستة خاصة فيما أتصل بالجرائد وتعدادها وتقسيمها وغير ذلك، مما يدلل دلالة قاطعة علي أن محمد عمر الذي عرف علي غلاف كتابه بأنه مستخدم بمصلحة البوستة يعلم فعلا الكثير عن هذه المصلحة.

ونورد نقطة أخري، نعتقد بأنها أكثر أهمية، وهي تتعلق بالأنتماء الطبقي لمحمد عمر، إذ أن الدراسة المتأنية لكتابه توضح أنه ينتمي للطبقة الوسطي، وليس للطبقة العليا التي كان ينتمي اليها فتحي زغلول، علي الرغم من أن محمد عمر ينتمي للخط السياسي الذي كانت تمثله صحيفة الجريدة، وخط حزب الأمة الليبرالي، كما نفهم من خلال فقرات الكتاب. ونحن نعلم أن أحمد فتحي زغلول الذي ولد بقرية أبيانه بمديرية الغربية، وأخاه الزعيم سعد زغلول كانا أبنان لأحد أعيان القرية، وتلقيا تعليما كأقرانهما في كُتّاب القرية ثم بالمدارس المختلفة علي يد أخيهما الأكبر

«الذي عني بتربيتهما علي أحسن ما تعدم به أبناء الأعيان»[1]، هكذا اتجه فتحي للمدارس الحديثة، وتلقي تعليما مدنيا حديثا استطاع من خلاله الإطلاع علي الثقافة الأوربية واللغة الفرنسية في مدرسة الألسن، ثم اختير بعد ذلك عضوا بارسالية نظارة المعارف لفرنسا لدراسة الحقوق وشغل فتحي زغلول مناصب قضائية عديدة كان آخرها وكيل وزارة الحقانية، وكلها بمرتبات كبيرة ومجزية، إذ بلغ آخر مرتب له سنة ١٩١٤ ١٢٥ , . . جنيه (مائة وخمس وعشرون جنيها مصريا)، ومن الناحية الاجتماعية منذ توليه منصب وكيل الحقانية أصبح يحمل لقب باشا، وكان يملك أراضي بلغت مساحتها عند وفاته ٣١٣ فدانا وكسور (ثلاثمائة وثلاث عشرة) إضافة لحصة في مباني ومنازل وأراضي فضاء بجهة مولده، وقد در عليه كل هذا دخلا مكنه من عيشة رغدة، وهانئة[2]، وكانت كتاباته ذاتها تشير لهذا الانتماء الطبقي وتؤكده فدافع فتحي زغلول عن الطبقات العليا، وزجر الطبقات الدنيا عن الفرح والابتهاج عند نكبة الطبقة العليا «فالعظيم منا يهان والكبير ينتابه الزمان وأمثاله ينظرون إليه فرحين بمصيبته مستبشرين بنكبته أو آسفين من بعيد بحيث لا يسمع لهم صوت لمعونته، والأصاغر يشتمون جهلا أو انتقاما. وما دري العظماء أن ذل الواحد منهم ذل لهم جميعا، ولا حسبت الطبقات النازلة، أن زوال الطبقات العالية من الأمة بمثابة زوال الروح عن الجسم لأنها سياج الأخلاق ومرجع صيانة العادات ومشخص الأمة في حياتها وشعورها»[3]

ومحمد عمر الذي يعلن عن نفسه بأنه من مستخدمي مصلحة البوستة المصرية، ينتمي إلي الطبقة الوسطي من المستخدمين (الموظفين)

(١) د. زكريا الشلق، مرجع سابق، ص ١١.

(٢) راجع ملف خدمة أحمد فتحي زغلول بالمرجع السابق ص ٧٤ - ٧٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨

وهو يؤكد إنتماءه الطبقي هذا في هجومه علي الطبقات الفقيرة، وعلي الطبقة العليا، إذ يقول عن الفقراء: «شعب ولكنه ليس بحي، ومظهر يدل علي الجهل. معاملة سيئة، وعملة زائفة، أذان لا تسمع، وأعين لا تبصر، وعصب لا يحس، سور ولكن ياللأسف لا يحفظ ما أحاط به ولا يدفع عنه أذي»، وهو لا ينسي أن يؤكد أن «سبب ذلك هو الجهل ولا دواء إلا العلم». بينما يقول عن الأغنياء، أنهم يعانون من خمول الطبقة العليا علي عكس الفقراء ففيهم جهل الطبقة السفلي، وهو ينكر علي الأغنياء بخلهم وعاداتهم وتربيتهم وسلوكهم وأخلاقهم بل وأوهامهم، مقدما لنا قصة عن هذه الأوهام، حدثت معه شخصيا حين كان طفلا، وهي قصة نستخلص منها الكثير عن إنتمائه الطبقي، إذ تحكي عن ذهابه مع أستاذ القرآن مع تسعة آخرين من أقرانه إلي قصر أحد الأمراء ليقوم أحد مدعي علوم الغيب بعمل جلسة للشعوذة لعلاج مريض بالقصر، ومن خلال التفاصيل التي يذكرها نفهم الآتي: -

١ - أن محمد عمر وهو من أبناء القاهرة، حينما دخل القصر بهره ثراءه وأخذ يصف نمارقه واستاره، بل وذكر بيتا للشعر لابن عباد ينطبق علي هذا المكان، مما يعطي الانطباع أن محمد عمر لم يكن من نفس طبقة أحمد فتحي زغلول.

٢ - أن محمد عمر يذكر القصة ليوضح إلي أي مدي وصلت أوهام الأغنياء في الاعتقاد بالدجل والشعوذة، وهو هنا مجال قدح لهذه الطبقة التي لا ينتمي إليها محمد عمر ولا يكن لها أي احترام.

٣ - إن وقوع الاختيار علي محمد عمر من قبل مدرس القرآن ليصحبه يدلل علي أن محمد عمر لم يكن من أبناء الطبقة العليا مرهوبي الجانب.

٤ - إضافة إلي أن محمد عمر قد كوفئ في نهاية الجلسة كما يقول

بقليل من المال من دولة البرسيس، ولم يكن هذا متبعا مع أبناء الطبقات العليا.

نضيف لما سبق دفاع محمد عمر نفسه عن الطبقة الوسطي في كتابه، إذ ليس بهم خمول الطبقة العليا، ولا جهل الطبقة الدنيا، فقد خلصوا من الإفراط والتفريط، وعليهم يقع العبء الأكبر في نجاح واصلاح المجتمع فهم «في الحقيقة زهرة الأمة وزينتها وإنما توزن بهم لأنهم إذا حدث في الأمة نجاح فإنما يكون منهم، وهم المعول عليهم في الحقيقة لارتقاء الأمة وتهذيبها وتعليمها»، وهو يضيف «فان ظهر نجاح في الطبقة السفلي فبأنهاضهم، وإن ظهر تهذيب في الأخلاق من الطبقة المثرية فباجتذابهم لأنهم الوسط بين الطبقتين تستفيد كل طبقة منهم»، «ومنزلة الوسط في الأمة منزلة المهيمن علي الطبقتين»، ويستخلص من كل هذا «أن جماعة الوسط يمتازون بالقوة عقلا وبدنا وعاطفة». من أجل هذا وجدنا أن انتماء محمد عمر الأساسي كان للطبقة الوسطي، وهو يراها «أكثر اقداما علي استطلاع الأمور ومعرفة الحقائق ولما (عركها) به الدهر (وعلمها) إياه الخبر دون الأغنياء والفقراء»، وهو يصف الطبقتين (العليا والسفلي) بالجبن، بل ويحملهما معا أسباب الانحطاط «والجبن داء الفقير كما هو سمير الغني وهو من أهم الأسباب للانحطاط المشاهد في أمتنا المصرية، عموما وفي الأمة الإسلامية خصوصا». ولا غرو في هذا فالمؤلف الموظف حينما يعالج الموضوعات الخاصة بطبقته الوسطي، يضم إليها موضوعات متصلة بالأزهر، والمدارس، والجمعيات، والموظفين، والطباعة، والكتب، والوطنية، والأمة، وهو باب عام ومليء بالمعلومات والاجتهادات كما سنري، وكثيراً ما يسند محمد عمر إلي الطبقه الوسطي، دوراً ينبغي لها أن تلعبه في المجتمع باعتبارها قائدة الطبقات، وعلي أكتافها يتحدد مدي تقدم أو تراجع المجتمع المصري.

كما أننا ندرج نقطة أخري لكي ندلل علي أن محمد عمر لم يكن أبدا أحمد فتحي زغلول، وهي خاصة بتقييمهما للثورة العرابية، فإذا كان التقييم ربما يبدو واحد إلا أن النظرة المدققة تري عكس ذلك، ففتحي زغلول لا يقتصر علي تسمية أحداث هذه الثورة «بهوجة عرابي» كما كان متبعا في هذه الآونة، ولكن يسميها «الفتنة العسكرية»[1]، ويصف شهور الثورة «بالأشهر المشئومة»[2]، ورجال الثورة «بالفئة العسكرية الباغية»[3]، ويحاول أن يعطي صورة مضيئة عن الحالة التي كانت عليها مصر قبل الأحداث - كما أوضحنا من قبل - وكأنها قد تساوت مع الدول الأوربية لولا تلك الأحداث التي عطلتها، حامدا الله «حيث لم يطل بالبلاد زمن أولئك الأشرار الذين قصروا تنافسهم علي البغي والأضرار وأقدر أهل الاصلاح علي كبح تلك الشرور وسهل لهم طرق العودة إلي تكملة أعمالهم الخيرية.. »[4]، وهكذا أصبح خونة الثوار، والخديوي توفيق هم أهل الاصلاح. بينما نفهم مما قاله محمد عمر عن أحداث الثورة أنه لا يوافق فتحي زغلول تماما أولا لأنه يصف هذه الأحداث «بالثورة العرابية»، وثانيا لأنه لا يربط التأخر بالثورة، بل ويعطي الانطباع أن من أسباب الثورة هبوط المعارف «وابتدأت المعارف في هبوط مستمر وخصوصا قبل أيام، شبوب نيران الثورة العرابية وما بعدها»، وثالثا فهو يتحفظ في أن العلوم لم تعد لسالف مجدها وارجع هذا لعدم «الأهتمام الذي أظهره المحتلون للبلاد وقلة ما هو مخصص لها في ميزانية الحكومة».

هذا التميز يدلل بشكل قطعي أن محمد عمر ذلك المستخدم بمصلحة البوستة المصرية، هو أحد المثقفين المطلعين علي الثقافة بشتي أنواعها من

(١) أحمد فتحى زغلول باشا، الاثار الفتحية...، مرجع سابق، ص ١٣٥.

(٢) المرجع اسلابق، ص ١٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٤) المرجع السابق، نفس المرجع.

كتب مؤلفة وترجمات، ومجلات مختلفة، فهو يتفاعل بجدية وذكاء مع ما يقرأ . وربما يكون محمد عمر محظوظا لأنه استطاع نشر ما كتبه، استنادا علي تزكية كتابه بمقدمة أحمد فتحي زغلول، وربما قبل الأخير لأن الكتاب قد حاول بدقة تطبيق ما دعا إليه في ترجمته لكتاب ديمولان «سر تقدم الانكليز ...» وربما يكون محمد عمر واحداً ضمن عشرات المثقفين الذين لم يستطيعوا نشر ما كتبوه، وربما تكون هناك مؤلفات أخري لمحمد عمر أو لغيره من أبناء جيله في صورة مخطوطات لم تر النور، خاصة وهو يشكو مر الشكو من أن الكتب والأبحاث العلمية النافعة لا تجد طريقها للنشر، إذ أن أصحاب دور النشر كانوا (وربما للآن) يفضلون نشر القصص والروايات الهابطة، التي تعود عليهم بالنفع المادي السريع.

هكذا كان لكتاب، ديمولان، ومقدمة أحمد فتحي زغلول أكبرُ الأثر في دفع محمد عمر لإنجاز كتابه علي هذا النحو، ولعل المقدمة بالذات تحمل خطة وطريقة البحث الذي أتبعه عمر في تأليف كتابه هذا كما سنري.

أهمية الكتاب:—

تكمن أهمية الكتاب في معالجته غير المسبوقة لحياة الناس في مصر، فقد استطاع عمر أن يضع يديه علي مواطن ما أسماه بالداء التي يعيشها، ويتنفسها، ويفهم دواعيها وأسبابها، كما يعيها كمواطن مصري. لم تكن دراسة محمد عمر دراسة باهتة، أو سطحية أو فاترة، مثلما بدت بعض دراسات المتشرقين في عصره. فالهدف من هذه الدراسة أصبح لأول مرة علي يديه لا المعرفة المجردة، ولكن تجاوز سلبيات الواقع للانطلاق نحو النهضة المأمولة لأبناء وطنه من المصريين. لقد بدت النزعة الوطنية المصرية جلية واضحة في هذا الكتاب، وكان الحماس سمة أساسية من سماته، وحرارة الهمّ الذي يؤرق محمد عمر كمواطن مصري مثقف يزيد

من حجم همته وبحثه واستقصائه، وإحصا ءاته. ونحن لا ندعي أن الكتاب محاولة نظرية في ذلك العصر، بل علي العكس افتقر الكتاب للإستفادة بكثير من النظريات الأوروبية المعاصرة له، وأخفق في بعض تفسيراته النظرية، إضافة إلي اعتماده الأساسي علي تصوراته الدينية، وفهمه لمشاكل عصره بمفهوم ديني. صحيح أن مثل هذا المفهوم كان مفهوماً متقدماً لحد كبير مقارنة بنظيره من أبناء عصره من السلفيين، فمحمد عمر يفسح مجالا واسعا للعقل وللأفكار الجديدة المتقدمة، إلا أنه ظل حبيس هذا التصور الذي حدَّ من تطور أفكاره، والسير بها نحو نهاياتها المنطقية.

إلا أن هذه التصورات أيضا لم تجعله ينكفيء علي وجهه، وينغلق علي ذاته، لأنه اعتمد في بحثه هذا علي الوصف والمعاينة، وكأنه كان يطبق منهجا فنومنولوچيا صرفا، مما أتاح له أن يقدم إلينا تلك الثروة من المعلومات الموثقة، والبيانات والاحصاءات التي أستخلصها بنفسه في مقابلاته الشخصية والإدارية المختلفة، بحيث أصبح محمد عمر وبحق شاهدا علي عصره.

إن أهم الكتابات التي عالجت نفس الموضوع في هذا العصر وهي كثيرة، أهتمت بالدعوة إلي طريقة قد تبنتها من التراث أو من الغرب وأخذت تشرحها وتمهد لها، بل وتدعو إليها، ولكنها لم تهتم بتشريح الواقع، والأقتراب من مشاكله وحصرها وأستبيانها كما فعل محمد عمر، ولعل هذا هو سر إخفاق معظمها، حيث حاولت حشر واقعها في قوالب قديمة أو جديدة، بصرف النظر عن طبيعة واقعها هذا، بحيث بدت هذه القوالب مرة واسعة لحد كبير، ولا يمكن أن تكون حلولا عملية ولا واقعية للمشاكل الملحة، ومرة أخري ضيقة بالقدر الذي يجعلها قاصرة عن إستيعاب مختلف تفاصيل واقعها.

ولعل تلك النقطة تحديدا هي التي تغزو إليها قدر كبير من فشل التحديث في مجتمعاتنا، وليس هذا مجالنا هنا.

لعل محمد عمر قد أستطاع أن يضع الباحث المدقق في أي من موضوعات البحث العلمي في أجواء مصر سنة ١٩٠٢: عاداتها، ومعتقداتها، وسلوك أبنائها في الزواج والطلاق والأفراح والمآتم والتربية والتعليم والأقتصاد والثقافة السائدة، والصحافة، وفي ممارساتها الدينية، وعلاقات الطوائف بعضها ببعض، وأنشطة أهليها الأقتصادية والاجتماعية والمهنية والفنية. ولم يكن نجاح كاتبنا يعود إلي ما قد استطاع أن ينقله من انطباعات إلي الباحث في طبيعة الحياة في هذا الوقت، ولكن نجاحه يكمن في قدراته علي رصد مظاهر هذا الواقع من خلال أرقام وإحصاءات وبيانات دقيقة، مما نقل مستوي الانطباع الشخصي إلي مستوي الصورة الحقيقية لما كان عليه الواقع بالفعل، بحيث تمتنع معه تلك الفانتازمات التي يخلعها بعض الباحثين اليوم علي بعض مجتمعات الشرق في القرون الماضية، دون أن يكون لمثل هذه الفاتنازمات صلة بالواقع الفعلي الذي عاشه أناس الحقبة المدروسة.

هناك أهمية أخري لإعادة نشر هذا الكتاب ،وهي تتصل بتشابه المناخ الذي نعيشه اليوم مع المناخ الذي ظهر فيه هذا الكتاب لأول مرة - وسيشعر القاريء بهذا - فإذا كنا اليوم نعاني من أسباب تراجعنا الحضاري أمام الغرب ، وسيادة المفاهيم والأنماط الغربية في حياتنا ،وتحكم الغرب في مصائرنا ومقدراتنا ،وثراوتنا ،فقد كانت هذه هي ذات هموم مؤلف الكتاب وكان قد نشره في أعقاب سيادة الأجانب علي بلاده، خاصة بعد الاحتلال البريطاني السافر لها في سنة ١٨٨٢.

وقد لايكون وجه المقارنة متطابقا تماما ،إذ زيد علي وضعنا اليوم مانعانيه داخليا من تسلط تيارات دينية متطرفة ،ترفض الاختلاف

والتنوع،وتؤمن باحتكارها للحقيقة دون سواها ،ومن ثم فهي تدعو للإرهاب وتكفير الخصوم. بينما اتسم زمن النشر الأول للكتاب بترجمات أساسية لأهم الكتب الغربية ، ونبذ التعصب والتزمت باعتبار هذا النبذ قيمة من قيم العصر الجديد، واتسمت مصر في هذه الآونة بالتنوع والانفتاح الفكري غير المسبوق،بحيث وجدنا أكثر من رأي في المسألة الوطنية،وأكثر من اجتهاد ،واجتمعت أغلب الآراء علي أهمية النهل غير الأعمي من الغرب عن طريق الترجمات في شتي العلوم والفنون ، وأتت بعض هذه الترجمات أكلها في الاستعانة بنفس المناهج الغربية لمحاولة الكشف عن أمراض المجتمع المستعصية ، وهو حال كتاب ادمون ديمولان الذي ترجمه فتحي زغلول سنة ١٨٩٩، الذي استلهمه كاتبنا محمد عمر في كتابه الذي نشره عام ١٩٠٢، وهو مايعطينا فكرة عن سرعة الاستيعاب والتفهم التي أخذت أقل من ثلاث سنوات، في مثل حالة كتابنا، وهو مالم نعد نحلم به الآن.

ويتسم الكتاب من ناحية الشكل ببعض السمات الأساسية :-

١- طبيعة هذا الكتاب هي المعالجة الميداينة لموضوع بحثه،حيث جاب محمد عمر القطر ، واطلع علي وثائق،وبيانات ،ومعلومات مختلفة من مصادر موثوقة بإدارات الدولة المختلفة، ومن شخصيات عديدة،حيث نشر أسماء بعض هذه الشخصيات،ولم ينشر البعض الآخر،ونشر بعض هذه الوثائق والمعلومات ،وقام بعمل جداول احصائية بنفسه،ورفض نشر بعضها خوفا من الاطالة،أو تنفيذ لأمر عال دون أن يذكر من الآمر ، واستخلص بعض النتائج التي أوردها من واقع تلك البيانات التي أطلع عليها.

٢- اهتم محمد عمر كثيراً بالهوامش وذكر التفصيلات التي تخرج عن المتن للتوضيح ، اضافة إلي ذكر مراجعه ومصادره، وقد كان هذا الاهتمام بالمعلومات الاضافية جديداً بعض الشيء في مجال التأليف باللغة العربية في هذا العصر إلا أنه قد استقي اهتمامه هذا من واقع إهتمام ديمولان لمصادره وهوامشه.

٣- طبيعة بحثه الميداني أملت عليه أن يضع موضوعاته أغلب الوقت أمام القاريء علي شكل معاينة،يستطيع الباحث من خلالها أن يعيش أجواء هذه الحقبة في الشارع وفي المنزل وفي الادارات ، ومع طبقات مختلفة، كما تجعله يطلع علي مهن قد تلاشت وأدوات اجتماعية قد ألغيت وتسميات قد هجرت مثل: النادبات، والماشطة، والمعددات، والعريف،والشماشرجي،والقمشجي ...الخ مما يساعد الباحث علي فهم آليات هذا المجتمع وطرق تفكيره السائدة.

٤- لم يهجر الكتاب طرق التأليف القديمة، والتي كانت تعتمد علي التأثير في القاريء ، خاصة فيما يتصل بمخاطبة مشاعره وعواطفة ، وهو الجانب الذي عنيت به الكتب القديمة بصفة خاصة إذ كانت تعتمد علي ابيات الشعر المأثورة، وآيات من القرآن ، والشكر والحمد والثناء بل والدعاء في نهاية الفقرات،وكذلك التزم محمد عمر هذا النهج علي منوال الأقدمين.

٥- التزم محمد عمر في معالجة موضوعاته ترتيبا منطقيا ، وتاريخيا يبدأ من أعلي إلي أسفل أي من وصف طبقة الأغنياء ثم الطبقة الوسطي ثم طبقة الفقراء، وعند معالجته لكل طبقة علي حده التزم بالتسلسل التاريخي من المولد وحتي الممات،والتزم الترتيب ايضا عند الحديث أولا عن الزواج ثم الأطفال ثم التربية...الخ،وهو ما ساعده علي حشد كل بياناته ومعلوماته بطريقة منظمة ومرتبة ، ودون أن يقصي ما أعتقد أنه مفيد لمعالجة موضوعه، وأخيراً كان يضع المعلومات الإضافية في هوامشه.

٦ - إنتساب المؤلف للطبقة الوسطي دون غيرها ، جعله ينتصر لها في نصوصه، ودفعه هذا الإنتساب أيضا إلي أن يضم بعض الموضوعات لمعالجتها في باب الطبقة الوسطي دون أن يكون

هناك مبرر معرفي قوي، ودون أن يعبأ بتوضيح ذلك، لذا وجدنا موضوعات أساسية تخص الأزهر والمدارس، والجمعيات، والموظفين والطباعة، والكتب والوطنية، والأمة تعالج ضمن الموضوعات التي عولجت في باب الطبقة الوسطي.

٧ - غلب علي نغمة الكتاب الاهتمام البالغ بالهوية الوطنية المصرية، ووضعها دائما في مقابل ما هو أجنبي، صحيح لم يكن يلتزم في أسلوبه الهجوم علي المحتلين، لإيمانه بسيادة الأقوي، وإيمانه أيضا بأن سيادة المصريين لن تبدأ إلا بخروجهم مما هم فيه من تخلف وتراجع، إلا أنه كان يضع وسط همومه الرئيسية سمعة أمته بالخارج، وهو في حرصه علي هذه السمعة كان يدعو الأغنياء ومتوسطي الحال إلي الإقلاع عن بعض عاداتهم التي تسيء للأمة، وخاصة أمام الأجانب، وكان كثيراً ما يستشهد بتقارير اللورد كرومر، ويطالبهم بالقيام بأدوارهم تجاه أمتهم «وحتي لا يقال أنه لو ترك الأفرنج أهل مصر لا يبقي لهم صحة ولا تجد فيهم عافية ولو كانوا كثيرين»، وهو لا يتورع في نفس الوقت عن مهاجمة سلوك الأجانب، خاصة الذي لا يتفق مع السلوك العام للمصريين، ويهاجم أشكال البدع والتقاليع والعادات التي جلبوها معهم، وأخذ البعض من المصريين تقليدها تقليدا أعمي ولعل هذا يعتبر سلوكاً مظهرياً أكثر مما يتصل بجوهر الأشياء، ومن هنا نقف علي شخصيته كمواطن مصري راصد للواقع يساير ما هو شائع من تميز الأجنبي عن المصري،أكثر مما نلمس فيه باحثاً يعتد بشخصية أمته.

٨ - غلب أيضا علي معالجات محمد عمر بغضه للعثمانيين، ونقده للسياسات العثمانية، باعتبار أنها كانت سبب التخلف الذي يعاينه في البلاد، إضافة إلي أنها سبب البلاء في خضوع بلاده لقبضة الأجانب، وربما

كان موقفه هذا يعبر عن السياسة العامة لمصر الخديوية في ذلك الوقت، ومحاولتها التملص من سلطان الباب العالي، والتأكيد علي الهوية الوطنية المصرية.

٩ - حرص محمد عمر في كتابه علي إبراز تأييده للحكومة ولرئيس الوزراء والخديوي، وهو سلوك مبرر بوصفه كما نعرف موظفا بمصلحة البوستة، إلا أن هناك وجه آخر يبرر هذا التأييد وهو أن الحكومة في عصره تبنت سياسة ليبرالية، وهو ما كان يؤيده محمد عمر ويطالب به الحكومات السابقة، وفي هذا السياق تندرج مطالب محمد عمر لأغنياء الأمة بالقيام ببعض الأعباء بدلا من الحكومة، ولكنه حدد أيضا ما يجب علي الحكومة أن تقوم به من أعباء وهو في كل ذلك يعبر عن قناعة شخصية. إذن لم يكن هذا دفاعا عن الحكومة، التي يعمل موظفا في بوستتها ، كما قد يتبادر لذهن القارئ خاصة إذا نظرنا إلي الأهداء الذي تصدر كتاب عمر إلي مصطفي فهمي باشا رئيس الوزارة المصرية في ذلك الحين، أو عند النظر إلي ثنائه علي مدير عموم البوستة المصرية، وهو رئيسه المباشر، أو عند النظر إلي حديثه عن الحكومة المصرية في عصره بقوله عنها «حكومة دستورية تعد من أول طبقة بين حكومات الشرق».

لكننا في الحقيقة إذا تصفحنا الكتاب فسنجده لا يتراني عن إنتقاد الحكومة المصرية، وكأن الأهداء في أول الكتاب كان الغرض منه إظهار الولاء من البداية كتصريح مرور لنقد الحكومة فيما بعد، فوجدناه يلوم الحكومة لقلة إنصافها للمتخرجين من مدارس الطب والتي تمنحهم أقل مما تمنح لموظفيها من الكتبة، وينقدها علي نقص ميزانية التعليم، وتعدد أوامرها بخصوص المستخدمين بحيث حرم هذا بعضهم من معاشه.. الخ

١٠ - الكتاب وعنوانه يعبر عن الإحساس العميق بالتخلف

والتأخر، وهو يقيس تخلف مجتمعه وتأخره، وفي ذهنه المعيار الغربي، وننوه إلي طبيعة نظرة محمد عمر إلي هذا النموذج الغربي، وهي طبيعة إنتقائية، بحيث تنتقي من هذا النموذج ما ترغبه، وترفض جوانب أخري منه.

١١ - سيلفت القارئ لهذا الكتاب نغمة سائدة، وهي الإستحسان الدائم لما كان، بمعني السلوك والعادات القديمة تكتسب مصداقية وتوقير واحترام بحكم أقدميتها، وليس لشيء آخر، هذه النغمة نراها سائدة حتي يومنا هذا ونجدها بوضوح لدي محمد عمر في هذا الكتاب عندما يفضل صدر الإسلام عما جاء بعده، وأغنياء الأمة القدامي عن أغنياء عصره، والأغاني القديمة عن الحديثة في عصره .. الخ.

١٢ - يفهم محمد عمر العصبية بشكل أوسع عما وضعه ابن خلدون، إذ يخرج عمر عن كون العصبية هي رابطة الدم، إلي آفاق أبعد من هذا فنجدها تخرج لتضم لديه الأسرة، والمدرسة، والوطن، حتي العالم الإسلامي.

١٣ - يغلب علي معالجات محمد عمر نزعة توفيقية تفسح مجالا واسعا للعقل وأحكامه، رابطة بين هذه الأحكام العقلية، وبين أحكام القرآن والدين، وفي صيغة مشتركة غير متنافرة، بل متكاملة ومنسجمة، دون أية مشكلات أو عوارض.

١٤ - تكمن أهمية الاحصاءات والأرقام التي يوردها محمد عمر إلي نقصها في مؤلفات هذه الفترة، ويعتمد المؤرخون غالبا علي محاضر مجلس الوزراء، وأحكام المحاكم، وتسجيلات العقود، والوثائق الخاصة بهذه الفترة .. الخ، ومن هنا ندرك أهمية إيراده بعضها ففي القسم الأول

مثلاً يورد جدولا مفصلا عن عدد بيوت الأغنياء التي أفلست (خربت) في السنوات الخمس الأخيرة من تأليف الكتاب سنة ١٩٠٢، سواء في الوجه القبلي أو البحري أو الإسكندرية والقاهرة، وهو لا ينسي أن يصنفهم إلي علماء، ووجهاء، وتجار، ووزراء، وكبار مزارعين ويورد في نفس الباب جدولا آخر بعدد أولاد الأغنياء المحجوز عليهم في هذه الفترة موزعا علي مديريات مصر.

أو يذكر علي سبيل المثال في القسم الثاني إحصاءات عن الأزهر مفصلة بعدد الطلبة والمدرسين وتوزيعهم علي المذاهب الأربعة، ثم ميزانية الأزهر الخاصة بالأوقاف الأهلية أو عن ديوان الأوقاف وأوجه توزيع ميزانيته علي البنود المختلفة، كما يذكر أرقام عن الصادرات المصرية من السجائر والبيض، وعدد بنوك التسليف، وقيمة الدين المتراكم علي الفلاحين، بالإضافة لعدد السماسرة في الريف، ويقدم جدولا بالمؤلفات التي طبعت بمصر في الخمس سنوات التي سبقت طبع الكتاب، موزعة علي موضوعاتها المختلفة (روايات، وقصص، وتاريخ، وعلوم فنية، وزراعية .. الخ). ويعرض للمجلات السياسية والعلمية والدينية التي ظهرت بمصر في تلك الحقبة وأعدادها، وهكذا .. وهو لا ينسي في الغالب أن يعطي بعض النماذج لما يتحدث عنه كالأغاني أو الإعلانات ... الخ.

تناول الطبقات في الكتاب: -

علي الرغم من أن مصطلح الطبقات هو الذي يمثل العمود الفقري في هذا الكتاب، حيث عالج الكتاب طبقات المجتمع الثلاث، (الأغنياء، والمتوسطين، والفقراء)، إلا أنه لم ينظر إلي التعريف العلمي لذلك المصطلح، بل ولم يستخدم منهجا يعتمد علي الصراع الطبقي، كما تشير الإشتراكية العلمية، وحتي لا يتبادر لذهن القارئ أن الكاتب قد حاول ذلك من قريب أو بعيد.

أن مصطلح الطبقات الذي أستقاه الكاتب من قراءته المتأنية لترجمة كتاب ديمولان «سر تقدم الإنكليز الساكسونيين»، كان قد حُيّد تماما من دلالاته الإيديولوجية في هذا المؤلَف. ومن هنا كان الفهم المبسط الذي تناول به محمد عمر مصطلح الطبقات. والأفكار الإشتراكية والتي كانت حديثة التناول في تلك الفترة حتي في أوربا ذاتها كانت قد بدأت فعليا في التسرب إلي مصر في صورتها المعتمدة علي المادية الميكانيكية، عن طريق الدكتور شبلي شميل علي وجه الخصوص، ومن قبله فرانسيس مراش بالشام،وحتي هذه الأفكار إما أنها لم تجد صدي لدي محمد عمر، أو أنها لم تكن قد انتشرت بالقدر الذي يجعلها مؤثرة علي صياغة المصطلحات في هذه الحقبة،خاصة وأن المفهوم الاشتراكي لم تؤت ثماره علي،أرض الواقع إلا بعد عقدين من هذا الكتاب بتأليف الحزب الإشتراكي لأول مرة بمصر.

وإذا كانت العناصر الأساسية للطبقة الإجتماعية في الإشتراكية العلمية تتمثل في وحدة الدور في عملية الانتاج مع الشعور بالتضامن النابع من الوعي الطبقي.وعند بوخارين«الطبقة الاجتماعية وحدة جماعية من الأشخاص الذين يؤدون دورا واحدا في الانتاج،ويقيمون علاقات واحدة مع غيرها من الوحدات الجماعية التي تسهم معها في عملية الأنتاج»[١]

(١) د. محمد فريد حجاب، الفلسفة السياسية عند أخوان الصفا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص ٢٨٣ (الهامش)

أو عند جورج جورفيتش الذي يري أن الطبقات الاجتماعية عبارة عن «مجموعات خاصة فسيحة الأرجاء للغاية تمثل عالما شاسعا من المجموعات التابعة، تقوم وحدته علي خاصيتها فوق الوظيفية، ومقاومتها لنفاذ المجتمع الاجمالي فيها وتعارضها الأصلي فيما بينها، وبنائيتها القوية التي تتضمن وعيا جماعيا متسلطا وأعمالا ثقافية نوعية. هذه المجموعات التي لا تظهر إلا في المجتمعات الاجمالية المتطورة في الصناعة، والتي تقدمت فيها بصفة خاصة النماذج الفنية والوظائف الاقتصادية، لها فوق ذلك السمات الآتية: فهي مجموعات واقعية مفتوحة، متباعدة، تفوق علي الدوام، وتبقي غير منظمة، ولا تملك سوي الإكراه المشروط»[1]، فأننا نري أن محمد عمر، وإن كان قد ابتعد عن هذه التعريفات التي لم تكن في متناوله، ولم تكن متسقة مع ظروف واقعه التي عاشها في حينه بمصر، قد اعتمد في تقسيمه الطبقي هذا علي الناحية الاقتصادية المالية، حيث وجد أن الطبقة العليا «هم الذين يأتي لهم رزقهم عفوا من أطيانهم أو من مرتباتهم أو من أوقاف آبائهم ومتروكات مورثيهم».

ومن هنا كان توصيف محمد عمر للطبقة العليا، مطابقا للواقع نستخلص منه أن ثروة الأغنياء لم تكن حصيلة عناء أو عمل، وهو ما يعني به (عفوا)، أي عن طريق ريع ما أمتلكوه «إقتصاد ريعي». والمعاينة الأخري هي قعودهم عن الإستثمار في التجارة والصناعات. كما أنه يحدد الطبقة الوسطي التي يسميها «أواسط الأمة المصرية» بهؤلاء

(١) المرجع السابق، ص ٢٨٤ (الهامش)، نقلا عن جورج جورفيتش، دراسات في الطبقات الإجتماعية، ترجمة رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢ .

الذين يعملون، أي يقدمون ثمرات أعمالهم في المجالات المختلفة العملية منها والعلمية «هم الذين يشتغلون لنفع الأمة بالأعمال كالتجارة والزراعة والصناعة. كما أن منهم من يشتغل بالعلم والتأليف، والإستخدام (يعني الموظفون) وغير ذلك». وهو يكتفي في وصفه لطبقة الفقراء بقوله: «الفقراء من الوجه الاجتماعي هم الأمة كلها .. ومن الوجه الأدبي هم مظهر البلاد ... ومن الوجه المادي هم معاملتها وعملتها الدارجة. ومن الوجه المعنوي هم سمعها وبصرها و عصبها الحساس ومن الوجه المدني هم سورها المحيط بها. ويلاحظ لديه أن علاقة الأغنياء بالفقراء لا تنبني علي الشفقة والرحمة فقط، بل علي الواجب أيضا، دون أن يحدد كاتبنا طبيعة هذا الواجب الذي يقصده، فهو حين يتحدث عن مساكن الفقراء وما بها من أسقام وقذارة يري أنه «من الغريب في أغنياء مصر أنهم يجاورون هذه المساكن بقصورهم المشيدة وينظرون كل ساعة للفقراء وهم بهذه الحالة ولا تأخذهم رحمة بهم كأن هؤلاء ليسوا من لحم سكان القصور ودمهم. أو بالحري كأن قد عدمت الانسانية منهم فهم لا يتأثرون. ولو علموا الواجب لبنوا للفقراء مساكن صغيرة صحية بدلا من تشييد صروح فخيمة تسكن شهراً وتهجر دهراً».

وعلي الرغم من محاولة محمد عمر الاصلاحية للارتقاء ببني أمته من كل الطبقات أغنياء وفقراء، ومن هم من الطبقة الوسطي، إلا أن إنحيازه الطبقي -كما أسلفنا - يظهر متكرراً وفي ثنايا كتاباته، خاصة حينما يري في تفشي كتب الخرافات والشعوذة بين الفقراء، إذ يري «.. لا غرابة ولا عجب ما دامت نفوس الفقراء متربية علي حب التوغل في الرذيلة والقبح منذ الصغر». أو في القول أيضا عن الفقير بأنه «لا يصده

وازع الحشمة لما أخذته به عوائد السوء في التظاهر قولا وعملا حتي أصبح خلق الشر موروثا فيه أبا عن جد وولد عن أب»، بل أنه يوكل إلي الفقير فقره دون أي إنتباه لطريقة توزيع الثروة في بلده، حيث وجد أن الفقير «لم يهتد لمعرفة الواجب ولم يعلم احتياج الأمة إليه ليعمل بما فيه نفعها ونفعه ولم يهتم بأن يكون جسما عاملا بدلا من أن يكون جسما خاملا..»، وهو يراه «مستعيبا ممارسة الأعمال لما نشأ عليه من حب الكسل وإيثار الراحة وفتور الهمة علي العمل..» ولذا فهو يري ألا «حق له في الشكوي عن سوء حاله الحاضر ما دام هو الكسول في حركاته وسكناته وليس أهلا إلا لأن يقصيه ذوو العمل وينبذونه عنهم وهو القليل المروءة نحو نفسه القليل المنفعة لبلده المستعيب وسخ اليدين النافر عن رزق عرق الجبين». ولا أدري عن أي فقير يتحدث محمد عمر !!؟، ولعله نقل عن بعض الترجمات التي تصف فقراء أوربا في ذلك الحين - وهي لاتصدق، عليهم - فعممه دون تبصر بفقراء وطنه، ولعله أيضا قد نقل هذا عن كبار إقطاعي عصره الذين تعدت ملكياتهم آلاف الأفدنة، وربما أيضا لم ينتقل محمد عمر أبدا من القاهرة، بعكس زعمنا بأنه قد جاب القطر، حيث أن أحوال العامل الزراعي البائس في عصره معروفة، وتحدث عنها حتي اللورد كرومر الذي يحلو لمحمد عمر الإستشهاد بما يقوله كثيرا. لأنه إذا عاين محمد عمر واقع عصره، خاصة في هذه النقطة، لكانت قد تغيرت هذه النبرة التي جعلت من الفقير المضطهد المستغل (بفتح العين) وحشا كاسرا، لا يريد العمل (غير المتوافر علي الأغلب بفعل البطالة وتدني الأجور)، مما قلب الآية واعطي انطباعاً بأن المستغلين (بكر الغين) من أصحاب الأعمال وإقطاعي هذا الزمان كانوا حملانا وديعة.

ولعل محمد عمر قد أستند في هذا إلي التراث الليبرالي الغربي والذي تبناه الليبراليون منذ مطلع القرن في مصر، وهو يجسد في الغالب شراسة هجوم الطبقات الوسطي علي الطبقات الدنيا لتعويض ما تعانيه الطبقات الوسطي من الناحية المادية والمعنوية تجاه الطبقات العليا، وهو ما يؤجج التطلع الطبقي علي السلم الاجتماعي.

مفهوم محمد عمر عن الدين: -

للدين عند كاتبنا مفهوم نهضوي إصلاحي قومي مصري، ولعله يجاري في الجزئية الأولي مفهوم جمال الدين الأفغاني الديني. وهو يهتم بالفروض الخمسة المعروفة (الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج)، ويعيب علي الأغنياء تركهم للصلاة، لكن محمد عمر لا يناقش هذه الفروض كفروض نظرية ليس لها مردود إجتماعي، بل يغلب عليه تقديم الطابع العملي لمردود تلك الفروض، حيث وجد أن كثير من الأغنياء، أصبح المال «دينهم يأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه»، إلا أن أشد ما يؤلمه في ذلك وما يراه خروجا علي الدين هو «أكلهم المال سحتا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم أموال الناس بالباطل»، إضافة إلي إستخدامهم «الحلفان الكاذب» في معاملاتهم، وأعظم ما لا يقره هو عدم إستعدادهم لتخطي هذا وذلك بابتعادهم «... عن مواقف التعاون والتخلف عن مواطن التعليم والتنوير. والبخل في الاتحاد علي انشاء المدارس الأهلية التي تربي أبناءهم التربية القومية الدينية الصحيحة». وهو يري أن القرآن قد نزل علي الرسول «وحيا حسب الوقائع. فكان رابطة للمسلمين وجامعة للوحدة الدينية»، ومن هنا نفهم أهمية النهوض بالواقع في فكره الديني،

فنزول القرآن يعطي أهمية للواقع، إضافة إلي ذلك المفهوم الوظيفي للدين، حيث يراه رابطة تجمع المسلمين، في وحدة دينية. وهو يولي أهمية كبيرة للجرائد الدينية الإسلامية في عصره، والتي اقتصرت علي ثلاث مجلات فقط، خاصة في ظل الجهل بالدين إذ «ألبست فيه مبادئ ديننا غير لبوسها بواسطة أهل الفساد والجهل الذين لا يخلو منهم زمن»، وهو يعيب علي هذه الجرائد خلطها بين الموضوعات المختلفة، والملاحظ أن محمد عمر، وعلي الرغم من دعوته الإصلاحية الدينية كان متأثراً بمبادئ العلمانية «ثم فوق ذلك يخلطون في المواضيع بين ديني وسياسي وأخباري.. الخ. حتي لا نعود نعرف أنها مجلة دينية إلا من أسمها. وحتي ينقلب الخير المقصود شرا بواسطة هذا الخلط الذي لا يراعون الذوق في التأليف بين مواضيعه..»، إذ يري أن «الدين عبارة عن اعتقاد بتعاليم خصوصية لا تتعدي دائرة الضمير وهي قاصرة علي علاقة الانسان بربه إنما يسن إليه القواعد التي تتعلق بشؤونه مع غيره في دائرة علاقاته الأدبية لا في علاقاته الإجتماعية التي يعود أمرها إلي القوانين النظامية السياسية»، وهكذا يجد كاتبنا أن الجانب الأدبي من حياة الانسان ينظمه الدين بينما الجانب الاجتماعي في حياته لا ينظمه سوي القوانين الوضعية، وهو يأخذ علي مواطنيه عدم فهمهم لمعاني الوطنية إلا في جامعة الدين ،و هو لا ينكر «أن الدين يقوي تلك الروابط ويهذب أميالها ولكنه لا يحول دون هذه الجامعة أن أدرك كل فرد ماهية دينه والغاية الجوهرية منه». وهو يري أنه إذا كانت هناك حاجة لهذه الرابطة الجوهرية - كما يري - لجمع أكابر أئمة الإسلام «علي حقيقة المراد من تلك الأوامر والنواهي (أوامر ونواهي دينهم الحقيقية) بالبحث والاجتهاد والتفسير بكل اخلاص»، ولكي

تتصدي لدعاة الضلال ممن يسيئون فهم وتفسير أحكام الدين «ففي كل قطرَ من أقطار الاسلام بل في كل بلد بل في كل حارة من دعاة الضلال المدعين التفقه في العلم المشتغلين بالدين حرفة للتعيش الناصبين اشراك البدع والفتنة للاغواء علي الرذيلة والانطواء لاحكام السفاهة المفسرين آيات الكتاب الكريم علي ما تدعو إليه أغراضهم العالمية السافلة» ويعتبر محمد عمر أن «هؤلاء هم المسوغون لإخواننا المسيحيين أن ينعتونا بالتعصب وحبذا هذه الكلمة لو كانت فينا بمعناها الحقيقي. لأن التعصب لا يخرج عن حد غيرة المرء علي دينه ومحبته له والدفاع عنه إذا أقتضي الحال». والواقع أن كاتبنا فهم كلمة التعصب - هنا - في ضوء المصطلح الخلدوني في العصبية، وهو ما كان يؤيده، على الرغم من توسيعه لدائرته كما رأينا، من قبل، خاصة حينما تعتمد التربية علي الدين الجامع بين المسلمين للوصول إلي توحيد الكلمة، والرأي بينهم ولذا فهو يرد بأنه لا «- . عندنا معاشر المصريين بل هو جهل عم الكل يرمون به بعضهم مزّينا بحلي الدين والدين برئ منه لأنه من دعائم التوحش ومن دواعي الجفاء بين أهل الوطن الواحد».

ومن أجل القضاء علي هذا الجهل الذي يتشح بوشاح الدين نجده يحمل حملة شعواء علي ما يسميهم «أهل الطرق والأذكار» ممن يجوبون الشوارع في جلبة وصياح، وهو يري أن «جماعة المتصوفة وأهل الأذكار قوم خبثاء ولو كانوا بهاليل يغشون أطراف البلاد للمتجر بالافتراء علي الدين الكذب وكسب حطام الدنيا بذكر الله ممزوجا بدق الدفوف وقرع الكاسات»، وهو يري تفرقهم شيعا وأحزابا (الرفاعية، البيومية، الأحمدية، والبرهامية.. الخ)، وذلك لتفشي الجهل فيهم فكل منهم «مدع

معرفة أسرار الهية وهم في الحقيقة معتوهون ساقطوا التكاليف الشرعية ودليل ذلك فيهم الرضي بالذهاب إلي المعارض الأوروبية»، وهو يحمل أيضا علي موالدهم وأذكارهم «والتي فيها يستعمل الحيل والبطالة والدعابة والمزاح وتفقد العفة والزهد والطهارة»، وهو يذكر كثير من القصص والحكايات التي تدل علي جهلهم وعبثهم بالدين، حتي وصل ذلك للمساجد، والتي أصبحوا يأتون فيها «كل ما هو منهي عنه حتي باتت المساجد مثل حانات أو ملاهي لعب ترتفع فيها الجلبة والصياح عدا اتيان النقائص التي لم تكن تعرف قبلا وهم يأكلون من لب البطيخ والقرع وما يلقونه من قشور الترمس وجذور الكراث وفتات الخبز يصير بعضها كأنه مستودع للزبالة»، ويري أن هذه الاعتقادات ما هي إلا خيالات باطلة وأوهام ساقطة، أسوأ ما فيها أنها تخلط بين الأولياء والله، بل «تجعلهم يرقبون الأولياء ويخشونهم أكثر مما يرقبون ويخشون الله»، و«الله يعلم أنها أضاليل عامية ما أنزل الله بها من سلطان». والواقع أن محمد عمر يسلط إنتقاداته هنا على ما يعانيه في واقعة من أحوال وسلوك المتصوفة في عصره ومن خلال تجاربه الشخصية معهم، وليس من خلال الأدبيات الصوفية المكتوبة، أى أنها معالجة ميدانية للمتصوفة في عصره، وليست معالجة نظرية تتعرض للأحوال والمقامات الصوفية التي تحدث عنها أقطاب الصوفية في آثارهم الأدبية المعروفة.

وهو في هذا حريص على صورة الوطن لدى الأجانب إذ يقول «وتري الأجانب يعدون موكب الرؤية والمحمل في مصر من أكبر الاحتفالات الدينية عندنا ويكتبون عنه في كتبهم وجرائدهم ما نخجل لو قرأناه»، ويربط محمد عمر دائما الجانب الديني بالجانب المدني من المعتقد الديني وهو ما يسميه «الأدبي»، فهو يري أن هذه الأوهام «تضر غالبا بالأخلاق وتبعدها عن أسس المعتقد الصحيح. ونموذج الفضيلة والكمال الأدبي». وهو يضرب بعض الأمثلة الأخري في زيارات الأولياء والأضرحة وينتقد

موظفي الأوقاف في هذه المزارات الذين «يتركون الزائر يتبرك بالأضرحة ويتوسل بمن فيها الذين صعدت أرواحهم لبارئها وبقيت عظامهم البالية (وفي حكم العقل لا تغني شيئا) وكذلك كانت عبدة الأصنام يفعلون تماما».

دعوة محمد عمر لتطوير الأزهر: -

في إطار هذا الفهم الديني، والمناخ الذي يمارس فيه الدين والعبادات بمصر، أهتم محمد عمر بالأزهر وتطويره باعتباره هو الأمل الوحيد لإصلاح هذه المفاسد الدينية، وأهم مدرسة تقوم بتخريج أبناء الطبقة الوسطي التى ينتمى إليها، فهو يري أنه ينبغي أن تتولي هذه الطبقة قيادة الطبقتين العليا والدنيا، لذا نجده يدعو «أن يبعث (الله) من يجدد للعامة دينهم، ويثقف عقولهم ويحول بساطتهم ووساوسهم إلي عقائد حسنة تصلح بها أخلاقهم وآدابهم»، وهو بعد أن يعرض بعضا من تاريخ الأزهر وميزانيته يبسط لنا الغرض منه والذي يحدده في «تخريج أهل العلم في الدين والشرع من علماء وفقهاء ليتفقهوا في الدين ويفقهوا أهله فيه مستمدين ذلك من الكتاب والسنة علي مذاهب الأئمة الأربعة»، ولا غرو في هذا لأنه يري أن «المتخرجين (منه) هم قادة الشعب ورؤساؤه ووكلاؤه». وهو يأسف لحال الأزهر في عصره إذ «أصبح أهله يعدون الفلسفة كفرا والمنطق زندقة والرياضيات ضلالة والطبيعيات بدعة والكيمياء فرية. ثم يفاخرون بابن رشد وابن سينا وغيرهم مع أنهم هم الذين كانوا يشتغلون بتلك العلوم في عصرهم وهم الذين سطعوا بأنوارها مشارق الأرض ومغاربها فهذا دليل منهم علي سوء حاضرهم إن لم يتداركره بالاصلاح والتحسين». وهو يحمل بشدة علي مناهج التعليم في هذا الصرح العتيق والتي تعتمد في جوهرها

علي الحفظ والتلقين، لا علي إعمال العقل والتمرين حتي أصبح طلاب «علوم الدين والشريعة أشبه ببغاء يؤدى الاشارة ولا ينفذ إلي ما فيها من الأسرار وما انطوت عليه من مناهج الحكمة والقسطاس المستقيم» ، مؤمنين بالشعار الذي يقول «اعتقد ولا تجادل». وهو يري أيضا نقصا في طبيعة العلاقة الناشئة بين الأساتذة والطلاب، تتسم بسلبية كبيرة من قبل الأساتذة، مما يؤدي في الغالب إلي النزاع والاخلال بالآداب، ولذا فهو ينصح مشيخة الأزهر بتعيين مراقبين «علي من يخل بآداب العلم أو الدرس والمذاكرة» أو تكليف المدرسين أنفسهم بمهمة مراقبة سلوك الطلاب.

ويود محمد عمر من هذا تخريج علماء حقيقيين يساهمون في ترقي الأمة بواسطة التعليم الحقيقي والبعد عن الخزعبلات، من جهة ومن جهة أخري نشر هذا العلم بين الناس عن طريق الرسائل والمجلات، ويعتبر عدم وجود مجلة لعلماء الأزهر «جبن وضن» منهم علي إخوانهم. وهذا التقصير الذي يرصده كاتبنا في أمور التعليم الديني، يجده أيضا في البحوث الخاصة لعلوم النحو والصرف والإنشاء، وذلك بسبب هذا المنهج الذي يقوم علي الحفظ والتلقين «الحقيقة أنهم مقصرون في الإنشاء والكتابة فيها ولا يحسنونها وذلك لحفظ القواعد وحدها دون التمرن علي ما وضعت له القواعد عملا»، ويعطي مثلا علي انحطاط طرق تعليمهم تلك «أنه لا ينجح في امتحان العالمية بين هذا الحجم الغفير في كل سنة إلا ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط». وهو يحمل علي كثير من أوجه قصورهم العلمي والمنهجي وطرق حياتهم في الجامع نفسه، وقذارتهم، وطرقهم في العيش، ويستنكف علي هؤلاء أن يصبحوا معلمون، وفاقد الشيء لا يعطيه، وهو لا يقتصر في انتقاداته علي منهج التدريس فقط، ولكن يضيف لهذا

تحديثا يلم بالأزهر ككل، وكمدرسة، وذلك بدعوته «لاستبدال الحصر بالمقاعد والكراسي»، كما يدعو الأثرياء إلي التباري في إهداء مكتباتهم إلي الأزهر وتزويده بالوسائل التعليمية المختلفة «مثل الكرات الأرضية والفلكية والخرايط والأطالس والمجسمات وغير ذلك».

نقده لعلماء عصره من رجال الدين:

وهو لا يترك علماء عصره دون إنتقادهم جميعا فهم لا يقومون بواجبهم الديني تجاه أمتهم، بل قل تجاه أبنائهم أنفسهم. وهذا «لاشتغالهم فيما ليس فيه نفع الأمة والدين»، لأنه ينسب هذا الجهل وتلك الخرافات وتقلص العلم اليقيني و المعرفة الصحيحة إلي عدم قيامهم بواجباتهم، «وإلا فارني عالما منهم قام وحض الأمة علي نفع يذكر من مثل حض الناس علي المحبة وترك الشقاق المستولي علي الكل والتفرق الذي أوصلنا الي أسوأ الأحوال..» وهو يعقد المقارنة بين هؤلاء النفر من المسلمين الذين وصلوا إلي الهند لنشر كلمة الحق في الزمن الغابر عندما كان السفر قطعة من العذاب، وبين العلماء المعاصرين له، وكان الأقدمون يسعون لنشر كلمة الحق إمتثالاً لأمر الجهاد في سبيل الله: «الجهاد ليس السيف وحده والسيف القاضب مخراق لاعب إذا لم تمض الدعوة حقه وجهاد الغي والغراية والجهل والجهالة والهوي والضلالة بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر». ويهاجم محمد عمر انقطاع هؤلاء العلماء عن العمل في نشر الدين وقعودهم عن الواجب وإرتكانهم للراحة، مكتفين بالتفاخر بأعمال غيرهم حتي أصبح الحال علي ما هو عليه في عصره. وهو يقارن بين تعودهم وخزلانهم، وبين نشاط وعمل البعثات التبشيرية الدينية

الغربية ، والتي تقرن عادة نشاطاتها بالخدمات الإنسانية كالبعثات الطبية، ويورد محمد عمر بنفسه سفر إحدي هذه البعثات للخرطوم بمحطة مصر وتوديع كبار القوم من الانجليز لها لدرجة يقول معها كاتبنا «ولقد أثر هذا المنظر في نفسي فدعوت لهم أيضا شكرا علي همتهم». ويذكر ضياع وقت العلماء فيما لا يفيد في النهوض بواقع أمتهم حينما يعكفون في أبحاثهم علي متابعة أخطاء الشعر القديم، أو مسألة منع «عمر» أو صرفه، أو البحث في نملة سليمان وإن كانت ذكر أم أنثي، مما «يضحك الثكلي» علي حد تعبيره، معتبرا أن هذه «السفاسف وأمثالها تثبت عدم اعتنائهم بوقتهم من جهة وغفلتهم عما هم فيه من الأحوال وما ينبغي أن يكونوا عليه أمام الله والناس». وليس هذا وحسب، فهو يلومهم علي تصدي بعضهم لحركة إصلاح المحاكم الشرعية التي تبناها الشيخ محمد عبده، وعلي ظاهرة سهرهم في الأفراح والمحافل والولائم، وعلي فساد أخلاق وآداب بعضهم، وعلي سلوكهم الشخصي مع زوجاتهم وخدمهم، فهو سلوك ذو وجهين: يظهرون في وجهه الأول الإخلاص والولاء والطاعة والسعي في إنجاح حقوق الله، وفي وجهه الثاني يظهرون سوء معاملة وكدر واحتقار بعكس حالهم في اجتماعهم مع الناس. مستخلصا نتيجة أساسية خلاصتها «أن الأمة التي يسوسها في دينها ودنياها أمثال هؤلاء الرجال تتأخر وتعفو آثارها ... ما داموا هم العاكفين علي درس ما تقدم من كل شيء لا ينفع إلا في أزمانه الماضية».

رأي محمد عمر في وضعية المرأة: -

ينبري كاتبنا مدافعا عن كتابي قاسم أمين «تحرير المرأة»، «والمرأة

الجديدة» ويكشف عن أن ارتقاء الأمم المتمدنة ارتبط بارتقاء المرأة فيها، لارتباط أساس العلم والتربية بالمدرسة المنزلية، فقد ساوت الشعوب منذ وقت طويل المرأة بالرجل في الحقوق، «وان ما انزلها إلي درجة الاستعباد خلافا لما تأمر به الأديان جميعها إلا تطرف الرجل وخروجه عن حد الأعتدال واستبداده وأن هذا الخط مضر فعلا بجسم الهيئة الإجتماعية، ومفسد لقوامها وارتقائها إذ يترتب عليه ابعاد فئة كبري من العمل المفيد بل وعن أكبر عمل يتوقف عليه التمدن الصحيح»، ورأي أن إدراك ذلك من علماء الغرب جعلهم يرفعون اجحافهم بالمرأة وإعطائها مركزها الطبيعي، في المجتمع، وما عليه أوربا الآن من رخاء وارتقاء دليل ساطع علي هذا، وهو يستنكر في نفس الوقت، رد الفعل الذي أستقبل به علماء مصر كتابي قاسم أمين، ويري أنه لابد من إنتصار الحق وانتشار الأفكار الجديدة، وإذا انتصر اليوم معارضو المبادئ الجديدة فهو انتصار وقتي، ويأخذ عليهم تمسكهم بالقشور مثل مسألة الحجاب، والتي لا يعتبرها مسألة دينية محضة. فهذا الموضوع مختلف عليه في بلاد المسلمين، حيث وجد أن قاسم أمين «يريد تعديل هذا «الحجاب» لدرجة توافق المصلحة ويسهل معها التربية والتعليم والقيام بشؤون الحياة التي يليق بالمرأة أن تكون فيها».

وهو يعيب علي علاقة الحب بين الزوجين الغنيين، والفقيرين الجاهلين، ويدعو إلي تعليم نسائنا وتثقيف رجالنا« لنصل إلي معرفة المحبة قبل الزواج وهي أسه» وإلا «وكيف الحال والزوج جاهل والمرأة أجهل وهي الشريكة في الحياة أو كيف البقاء والأرتقاء وهذا كله لا تدرك

حاجاته وكمالياته، إلا بمحبة صادقة ووداد ثابت». وهو ينعي زوال تعليم البنات في عصره، مقارنا حالهن بحال المرأة في القرون الأولي من الإسلام بفضل تعليمهما وتربيتها حيث «كان لهن مجتمعات عامرة وكانت بهن عناية وافرة واهتمام زائد ناشيء عن الاحساس بما يثمره تعليمهن وتهذيبهن ولذا خرج منهن عالمات فاضلات يبثثن روح التعليم في بنات جنسهن وفي الرجال. وبلغن في الفنون والصنائع والتأليف والتصنيف والأشعار البديعة شأوا عظيما وغاية ليس وراءها غاية، ولذا كانت الواحدة منهن عالمة فاضلة»، وهو يثني كثيرا علي تعليم البنات «إذ البنت لو تعلمت لكانت كنز فوائد لا يفني علي كرور الأيام بل كلما أزدادت في فهم العلوم أزدادت المادة وغزرت كالبئر يكثر فيها الماء إذا نزحت وتنضب إذا تركت لشأنها بل وتفسد. وكانت لأطفالها بعد زواجها هاديا ومربيا صالحا». لذا فهو يأسف لأن مدرسة المعلمين الوحيدة الموجودة بمصر في عصره ليس بها قسم ولا مدرسة «لإخراج المعلمات ليباشرن تعليم البنات ولذا كانت معلمات البنات المصريات من متخرجات مدارس سوريا»، ويؤمن محمد عمر بأن «تعليم البنت فرض من فروض الانسانية وركن من أركان المدنية»، ويعزو غياب هذا التعليم «عند المصريين كافة لجهلهم فائدة تعليمها ولزعمهم أن البنت إذا تعلمت وتثقفت ترجع بالضرر علي العائلة وتكون في عرفهم أهلا للمغازلة والمكاتبة مما يفسد الأخلاق. عكفوا علي هذا الزعم مسلمين وأقباط. لأن عوائدهم واحدة واختلاطهم واحد لا فرق بينهما»، ولكي تتغلب المدارس علي مشكلة نقص المدرسات، دعا إلي إستدعاء مدرسات من الشام ليقمن بتعليم بنات المصريين حتي يتخرج منهن من يقوم بهذه المهمة فيما بعد «وليس في ذلك عار علينا ما دام

السلف الصالح تلقي العلوم العالية من كتب اليونان والرومان وغيرهم من الأعجام والأمم السالفة».

وفيما يتصل بوضع المرأة في الطبقات الدنيا، يضع يديه علي بعض العادات والتقاليد التي تعود إلي الجهل المحكم وهي إقدام أهل هذه الطبقات علي الزواج وهم يحملون الأمراض والعاهات قبل شفائهم منها، وأثر ذلك علي الهيئة الاجتماعية، ثم يعدد بعض العوامل التي تؤدي إلي عدم الائتلاف بين الزوجين ومنها صغر سن الزوجة، وتدخل الجيران بين الزوجة والحماة، وغيرة الحماة علي أبنها مما يؤدي في النهاية للطلاق، أو الزواج للمرة الثانية، وهو يستنكر ضياع حقوق الزوجة من مثل حقوق النفقات التي تظل حبرا علي ورق في المحاكم الشرعية وهو يعيب علي ظاهرة الطلاق التي تفشت في عصره دون قيد، وهو ما يؤدي بالمرأة المطلقة الفقيرة إلي إذلال النفس، أو الأضطرار لسلوك الغواية «ودخول بيت الفجور وليس من دافع لهن إلا الفقر والجوع». ولهذا فهو يؤيد إقتراح الإمام محمد عبده لإصلاح المحاكم الشرعية بأن «يلزم كل مأذون أن يسأل قبل عقد زواج أي شخص غير معروف بالثروة هل له زوجة أخري» وذلك لمنع «الفقراء من جمع عدة نساء في عصمة واحدة ما داموا لا يستطيعون الانفاق عليهن خصوصاً وان ضرر ذلك لا يقتصر علي الأزواج وأولادهم بل يلحق الهيئة الاجتماعية كلها».

والملاحظ أن محمد عمر يمانع تعدد الزوجات في إطار الطبقات الفقيرة شأنه في ذلك شأن الإمام محمد عبده وكان من الأجدر أن يعمم تلك الدعوة، ومع صحة ما نطالب به كاتبنا - في اعتقادنا - إلا أنه علينا أن نضع أنفسنا مكان هذا الرجل الذي تجشم إعلان هذا الرأي في عام ١٩٠٢، وأصداء كتاب أحمد فتحي زغلول، الذي أحرقه المتطرفون ما زالت لها وقعها، إضافة إلي ما أقترفه هؤلاء المتطرفون، أيضا تجاه قاسم أمين ضد كتابيه «تحرير المرأة»، و«المرأة الجديدة»، لذا كان عليه أن يكون حذرا كل الحذر، وربما إذا مرت دعوته بمنع تعدد الزوجات لدي الفقراء

بسلام، لاستطاع أن يطالب بتعميم مطلبه هذا علي الطبقتين الوسطي والعليا، ربما كانت هذه المطالبة إذن بالون اختبار حتي لا يقع فيما وقع فيه فتحي زغلول، وقاسم أمين. نقول ربما أخذا بالحذر خاصة وأنه كما أسلفنا ظل حبيس تصوره الديني مما أعاق تطور أفكاره، والسير بها نحو نهاياتها المنطقية الطبيعية.

ويضع محمد عمر يده علي عادة أخري منتشرة من أسوأ العادات التي تمتهن حق المرأة في عصره، وربما حتي اليوم في عصرنا، وان كان يحصرها في طبقة الفقراء، وهي الخاصة باليوم الأول من الزواج وبعد إنتهاء طقوس العرس مباشرة، وكأنها شكل من أشكال الاغتصاب الجماعي، والتي يستنكفها ولا يقرها فيقول: «إذا آب العريس من «زفته» بسلام يسعد إلي داره فاذا عروسه مهيأة لقدومه فيدخل عليها ويقبلها وهي تقبل يده وبعد أن يقدم لها هدية كشف الوجه وتكون نقودا علي الغالب ويعطي «الماشطة حلوانها» يلف «الشورة» علي أصبعه السبابه وهي خام بوبرها الخشن ويمسكنها له «الماشطة» والأقارب. فإذا مانعت أو جفلت من مطلبهم يستنجد الزوج بهن فيشددنها إلي سريرها ويمسكونها قسرا بأيديهن من اليدين والرجلين ليتمم هذا الجاهل عادة يحسبها فخرا له وهي في الحقيقة اهانة له وضرر لزوجته وربما كانت سببا لشقائها الأبدي فان كثير من النساء يصبن من هذه العادة بأمراض عصبية ورحمية تقلق راحة المرأة طول حياتها»

قضية التربية والتعليم لدي محمد عمر: ـ

لا تقتصر التربية لدي كاتبنا علي المدارس، بل تمتد إلي البيوت، وهو يهتم بالمراحل الأولي من الحمل، ويشبه العناية بالطفل بالعناية

بالنبات، «أن الطفل إذا دب علي الأرض لزم الاعتناء العام وما دامت نشأته في الحياة كنشأة النبات في النمو والظهور وجب أن يعتني به وبما يحفظ قواه وينميها وإلا ذهب ضحية جهل والديه من حيث لا يشعرون، كذلك النباتات إذا لم تسق بماء يحييها من حين إلي آخر ذبلت أو ماتت»، وهو يشجب في مجتمع الأغنياء بعض المظاهر التي يراها مخلة بعملية التربية، والناتجة عن جهل النساء أو تقصيرهن ، ويعدد هذه المظاهر في تفضيلهن الإهتمام بزينتهن وبهرجتهن وفي أستنكافهن إرضاع أطفالهن دونما سبب مرضي، واعتمادهن في تربية أطفالهن علي المربيات والخادمات، وأثر هذا علي ما يحصله الأطفال، وهو يحمل بشدة علي من يأتون بخادمات من غير أبناء العرب ليعلمن ويرشدن أولادهن، وهو ما يجلب في نفس الطفل الصغير الارتباك والتشويش «فضلا عما يتجدد في نفسه من الكره لاخلاق وعوائد أمته وبني جنسه ... غير فقدان ما تعلمه من لغة قومه وأهله وكثيرا ما يقف محتاجا لترجمان بين أمة ومربيته الجديدة». ويضيف لهذا محاباة أحد الأبناء علي الآخر، وأثر هذا علي خلق شعور الكراهية بين الأخوة، وأيضا استبداد الآباء والأمهات في التعامل مع أبنائهم. وينتقد بشدة تعليم الأغنياء لأبنائهم في بيوتهم ضارباً أمثلة عديدة علي إهتراء هذا التعليم، كما أنه يعيب في نفس الوقت علي المدارس الأجنبية التي لها «مشارب وأغراض لا توافق من كان مثلنا يرجو النفع الحقيقي ويؤمل الغاية الصحيحة من التعليم والا فكل مدرسة من هذه المدارس عاملة علي نشر لغة قومها. قائمة علي بث مبادئ أصحابها..» ويشير إلي سلوك أبناء الأغنياء المنحط في المدارس تجاه زملائهم ومدرسيهم، وانتشار مطالعة الروايات والقصص السافلة بينهم،

وهو لا ينسي الحديث عن تربية وتعليم بنات الأغنياء كما أسلفنا في موضوع رأيه في وضعية المرأة واستنكاره عدم الاهتمام بهذا الجانب الحيوي في تعليمها، كما أنه انتقد بشده إقتصار تعليم البنت من تلك الطبقة في مدارس الأجانب علي البيانو واللغات الأجنبيه، فقط دون العربية وبقية العلوم. وهو يستنكف عدم إهتمامهم باللغة العربية كلاما وتعبيرا وكتابة، واستخدامهم كلمات ليست عربية في أحاديثهم مثل: رندڤو - مرسي - بردون .. الخ، ثم يحمل أيضا علي اللغة الدارجة وانتشار الكتابة بها، حيث يحصي من تقرير البوستة سنة ١٩٠٠ وصول عدد الجرائد التي تكتب باللغة الدارجة إلي ١٧ جريدة (سبعة عشرة)، مما يفسد «عليهم لغتهم وكادت تذهبها من بينهم قطعيا». وفي مجال المدارس والتعليم وجد أن الأقباط من المصريين كانوا أسبق من المسلمين في إنشاء المدارس الأهلية، وقد انصرف المسلمون عن هذا العمل لاصرارهم علي مطالبة الحكومة بالقيام به. وهو يقوم بعمل مقارنات تبين تقصير المسلمين من المصريين في تعليم أبنائهم وبناتهم، وإنشاء المدارس، وهو يري أن من شأن هذا التقصير إعاقة الأمة بأكملها، ذلك أن «نهضتهم (الأقباط) وتأخرنا عائق مهم لتقدم مجموع الأمة» حيث أن حسب آخر تعداد في عصره يقدر عدد المسلمين ٩٢٪ من عدد السكان، بينما يبلغ الأقباط ٦٪، وهو يتسائل «كيف تعتز الأمة المصرية والشطر الأكبر منها يجاهل واجبات الحياة والارتقاء». ويري أن علة إنحطاط التعليم عند المسلمين «ناتجة من فكر متسلط علي الأغلبية منا وهو قولنا عن مدارس الأجانب أنها تميل قلوب التلامذة نحوهم ونحو دينهم» وبذلك حرم أبناء المسلمين من العلم، وهو يعزو هذا إلي استحكام الجهل «وما سبب ذلك إلا انقسامات الدين فان

المسيحي يظن أن بواسطة ادخال ابنه لمدارس المسلمين يسلم والمسلم يظن أن بواسطة ادخال ابنة المسلم لمدارس المسيحين يستنصر. وفي ذلك ما يدل علي استحكام الجهل في عقول الآباء».

ويشكو محمد عمر من عدم وجود مدارس تجهيزية وهي «الواسطة بين العلوم الابتدائية والعالية» أي ما نسميه الآن بالمرحلة الثانوية، وهي العاملة علي تربية «الشبيبة علي تنمية عقول أفرادها وتثقيفهم ليعملوا علي ارتقاء أمتهم وحفظها بعوامل المعرفة والعلم. وحتي تكون حلقة العلوم متواصلة مترابطة». وهو يدعو دائما الأغنياء من مسلمي ومسيحي الأمة إلي القيام بأعباء هذا العمل، والواضح أنه لا يطالب الحكومة - في الغالب - بهذه الأعمال كما أسلفنا من قبل، بينما يعيب علي الأمة قلة المدارس العالية التي أنشأتها حكومة محمد علي الكبير ولم تتطور ولم ينشأ غيرها حتي عصره سنة ١٩٠٢، بالإضافة إلي غياب مدارس الصناعة والتي حصر منها إثنتين تابعة للحكومة، ومدارس الزراعة والتي لم يحصر منها إلا واحدة فقط تابعة أيضا للحكومة علي أهمية هذه المدارس للقطر المصري المعتمد علي الزراعة في عصره.

ويري عمر أن الفقر يقف حائلا دون تربية وتعليم أبناء الفقراء علي الرغم من اتسام البعض منهم بالنباهة، ويستقي من التاريخ أن بعض ابناء الفقراء ممن منحوا الفرصة قديما في التعليم قد خدموا الوطن خدمات جليلة، وأنهم في الغالب متقدمون علي أبناء الأغنياء لعدم تعودهم عيشة الرفاهية. ومع ذلك فهو لا يجد إلا القليل من المدارس المجانية، ولذلك ليس أمام الفقراء إلا الكُتّاب للتعلم «وهو عبارة عن قاعة أرضية حقيرة لا

تصلح إلا لإيواء البقر أو الحيوانات الأخري»، ويعدد أحوالهم داخل هذا المكان، وطريقة تعليمهم ومحتوي هذا التعليم الذي يقتصر علي حفظ جزءا من السور الصغيرة من القرآن في الصباح وأوراد وأدعية بقية النهار، ويأتي علي عدم العناية والاهتمام، بل والاهمال والقسوة داخل هذه الأماكن الي يراها «مفسدة للأولاد في صغرهم مفسدة لتربيتهم وصحتهم. لأن في الكتاتيب لا يتغذون جسما ولا روحا»، وهو يورد في هذا الصدد احصاءات كثيرة، خاصة بالإنجازات التي قامت بها وزارة المعارف لإدارة ودعم بعض هذه الكتاتيب، وزيارة الأطباء لها، ويجد أن هذه بداية تبشر بنجاح ومستقبل أفضل لهذه الكتاتيب. ومن أجل التربية القويمة يقوم بمهاجمة الشائع في عصره من الكتب السفيهة المنتشرة بين فقراء الأمة، ويعطي أمثلة كثيرة علي عناوين هذه الكتب، وهي قريبة الصلة لحد كبير بما يطالعنا اليوم من عناوين علي أرصفة الشوارع، وهو يحكم عليها بإفساد «الأخلاق والآداب والدين، واغراء الناسك علي التهتك في الفسق، وتخدير العقول بمخدرات الجهل فوق ما هي عليه»، وهو يري أن علي الحكومة معاقبة هؤلاء، «وليس أقدر من الحكومة علي استئصال ذلك كما ليس أحد مسئولاً اكثر منها عما يحفظ أدب الأمة ومجدها وفخارها وفي القانون ما يساعدها علي العقوبات»، وذلك لما يؤثر علي أرواح هؤلاء من حذر «فضلا عن تأثير الاعتقادات «بالعفريت والخيال والقرين»».

مفهومه عن الوطن والوطنية: –

الوطنية في نظر محمد عمر، ليست وجاهة للتباهي، ولكنها كانت سببا في تقدم الغرب، ومن هنا فهو يضع ثالوثا من شأنه أن يدفع بحب

الوطن، ومن ثم بمجاراة الغربيين ومسابقتهم في الصنائع والمخترعات هذا الثالوث يكمن في: الوطن واللغة والتقدم، ولذا علينا زرع هذا الثالوث في نفوس صغارنا «فاذا كنا لا نزرع في قلوب أبنائنا في صغرهم محبة الوطن واللغة ولا نرضعهم لبان الشهامة وحب التقدم فمن أين لنا أن نسابق الفرنجة في أعمالهم أو نضارعهم في صنائعهم أو نجاريهم في مخترعاتهم» ويعرِّف محمد عمر الوطن كما يعرِّف الوطنية بشكل متفتح لحد كبير يفوق ما يطرحه البعض اليوم، إذ لا يقرن الوطنية بالدين، بل ويفتح الباب علي مصراعيه لمن يريد الانتساب إلي الأمة فلا يحرم من كونه وطنيا، وهي دعوة متقدمة في حينها تبعد عن العنصرية إذ «الوطن تعريفا هو الجهة التي ينتسب الإنسان إليها بصفته فردا من أفرادها خاضعا لأحكامها ونظاماتها سواء كان ذلك بحق الولادة أو الاقامة أو الانتساب للأمة. أما الوطنية فهي الشعور الذاتي برابطة الانتساب التي تجمع بين الانسان ووطنه ومن يشترك معه في هذه النسبة أي بوحدة مصلحة الطرفين ولضرورة السعي في رفعته وتقويته والزود عنه». ويري عمر أن ما هو جوهري في «الوطنية» هو الشعور بوحدة المصلحة بحكم الضرورة الطبيعية، وهو يضرب أمثلة علي ذلك بخلايا العضو الواحد والانسان مرورا بالعائلة والأمة والبلاد وصولا إلي العالم. وهو يفرق في هذا بين الأمم الراقية التي تظل الوطنية فيها قائمة علي فهم حقيقة وحدة المصلحة الممتدة، بينما تنفك عري هذه الوطنية بمجرد تحقيق الهدف الآني من الاجتماع. وهو لا ينكر حاجات الأفراد الفطرية وأنانيتهم وتزاحمهم وربما اقتتالهم إلا أنه يري أن هذا لا يمنع وطنية كل عضو لاستناد هذا علي الحاجة الفطرية. وهو يؤمن في هذا كمعاصريه من المثقفين بسيادة نظرية

النشوء والارتقاء حيث يري أن هذا التزاحم لا يقع بين أفراد الوطن الواحد فقط، بل أيضا بين الأمم المختلفة، ويقدر صلابة تلك الوحدة القائمة علي المصلحة بقدر ما يستطيع الوطن المحافظة علي استقلاله وتقدمه. وهو يري في وطنه وفي الشرق في عصره مثلاً للانحطاط ولغياب معني الوطنية. خاصة عندما يربط أفراده بين الوطنية وبين جامعة الدين، وعلي الرغم من إقراره بعدم تنافر الدين والوطنية، إلا أنه يري ضرورة الفصل بين علاقات الانسان الأدبية الخاصة بدينه وأخلاقه وضميره وبين علاقاته الاجتماعية الوثيقة الصلة بالقوانين النظامية السياسية دون غيرها. ومن هنا لا يري عمر تنافرا بين المسلم والقبطي داخل إطار الوطنية، بل نراه يثني علي ما قامت به الجمعيات القبطية في نشر التعليم بين أبناء طائفتهم غير مستثنين في ذلك البنات، ويطالب المسلمين بأن يحذوا حذوهم، آملا في تقدم مجموع الأمة، إذ يري أن «نهضتهم وتأخرنا عائق مهم لتقدم مجموع الأمة.. فكيف تعتز الأمة المصرية والشطر الأكبر منها جاهل واجبات الحياة والارتقاء». وهو ينعي علي مواطنيه إنقسام لا يخدم إلا الأجانب، وضياع شعورهم الوطني، «ترانا الآن منقسمين إلي قسمين رئيسيين قسم المسلمين وهو «حزب العرب وحزب الاتراك» «وقسم النصاري وهو الأقباط الأرثوذكس والكاثوليك والسوريين والأرمن وغيرهم»، وكل قسم أن لم يكن مهتما بإذلال غيره فهو علي الأقل يتكالب علي مصلحته الخاصة بدون أدني اعتبار للمصلحة العامة. وهم جميعا يشتغلون ضد مصلحة أنفسهم لخدمة الأجانب الذين لا غاية لهم إلا استغلالهم وإذلال البلاد وإماتة العواطف الوطنية، ويضع محمد عمر يده علي حقيقة هامة وهي أن البلاد لا يمكن أن تنهض من خضوعها، وانحطاطها في عصره، وتحصل

علي إستقلالها ، في ظل إنقسام عنصري الأمة ، وبالتالي ضياع الوطنية ، وبما أن مسألة أن تنفرد مصر بعنصر دون آخر مسألة غير متصورة إذن «لابد من إجتماع العنصرين في معيشة واحدة تحت سماء واحدة وأحكام واحدة مدي الدهر» وما دامت حياتهم بجميع وجوهها أصبحت أكثر من كل زمن تتوقف علي القوة والتضامن «هذه لا توجد إلا بالاتحاد وهذا لا يكون إلا بتربية النفوس علي أن الدين لا ينافي العلاقات الوطنية». ويضع عمر أملا كبيرا في تطور التعليم لوصول الأمة إلي التربية الصحيحة وذلك بفتح مدارس للبنات في جميع أنحاء البلاد ، والإكثار من مدارس الأولاد الموجودة في عصره ، والدعوة لإنشاء جامعة في العاصمة.

قضية النهضة في فكر محمد عمر: –

يمكننا إضافة جهود محمد عمر النهضوية في كتابه هذا ، إلي الحركة الاصلاحية التي بدأت في مصر في منتصف القرن التاسع عشر ، وربما تكون إشكاليته هي نفس الإشكالية التي شغلت جهود الإصلاحيين في عصره ، مثل جمال الدين الأفغاني الذي كانت تشغله قضية تقدم الشرق الإسلامي بالأخذ عن الغرب المعارف والعلوم والنظم مع الحفاظ علي خصائص هذا الشرق الدينية والتراثية؟ ربما صيغت نفس الإشكالية لدي محمد عمر صياغة أخري مقصورة علي النزوع الوطني الذي بدأ في الانتشار. فبدأت الاشكالية تأخذ بعدها الوطني المصري متخلية عن فكرة الجامعة الاسلامية ، إذ أصبح السؤال كيف تتقدم مصر وتصبح دولة مستقلة ذات سيادة بأخذ العلوم والمعارف والنظم الغربية ، وفي نفس الوقت تحافظ علي دينها وشريعتها الإسلامية ، وهويتها القومية؟ ذلك السؤال

الكبير الذي شغل عمر أثناء تأليفه لهذا الكتاب، وكأن قضية تحقيق النهضة هي هدف الكتاب الأسمي الذي يسعي إليه المؤلف.

فأخذ يجمع المعلومات والبيانات والإحصاءات عن القطر المصري شماله وجنوبه، وهو ما لم يكن ممكناً بل ومستحيلا لحد كبير إذا كان البحث شاملاً للعالم الإسلامي بأكمله. أيضا سهل من قدرته علي التقدم ببحثه معالجاته لمعوقات النهضة بمصر علي أساس تقسيمه المصريين إلي ثلاث طبقات بحيث لم يمكنه مناقشة أي موضوع، إلا من داخل تلك الطبقات الثلاث، وتصورات كل طبقة علي حدة .

وكما رأينا فهو يري في التربية المعتدة بالوطن واللغة والتقدم اللبنة الأولي لتلك النهضة المرجوة، لذا لا يمكن أن تتحقق النهضة المصرية بشكل جزئي إذ ينبغي أن ينتشر العلم بين الطبقات الثلاث، وفي نفس الوقت ينتشر بين عنصري الأمة من مسلمين وأقباط، أن هذه النهضة لن تتحقق أيضا دون تقدم المرأة، التي يقع عليها العبء الأكبر في تقدم المجتمعات، ويؤمن محمد عمر بالاقتصاد الحر، فهو ليبرالي في خطه السياسي، يؤمن بالفردية لحد كبير حيث يري «أن المصلحة الشخصية هي المحرك لجميع الأعمال في هذه الحياة ويستحيل أن يهتم شخص في الوجود لأمر ما لم يكن مسوقا إليه بحب المصلحة الذاتية»، وانعكس هذا علي فهمه للنظام الاقتصادي المؤدي للنهضة التي ينشدها. فإذا كان هناك من يدعو للإشتراكية، ويقصرها علي قيام الدولة بالتحكم في الاقتصاد مثل شبلي شميل، فإن عمر ينكر علي الحكومة هذا، ويطالبها بترك أمور الزراعة والتجارة والصناعة لأفراد الأمة، حيث أن الحكومة السابقة علي سنة

١٩٠٢ «كانت تأخذ علي عاتقها انشاء المعامل وادارتها ومد الخطوط الحديدية وتسيير السفن التجارية وانشاء المطابع وغير ذلك من الأعمال والمشروعات التي لا تقوم عادة بها الحكومات المتمدنة»، حيث يري عمر أن هذا كان سببا «في اقعاد الأمة عن السعي في ترقية شئون الصناعة بنفسها لانماء ثروتها»، ولهذا فقد طالب الأغنياء من مسلمي وأقباط الأمة المصرية بالقيام ببعض الأعباء بدلا من الحكومة، كما حدد ما يجب علي الحكومة أن تنجزه .

هذه الليبرالية دعته إلي أن يطالب الأغنياء من الأمة بدخول المجالات التي كان يسيطر عليها الأجانب في مصر مثل الصناعة التي «تتوقف عليها حياة كل أمة وهي السبب في تعليم الشعوب حب الاستقلال بالأفكار والأعمال. وحب الاعتماد علي النفس» وهو يطالب أبناء الفلاحين ممن تعلموا العودة لمساعدة والديهم في أعمال الزراعة «إذ الزراعة إنما ترتقي بالعقل واليد وفي اجتماع العلم والعمل يكون التقدم الحقيقي»، ويزجرهم لسعيهم وراء الوظائف الحكومية التي تؤدي بهم للكسل وللخمول، بل يدعو الموظفين السابقين ممن أستغنت الدولة عن خدماتهم بتأجير الأراضي الزراعية وممارسة حياة الفلاحة لعلهم يرفعون من مستوي الفلاح الجاهل في عيشته وحرفته، وهم بالتالي يستطيعون فهم آليات الاقتصاد الزراعي في بيع المحاصيل، ورفع غلة الزراعة واستخدام الأساليب والآلات الحديث، بل والتصدي للسماسرة والمرابين ممن يوقعون الفلاح الجاهل في شباكهم. وهو يعيب علي التجار في عصره عدم فهمهم لأصول التجارة الصحيحة، وتفوق الأجانب عليهم، وعدم إهتمامهم بالسوق

وخمولهم وتقاعسهم، هذه الدعوة للتفوق علي الأجانب لم تكن لديه أبدا وليدة حنق أو كراهية، بل كانت بدافع البحث عن نهضة الوطن. فلم يكن لدي محمد عمر عقدا من النقص من تلك التي ألمت ببعض معاصرية أو حتي معاصرينا اليوم فحينما يكون هناك مكانا للإشادة بالمواطن الانجليزي في موضوع والإهابة بمواطنيه أو زجرهم في موضع آخر كان لا يتواني في هذا دون أية عقد نقص أو افتعال، فلقد أشاد بالبعثات الطبية الانجليزية للسودان بل وصل الأمر به في مناسبة توديع البعثة أن قال كما رأينا من قبل: «أثّر هذا المنظر في نفسي فدعوت لهم أيضا شكرا علي همتهم».

أن محمد عمر ينظر إلي الغرب باعتباره النموذج الذي ينبغي علينا احتذائه حتي نصل للنهضة المأمولة، لذا نجده يصف أدواء أهل عصره وعينه علي الغرب كمعيار يقيس به مقدار ما حققناه، وما أخفقنا في تحقيقه. إلا أنه لا ينظر إلي هذا النموذج نظرة المنبهر أو الذي لا يعي حقيقة واقعة، فقد فهم محمد عمر أن واقعة المعاصر يعاني من الانحطاط العقلي والعلمي لنقص الكتب والأبحاث العلمية والفلسفية والأدبية والتجارية، وانتشار كتب الأراجيف والخرافات، وهو يرثي لسوء إختيار الروايات الغربية والتي لا تنطبق علي واقع بلاده لترجمتها ذلك أن «الغاية الأدبية من الروايات بوجه العموم تمثيل عوائد البلاد ونقائص أحكامها ونظاماتها واستبداد حكامها استنهاضا لهمة الأمة ولتقويم المعوج، ومن هنا فليس كل ما يكتب في الغرب صالح لبلادنا لاختلاف الظروف، كما يري أن البلاد تكاد تخلو من كتب الآداب والفلسفة «والعلة الحقيقية في ذلك ما هو سائد في أذهان العوام من أن كل بحث عقلي يناقض الاعتقاد

الديني». وهو يعيب علي البلاد «إذا انقضي القرن التاسع عشر ودخل القرن العشرون وأكبر مدرسة عربية «الجامع الأزهر وما يماثله» ليس فيه شيء من المباحث الفلسفية العصرية». وهو يجمل أسباب إنقراض المؤلفات العلمية في عدم إستعمال اللغة العربية في تدريس العلوم، وعدم اهتمام الناس بالعلوم لاعتقادهم عدم فائدتها وأخيرا في غياب أهل العلم الصحيح ممن يعملون بدأب علي الرغم من المعوقات المختلفة.

ومحمد عمر الذي ينظر إلي الغرب باعتباره النموذج ويود نقل المناسب لنا منه ينظر إلى الغرب نظرة إنتقائية إذ نجده يستنكر ما يأخذه البعض عن الغرب من عوائد قبيحة وغير مستحسنة خاصة فيما يتصل بما أسماه «عادات المسافر في أعياد المرافع للأفرنج»، وهو يعيب علي شباب الأغنياء هذا التقليد الأعمي إذ «يا ليتهم جاروهم في أعمالهم النافعة بدلا من هذه الأمور التافهة»، وهو يعيب عليهم أيضا استخدام مفردات اللغات الأجنبية عندما يتحدثون لغتهم الوطنية، بالاضافة إلي إطلاقهم الأسماء الغربية علي أبنائهم وبناتهم، وتمسكهم بالتقاليع التي لا قيمة لها وهويري أخيرا في هذا التقليد الأعمي «من أن المغلوب يتبع الغالب في زيه ولباسه وعوائده وأخلاقه لاعتقاده في نفس الغالب تمام الكمال الذي لولاه لما غلبه واستولي عليه»، وكأن هذا التشبه الأعمي وسيلة لإعادة التوازن النفسي في ظل التراجع والانحطاط وهو ما يقترب اليوم مما يسمى فى المباحث النفسية «التوحد بالمعتدى».

ولا يري محمد عمر أن الاعتماد علي ساسة أوربا سيجلب الاستقلال أي كانت الدولة «وكل منا متعلق بدولة ولو كان هذا التعلق

أشبه بالمتعلق بأذيال الهواء أو المستجير بالرمضاء بالنار» كما يأخذ علي أصحاب الجرائد الكذب والشتم والتشيع لدولة ضد أخري، ومع هذا فهو ينكر علي من تشيعوا لفرنسا ضد انجلترا تشيعهم هذا، فهو لا يريد التصدى لانجلترا، ولكن مسالمتها، وكسب المودة من قلوب المحتلين للمصريين حتي يستطيع أبناء جلدته الأعتماد علي ذواتهم عملا وعلما، وبالتالي يصبحوا قادرين علي نيل إستقلالهم عن جدارة، ومحمد عمر حريص علي سمعة أمته في الخارج أمام الأمم الأخري، وهو في أحيان كثيرة يكشف عن بغضه للعثمانيين.

ومن هنا فتأسيس النهضة المصرية لديه تعتمد علي بث العلم والمعارف والأهتمام بالتربية، والترجمات المفيدة لواقعة وعدم الأعتماد علي الخارج من أجل الاستقلال، وفي نفس الوقت مسالمة المحتل وكسب وده، والإهتمام بأمور الصناعة والتجارة والزراعة بالأساليب الحديثة، وبداية من هنا ستتحقق النهضة.

بعض المصادر والمراجع المستخدمة فى هذا البحث

– أحمد فتحى زغلول باشا	الآثار الفتحية – خواطر فى العلم والأدب والاجتماع، عنى بجمع شواردها عبدالعال أحمد حمدان ، إلتزام مصطفى محمد الكتبى نجات الخليل بمصر ، بدون تاريخ : [مسجل بمكتبة الجامعة المصرية تحت رقم ١٧٨٧٨] .

– أحمد لطفى السيد	قصة حياتى ، المواجهة – التنوير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع ، ط٢، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ .

_ د.أحمد زكريا الشلق	رؤية فى تحديث الفكر المصرى – أحمد فتحى زغلول وقفية التغريب ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، مصر النهضة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .

– د.حسين فوزى النجار	أحمد لطفى السيد ، الاعلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ ، ١٩٧٥ .

– د.محمد فريد حجاب	الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ .

كتاب

حاضر المصريين
أو
سر تأخرهم

تأليف

محمد عمر

من مستخدمي مصلحة البوستة المصرية

THE PRESENT STATE of THE EGYPTIANS

OR

THE CAUSE OF THEIR RETROGRESSION

BY

MOHAMMED OMAR

Egyptian Post Office.

طبع في مطبعة المقتطف بمصر

سنة ١٣٢٠ هجرية و ١٩٠٢ ميلادية

مولاى

أتشرّف باهداء كتابى هذا لرب المآثر الجميلة وعنوان الشرف والكمال والفضيلة الوزير الأعظم عطوفتلو أفندم

مصطفى فهمى باشا الأفخم

رئيس الوزارة المصريّة الجليلة الساهر لايقاظ ما اندرس من شريف عاداتنا الجدد لما خلق من ثياب آدابنا ومعارفنا فلا زال للوطن نصيراً ولرا شانه ظهيراً وللامة باسرها كعبة آمالها ونقطة امتداد حياتها المادية والأدبية آمين

المحسوب

محمد عمر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة على رسوله

وبعد فان انفع العلوم علم يهدى الباحث فيه إلى حال امته الذى هو فردٌ منها من صعود وانحطاط ورشد وغواية وتفرّق وائتلاف وخلل ونظام فاذا رآها في مصاف ذوى الصفات الصالحات جدَّ معها في شوطها وافتخر بأنهُ كان واحداً من تلك الامة الراقية والقوم الصالحين وإذا رآها في الدرك الأسفل من سوء الأعمال وقلة المال وتخاذل الرجال اهرع إلي الاصلاح يلتمسهُ لها من بابه واجتهد في تبيين النافع من الضار ضارباً الأمثال بأحوال مجاوريها من الأمم وما كانوا فيه وأسبابهُ وما صاروا إليه وأبوابهُ مفصلاً علل التأخر موضحاً وسائل التقدم مشجعاً علي الانتقال من حال إلي حال معيراً بالبقاء علي ما ظهر ضررهُ مشخصاً للداء معيناً للدواء مذكراً بالآباء الأولين والأجداد السالفين فما هو الا أن يجتمع إليه كثير يعملون بفكرته ويقومون بنصرته فلا يلبثون حتى يعم هذا الفكر الصالح وينتشر النور وهذا هو الاجتماع والعمران.

ولقد مضت السنون الطوال وتتابعت القرون والأجيال والناس عندنا لاهون بالخيال مجدون في الخبال عن هذا العلم النافع غافلون وبغيره مما لا يفيد فائدة مشتغلون وبقى ذلك كذلك إلي أن ظهر تحت سماء مصر كتاب الأستاذ الكبير العالم الاجتماعى الشهير ديمولان الذي ابان فيه كل أحوال الفرنسيس في هيئاتهم الاجتماعية كلها وبيّن ما فى كل واحدة منها من

النقص وقابل ما عندهم بما عند جارتهم الأمة الانكليزية من كمال تلك الهيئات ومتانة أصولها مبيّناً أسباب ما لديهم من ذلك الكمال ولذلك وسَمهُ باسم (سرّ تقدم الانكليز السكسونيين)

ولما اعثرتني الصدفة بهذا الكتاب ترجمتُه إلي اللغة العربية ليعم النفع به فانهُ أن بقي علي اعجميته كان بالنسبة إلي بلادنا كأنهُ لم يكن .

ما وُجد هذا الكتاب مترجماً فى أيدى الناس وقرأهُ العامة والخاصة منهم حتى ترتبت عليه الفائدة التي قصدتها والتفت حضرة الفاضل محمد أفندى عمر إلي ما عليه امتنا المصريّة من التأخر والانحطاط فقام ينظر في الأسباب وطرق لذلك جميع الأبواب حتي استجمع كثيراً من أحوال الأغنياء والمتوسطين والفقراء وجمع الجميع في كتاب سماهُ (حاضر المصريين أو سرّ تأخرهم).

تصفحت هذا المؤلف الجديد فاذا هو قد ألمّ بالمطلوب وفي البحث حقهُ فتكلم عن اخلاق الطبقات الثلاث التي تتألف منها امتنا المصريّة وعن عاداتها وحالها في كل مجتمعاتها بما ابان العلة وشخص الداء وارجع جميع الادواء إلى أصول الأخلاق وبرهن علي أن العمل انما هو الموصل إلي السعادة.

الحق احق بالاتباع والضرر انما هو في تمويه الحقيقة بما يسمونهُ تستراً والنصح ان اكان مراً ربما حلت عاقبتهُ وحمدت غايتهُ علي أنهُ ان كانت النصيحة بالتى هي أحسن فلا يضيع فيها الصدق بالأخبار عن الواقعيات وقد يكون الواقع أشد ما يكون سماعهُ علي النفوس فلابد اذن من أن يتحرى الناصح الحق ويبين العيب ويدعو إلي التنصل منهُ والتنحى عنهُ ولابد من أن البذرة تنبت متى و... في أرض صالحة واستكملت الشروط

وكل النفوس صالحه لتلقي النصيحة ولا ينقضها ألا أن يكون زارعها مستجمعاً لشروط القبول ومتى صلحت النية فكل عمل صدر عن صاحبها فهوا وان كان صعباً يكون مقبولاً.

كان يسرني كثيراً ان انتقد علي هذا الكتاب في موضوعه فاقول أن هذا العيب الذي ذكرهُ مؤلفهُ في الصنف الفلانى غير موجود ونسبتهُ اليه غير صحيحة غير أني آسفُ اسفاً شديداً لما رأيتهُ من أن صاحب الكتاب لم يذكر عيباً في طبقة ولم يندّد بعادة ولم يعير بخصلة ولم يتعرّض إلي خلة الأ وجدتهُ بعد التدقيق مصيباً فيما قال صادقاً فيما نسب بل رأيتهُ مستعملاً الرقة في التبيان والتلطف في المقال.

الحقيقة التي لا ريبة فيها أن مجموع الأغنياء منا منصرفون عن هذا العالم بأسره غير عالمين بأنهم في هذه الدنيا فما عليهم منها إذا عمرت أو عمها الخراب ولذلك نرى كل واحد منهم وحدهُ يهيم في للذاته غير مبالٍ بضياع المال الذي جاءهُ عفواً بطريق الصدفة لأنهُ ابن فلان وارتفعت فيما بينهم صفات التعارف وضاعت من أيديهم ثقة كل واحد باخيه فكانوا بذلك هملاً تضيع ثروتهم ولا يعلمون ويؤخذون علي غرةٍ وهم غافلون وهم أولى بان لا يعدّوا من الأمة فضلاً عن أنهم هم العالون.

سرت هذه الحال من الأغنياء إلي المتوسطين لانهم أقرب إليهم وربما خالطوهم أو سمعوا من أخبارهم والوهم فتمالوا لتشبهوا بهم علي غير رؤية وقلدوهم بحكم تسلط طبع القوى علي الضعيف فمالوا ميلهم وطبعت نفوسهم علي محبة الظهور الباطل وتنافسوا في الشهوات وتفانوا في اللذائذ وقالوا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا ولم يقولوا فاضلونا السبيل فكانوا بذلك خاسرين ضائعين.

الفقراء وهم السواد الأعظم مسيرون لا مخيرون وليس في أيديهم ما يصرفونه هباءً في لذة ورأس مالهم الذي هو قوتهم وعافيتهم وصبرهم علي تحمل المشاق مدَّخر عندهم في خزانة الكسل وليس لهذا مفتاح الأنصح الناصح مسموع الكلمة وهو لا يكون الاَّ من طبقة أعلى بحكم العادة القديمة وهذا كما تقدم لا يهمهُ صلاح ولا يعنيه فلاح في نفسه فما الظن به في غيره ان نام الفقراءُ وضاعت رؤوس اموالهم التي اكتسبوها بالطبيعة وكانت تنفعهم كثيراً لو صرفوها في تحصيل الرزق الواسع وما هم بفاعلين.

لو التفت الأغنياءُ والمتوسطون، إلي أن ذنب أولئك الضعفاء الفقراء في رقابهم وأقبلوا علي العمل النافع لانتقل أولئك المستضعفون من حالهم إلي ما هى خير منها ولعاشوا في نوع من السعة والنعيم اذكر أن بعض الأغنياء وغيرهم من كبار المتوسطين اقلعوا من زمان غير بعيد عن استمرار ليالى المآتم إلي الأربعين كما كان الحال من قبل فلم يعمل بالأمر الجديد سوى اثنين أو ثلاثة حتي علق به اصاغر المتوسطين واخذهُ قاعدة جديدة عميقة وسمعنا في كثير من الاندية والمحافل شديد التنديد بالعادة القديمة والتنويه بالجديدة وانتقل الناس بعد ذلك من تقصير ليالى المآتم إلي سير سرير الجنازة وأخذت العادة الشنعاءُ تتلطف ولا شك أنهُ إذا بقي الكبراءُ علي ذلك تبعهم الفقراء وحل الجديد النافع محل القديم المضرّ في هذا الأمر وان كان ليس بالعظيم.

واذكر كذلك أن بعض الأمراء أقبل اليوم علي تحسين حالة الزراعة فالتفت الاصاغر من مجاوريه إلي مذهبه ولا ارتاب في أن الحالة المعاشيةً يمكن أن تصير إلي حسن ثم إلي أحسن إن لم يصرف أولئك الأصاغر ما يحصلونهُ فيما لا قبل لهم به تقليداً للامراء وكذلك لارتاب في انهُ لو كثر أمثال أولئك الامراء لانتشر عملهم الصالح بين تلك الطبقات فانني لا أري

هذا الإقبال من الضعفاء إلا في المجاورين لقرى أولئك الامراء ولا أشك في أنهم لو صلح حال جميعهم في صرف ما يشتغلونه لصلح حال مجاوريهم كذلك في هذا الباب وبذلك يتبين صدق ما قلناهُ من أن علة خسارة الضعفاء هم أكابر الأغنياء والمتوسطين وكذلك هم سبب التقدم والنجاح.

وبما تقدم كلهُ يستبين أنني حكمت في أمر هذا الكتاب بانهُ كتاب نافع فيما ألف فيه وانهُ قد استوفى كل ما يقال فلم يبق إلا أن احث الناس على الانتفاع به وان اعلمهم بأن ما فيه هو فينا واننا يجب علينا أن نسارع إلى الخروج عمّا وصمنا به بحق وان مؤلفهُ لا يبتغي منا سوى الصلاح وكنا احق بأن نطلبهُ لأنفسنا ولو بدون منبه فمن نبهنا إليه فقد وجب علينا لهُ الامتنان

أحمد
فتحي زغلول

غرض المؤلف

وضعت كتابى هذا علي مثال كتاب (سرّ تقدم الانكليز السكسونيين) المعرب بقلم سعادة العالم القانوني الفاضل أحمد فتحى زغلول بك رئيس محكمة مصر الابتدائية الأهلية. ولكنهُ مع الأسف يشرح سرّ تأخر المصريين لا تقدمهم. وغاية ما أودُّ ممن يطالع هذا الكتاب إنْ لا ينظر إليه بعين الاستغراب لما حواهُ من كشف المخبآت ورفع الستار عن المعايب التي في جسم الأمة وتؤدى بها إلي الهلاك بل أرجوهُ أن يكون علي ثقة باني ما كشفت ذاك الستار إلاّ حبًا بأمتي وشفقةً عليها لا شماتة. علّنا إذا عُرف الداء سارعنا إلي أخذ الدواء قبل استفحال الخطب فنندم حين لا ينفع الندم.

إذا أنت لم تخبر طبيبك بالذي يسوءُك أبعدتَ الدواءَ عن السقم

اردت بجمع هذه الادواء التي تضرُّ بصحة امتى ان احث البقية الصالحة من الأمة فتهب من غفلتها وتلم شعثها وترأب صدعها وتسد خللها وتبحث عن دواءٍ نافع وبلسم شافٍ تداوى تلك الادواءَ التي اثقلتنا ونحن عنه غافلون، هذا ما قصد، وانما الأعمال بالنيات ولكل امرءٍ ما نوى.

عمر

القسم الأول

فى الأغنياء

★ ★ ★ ★ ★

الأغنياء والعصبية

ما فازت طائفة. ولا ساد قوم ولا عزت أمة ولا علا شأن جماعة الاً بالعصبية. هي التى تربط الافراد وتجمع الاشتات وتحيى النفوس فيشتد ازر الواحد باخيه ويقوى الكل علي تحصيل سعادة الأمة. والسعى في دوام ارتقائها حتي يعز جانبهم ويخافهم القريب ويهابهم البعيد حَتَّي ينصروا بالرعب من أبعد مكان وفى قوله تعالى «كأنهم بنيان مرصوص» اشارة إلي معنى العصبية وهذا الارتباط وما البنيان الذي يهولك منظرهُ ضخامة وشموخاً الألبنة فوق لبنة وآجرة فوق آجرة. ولو أمعنت النظر لوجدت ما تستعظمهُ من الأجسام إنما هو جواهر فردة لا تراها العين لتناهيها في الصغر. وانك لو لقيت عشرة رجال ونازلت واحداً واحداً منهم وكنت تفوق كُلاً منهم في القوة شيئاً قليلاً لافنيتهم عن آخرهم ولكنك لا تستطيع أن تقاوم ثلاثة منهم إذا اجتمعوا عليك حتي ولا اثنين. وعلي هذا جاءَ القول المشهور «وضعيفان يغلبان قوياً». وبهذه العصبية عز المسلمون في القرون الأولى وسادوا ودفعوا بها الغوائل عنهم ما خافوا من حولهم وصحبتهم هاته القوة في كل ناحية.

واصل العصبية انما تكون في أهل الدار الواحدة لاواصر القرابة ولحمة النسب ثم تمتد من أهل الدار إلي الجار وجار الجار وهكذا وقد أوصى النبي صلي الله عليه وسلم بالجار إلى أربعين جاراً وجعل للجار حقوقاً وما الشفعة إلاَّ بعضاً منها.

ثم تمتد العصبية بالتربية إلي كل الجمعية لاتحادهم في تعلم ما

يتعلمونه فينشأون علي مشرب وأحد لتخرجهم علي أصل واحد. ثم تمتد العصبية بالدين إلي الأمة بتمامها ولا تبلغ في الحقيقة عصبية قط ما تبلغهُ العصبية الدينية ولا ترى شيئاً أقوي من رباط تربطهُ القرابة فقد جعل الله المؤمنين وان تناءت أقطارهم وتباعدت ديارهم أخوة بقوه «إنما المؤمنون اخوة» وهذا هو الأصل الذي تنمحى عندهُ كل جنسية أو وطنية أو عصبية مهما كان شأنها. وردهم بذلك إلي أصل العصبية وهو القرابة والنسب. وبهذه العصبية غلب المسلمون وهم شرذمة قليلة علي أكبر الممالك في قرونهم الأولى وغلبهم الأجنبى الآن وهم أربى من حصى البطحاءً لزوال العصبية بفقد التربية واهمال أمر الدين فأصبحوا في ذلٍّ قد علاهم فيه من كان دونهم وأخذ بتقاليد أمورهم وهم مغمورون في الجهل لا يمسحون عن عيونهم غبار هذه الغشاوة ليروا ما هم فيه من العار والذل ولو طال عليهم هذا الحال يخشى أن يصلوا معها إلي ما لا تحمد عقباهُ. والتربية تطهر الأخلاق وتهذب النفوس فتكون إلي الاتحاد أقرب وإلي الارتباط أدنى وناهيك بالدين فانهُ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلي المحبة ويحض علي مكارم الأخلاق فيزيل الحسد ويمحو البغضاء ويمحق الخداع فتتألف القلوب. ترتبط النفوس وحينئذٍ تظهر في أبهى مظاهرها ومن تدبرآى القرآن الحكيم رآهُ يدعو إلي العصبية ورأي من أعظم همّ الشيطان تفريق تلك العصبية وان امضي سلاحه في ذلك هوالمال فهو ينثرهُ بين الناس فيجفو الابن اباهُ والاخ اخاهُ وتختلف اهواءُ من في البيت الواحد ويحسد الجار جارهُ فتشتد العداوة ويشغلهم ما هم فيه فيهملون أمر التربية فينشأ كل واحد منهم علي هوى غير هوى صاحبهُ فتختلف أميالهم ولا تجمعهم جامعة فيجب علي المسلمين أن ينفضوا عنهم غبار الكسل ويتآمروا بأوامر الله حتي يصدق عليهم قوله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم «الآية»

زواج الأغنياء

إذا طرَّ شارب الفتى واخضرَّ عارضهُ والهمهُ الله رشدهُ رأى من نفسه ميلاً يدفعهُ نحو أليف يأتلف به ليعاونهُ علي عيشته وليشاركهُ في سراء الحياة وضرائها. فاذا اقترن بفتاة علي حسب سنة الله في خلقه كان أول ما يتوخاه الراحة والعيش الرغيد. أما أغنياؤنا فهم احد رجلين رجل يعرف كيف يجب أن يكون النظام العائلى فيعيش عيشاً رغداً ويتمتع باطايب الحياة وقليل ما هم. ورجل لا يعرف ذلك النظام فيعيش ولا يهنأ له خاطر فيتوغل في المآثم مثل كثير من أغنيائنا ويستنزف ملذات الحياة في زمن صباهُ ولا يرعوى عن غيه حتى إذا سئمت نفسهُ الملذات وادرك بعض ما كان فيه من الخطأ مال إلي الزواج بفتاة تكون أكثر منهُ ثروة واعرض جاهاً وارفع منزلة حتي يرفع ما تخرّق من جلباب ثروته فاذا وفق إلي وجود تلك الضالة فاز بالاقتران بها علي سنة الله وعلى هذه الخطة يسير أبناء أغنيائنا لكنهم قبل الاقتران يهتمون باعداد لوازم الفرح ولا يكاد هذا ينتهى ألاّ ويطرق أبواب العروسين رؤساءَ الحرف وبيد كلٌ منهم قائمة الحساب. هذا يطالب بثمن الخضر وذلك بقيمة المصابيح وآخر بثمن المسكرات وغيرهُ باجرة المغنين والمغنيات وأكثر ما ينفق في هذين السبيلين هو ما يأخذهُ الأجنبى ثمن الشموع والمشروبات ولا ينتهيان الأ وقد اورثتهما هاتهَ الافراح الدمار والاتراح والشاهد علي ذلك عدة بيوت قد استنزفت ثروتها في هذا الطريق يعلمها القارئُ فلا حاجة بنا إلي ذكرها .

غير أننا نأتى علي ذكر شيءٍ مما يجرى في بعض أفراح الأغنياء. ليعلم القارئُ الحالة المتبعة الآن فيقيس عليهاالمستقبل ويقف علي سر تأخرنا من جهة الأفراح فيشعر به ويتأملهُ. ولا نقصد بذلك إيلام القارئ فحقيقة الحالة ورداءَتها تؤلم وتكدر وليس علنا من ملام ما دامت أفراح أغنيائنا من أسباب تأخرنا أيضاً.

يجرى في أفراح الأغنياء أمور كثيرة غير التبذير الكثير والاسراف المضر كلها نقائص وفضائح ما كان أغنى الأغنياءُ عنها وعن كل ما يقاربها لو علموا الحقيقة والواجب في هذا الشأن ولا نعدد الآن ما بيع من أملاك ورهن من أطيان بسبب أفراح الأغنياء وتبديد الثروة علي هذه الكيفية. بل نذكر النقائص التى كان الأولى بهم البعد عنها.

نعددها ونشهرها فانا ولو تأخرنا عن اشهارها فقد اشهرها الافرنج قبلنا ونشروها ونحن لاهون عاكفون علي المباراة والتنافس والمباهاة فيها وهم قائمون علي البعد عنها ضاحكون منا. ولا ندرى أضحكهم هذا هو سرور لنا أم تأسف علي ما لحق بنا واستهزاءٌ. والاغلب أن يكون ضحكهم استهزاءً لا حناناً ولا شفقة بنا وهذا الأمر ظاهر لهم فهم ينظرون فيما عندنا ليأخذوا منهُ الكمالات ويتركوا لنا النقائص. نرى الوالد والولد الغنيين منايقولان أن اقامة الفرح وتبذير المال من ضروريات الزواج كيف لا وهى عادة اخذناها عن فلان البيك وفلان الباشا. وكيف نبطلها ونحن لسنا بأقل منهم ثروة أو أدنى منهم وجاهة فكيف نقصر نحن عنهم وهم لم يقصروا ونحجم نحن وهم قد اقدموا، وكفى حجة للافرنج علي استهزائهم بنا تهافتهم للذهاب إلي أفراح الأغنياء والتفرج عليها. فانهم مع ما يظهر لهم رب البيت من حسن الوفادة والاكرام (ولو لم يكن لهُ بهم سابقة معرفة) يدخلون وتدخل نساؤهم دار حرمنا وبأيديهم آلات التصوير يظنها الرائى شنطة في الأيدى فلا يسأل عنها فيأخذون ويأخذ نساؤهم بها صور الرجال والنساء ويطبعون منها المئات والألوف وتبقى عندهم صورة تلك الشريفة الأصل العالية الفرع[1] مطمحاً لانظارهم وعرضة لنظر أولادهم ولمن يزورهم وعليها يبنون قواعد التربية والتعليم بينهم ولا يظنن القارئ أنا مبالغون فيما ذكرنا فلدى بياعى الصور أمام فندق شبرد بمصر[2] صور شتى عن حفلات أغنيائنا تباع وتشترى فيها صور نسائهم ومناظر حفلاتهم

(١) والتى قامت لاجلها القيامة علي سعادة قاسم بك أمين بعدم رفع الحجاب.

(٢) لديهم جملة من صور أفراح الباشوات والأمراء.

للسياح والوافدين إلي ديارنا من الغرباء عنا ويا ليت الحال قد اقتصرت علي الأغنياء منا فقط. الأ أنها تتناول الوسط حتى الفقراء فاني اذكر ان جارنا وهي يسقجى قنصلية أحدى الدول بمصر كان محتفلاً بزواج ابنته ولداعى صحبته بترجمان قنصله دعاهُ للفرح فلبى الدعوة وأتى ومعهُ بعض صحبه من السياح ودخلوا حفلة العرس وبيد بعض نسائهم آلات التصوير واخلوا بها صور النساء وما كاد الفرح ينتهي بقليل من الزمن الأ وشاهدت حفلة زفاف البنت معروضة أمام فندق شبرد للمبيع ولمعرفتى بالبنت وامها وبعض اقربائها تحققت أنها هي بالذات.

وقد أصبح بعض الأغنياء الآن من شدة شغفهم في تقليد الافرنج وتعلقهم بأهداب تمدنهم يجعلون الفرح علي نوعين احدهما علي الطرز الأوربى والآخر مجاملة علي الطرز الشرقى أي بعمل بوفيه حاو من أنواع المسكرات المعتقة في الدنان والآخر بمد السماط، وهنا مجال للقارئ يمكنهُ أن يتصور فيه ما يلزم لكل ذلك من النفقات الزائدة والتبذير المضر. كما أني لا أدرى كيف يتسنى للمدعوين الفرح والسرور وهم سكارى وقد كان الواجب عليهم ألا يعدموا الشعور ويضيعوا الاحساس ليتأتي لهم مشاركة صاحب الفرح في فرحه وسروره وانسه وجوره. ولكن التقليد والجهل وكثرة المال المجموع بغير تعب أو الموروث عفواً أوجد كل ذلك فينا من تافه وسقيم.

ولا يحتاج الحال بنا إلي استلفات نظر القارئ إلي بهرجة الرجال في لبسهم وتبرج النساء حتي انهنّ ليزدنَ عن تبرج الجاهلية فيحتاج بنا الأمر لعلم جديد ودين يفهم بعد مضى ثلاثة عشر قرناً وهم في الاسلام.

ولا يخلو الفرح من الترح ومن السرقة والسلب والسب والشتم والضرب وكثيراً ما ينتسب لرب الفرح مشاكل فيتقدم لأجلها إلي المحاكم.

ولا نغفل احضار الراقصات الفاسدات الاخلاق المتهتكات ليرقصنَ بين بنات أبكار وأخوات وأمهات ابرار صالحات. فلولا أن عميت قلوب

الرجال وتأصل الخوف في النساء لدرجة لا يمكنهنَّ المطالبة حتي بالصون كما امر الله لما امكن أن يوجد هذا بينهم وفي ديارهم.

يحضرون الراقصات ويزعمون ان ذلك مجلبة لسرور المدعوات وهم لا يدرون ما في ذلك من ضياع الأدب وفقد الصون والعفة.

وقبل أن نختم القول علي زواج الأغنياء نقول أن من تأمل وعرف ما درج عليه كثير من الشبان بيننا رأي كثيرين من الذين يتزوجون من أولاد أغنيائنا يودعون عشيقاتهم قبل ليلة الزفاف بالبكاء والنواح فضلاً عما يبذلهُ البعض لهنَّ من الهدايا والتحف وكثيراً ما تكون الهدية مشابهة تماماً لهدية الزوجة الشرعية والاَّ فللعاشقات تأثير علي عقول شبان الأغنياء وكثيراً ما يشرن عليهم بطلاق زوجاتهنَّ بعد قليل فتطلق الزوجة الشرعية من غير ذنب جنتهُ سوي قلة تربية الزوج وعدم أهليته للتزوج وفرط الجهل المتغلب عليه والهوى المستولي علي عقله، وكنت أود ذكر ما فعلهُ بعض الشبان تشهيراً لسوء علمهم الاَّ أني اترك كل ذلك لفكرة القارئ وفطنته علهُ يتذكر بعضهم فيعلم سر انفراط الزوجية بين الأغنياء وهم الأغنياءُ بما منحوا من سعة العيش والراحة ولكنهم بالحقيقة فقراءُ العلم والتربية والفهم والله مصرف الأمور كيف يشاءُ

* * * * *

المحبة بين الزوجين الغنيين

محبة الرجل للمرأة هي ثمرة امتزاج عواطف وحاسيات كلٌ منهما عند اشتراكهما علي تكميل ما في كليهما من النقص. والمحبة بين الزوجين الغنيين أمر ضروري يجب وجودهُ لدوام السرور وجلب الراحة والطمأنينة. وهى التي عليها مدار لذة الحياة كما هي الأساس لبناء التقوى وردع النفوس عن الشكوى. والمحبة هي الحياة الحقيقية التي ان فقدت كان من ورائها الموت وربما كان الموت أسهل منالاً علي نفس من يدرك معنى المحبة

وفقدها ، وكم من مرة كانت سبباً للسلوى عند المصيبة والفرح عند الحزن ويمكننا أن نقول أن المحبة هى الروح الحيوية التي تنبعث فى قلب الزوجين كانبعاث الدم من القلب إلي العروق والمفاصل، ذلك تعريفنا عنها وربما اتخذ غيرنا خطة في التعريف خلاف خطتنا ولكن مرجعها إلى هذه النتيجة بلا ريب. وخلاصة القول عنها أنها الكل في الوجود ، فاذا كان هذا حال المحبة كما بيناهُ وذكرناهُ فهلم إليَّ أيها القارئُ نتجسس خلال ديار أغنيائنا علنا نجد بعض الشيء منها أو نقف علي آثار من ناضلوا عنها نضال الرجال فغبطهم التاريخ وكانوا خير سلف عاش بسلام مطمئن.

أرسل أيها القارئ رائد نظرك معى وتأمل أيها الصامت فيما اقصهُ عليك وانظر عن يمينك وشمالك واحكم بما تراهُ بلا امتراء؟

ألست ترى أن المحبة الزوجية مفقودة والشقاق شاملاً بين الزوجين والمساعى مخفقة في ارجاعها والنفور سائداً بينهما لبعدهما عنها بعد المشرقين والدلائل علي ما ذكرنا كثيرة فانك تسمع كل يوم طرفاً من غيهما مع أن الدهر خصهما بنعمه وافاض عليهما بوافر خيره وكرمه.

ولقد وجدا في سلام وولدا في رخاء وسعة من العيش آهل منع ذلك السلام الذى ولدا فيه والرخاءُ الذى نشأ عليه انشغال البال وشقاء الحال؟ مسكن فسيح الجوانب وقصور مشيدة الأركان تكاد تناطح السحاب علواً فهل منع ذلك ضيق العيش فيها وانحطاط ذويها إلى درجة فقدا بها المحبة والطمأنينة؟

راحة موهوبة واطمئنان موروث !!! ولكن مع من .... مع من لا يدركهُ ولا يفقهُ لهُ معنى !!! عطاء بغير نصب وخيرات بلا تعب وامل ولا رجاء !!! مع من هذا؟ مع من لا يدركه !!!.

صحة جيدة عند النشأة ونظر سليم فهل اثمرت الصحة وابصر النظر المحبة وفوائدها ؟ كل ذلك لم يثمر حقيقةً وان اثمر فمحبة حيوانية صادرة

عن ميل غريزى فلذا ترى المتزوج من أغنيائنا سريع الحب والكره ولا يدرك دافع الميل ولا معنى للانعطاف وقلّ من يدرك معني الحبّ الزوجى فلذا تجد منهم أميالاً قريبة الزوال سريعة الفقدان ولا تجد في أخلاقهم من المتانة شيئاً. والأسباب كلها جهالات سريعة الفقدان ولا تجد في أخلاقهم من المتانة شيئاً. والأسباب كلها جهالات بعضها فوق بعض فأم جهول وزوجة اجهل تدعى الأولى بحق التربية والثانية تُدلّى بحق الزوجية فلا يتفقان ولا يتخذان طرق المسالمة بينهما اذ هما عدوتان للراحة بعيدتان عما يجلبها لاختلاف المشارب والآراء، ولو كانتا في سعة من العيش ورفاهية من النعيم راحة مجهولة وعقل مفقود لا يشعر بفقدانه إلاّ العاقلَ فكيف يتفقان والحب والوئام غير موجودين.

أب يحب وام تحب وابن يحب وزوجة تحب ولكنهم لا يدركون معنى الحب ولا ما هو المراد منهُ.

ان محبة الزوج لزوجته امر يترتب عليه نفع كبير وفائدة عظمى، أمر بينى عليه طيب العشرة ودوام السرور والراحة وعليه قوام السعادة الحقيقية إذا وجد والعيش الهنى الصحيح بدون جدال ما زالَ موجوداً بين شخصين اتفقا علي دوام الاتحاد لدفع طوارئِ الزمن وكوارث الأيام. ومحبة الزوجة لزوجها فيها نفع أكبر واتم ان وجدت كانت فيه التعزية عند الكوارث والطمأنينة عند المخاوف والراحة عند التعب والاقدام عند المواقف الحرجة ولكن أين ذلك فيما بين الأغنياءِ منا والزوج رجل بمالهً لا بصفاته والزوجة بمثابة الطفل الذي لا يدرك ولا يعقل من حياته سوى المطعم والملبس فاذا فقدت المحبة لم يبقَ غير الزينة والراحة الوهميةٌ والتمتع بملذاتْ الحياة المكسوبة عفواً دون شقاءٍ وعناءٍ.

أليس في ذلك كله دليل علي سوء المحبة بين الزوجين. أو ليس ذلك سرٌ للانحطاط أيضاً في داخلية أمور أغنيائنا. وكيف الحال والزوج جاهل والمرأة أجهل وهي الشريكة في الحياة. أو كيف البقاءُ والارتقاءُ وهذا كلهُ

لا تدرك حاجاتهُ وكمالياتهُ الأبجحية صادقة ووداد ثابت. فما علينا إذاً إلاَّ أن نعلم نسائنا ونثقف رجالنا لنصل إلي معرفة المحبة قبل الزواج وهى أسه والله ولى المؤمنين وهو علي كل شيء وكيل.

* * * * *

العشرة بين الزوجين الغنيين

تكلمنا فيما سبق عن الطريقة التي يتبعها الأغنياءُ وصولاً للزواج وبقى علينا أن نتكلم عنهم بعد زواجهم وكيف يتصرفون في بيوتهم ليعلم القارئُ لأي درجة وصلنا من الانحطاط علي كلامنا يكون عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين.

قلنا أن الرجل إذا تزوج فهو لا يعرف في امرأته بادئَ بدءٍ الاَّ الصفات التي كان قد سمعها عنها قبل الزواج وهي علي الغالب مكذوب فيها أو مبالغ بها فعوضاً عن أن يمتحن بنفسه بعد الزواج أخلاق امرأته ومقدار معارفها للتوصل إلي إيجاد طريقة أو صفة فيها تكون مشتركةً بينهما وبالتالى موضعاً للالفة تراه مشتغلاً عن ذلك بما يحط من مقامه ويشين بعائلته اذا كانت تعلق علي الشين أهمية. ولا نعلم الذنب في هذاَ علي من أعلي الزوج الذى إذا لم تكن عائلتهُ قد ربتهُ لم يتربَّ هو من الدهر. أم علي الزوجة لفساد أخلاقها التي اكتسبتها فيما بين الخدامين والحصاة وزادتها بلاءً بمعاشرة والدتها ووصيفاتها اللواتى لا شغل لهنَّ الاَّ التبرُّج والزينة والخلاعة والسفاهة مما يخجل القلم ان يخط عنهُ حرفاً واحداً.

انما مرجع كل ذلك إلي اساءَة التربية ولذلك ترى المرأة لا تهتم بشؤون زوجها كما انهُ هو لا يهتم بها ويعيشان في بيت واحدٍ ولكن قلوبهما متفرقة (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتي ذلك بانهم قوم لا يعقلون) ومتي تفرقت القلوب فهناك المصيبة التي لا مرد لها لما يتأتى بينهما من

لشقاق وربما الفراق والانفصال. وعلة ذلك عدم ادراك معنى المحبة أولاً المعاشرة ثانياً وتسليمهم أنفسهم بأنفسهم إلي العوامل الخارجية والأحوال لتى تتقاذفهم كيفما شاءت. ومن امعن النظر في ذلك رأى الرجال لا يهتمون بأعمال زوجاتهم حتي أن المتأمل يظن أن لا عشرة هناك ولا زوجية. وكثيراً ما سمع القارئ أن الزوج منهم لا يحتاط لعدم وقوع زوجته في الحيل والشباك التي تعمل لها اذ مهما بلغت العشرة وطال عليها الأمد بين الزوجة وزوجته الغنيين لا يأتمن بعضهما البعض فلذا ترى في كثير من الدوائر جماعة الكتبة فريق منهم قابض علي حساب الزوج وفريق علي حساب الزوجة ولو سألت عن الأسباب الداعية لذلك ترى النفور والحسد والأثرة بين الزوجين هى المسببة لما ذكر والمرأة منهنَّ كثيراً ما تكون ذات قسوة مكتسبة في نفسها وليست امراً طبيعياً فيها لعلمها بتوفر رزقها ولعلمها أنها أغنى من زوجها وكأن الواحدة منهنَّ عند ذكر الغنى والثروة زادت فيهنَّ الحركة والصوت فلذا لا تستأنس احداهنَّ بزوجها ولا ترق عليه ولا تذل لديه ولا تسكن اليه إلاَّ قليلاً وهنَّ المهذبات المربيات وقليل ما هم. وإذا لم تحترم شخصهُ فهى في شقاق معهُ طول عشرتها اياهُ. يغنينا عن اتيان الدليل واثبات الشاهد تفكرة القارئ فى حالة العشرة الزوجيَّة الغنيَّة فأنهُ لا يرى بينهما سوى احتدام الكلام قائماً منصوباً ووطيس الشقاق مبثوثاً بينهم والسبب يكون اما من غني المرأة علي الرجل من جهة أو انحطاط الزوج في شرف النسب من جهة أخرى. ولكن الأغلب والذي جرَّ هذه الكوارث فرط جهل النساء وعدم تعليمهنَّ طرق المعيشة وجهل الزوج واجبات الحياة وشرائط احترام الزوجة والنسب والأهل كما قررتهُ شريعتنا الغراءَ ولكننا نرجع بالذنب كله علي الأب لسوء ما ربى والأم لسوء ما ارشدت وسوء ما فرطا كليهما واليك مثال تربية الأولاد لتجعلهُ قياساً من الحاضر علي المستقبل.

*****

تربية أطفال الأغياء

«قال حكيم» - رب الولد في طريقه فمتى شاب لا يحيد عنها -

الولد سرُّ أبيه وأمه يأخذ من مزاياهما واخلاقهما ويدل عليهما بين الأهل والمعارف كما يدل عليهما في الجماعة والوطن. وكل مولود يولد ففيه نفع لاهله وتقوية لجامعته فاذا عرفنا هذا وتحققناه فهل هذا نشعر به كلنا أو علي الأقل هل يعرفهُ الأغنياءُ منا؟ . أو ماذا يكون الولد في نظر هؤلاء الأغنياء؟ اذا كان ذكراً أحبهُ ابواهُ معاً واذا كان أنثى كرهها أبوها واحبتها امها كما قال الله عزَّ وجل عن أمثالهم «واذا بُشّر بالانثي ظلَّ وجههُ مسوداً وهو كظيم» اذ لا يميل الاب إلي البنت ميل الأم إليها. وكم أدى ذلك إلي النفور والخصام بين الوالدين اذ ربما كان عدم تقبيل الأب لبنته سبباً يدعو أمها إلي أن تتفوهُ بكلمات تسيئهُ والاً كان الميل خداعاً واستعطافاً لها ومواربه منه إليها وكم نشأ من هذا القبيل حكايات كثيرة كانت سبباً لزرع الشقاق بينهما وربما جرت إلي الفراق واذا استفحل الأمر فالي الطلاق. الأمن حسنت آدابهما وتكاملت اخلاقهما فانهما لا يعتدان بما ذكرنا بل يهتمان بالتطفل لا فرق عندهما ذكراً كان وانثي بل يجعلان كلاً منهما امام نظرهما سيان ولا يجعلان لمثل هذه الأمور تأثيراً عليهما. ألا أن الأم تستنكف إرضاع الطفل فتأتي بمرضع لارضاعه وهذا أمر اصبح لا يتناول الأغنياء فقط بل كاد يكون عاماً حتى ان تناول الوسط وأصبحت لذلك المرضعات تعد بالالوف ولا يخفى ما يتشربهُ الطفل الرضيع مع اللبن من أمزجة هؤلاء فضلاً عن الأمراض التي كثيراً ما تصاب بها الأطفال وقلَّ أن تنجو منها ولذا تكثر بين أطفال الأغنياء الأمراض ويصابون بالعقد الخنازيرية وغيرها.

نعم لا ننكر أن ذلك يمدح ان كان مزاج الام غير ملائم وغير مساعد علي الرضاعة ولكن ما القول إذا كان نساءُ الأغنياء يستنكفن ترفعاً منهن

وعظمة عن ارضاع أطفالهنَّ وحتي لا يقال انهنَّ غير متَمدنات - قال عالم فاضل - تتساوي في نظرى العاقر والتى لا ترضع أولادها - فما القول الآن ولا توجد أمرأة ترضى بارضاع اطفالها وفى سير النساء المسلمات في صدر الاسلام وفي بهجته وعزة كانت نساءُ الخلفاء والامراء هنَّ اللواتى يعتنينَ باطفالهنَّ ويرضعنهم مع مقدرتهنَّ في ذاك الوَقت عليَ احضار من شئنَ من المراضع.

لا شك أن هذا الأمر المنتشر بين ظهرانينا مضرٌ بنا ولهُ علاقة كبيرة في فساد اخلاقنا وضعف تربيتنا واضمحلال قوميتنا وقد عرف هذا كثير من علماء الأخلاق فنبهوا عليه وحذروا منهُ. ويمكننا القول عنهُ أيضاً بانهُ سبب مهم في تغيير الامزجة وجر الأمراض علي أطفال العائلات الغنيَّة من حيث تدرى ولا تدرى.وتربية الطفل ليست من الأمور اليسيرة حتي يستهان بها أو يتقاعس عنها إلي حد يؤَدى بها إلي ما لا تحمد عقباهُ كما نراهُ ونشاهده الآن بل الحقيقة أن الطفل إذا دبَّ علي الأرض لزم لهُ الاعتناءُ العام وما دامت نشأتهُ في الحياة كنشأة النبات في النمو والظهور وجب أن يعتنى به وبما يحفظ قواهُ وينميها والأ ذهب ضحيةً جهل والديه من حيث لا يشعرون كذلك النباتات اذا لم تسقَ بماءٍ يحييها من حيث إلي آخر ذبلت أو ماتت(١).

وعلي الوالدة المحافظة علي ولدها ومساعدتهُ بكل ما يمكنها من الوسائط لنموه وارتقائه وهذا سهل عسير. سهل اذا كانت الأم الكبرى بين أخواتها ورأت أمها تربى أطفالها وصعب عسير اذا اعتمدت علي نفسها بدون أن تسترشد من سواها وكانت ممن لا يدركن علم تربية الأطفال كما عليه أغلب نساء الأغنياء اذ هنَّ لا يعرفن ما يلزم مما لا يلزم وهذا مما يدعونا إلي الأسف في عصرنا الحاضر وهو علة لجلب الخادمات

(١) وأبلغ من هذا ذهاب بعض فلاسفة التربية إلي أن الاعتناءَ بالتربية يبتدئ من زمن الحمل وهذا معقول لا امتراءَ فيه ولا ارتياب.

واستخدامهنّ وهنّ أجهل منهنّ في هذه الأمور وان كان أغلب نساء الطوائف الأخري قد انتبهنَ إلي تربية أطفالهنّ وجعلن لها دروساً تعطى عند تعليم البنات في مدارسهنّ الاّ نحن فنساؤنا أجهل من ان يدركنَ معنى علم تربية الاطفال وهنّ في مقدمة نساء العالم بأنهنّ لا يهتممنَ بهم قدر اهتمامهنّ بزينتهن وبهرجتهنّ وفي مقدمة ذلك التهاون تسليم الأطفال للخدم زعماً منهنّ انهنّ سعداءُ يمكنهنّ جلب المراضع والخدم لاولادهنّ ولكن شتان بين ام تربى طفلها بيدها وهى به أرحم كما هى عليه أشفق ممن ليس عملها الاّ مقابل اجرة تتقاضاها عاجلاً بخلاف الام فانها مسئولة شرعاً وذمة أمام الانسانيّة وامام الله بكل ما لحق بأولادها وهم صغار فهل ادرك ذلك نساءُ الاغنياء وعملنَ به؟ كلاّ كانهنّ عدمنَ تربية أمهاتهنّ لهنّ والشفقة والحنان عليهنّ.

وعلي هذا النسق تترك الأمهات الأطفال حتي إذا بلغوا سن السادسة أو السابعة فرحت الام واستبشر الاب وحمدوا صنيعهم قائلين لبعضهم قد كبر الابن أو البنت فهلّم بنا نعلمهم ونهذبهم علي طرق يصبحون بها متمسكين بالآداب وبما يشبه تربية الافرنج لاولادهم كما نسمع ونرى فيأتون لهم بخادمات من غير أبناء العرب لكى يعلموهم ويرشدوهم علي قولهم حتى أن الولد ليأتي بعمل تَلقّاه من مربيته الأولى ولا يقع لدى الأخيرة فتستهجنهُ قائلة أفٍّ من فعال ابناء العرب فَيضيع عند ذلك من الولد ما تلقاهُ وهو صغير ويصبح حائراً لا يدرى كيف يسترضى. الأخيرة(١) وناهيك ما يقع فيه الولد وهو صغير من الارتباك

(١) مما يدلّ باجلي بيان علي ضرر استخدام الأوروبيات مربيات للاولاد. أني اعرف صديقاً لى كنت معه يوماً نتنزهُ في حديقة الازبكية فاوقفتهُ احدى الافرنجيات ومعها جملة أولاد وبنات صغار وقالت لهُ ألا تعرفنى فقال كلاّ فاجابتهُ تأمل فيّ جيداً فلمّا لم يعرفها قالت لهُ كيف تنسانى وانا التى كنت في «البار» الفلاني وكنت تتردد عندى ليلاً فاستغرب ذلك منها خصوصاً لما رأى الأولاد الذين معها فسألها عن حقيقة حالها فقالت بعد أن استحلفته بكتمان امرها انها الآن في سراى الباشا ..... بصفة مربية للاولاد ووكيلة في السراى وصاحبة الامر والنهى في جميع تصرفات السراى جميعها وعمار السراى وخرابها متوقف عليها. ثم ودعها والتفت إليّ قائلاً تأمل فان مثل هذه المرأة يعلمنَ أولاد وبنات الذوات علي المبادئ التى يعرفنها فتنفست الصعداءَ متألماً متوجعاً علي هذه الحالة المحزنة.

والتشويش فضلاً عما يتجدد في نفسه من الكره لاخلاق وعوائد أمته وبنى جنسه وهو لا يدرى الأصوب فيتبعهُ. هذا غير فقدان ما تعلمهُ من لغة قومه وأهله وكثيراً ما يقف محتاجاً لترجمان بين أمه ومربيته الجديدة. وهذا أيضاً أمر قد دخل جديداً في التربية وأوجد الفتور فيها والقلق، والدليل علي ذلك أن أولاد أغنيائنا لا يكونون مثل ابائهم أو امهاتهم في الاخلاق إلاَّ نادراً. ولا يستغرب مستغرب ما نقولهُ فها هم أولاد العظماء لديه فليتأمل فيهم يرى لما نقولهُ صحة ولما نشير اليه حجة.

ان شئت ان تعرف كيف تتولد البغضاءُ ويتولد النفور بين الاولاد وهم صغار فسببهُ أيضاً فساد في التربية وسببهُ الأكبر سوءُ تصرف الاباء والامهات معهم. اذ هم يعاملون أولادهم معاملة المحاباة معاملة تفضيل أحدهم علي الآخر في كل شيء من مأكل وملبس وهم لا يدرون ان بعملهم هذا يزرعون الجفاءَ بين الاولاد يزرعون البعد بين القلبين فينشأوا وهم شأبون علي كراهيَّة بعضهم بعضاً شأبون علي جفاء متمكن منهم وأين لى بمن يُفهم الوالدين أن في عملهما ذلك مجلبة لحرمانهما من الراحة فيما بعد والاَّ لو عقلا الأسباب وفقها النتائج ووهبا عقلاً ما فعلا ذلك ولا اقدما عليه ولكن اني لهما أن يفقها وهما بعيدان عن معرفة ما يرجحهُ العقل من ان الحب يتوارث والبغض يتوارث. ولذا ترى الاولاد يشبون علي كره الواحد للآخر والشواهد عديدة يعلمها الكل ومن شاءَ معرفتها فلينظر لأختين ربيتا علي ما تقدَّم وتزوجتا وهما لا تزور احداهما الأخري. لا شك أنه عند معرفة ذلك يقول قد صح الحكم واتضحت الأسباب وصدقت الآية الكريمة «الاخلاءُ يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ الا المتقين» نسمع باذاننا ان بعض الاخوة تمر عليهم الايام وتكر عليهم السنون وهم لا يتذكرون أنهُ يجب عليهم السؤال عن بعضهم. هذا أمر نشاهدهُ أو نسمع به وهو حاصل بين اولاد ذواتنا حاصل بالاخص بين بناتهم وذلك غير ما كانت عليه بنات ذواتنا قديماً ولدينا كتب السير نقرأها نراهنَّ علي جانب عظيم من المودة الخالصة والوفاء الحميد. لا شك أنا فقدنا منهم ما كان معروفاً فيهم قبلاً

ولا ندرى إلي أي طريق يصلون ولا ندرى تعليل هذا الجفاء في زمن أصبحنا فيه بعيدي الدار بعيدى المحبة الائتلاف.

أدب الأولاد الآن ناشيءٌ من الخوف ناشيءٌ من استبداد الآباء والأمهات عليهم وليس هو الادب الذي كان معروفاً عنهم قبلاً الناشيءُ عن الفهم والعلم والمعرفة الحقة أو المكتسبة من الدرس والمطالعة والتعليم ولذا نرى كثيراً من أولاد أغنيائنا في حضرة ابائهم وامهاتهم يظهرون ادباً وبالاخص امام الزائرين. أما في حالة وجودهم في البيت علي انفراد فمدار عملهم كل ما يخالف الحشمة ويضاد الأدب وذلك مع الخدم والجوارى ولهذه المعاملة السيئة تكرهُ الخدم خدمة الاسلام وتنفر عنها ويفضلون الخدمة عند الطوائف الأخري لان أولادهم أعلى ادباً واوفى كمالاً يأمرون بالمعروف الذي كان فينا وبالاحسان الذي كان يعرف قديماً عنا. والاً فخذ لذلك مثلا خادم أو خادمة في منزل رجل غنى مسلم قائمين بواجبات شؤونهما كما يجب. سواء كانت من نظافة أو طباخة أو غيرهما فاذا لم يطيعا حالاً ما يؤامر به ولو كان من غير عملهما المخصصين لهُ ... يجدون من أنواع السباب والاهانة ما يغيب منهما الرشد ويبعد عنهما الصواب، والسبب سوء خلق أهل البيت من ولد وبنت وزوج وزوجة ولا يمكننا وصف حالتهم بدون تذكير القارئ بما أصبحت عليه الغنيّات من خشونة الطبع وسوء الخلق في معاملة خدامهنّ بيد أنهُ يوجد منهنّ عدد عديد لا يدركنَ معنى الحياة فلذا تراهنّ يأتمنّ الخدم ويعاملنهم معاملة حسنة مقابل جعلهم مستودعاً للاسرار. حتي بلغ البعض من جراء ذلك لدرجة كثيراً ما يتأتى منها الضرر ولو شئت معرفة تأثير اخلاق الأمهات في الابناء والخدم فانظر للحريّة التي خلقت للانسان منذ خلقته ووهبها لهُ اللّه ليعمل بها العمل الطيب البار النافع. وتأمل لشرطها وهو احترام حقوق الغير وعدم تعدى الناموس الأدبي والذي عرفها العاقلون ولم يعرفها الجاهلون امثال أمهات وآباء أولاء الاغنياء منا تجد الحريّة بينهم تجر الاضرار والأذى، لأنها حريّة مظلمة تربى في النفوس الرذيلة وتنمى

المفاسد والقبائح. تجدها فيهم وياللأسف حريّة مفسدة للاخلاق والتربية واليك مثالها.

تخرج الأم من خدرها وتبرز من بهوها الجالسة فيه أغلب أيامها بدون عمل وبعد أن تتأنق بقدر من الرياش والترف وما يتَبع ذلك تذهب لزيارة صديقة أو لزيارة مقام فتلوّن نفسها بكثير من أنواع مذمومات الخلق والشر ثم ترجع إلي منزلها فتحدث بما رأت وما سمعت من قول واشارة فتفسد الام بقولها هذا ما عندها من الابناءِ وتجر الضرر من حيث لا تدرى وكم من ام تود الربح فتقع في الخسارة.

وناهيك عمن يتردد إلى البيوت من اسافل القوم ورعاع الجماعة من عجوز وصبى وما شاكلهما. اذ بهذه الحالة تنبت المفاسد وتربو الاخلاق السافلة في الابناء فضلاً عن تأثير اخلاق الخدم من مذمومات الخلق الذى يدرّبون عليه الاولاَد وهم صغار لا يعقلون اذ لو أردنا البحث في تأثير الخلق من الخدَم لرأينا أن الموكول بالاولاد منهم الآغوات الذي لا يفقهون الصالح من الطالح. حتي ولو اطالت الاولاد السنتهم ورفعوا أيديهم لا ينتبهون أن عملهم هذا خطاءً في حق الاولاد اذ ترتقي مع الولد قلة الادب وفقدان التربية ما ارتقي في السن ان لم يكن لهُ رادع سيما والانسان بعيد عن الكمال محب للرذيلة.

كثيراً ما يأمرهم الخدم بكل قبيح ويعلمونهم السرقة من الاباءِ والامهات وكثيراً ما يُعطى الاولاد دراهم لا لزوم لها فيصرفونها علي شرب السجاير وهم صغار أو تعاطى مواد أخرى مضرة بالصحة. والمعلم والمنبه لكل هذه الأمور الخدم والحواشي ومن العابهم تعرف درجة انحطاطهم عمن يماثلهم في السن من الطوائف الأخري. ولا يخفى علي المتأمل في حقائقهم سوء العواقب الوخيمة وسوء المغبة والمآب فاحكم بعد ما تقدّم بما وصلوا اليه وما سيصلون في زمن تربية المدرسة والتعليم والله يهدى من يشاء إلي صراط مستقيم.

★ ★ ★ ★ ★

تعليم أولاد الأغنياء

قال الامام الغزالى رضى الله عنهُ «الصبى وديعة عند والديه»

اعتاد الأغنياءُ منا تعليم أولادهم في ثلاث مدارس. المدرسة الأولى هي المدرسة المخصوصة أي التي يأتي اليها المعلم في البيت. والثانية والثالثة المدارس الأميريّة والأجنبيّة. أما الأولى فهى مكونة من معلم شيخ أو غيره وتلميذ أو أكثر يعطون حصة أو حصصاً في النهار. وأما الثانية والثالثة فأمرهما معلوم وسيأتى الكلام عليهما. والمدرسة المخصوصة هى كما تقدم يأتى اليها المعلم ولا يذهب اليها التلميذ للتعليم. مدار التعليم فيها المبادئُ الأوليّة من قراءة وكتابة بسيطة لا تكفي لتعليم الناشئين تماماً اذ لا يكون التلميذ أمام معلمهُ وهو في بيته الا كمثل من يضيف زائراً فيقدم لهُ الاحترام ما مكث. وليس من وجود لطاعة أو سماع لاشارة ولا للمربى من سلطان ما دام في نفس المعلم لشخص المتعلم احترام ورهبة أكثر مما في نفس المتعلم اذ ليس في نفسه انقياد واذعان لما يؤمر به من معلمه ولا يمكن أن يتحصل التلميذ بهذه الكيفية علي فائدة تقتنى أو تؤهل الطالب إلي وسائل النجاح حسبما ذكر والا واليك بيان كيف تنقضى ساعة الدرس في تلك المدارس المخصوصة بين المعلم والمتعلم، اذا حضر المعلم نودى التلميذ من بين الخدم أو الحرم فاذا جاء وقابل معلمهُ واهدى اليه السلام جلس بين يديه يتلو درسهُ برهة ويقص عليه ما جرى بينهُ وبين خدمه برهة أخرى ثم يكتب دقيقة ويتكلم معهُ بضع دقائق في شأن ما عزم عليه أبوهُ من شراء خيول وتجهيز عربات حتي اذا ازف الوقت وانتهت ساعة الدرس (وهي تنتهى بلا درس) قام المعلم مودعاً وقام التلميذ ضاحكاً وللعب مُولعاً مشتاقاً وليس من اب ينبّه علي المعلم بالاعتناء بالتعليم أو يلاحظ ما يستفيدهُ ولدهُ من معلمه حتى يرى اذا كان أثر هذا التعليم صالحاً مفيداً مهذباً لابنه ومغذياً لعقله ومقوياً لفهمه أولاً. كل هذا لا يلتفت اليه بالنسبة للولد المتعلم بل يترك وشأنهُ لذلك المعلم ولا

مرشد للابن يبين لهُ ثمرتهُ في الصغر عملاً بقول الرسول صلي الله عليه وسلم - لأن يؤَدب أحدكم ابنهُ خيراً لهُ من أن يتصدق بصاع طعام[1] وهذا عكس ما كان عليه الاغنياءُ من قبل عندما كانوا يوصون معلمى أولادهم ومؤدبيهم بقولهم [2] «ليكن أول اصلاحك بنىَّ اصلاحك لنفسك فان عيوبهم معقودة بعيبك فالحسن عندهم ما فعلت والقبيح ما تركت. علمهم الدين ولا تملهم فيه فيتركوه ولا تتركهم منهُ فيهجروه وروهم من الشعر أعفهُ ومن الكلام اشرفهُ ولا تخرجهم من علم إلي علم حتي يحكموهُ فان ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم. تهددهم بى وادبهم دونى وكن كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء وجنِّبهم محادثة السفهاء وردّهم سير الحكماء» هكذا كان يأمر الأباءُ بتعليم الابناء وبهذا نشأَ السلف الصالح علي نَشأته الأولى من أدب وكمال ولكن الآنَ قد بعد عن ذلك المعلمون الخصوصيون والاباءُ وأصبحت ساعات تعليمهم في مدارسهم الخصوصيةُ ساعات فكاهات ولهو ولعب من قص حكايات وتجاوز مناقشات تبعد الدواءَ وتجلب الادواء وتجر تعليم السفه وقلة الاكتراث بالعلم حتي إذا عكف المعلم والمتعلم حيناً من الزمن خرج الولد من بين يدى المعلم سفيهاً قليل الأدب والتهذيب. ثم إذا شاهد الاب عدم نجاح الابن سعى جهدهُ وأخذ بطوق ابنه إلي المدرسة وبذل ما في وسعه لادخاله فيها فاذا دخل الابن وتم لهُ القبولَ كان رفيقاً لأولاد صغار علي كبره في السن هم الاعلي وهو الادنى. ولذا ترى أغلب أولاد أغنيائنا زملاءَ لاولاد صغار في المدارس كلهم يتعلمون ويكدحون نحو التقدم. الأهم فانهم يتأخرون ويتقاعسون عن التقدم في التعليم فضلاً عن اتيانهم صباحاً متأخرين عن ميعاد المدرسة مجهدى قوى عقولهم صباحاً للاحتجاجات التي يقدمونها كل يوم للأساتذة مع أن لهم الركائب والخدم والوسائل التي تسرع بحضورهم إلي المدرسة. وهنا يتبين لنا شيءٌ غامض في زمن المدرسة الا

(١) حكاهُ ابن ابي جمره في شرح البخارى.

(٢) قول لعمر بن عتبه بن أبي سفيان يوصى مؤدب ولده به.

وهو انحطاط اولاد الأغنياء، وارتفاع أولاد الفقراء والفضل لسوء تربية الأولين في الترف والنعيم والدلال. ولحسن تربية الآخرين منذ الصغر علي المناضلة والتنازع لمعاركة ما هم فيه من الانحطاط والفقر فينمو في الاولين البطالة والكسل وفي الآخرين الاجتهاد وحب العمل. ومن شبَّ علي شيء شاب عليه لا شك بعد هذا اذا نظرنا إلي مستقبلهم في التعليم فانا نراهم مقصرين الا في اللعب والعربدة ولذا ترى سيرهم وسلوكهم مع الاولاد الآخرين سيئاً للغاية فتراهم عديمي المحبة لاخوانهم في التلمذة كبيري النفوس والحقد والبغضاء عليهم تمر السنة المدرسية وهم لاهون غير شاعرين واذا جاءَ زمن الامتحان قصروا واذا قصروا رفتوا من سلك المدرسة وقبل رفتهم يتعللون كل يوم لابائهم بسوء التعليم وقلة الانتباه وكثيراً ما تلقى حيلهم هذه اذناً صاغية فيخرجهم الاباءُ من المدرسة قبيل زمن الامتحان ويدخلونهم إلي مدرسة أخرى وهكذا حتى ان كثيرين منهم قد يطوفون علي جميع المدارس ثم يدخلون المدارس الأجنبية وهذه كما لا يخفى كثيرة العدد كثيرة الوجود قلَّ أن يخلو منها حي غير ان هذه المدارس لها مشارب وأغراض لا توافق من كان مثلنا يرجو النفع الحقيقي ويؤمل الغاية الصحيحة من التعليم والا فكل مدرسة من هذه المدارس عاملة علي نشر لغة قومها. قائمة علي بث مبادئ اصحابها فمثلاً مدارس الجزويت والفرير تجتهد في تعليم اللغة الافرنسيَّةَ والعربيَّة الا أن للاولى العناية الحقيقيَّة وللثانية العناية الوقتيَّة فضلاً عن بث مبادئ الديانة المسيحيَّة للتلامذة سواءً كانوا مسلمين أو مسيحيين من عقيدة تخالف عقيدتهم اذ الكل مكلفون ساعة الصلاة بالركوع ورسم الصليب. وتلاوة الصلاة بالخشوع التي كثيراً ما يكون التلميذ المسلم عارفاً بدين أصحاب مدرسته أكثر من دين أهله وقومه فضلاً عما يرمى إليه أصحاب هذه المدارس من الأغراض التى أصبحت غير خافية علي أحد والتي نرجو من جميع مدارسنا التمسك بمثل هذه المبادئ غير اننا نقول أن مدارس المرسلين الأميريكان هى أحسن كل هذه المدارس تعليماً وادباً وتربية وصحة مبادئ وتقويم اخلاق. غير أن

اساس تعليمها أيضاً مبنى علي تعليم الديانة البروتستانيّة ونشرها بين الناس من مسلمين ومسيحيين ويهود وغيرهم وهى أيضاً لا يرجى منها لنا نفع في تعليمنا وتقويمنا الأ اذا كان تعليمها للدين ممنوع للمسلم مباح للمسيحي. ومن الاسف أن نري جميع أولاد ذواتنا فى هذه المدارس يتعلمون ومنها يتخرجون فاذا ذلك كان كذلك فلنبحث عن سلوكهم مع التلامذه وعن درجة تقدمهم. اما عن سلوكهم في هذه المدارس فسلوك حسن نوعا ما عما يكونون في المدارس الاميريّة. غير أنهم لا يزالون يعتبرون انفسهم انهم اعلي ممن يقارنهم من التلامذة ولو كانوا في الحقيقة أدنى منهم في الدرس والتعليم أهل لعب وبطالة وعربدة ودعارة أكثر منهم سفهاً وادعاءً وخيلاءَ فضلاً عن كثرة انقطاعهم وحيلهم وقلّ منهم من يعتنى بفهم الدرس كزملائه فلذا لا يصطحب أحدهم بآخر آلاّ إذا كان أعلى منهُ فهماً وعقلاً. تراهم مقصرين في الدروس النافعة مجتهدين في ما يجر إلي الانحطاط عقلاً وادباً. ولدينا شواهد حالهم في المدارس اذا هم معتادون ان يكتبوا كل سفيه وان يقرأوا كل رذيل[1] ولذا تراهم قد اعتادوا الكتابة لبعضهم من أمثال ما ذكر جملاً والفاظاً سافله يحمر منها وجه الادب حياءً وخجلاً واكثر ما يقع منهم هذا في وقت المدرسة أو في

(١) يكثر بين اولاد الاغنياء وهم في المدرسة قراءَة قصص الافرنج وتضييع أوقاتهم في مطالعة الروايات السافلة وغيرها من كتب الخلاعة والهذيان عربية كانت أو افرنجية بخلاف أولاد الطوائف الاخرى فان الاباءَ يهدون الابناءِ في الاعياد الكتب التى تفيدهم وتحثهم علي الافادة.

قال «المقتطف» الاغر عن هذه الكتب ان هذه الكتب تؤلف لهذه الغاية وتقصد بها الفائدة وحدها أو الفائدة والفكاهة فلا يكاد الولد يبلغ العاشرة من عمرهِ حتي يصير عندهُ مكتبة صغيرة فيها من نخبة الكتب التي يستنير بها عقلهُ وتتسع معارفهُ حتي يسير في هذه الدنيا علي هدى ولا يخبط فيها خبط عشواءَ. ثم قال «المقتطف» وكما نهدى اليه الكتب نهدى اليه الجرائد العلمية والادبية فيشترك باسمه فيرى نفسهُ مشاركاً لاهل العلم والادب في حداثتهِ ويبذل جهدهُ ليقوم بحق هذه المشاركة أ هـ.

وقت المسامحة اذ منهم كثيرون يكتبون علي أبواب بيوت بعضهم ما يدل صراحة علي درجة براعتهم في النقائص والمعائب واني اعرف حادثة جرت بين ولدين من اولاد الأغنياء سببها واه جداً ولكنها كبرت معهم حتي قام كلٌ منهما وطبع في حق الآخر كراساً حشوهُ البذاءة وقلة الحياء وقد وزع كلٌ منهما علي اخوانه ومعارفه تلك الكراسة مجاناً ولم يتركا طريقة لزيادة انتشارها الأطرقاها حتي انهما ادرجاها في جريدة من الجرائد السافلة. هذا هو سلوكهم مع اخوانهم في التعليم فتأملهُ. اما سلوكهم مع الاساتذة فسلوك رياءٍ مصطنع واحترام يقدمونهُ للاساتذة ما داموا في المدرسة أما خارجها فلا يوجد ثمة احترام. ويستنكفون التسليم عليهم لئلا يظن الناس اذا سلم احدهم عليهم أنهُ تلميذ يحترم استاذهُ ولا يخفى علي القارئ فعل ابناءِ الاغنياء وعملهم في مدرستى الطب والحقوق سنة ٩٢ وسنة ٩٦ وعدم اطاعتهم لمعلميهم واساتذتهم.

اذا مرت السنون ووصل احدهم لنهاية الفصول من المدرسة يقدم بغير روية امتحان أمام نظارة المعارف فيسقط أمام الامتحان ويعزون سبب سقوطه لقلة اهتمام معلميه به ثم اذا مكث سنة أخرى اما ان يستأجر من يقدم نيابة عنهُ باسمه لاخذ الشهادة[١] أو يترك المدرسة معتقداً بانها لا تصلح لهُ ولا يصلح لها حيث قد وصل الي سن الرجوليّة وعار عليه البقاءُ في سلك التلمذة لحين اتمام الدروس الانتهائيّة وما دام انهُ رأي اصغر منه سناً قد خرج منها ظافراً بشهادته وارتد هو عنها خاسراً.

وهنا لا ندرى كيف يكون لنا قوام في هؤلاء الابناء وهم لم يحصلوا علي شيءٍ من العلم يكسبهم صفات الرجوليّة الحقيقيّة ويجعلهم اهلاً لها اذا دخلوا في دور تربية المرء نفسهُ بنفسه أي أن يمرّن المرءُ نفسهُ بالممارسة في ميدان هذه الحياة ومعرفة شؤونها لا شك بعد ما تقدم ان نظرنا

---

(١) لا ينسى القارئ ذينك الاثنين من أولاد الذوات اللذين زورا الامتحان أمام لجنة الامتحان ثم حكمت عليهما المحاكم بالسجن ثمانية عشر شهراً.

للمستقبل نظرة عموميةً وارتد بنا البصر حاسراً ووقف القلب حائراً واللسان ممسكاًعن المقال ولكن لا بأس من ذكر ما قد اصبحوا عليهِ فيما يلى حتي نعلم سر انحطاطهم وتأخرهم والله مقيم العباد فيما اراد.

*****

تعليم بنات الأغنياء

البنت في العائلة مدعاة لمعرفة ما اذا كانت تلك العائلة في درجة من النجاح في هذه الحياة أم لا وجلّى ان بحياة العائلة حياة الامة. اذ الامة انما هي مجموع عائلات ليس الأ ولذا من اراد استطلاع كنه احدى العائلات ليعلم درجة تقدمها في النجاح والفلاح فعليهِ أن يمعن بصيرتهُ في الفحص والتنقيب عن أدب وتعليم البنت في تلك العائلة. فان وجد ثمت ادباً وألفى التعليم ليس بمفقود علم أن حياة هذه العائلة حقيقيّة وعيشها رغيد غير غير مشوب بالاوهام والشبهات. وان الامة التى تتكوّن من هذه العائلات هي متقدمة دون ريب والعبرة ليست بكثرة الافراد في العائلة بل بعدد المتعلمين فيها من البنين والبنات اذ مهما بلغت كثرتها فهى لعدم التعليم اصغر في نظر العاقل من عائلة صغيرة افرادها متعلمون، انظر في تاريخ نشأة الاسلام الاولي تجد العائلات وقتئذٍ متقدمة تقدماً عظيماً حتي انك لترى بينها كثيراً من الكاتبات الاديبات والعالمات البليغات، تعلم ذلك اذا رجعت إلي الاطلاع علي تمدن القرن الاول حتي السادس من الهجرة زمن انتشار المعارف والآداب التي تقصر عن تحصيلها بنات عائلات الاميريكان والانجليز والامم المعاصرة لنا. ونحن نفتخر بفضل كان فيهم لا فينا وهم لو تكلموا وخرجوا من اجداثهم لقالوا لنا بلسان عربى فصيح «هذه محاسننا فاين محاسنكم اعملوا مثلما كنا نعمل واقتفوا آثارنا والأ فنحن براءٌ منكم» لا ريب في اننا فقدنا في تعليم البنات والبنين كل شيءٍ وتثبطت منا الهمم الموروثة عنهم وغابت عنا تلك العزائم التي كانت

تشـاهد منهم. ورب سـائل يقـول - كـيف تعلم البنات في تلك الاعـصـر الخالية حتي اصبحن علي نحو ما تقـول - وجوابنا انهُ كان لهنَّ مـجتمعات عامرة وكانت بهنَّ عناية وافرة واهتمام زائد ناشيءٌ عن الاحساس بما يثمرهُ تعليمهنَّ وتهذيبهنَّ ولذا خرج منهنَّ عالمات فاضلات يبثثنَ روح التعليم في بنات جنسهنَّ وفي الرجال. ويلغن في الفنون والصنائع والتأليف والتصنيف والاشعار البديعة شأواً عظيماً وغاية ليس وراءَها غاية. ولذا كانت الواحدة منهنَّ عـالمة فاضلة. أما الآن فلا مدارس للبنات يتعلمنَ بهـا كـما كـان لهنَّ من ذى قبل عـالمة فاضلة. اما الآن فلا مدارس للبنات يتعلمنَ بها كما كان لهنَّ من ذى قبل ولا عناية بامرهنَّ ولا اهتـمام مطلقاً ولذا تراهنَّ علي ضد مـا كنَّ عـليـه بنات جنسـهنَّ في الزمن الغـابر. كـيف لا وهنَّ قـد اصـبـحنَ يتباهينَ الآن بما عليـهنَّ من الحلى ومـا عندهنَّ من الملابس وكل واحدة منهنَّ تفـاخر اقرانها بواسع نعيـمها وثروتها لا بعلمها واطلاعـهـا ولو علمنَ لكنَّ يفـخرنَ بحـسن المبادئِ والعلم والادب ولكنَّ يخـجلنَ مما هنَّ عليـه الآن. اذ البنت لـو تعلمت لكانت كنز فوائد لا يفنى علي كرور الايام كلما ازدادت في فـهم العلوم ازدادت المادة وغـزرت كالبـئر يكثـر فـيـهـا المـاءُ اذا نزحت وتنضب اذا تركت لشأنها بل وتفسد، وكـانت لاطفـالها بعد زواجـها هاديـاً ومربيـاً صـالحـاً. ونعم مـا قـالت احدي السـيدات الفـاضـلات في هذا الصـدد ونصـهُ «ولو[1] اراد النسـاء ان يقـتـصـرن علي الأهم مـن مطالـبـهنَّ لقلنَ لرجالهنَّ انما نطلب منكم أن تهـتموا بتعليم بناتنا كـما تهـتمـون بتعليم بنينا ولا نطلب فـوق ذلك لان الابنة المتـعلمـة تعـرف مـقـامـهـا في الهـيـئـة الاجتماعية»

والبنـات المتعـلمات ريحـانـة النفوس وتفـاحة القلـوب ومخففـات همـوم الرجـال اذ لا خليـل اوفـي وداً مـن امـرأة متـعلمـة مـهذبة ولا اعطـف قلبـاً وارق فـؤادَ من امـرأة تعـتنى بعيالهـا وتربيـهم علي حـب الفضيـلة

(١) قول لحضرة مدام صروف انظر المقتطف سنة ١٤ .

والتقوى. ومما ورى أن قطر الندى بنت أحمد ابن طولون لما زفت إلي المعتضد بالله شغف بها فوضع رأسهُ في حجرها فنام فتلطفت في ازالة رأسه عن حجرها ووسدتهُ وخرجت من البيت فلما استيقظ ذعر وناداها فاجابتهُ من مكان قريب منهُ فقال أسلمت نفسي اليكِ فذهبت عني فقالت لم ازل كالئة لأمير المؤمنين قال فما اخرجكِ من البيت قالت ان مما ادبني به أبي أنى لا أجلس مع النيام ولا أنام مع الجلوس. علي هذه الحالة من الادب كانت بنات ونساءُ الاغنياء منا قبلاً ولذا ارتقت بينهم العائلات وسعدت منهنَّ الافراد وقويت بهنَّ الامة حتي اذا اراد أحد معرفة الامة وحياتها وسبقها في ميدان الحضارة والتمدن فعليهِ بالاستعلام عن درجة نسائها في العلوم.

وانا لو بحثنا الآن عن مدارس البنات بيننا لما وجدنا سوى المدارس المختصة بتعليم بنات المسيحيين والتي فيها التعليم موكول إلي نساءٍ من الاجانب لا يدركنَ كنه حاجة البنات المسلمات وما يلزم لهنَّ من المبادئ[(١)] اذ البنت المسلمة ولو كانت في سن السادسة أو السابعة ليست علي استعداد يوازى استعداد ما للبنت المسيحية منذ الصغر من التهذيب وطاعة المهذبين واحترام المعلمات ولتميم الواجبات، اذ مما سبقنا فيهٌ نساءُ المسيحيين هو تعليم بناتهم احترام الحق احترام التهذيب منذ زمن الطفوليَّة بخلاف بناتنا اللواتى يتربين علي ضد ما ذكر تماماً. تأمل طبقة بنات الأغنياءِ تجد فيهنَّ أموراً مدهشة كلها ناطقة بلسان فصيح علي بعد ما بيننا وبينهم والسبب في ذلك جهل الام وسقم فهم المربيات.

(١) يلزم لهنَّ علم حقيقة الاحوال المشتركة بين الانسان وزوجتهِ وولدهِ واهلهِ وخدمهِ ووجه الصواب فيها.

نعـم نـرى بناتـنـا وهـنّ ذاهبـات إلي مـدارسـهن صـبـاحـاً بلبـاس أبيض ناصع حتي لتخالهُ منظر ابرار وهيئة ملائكة طهر وتـرى زرافـاتهـم كطيـور الجنة. ولكن عـقـولهنّ وآدابهنّ التى نشـأن عليـهـا احـط قـدراً واخس هيئة وتقصيرهنّ أمام الطوائف الأخـري منـذر لنـا بسـوء الطـالع وعظم المصيـبـة. تأمـل عظـم البـعـد في الادب بيـن بنت منا وبنت من طائفـة أخرى تر بـونـاً شـاسـعـاً وفـرقـاً بعيـداً. ويـا حبـذا تعليـمـهنّ لو تم علي ما نـود ونـرغب. لكنا نراهـنّ لا يتعلمـن في مدارس الاجانب سوى فن البـيـانـو واللغـات الأجنبـيّـة من فـرنسـاويّة وانجليـزيّة. أمـا لغـتـهنّ العربيـة فلا يصلن اليها ولا يتلقينها في هاتيك المدارس. ولو شئنا معرفة مستقبلهنّ لحار منا العـقل وانذهـل. كيـف والحاضـر عنوان المستقبل وهو مـؤذن بالجـهـل التـام فـي العلـم والديـن واطاعـة الاقـارب واحـتـرام الـزوج علي حسب مـا تقـتـضـيـه الشـريعـة المحـمـديّة فـهل يرضى بذلك المسلمـون وهـل لا يـزالـون يقـولـون «سـود المحاجـز لا يقـرأن بالسـور» أو وهـم الاغنيـاء، منـا حـتـي انهـم لا يدركـون مـعنى تعليم البنت ولا يفـقـهـون مـا يلزم لهـا وينـبـغى أن تـكـون عليـه حَتّى تكـون بناتـهم غنيـات بعـقـولهنّ وتربيـتـهنّ يجـمـعـن إلي وافـر الثـروة جـودة العـقل وطهارة الدين.

* * * * *

أولاد الأغنياء واللغة العربية

يكفي التعريف عن شرف اللغة العربية انها لغة الدين والقرآن والحديث الشريف. ولذا كان قديماً لاغنيائنا ولع كبير بالاعتناء بها وتحصيلها وقلّ من كان ليس لهُ المام بها ومعرفة بفروعها اذ كانوا يتنافسون بجمع كتبها سواءٌ كانت خطيّة أو مطبوعة. وكنت اذا نزلت عند احدهم ترى عندهُ مكتبة كبيرة جامعة للكتب العلمية والتاريخية والأدبية التي بعضها مما يندر وجوده الآن. أما في وقتنا الحاضر فقد ضاع كل ذلك الأ من عدد قليل يعد علي الاصابع. شأن كل نافع كان لنا وفقدناهُ باهمالنا. فقد اصبحنا نرى الآن تطرق الخلل في التكلم والتعبير بالعربيّة ويغنيك شاهداً الآن عندما تتكلم مع أحدهم بالعربية الفصحى. فانك تراهُ لا يدرك معنى اللغة فضلاً عن دس كلمة أو كلمتين من لغة الغير بين كل جملة وأخرى إما بالفرنساوية أو بالانجليزية حتي ان اللغة العامية المصرية نفسها قد حرفوها عن مواضعها وتنازلوا فيها الي من اختلط معهم من الاجانب غير المتعلمين مثل قولهم «امسكتوا من واحد دكان» بدل اشتريت من دكان وهكذا قد انسلخنا عن كل شيء حتي لم يبقَ لنا ما يمكن ان ينسب الينا أو ننسب لهُ مما يعدهُ الناس شيئاً. ومنهم من اذا تكلمت معهُ يقصر تعبيرهُ عن فكره فيقول معنى ذلك باللغة الافرنجية مثل قولهم لا تؤاخذنى فاني اليوم تأخرت عنك لانهُ كان بينى وبين آخر (رندفو) أو متشكر (مرسي) أوَ لا مؤاخذة (بردون) وان نبهت أحدهم إلي ذلك اعتذر وهز بكتفيه مستهزئاً وهو يقول لا أدرى اللفظة التي بها أؤدى المعنى الذى أريدهُ بالعربيّة كانهُ ليس من ابنائها. ومن الغريب ان الاجانب عن اللغة قد تعلموها واصبحو وهم يكلمونك ويكاتبونك بها. أما ابناءُ العرب الاغنياءُ فقد هجروها ولم يتعلموها ولذا هم يستعينون في التعبير عن اغراضهم

بلغة الغير(١) نعم ان الذي جرَّ إلي ذلك ملكة اللسان الافرنكى منهم اذ لا يخفى ما لملكات اللغة في اللسان من التأثير العظيم وجلب الخلل علي لغة الاصل ولكن لو كان لهؤلاء اعتناءٌ بتعلم لغتهم ما فسدت اللغة معهم أو لو كثرت مطالعتهم لكتب الاجادة في اللغة بدلاً عن كتب الهزء والسخرية لارتقت معهم، أو وهم علي ما تعلم لا يقرأون الا كتب الهذيان والسفه وجرائد اللغة الدارجة(٢) فلا عذر لمعترض عليهم، تأمل ما اصبحوا عليه تراهم يقصون عليك ذكر ما كتب في السفه والاقتراء والغزل والشجن. فضلاً عن كثرة مخالطتهم للغريب في المهارشة والمداعبة التي افسدت عليهم صيتهم وسمعتهم كما ضيعت عليهم لغتهم عدا عن ضياع الثقة منهم في الكتب والجرائد النافعة. ومن الأسف ان أكثر من يحرر هذه الوريقات السافلة المسببة لضياع لغة الدين لغة القرآن والحديث الشريف هم من المسلمين. أو لا يعلمون انهم يهدمون في قبة مجدهم بمعاول من ألسنتهم وأيديهم. وأكثر القراء في هذه الجرائد هم من المسلمين وأولادهم وهى تصدر في احيائهم وتباع في الاكثر بين ظهرانيهم ويأتي بها الاب ويستدعى لديه الابن ويرجوه أن يقرأها علي مسامعه حتي اذا تمَّ الابن قراءَتهُ يمدحها للابن قائلاً «لله در منشئها فانهُ يقول الصدق والحق في قالب تفهمهُ الخاصة والعامة» ولا يبعد عليه القسم لو اراد تفضيلها. أما الجرائد العربية الفصيحة فلا يقرأونها الا اذا كان لهم فيها امر يهم من اعلان أو مسألة خصوصيَّة. وقد سرى تغلب الافرنج بين اولاد الاغنياء في الاحكام والمتاجرة والصنائع والحرف حتي ان شدة اختلاطهم بهم افسدت عليهم لغتهم وكادت تذهبها من بينهم قطعياً .

(١) حدثني صديق ان ابن أحد الاغنياء استعار كتب «تحرير المرأة» من آخر ولما قرأهُ ولم يدرك لهُ معنى قال لا شك أن قاسم بك امين مؤلف هذا الكتاب قصدهُ سيئٌ وغرضهُ التضليل بلغتنا والدليل اني كنت اقرأ كتابهُ ولم أفهم لهُ معنى.

(٢) ظهر من تقرير البوستة سنة ١٩٠٠ ان من هذه الجرائد ١٧ جريدة كلها تنتشر باللغة الدارجة ولو لم تكن غير جريدة تطبع كل أسبوع ما يقرب من الاربعة آلاف نسخة لكفى.

فاذا كنا لا نزرع في قلوب ابنائنا في صغرهم محبة الوطن واللغة ولا نرضعهم لبان الشهامة وحب التقدم فمن اين لنا ان نسابق الفرنجة في اعمالهم أو نضارعهم في صناعتهم أو نجاريهم في مخترعاتهم. ونكون قدوة لغيرنا كل هذا يجب علي الاباء الانتباه اليه والعمل به. والا أصبحنا يوماً ما ونحن بلا دين ولا لغة وهذه شر الميتات الأدبية فلنتناصر اذاً علي منع كل ما من شأنه جر الويل والضرر علينا وعلى أوطاننا قبل أن تتمكن يد الضلالة منا فنندم حين لا ينفع الندم ويصبح المقتدى بنا أطف منا في فقد اللغة مكيالاً. وأخف في حفظ كيانها مثقالاً والله علي كل شيء رقيب.

*****

دين أولاد الأغنياء

انهُ وان كان يظهر أثر الدين جيداً علي وجوه أهل البادية أو المتدينين المتقشفين من الحضر المتجافين من الملاذ وفى معاملتهم غنيهم وفقيرهم بالنسبة لتمسكهم بالدين وجريهم علي سننه وأوامره الا أنهُ يكون أكثر واجمل ظهوراً لو وجد فى أهل المدن وخصوصاً الاغنياء منهم الذين هم في رغد من العيش وبسطة من الرزق. لانهُ بظهوره علي وجوههم تكون مملوءة بالبشر وفي احوالهم تكون انفسهم بحالة انبساط وارتياح. ومن هاتين الحالتين المصاحبتين يكتسي المرءُ ذلك الاثر ثوب كمال وجلال هو عز الدين ولطفه وكمالهُ واقتداره فلله اولئك الاغنياءُ الذين يظهرون بهذه الصورة ولكن أين هم.

أني لألفتُ عينى حين افتحها علي كثير ولكن لا أري أحدا

نعم لا نري غنياً وعليه اثر من هذا الاثر فان الاغنياءَ بعد أن نطرح من جملتهم اولئك الذين لا يبالون بدنيا أو آخرة بحياة طيبة مستقيمة أو رديئة وخيمة فان الباقين منهم دينهم المال يأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه.

واني وان كنت التمس لهم عذراً وذلك من وجه ان المدنيّة الحاضرة الملقاة بذورها بينهم تنبت مثل هذه العواطف الا اني ارجع عليهم باشد اللوم من جهة قبولهم منها ما يخرج الدين في جوهريات قواعده مثل اكلهم المال سحتاً واخذهم الربا وقد نهوا عنهُ واكلهم اموال الناس بالباطل. أو كنت ارجمهم لتفشي الجهل بينهم فاني انثنى عليهم بالتأنيب لانهم لا يعلمون علي ازالته بل قد يمهدون له طرق التوطن بينهم بمثل الابتعاد عن مواقف التعاون والتخلف عن مواطن التعليم والتنوير. والبخل في الاتحاد علي انشاء المدارس الأهليّة التي تربى ابناءهم التربية القوميّة الدينيّة الصحيحة حتى جرَّ عليهم الجهل بكل هذه الويلات خراباً في دينهم ومواتاً في قلوبهم واتساعا في ذممهم فاصبحرا والقسم الكاذب عندهم من ابسط الامور. مع ان حال الاسلام قديماً ينبئنا انهُ لم يكن ليقدم انسان علي حلف يمين وان اقدم جعلهُ تحت شرط عملاً بقول المرشد الاعظم صلى الله عليه وسلم – من كان حالفاً فليقل ان شاء الله فانه يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة – اما الآن فالمشاهد بين اغلب اغنيائنا المسلمين قلة الدين وكثرة الحلف لاقل مناسبة. وقد يحلفون على الله الكذب وهم يعلمون ولو كانت اليمين الكاذبة أقبح من اليمين الفاجرة. أو لو كان مع الكذب الاستهانة باليمين اذا كانت حقة فكيف بالباطلة ولو كانت الاعراض الدنيويّة أوخم امراً وأخس قدراً من ان يفزع فيها الى يمين الله كل ذلك اصبح مشهوراً عن اغنيائنا الحاضرين واولادهم «الا البعض منهم» حتى ان المرءَ لتأخذهُ هزة عند فكره فيما اذا كان هؤلاء كفاراً أو مسلمين. فان الدين يعلمهم بقوله – (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) – الآية ولكن أنّى لهم معرفة ذلك وهم غير متعلمين – الدين يعلمهم – ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً – ولكن انّى لهم المعرفة وهم يستنكفون عن المخالطة باهل الدين. لو كان في هؤلاء دين صحيح لرغبوا عن الحمق الممقوت لاقل سبب اذ الدين هو الذى يأمر بمكارم الأخلاق ويعلمهم بقوله – (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) – ولكن انّى لهم ذلك وقلَّ منهم من يكون طيب الخلق هادئ الطبع كما اشتهر ذلك عن اجدادهم.

لقد كانت عوائد آبائهم واجدادهم التأهيل والاحتفاءَ بشيخ القرآن المرتب للقراءة في البيت صباحاً وقد كان لهؤلاء قاعات مخصوصة يقرأون فيها جالسين أما الآن فاصبحنا نري بعضهم «الأ القليل منهم» يترك الفقهاءَ يقرأون بجانب غرفة البواب أو في غرف الخدم كأن هؤلاء الخدم مسلمين وصاحِب الدار ليس بمسلم. أما الحقيقة فهى أنهم لا يودون انزعاج خاطرهم علي زعمهم بكلام الله تعالى في رقدة الصبح التى هي لديهم بعد طول السهر أشهى شيءٍ في الوجود. ولكن لا تظنَّ أن نومهم استماع وانصات عملاً بالآية - واذا قرئَ القرآن فاستمعوا لهُ وانصتوا لعلكم ترحمون - بل هو سهو مستطيل هذه عادتهم يجرون عليها الآن ولم تكن فيهم من قبل وهو تسؤنا ان نذكرها ولكنه الحاضر المشاهد فكيف لا نذكرهُ ونشهرهُ واذا استقرينا هذا الحاضر نقيس عليه المستقبل المخيف بشروره وكثرة محارمه. ولقد افرط الاغنياءُ واولادهم الآن في شهادة ان لا اله الأ الله وان محمداً رسول الله ولا يذكرها احدهم الأ في وقت الموت أو ربما نسيها وغفل عنها في حياته وعند مماته وهى أولى الفرائض الاسلاميَّة فهل من مدكر.

تهاون الاغنياءُ واولادهم بالصلاة فلم يؤدُّوها حقها وان ادوها فلا يؤدونها باركانها وضيعها الكبير منهم والصغير «الا القليل» وهي المفروضة علي المؤمنين كتاباً موقوتاً وثانية الاركان المبنى عليها الاسلام.

تهاون الأغنياءُ واولادهم في اداءِ الزكاة إلي الفقراء والمساكين وتناسوا الآية والاصناف الثمانية المذكورة فيها - انما الصدقات للفقراءِ والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل - وعملوا بضد قوله تعالى - خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها - وأصبحوا وهم ممن نص عنهم الكتاب الشريف بقوله - والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرّهم بعذابٍ أليم - وتركوا الصوم وجاهروا بالفطر في شهرِه واطاعوا

انفسهم وافرطوا في الوقوع في نواهيه حتي اصبحنا نرى بعضهم يحث البعض الآخر بقوله «ان هذا الصوم ليس من شروط التمدن الحاضر ولا نفع منه» وفاتهم معرفة الصوم وفوائده للدين والصحة.

تركوا الحج للبيت الحرام واتبعوا الحج كل سنة لبلاد هي مرتع الفساد تركوه ولم يفكروا فيه ظنًا منهم انهُ لا يليق بهم اداؤه ما داموا لا يفقهون له معنى ولا مبنى. هذا ما نبذهُ الاغنياءُ واولادهم ظهريًا من اساسات الدين الخمسة. ثم لا يخفى عليك ما كان عليه اباؤهم واجدادهم من اتباع الكتاب والسنة والاحسان إلي الفقراء والمساكين خصوصاً في ايام العيدين وباقى المواسم. تركوا كل ذلك حتى فيما بينهم ولا يأتون بشيءٍ من هذا خلقاً ولا تخلقاً لا رياءً ولا سمعة. لا رهبة ولا رغبة وأصبحوا في ركوب متن الشرور سواءً. حتي أصبح العاقل وهو يخاف عليهم أن يصيبهم ما أشار إليه الرسول صلي الله عليه وسلم في حديث له «لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا» أبعد ذلك أعراض منهم وانكار وأنت لو سألت أحدهم عن الإسلام أعرض ونأي بجانبه وربما أنكر الإسلام علانية فتأمل وقل سبحانك اللهم تضل من تشاء وتهدي من تشاء.

*****

المحبة الأخوية

«سنشد عضدك بأخيك» قرآن شريف

تتولد المحبة الأخوية بين الأخوة لما بينهم من صلة الرحم وامتزاج الدم ولحمة القرابة ولأنهم يربون في بيت واحد ويدرجون تحت ظل أب واحد يرون منه انعطافاً عليهم وحناناً فتأتلف قلوبهم بالطبع علي تبادل الحب وتنزرع في قلوبهم المحبة الأخوية. فإذا كان الأبوان متهذبين يعلمان كيف تربي الأولاد نمت دون ريب بذور المحبة بينهم واينع غرس التربية الحسنة في قلوبهم ومن شب علي شئٍ شاب عليه. كما يقولون في الامثال. والغلام

يربو علي اخلاق مرشده بلا خلاف. حتى اذا شبَّ ثبتت فيه تلك الاخلاق ولم يستطع تغييرها العمر أو نكبات الزمان مهما تكاثرت وتوالت. واذا اتفقت اهواؤهم علي عمل ما كان من ورائه النفع لهم واستحكمت تلك المحبة بينهم فاثمرت منهم الاعمال الجليلة واشتهرت عنهم الامور العظام. واذا اختلفت منهم المشارب والآراءُ كان منهُ تعرقل المساعى واستحكام الشقاق وخراب تلك الهيئة التي يتألف من جملتها النظام الاجتماعى. فاذا عرفنا عنها ما ذكر وبحثنا عن وجودها بين اخوة اغنيائنا فلا ريب اننا لا نجدها بينهم بل نجد بدلها النفور سائداً والخصام مستحكماً والقطيعة والتدابر وقلة الانصاف ذلك لما رُبوا عليه كما مرَّ بك في فصل تربية الاولاد حتي صحَّ فيهم قول القائل

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة   بين الرجال ولو كانوا ذوى رحم

والاَّ لو كانت المحبة موجودة لتهادوا وتحابوا بدلاً من ذياك النفور والجفاء المشاهد بينهم الآن اذ التهادى والتحابب يضاعفان الود. ويذهبان بغوائل الصد وعوامل الحقد ويمحقان البغض من القلوب. ثم إن الذنب في عدم وجودها بين اولاد الأغنياء راجعٌ إلى الآباء والامهات اذ هم أيضاً لا يعرفونها ولم يتلقوها منذ صغرهم بل كل منهم تراهُ يريد استبدال طبعه وخلقه والتطبع بضده لغاية دفينة في النفس الامارة بالسوء الاَّ من رحم ربى. حتى انه ليتعسر علي الناقد البصير التمييز بين اخلاق وطباع الاغنياء. ما داموا يأنفون العودة الي اخلاق اهليهم وعوائدهم الاصلية. لما استحكم فيهم من بواعث الكذب والغش فتراهم جريئين علي النفاق والمكر والخديعة كأن طيب نَسبهم وذكاءَ منبتهم لم يغنينا عنهم شيئاً وقد مرَّ بنا في باب المعيشة الزوجيَّة انهم قائمون علي الشقاق والانفصال عن زوجاتهم واستباحة كل محرم كأن لم يكن الدين شيئاً مذكوراً وكأن الآداب لم تكن الاَّ لتزيدهم جرأة علي اتيان الموبقات وارتكاب المحظورات المنهى عنها في كل شرع وعرف فلذلك اذا ولد لهم اولاد لم يقوّموا منهم عوج الاخلاق

دائبين وراء تهذيبهم بل تراهم احوج اليه من اولادهم. وعلة ذلك الشقاق والانقسام وفقدان المحبة الكافلة بقوامهم وتقدمهم طمعاً في ميراث زهيد أو ربح تافه او أثرة لا معنى لها وكل ذلك لا يزيدهم أن حازوا عليه ولا ينقصهم اذا لم يستحصلوا عليه والسبب في كل هذه الأمور المجلبة للنكد في المعيشة والباعثة علي ما لا يحمد بين امثال هؤلاء الافراد هو عدم المحبة وتبادل المنافع بلا طمع ولا زيادة ولذلك كان الانقسام بين اولادهم طبيعيًا فينشأون ولسان الاخ يقول لاخيه هذا فراق بيني وبينك. والدلائل للقارئ كثيرة يكفيه النظرة في اخوة احد الاغنياء أو ذلك البرنس المسجون وما فعلهُ معهُ اخوهُ واختهُ في اول محنته التي حكم عليه بها لجهله وطيشه فان الاثنين تزوجا اول شهر قضاهُ اخوهم في السجن معذباً. كأن اواصر القرابة والمحبة الاخويّة قد افقدها مصاب ذلك الاخ الذي دفن ضحيّة جهله وهو لو ربى علي ما يخلق بامثاله من الامراء لكانت التربية حرزاً حريزاً لهُ عن اتيانه مثل ذلك الذنب واحتمال ذلك الجزاء.

والخلاصة انا لو دققنا البحث ما وجدنا اثراً للمحبة بين الاخوة الاغنياء وليس ثمت شيءٌ يمكن التعبير عنه بالمحبة الاخويّة بينهم فليتدبر المنصفون.

* * * * *

عوائد أولاد الاغنياء المستحدثة.

لقد تطرقت إلي عوائد الاغنياء منا وخصوصا الشبان منهم عوائد قبيحة جلها أو كلها مأخوذ عن عادات الاوربيين غير المستحسنة والتى لم يكن الاسلام يسمح بها بمبادئه القويمة. أماالآن ولا زاجر للنفوس من دين ولا ادب فترى عادات «المساخر» في أعياد المرافع للافرنج قد انتشرت بين الشبان الاغنياء منا. وبا ليتهم جاورهم في اعمالهم النافعة بدلاً من هذه الامور التافهة.

وإليك ما شهدتهُ في اعياد المرافع الماضية. بينما كنت ذات ليلة من أيام المرافع جالساً مع صديق لى في احدي المنتديات العمومية واذا بثلاثة أشخاص أحدهما في زيّ امرأة والآخر في زى خادم هرم والثالث في زى الرجال ولكن صورة وجهه بدلاً من ان تكون صورة آدمى هي صورة كلب يعرف عند الافرنج - ببول دوج - هجمت علي الاولي فضربتنى بكرباج بيدها والثانى اخذ كأس الماء من امامى ورش ما بها علي والثالث ضحك واستغرق في ضحكه كثيراً علَي ما حصل. فظننتهم سكارى فخففت ما بى من الغيظ وكتمت ما لحقنى من الأذى ظناً منى أنهم ربما يكونوا من الاروام والاروام السافلون منهم مشهورون بكل قبيح ونقيصة فما عتم ان نادانى احدهم باسمى وبين لى محل خدامتى فعرفت انهم يعرفوننى وانهم ربما كانوا من مستخدمى مصلحتى الافرنج. ثم بعد قليل دخلوا المنتدى ونادوا صاحبه وامروه بان يحضرنى اليهم فحضرت قاصداً الوقوف علي حقيقتهم فاذا احدهم نجل لفاضل .... والثانى نجل لآخر من الذوات. أما الثالث فهو رجل صاحب جريدة عربيّة اسلاميّة تظهر شهراً وتموت دهراً وعادتهُ يتزين بزى الطيلسان والعمامة ولكن شهدت فعالهُ بفقدان كماله وعدم استقامة حاله.

تلك بدعة غير بديعة أو عادة مستحدثة ظهرت في الاسلام بفضل اولاد الاغنياء وقد رأيتها مرأي العين من هؤلاء فاذا لم يتدارك امرها شملت الامة بأسرها واذا سرت ومرت عليها السنون فمن يدرى حينئذ انها ليست من عوائد الاسلام واخلاقه وقد بلغنى أن بعضهم سأل الشيخ الذى تزيى مع هؤلاء في اليوم الثانى من عمله هذا. فقال ان هذا العمل غير مكروه في الاسلام وكان يعمله عمر ابن الخطاب عند تجسسه لحالات المسلمين في خلافته. فياللعار والفضيحة ربا للافتراء والبهتان علينا من انفسنا. فتأمل حاضرنا وانظر كيف يكون المستقبل.

ومن عوائدهم القبيحة المستحدثة أيضاً انهُ اذا ولد لاحدهم مولود

سموهُ باسماء الافرنج أو باسماءٍ أخرى لا تفهم الأ بعد التفكر الكثير فقد وقفت علي أنَ بعضهم ولد لهُ ولد يوم فتح ام درمان فدعاه «كتشنر أحمد» كما اني اعرف غنياً آخر متفرنجاً للغاية ولدت لهُ ابنة فسماها «فكتوريا محمد» بدلاً من اسم فاطمة أو عائشة أو خديجة . وعلمت ان آخر ولد لهُ ولدان سمى احدهما «رداميس» والثانى «رمسيس» وبالاجمال قد خالفوا قول الرسول صلي الله عليه وسلم – ان من حق الولد علي الوالد أن يحسن اسمه وادبهُ – تلك امور تربك الفكر وتوجب الحيرة والدهشة. تلك دلالة صريحة علي عظم تمسكهم باصطلاحات الافرنج كأن الاسماءَ المألوفة من عرفهم والمعروفة فيما بينهم ليست أهلاً ولا تليق بان يسموا بها اولادهم أو بناتهم يتشبهوا بالفلاحين الفقراء فيالله من سقوط الامة في التأخر بعد تلك المحافظة علي العوائد والتقاليد والتمسك بالمبادئ الملّية التي اكسبت الاسلام العظمة والصولة. ومن عوائدهم المستحدثة أيضاً – ضرب الأرض أو الناس من العامة أو خدامهم بالرجل حال الغضب وهذه العادة لم تكن تعرف عنهم قبلاً بل كانت معروفة عن بهائمهم فاخذوها عنها لولعهم الآن بها بدلاً من اخذهم عن اديب مرشد أو نصوح عاقل.

يحكى أن ابا حنيفة مرَّ ببعض الطرقات فاصاب بقدمه صبياً فقال يا ابا حنيفة اما تخشى القصاص يوم القيامة فوقع مغشياً عليه وقال رضى الله عنهُ يؤدى الظلم إلي سوءِ الخاتمة والعياذ بالله ان يصيبهم ما قالهُ أبو حنيفة.

ومن العادات التى احضروها معهم من اوربا ويستعملونها الآن هى أنهم ان شاؤا السلام علي بعض سلموا برفع الكوع حتى يتساوى برأس المسلم عليه وسبب هذه التحيّة (١) ان اميرة ويلس الحالية «من بلاد الانكليز» أصيبت منذ بضع سنوات بدمل في ابطهاالايمن فلم تستطع ضم

(١) انظر مقتطف شهر أكتوبر سنة ١٨٩٩ .

ذراعها الي جنبها ولهذا التزمت ان ترفع يدها في السلام كي لا تحتك الذراع بالابط. هذا هو السبب في السلام برفع الكوع ولا ندرى كيف نطلب العذر لشبابنا الاغنياء في مثل ذلك التقليد الأعمى. ولكن نقول ان هذه التقاليد هى ناشئة عن تقليد الغير البعيد عنّا ديناً وعادة والاً متى كان شبابنا مصابين بدمامل تحت أبطهم حتي انهم صاروا يقلدون النساءَ بدل الرجال ولا عجب بعد ذلك لو صدقت علينا جملة الفيلسوف العربى الحكيم. من أن المغلوب يتتبع الغالب في زيه ولباسه وعوائده واخلاقه لاعتقاده في نفس الغالب تمام الكمال الذى لولاهُ لما غلبهُ واستولى عليه.

*****

أوهام الأغنياء

للاغنياء اوهام وسخافة فكر لا يقدر القلم علي وصف بعضها ومنشأ كل ذلك قلة المامهم بالعلم وجهلهم للحقائق. حتى انهم اذا اختلج حاجبا أحدهم واشتكى ذلك لاحد اصحابه يقول لهُ ان اختلاج الحاجبين يدل علي اصابة خير كثير علي رأى بعضهم وعلي شرف عال عند البعض الآخر فيصادف هذا الكلام اذناً صاغية وشكراً يذكر. وفات هؤلاء ان اختلاج الاعضاء بحركة الجسم يتأتى من تغير الدم. وبعضهم يتوهم شراً لو رأى جنازة في طريقه أو رأى شخصاً احولَ في صباحه ويتحاشى البعض منهم السفر في بعض الأيام زعماً منهم أنهُ مكروه فيها. كما انهم لا يأكلون السمك واللبن أو لا يأكلون الألبان في يوم الأربعاء قط ولو اعترض عليهم معترض لقالوا ان آباءَنا بهذا يأمرون.

بل رأيناهم يتطيرون لاقل حادث من مثل هذا حتي ولو نحلت أكفهم فانهم يتعشمون انهم في يومهم سيقبضون. والفضل في تلقيح الابناء هذا التشاؤم والتفاؤل راجع للآباء فان من الاغنياء في هذا القطر قسماً كبيراً

يقضون جل العمر وراءَ تحويل النحاس إلي ذهب.ولهم ولع كبير في البحث عن كتب الكيميا وغيرها لأمل كاذب في نفوسهم علي نيل مآربهم حتي ان بعضهم ليضيع مالهُ وعمرهُ ولكن لا يضيع املهُ في صحة معتقده في تحويل النحاس الي الذهب والسبب في ذلك غشاوة الجهل والغرور المنتشرة علي ابصارهم وبصيرتهم ولو انقلب فكرهم هذا الي عمل نافع مثل تحويل الجهالة المظلمة من بين الامة الي النور والعلم لم نصل الي ما نحن عليهِ من التأخر عن الطوائف الأخرى في التعليم. والظاهر أن هذا الداءَ متأصلَ في الاغنياء ولا يزال باقياً ما زالت الجهالة والغشاوة علي اعينهم لا تمكنهم من رؤيةَ النافع لهم.

وهذه الصناعة أي صناعة تحويل النحاس إلي ذهب جاءَت للمصريين واغنيائهم من المغاربة الذين وفدوا ويفدون في كل وقت لبث خزعبلاتهم بين المصريين وسلب اموالهم وابتزاز ثروتهم.

ويكفيك أيها القارى أن تتأمل قليلاً لترى من اغنيائنا قوماً أخني عليهم الدهر بكلكله فاصبحوا فقراءَ بعد أن كانوا سراة اغنياء والمغربى الدجال يأتي مصر فَيدخل دار المسلم المتمول زائراً وبعد مدة قلَيلة يقص علي مسامع من في بيتهِ ما اتاهُ زيد وعمرو اللذان بفضل صناعته قد اصبحا من اعظم الموسرين ثم يريه مقادير طائلة من المال فيغتر صاحب اَلمال ويندهش ويتمنى أن يعطى لهُ ما اعطى لغيرهِ. ثم يتفقون علي الشروط اللازمة ويبتدئُ المغربى في اتمام الحيلة إلي أن تتبددَّ أموال الغنى الذي كد في جمعها وجد او ورثها من ابائه واجداده.

وممن افقرهم هذا العمل جماعة كثيرة يعلمهم المطلعون ويدركهم الاذكياءُ. وهذا العمل اغلب ما يعملهُ المتقدمون سنًا

ولكن الشبان منهم الآن قد رزؤا باشغال البورصة التي من فعلها تحويل الغنى والسعادة مرة واحدة وفي اقرب وقت إلي فقر مدقع واحتياج عظيم - ولا غرو فالأول شغل المغاربة والثانى شغل ابناء الغرب وبين هذا

وذاك اتصال وتقارب - وأسبابهُ أيضاً الوهم المتسلط علي افكارهم من ان نصيحة السمسار تغنيهم في نهار واحد. حتي خربت أخيراً بيوت عظيمة سيأتى معنا بعض الاشارة اليها في باب (التبذير).

أما النساءُ فأمورهنَّ في الوهم مضحكة مبكية دالة دلالة صريحة علي انهنَّ دون الحيوانات فهماً وادراكاً. فلا تزال الكثيرات منهنَّ يعتقدنَ في المرض المعروف عند الاطباء بمرض الاعصاب وعند العوام بالارياح المتسببة من مس الشياطين وان لا دواءَ له غير (تبييت) الاثر وعمل الزار الذي عمَّ ضررهُ وانتشرت مفاسدهُ حتى ولو لحقتهنَّ التخمة من الراحة لظنَنَّ أنهُ من تحرك يد الشيطان في اجسامهنَّ واين لهنَّ المعرفة بان ذلك ناتج من سوءِ الهضم وتلبك المعدة من كثرة الطعام.

يضيعنَ حاجاتهنَّ في منازلهنَّ لعدم الترتيب ثم يتهمنَ الخدم ويسألنَ فلا يهتدينَ لمعرفة ما فقدنهُ فيذهبنَ الي دكاكين المدعين معرفة الغيب وعواقب الامور فيعرضنَ حالتهنَّ وينقدنهم كميَّة من المال فيكشفهُ الخادع المنافق كذباً بخطّ علي الرمل ويسمونهُ المنجم وطرق بالحصى ويسمونهُ الحاسب ونظر في المياه ويسمونهُ المندل ويا للاسف ان هذه المنكرات فاشية أكثر ما تكون في الامصار والقرى بمعرفة المسلمين والمروّج لها بالاكثر هم المسلمون فيا سبحان الله اين من يعلمهم ما تقررهُ الشريعة من ذم ذلك وان البشر محجبون عن الغيب الا من اطلعهُ الله علي شيءٍ من عنده.

واليك شيءٌ حصل لي عندما كنت دون سن الحلم في مكتب لوالدة جنتمكان المرحوم محمد علي باشا الصغير. دعانى يوماً استاذ القرآن ودعا آخرين من امثالى سنًّا حتى بلغنا العشرة عداً فاخذنا ذاهباً بنا إلي قنطرة الدكة[1] ولما دخلنا باب السراي واستأذنوا لنا في الدخول جميعاً فدخلنا بهواً ذا نمارق مصفوفة واستار حريرية مدلات دونهُ قول بن عباد

(١) حارة في قسم الأزبكية في مصر.

وبهو تباهي الارض منهُ سماءَها بأوسع منهـا آخـراً وأوائـلا

وبعد ان جلسنا جئ بشيخ يبلغ سنهُ سبعين سنةً فاحضر اليه مجمرةً بها فحم متقد وسلة بها بخور من جميع الاصناف، ولما جلس قرأ فاتحة الكتاب كما قرأها الحضور من نساء وجوار واخذ يضع البخور علي النار فشممنا رائحة مقبضة للنفس مدمعة للعين. وجئ بواحد منا بعد واحد وبعد أن يعصب لهُ جبهتهُ بمنديل أبيض يأمرهُ الشيخ بالنظر إلي طبق به نقطة من حبر وأخرى من زيت ولا يزال يتقدم واحد منا بعد آخر حتى جاءَ دوري فتقدمتُ ولما نظرت قليلاً أغمي عليَّ وأغشى علي بصري ودهشت كثيراً فكنت اري نفسي كمن هو في حلم أو كمن هو ممتلئ من بنت الحان. فكنت اهذي بكلام لا افقههُ واقول عن شيءٍ نظرتهُ والحال اني ما نظرتهُ. ولما انتهى ما يريدون كوفئت من دولة البرنسيس بقليل من المال وخرجنا بعد أن اطمأنَّ بال الجميع علي مريضهم «رحمهُ الله»

ومكثت بعدها أربعة أيام لا اتحقق شيئاً بنظري تماماً.

هذه حكاية جرت معي من فضل مروّجي المنكر والاوهام المدّعين معرفة الغيب ومعرفة الاسرار. ولا يعلم غيب ربك الاّ هو. أليس بعد ذلك نقول

الفال والرجز والكهّان كلهُم مضللونَ ودون الغيب اقفالُ

ولكن لا يدرى هؤلاء ذلك وقد تكذب الواحدة علي الأخرى وقد تحلف اغلظ الايمان واوثق الاقسام ان كل ذلك مفيد وقد وجدت بفضله ما افتقدتهُ وعثرت علي ما ضيعتهُ أو شفي ما كان بها من المرض. وكل ذلك تغرير وإفساد لغيرها حتي تقع فيما وقعت فيه. وهؤلاء مروجو الاوهام والسخافة كثيرون منتشرون في الطرق والدكاكين. وأكثر ما يوجدون في الدرب الاحمر وشارع الساحل بقرب الدائرة السنيّة وفي جهة باب الشعريّة والجماليّة وبولاق. أي انهم منتشرون في كل ناحية أكثر من انتشار

لمدارس التي تحيي الحق وتبطل الوهم وتربى عقل الانسان وكل هؤلاء قد سوا قول الرسول الكريم « لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء » أفبعد ذلك عبرة واستدلال بأننا علي غير ما كنا عليه والله يزيد في الخلق ما يشاءُ وهو اله السموات والارض.

*****

كرم الاغنياء الماضى وبخلهم الحاضر

يجدر بنا قبل ذكر بخل اغنيائنا أن نذكر طرفاً مما كان عليه السلف حتي نقيس عليه الحاضر ونتأملهُ فنقول

ان من راجع كرم السالفين من اغنيائنا يقف حائراً مبهوتاً من جراء كرمهم للاعمال الخيريَّة فقد جاءَ في كتب الاخبار والسير عن كرمهم شيءٌ كثير مثل انشاء المستشفيات والملاجئ الخيريَّة وبناء الاسبلة وتعمير دور العجزة والعميانَ والمستضعفين من بنى الانسان. ولَم يقتصر الحال فقط على ما ذكر بل قد وصل كرمهم إلي الحيوانات العجم أيضاً ولكى يطلع القارئُ علي بعض هذا الكرم ويعلم به حقيقة العلم نأتى هنا علي ذكر خلاصة بعضه.

جاءَ في خطط المرحوم علي باشا مبارك أن أول خانقاه (تكيَّة) بديار مصر أنشئت في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٦٥٩ هجريَّة برسم الفقراءِ الواردين من البلاد الشاسعة.

ولما انقضت دولة الايوبيين حذا حذوهم السلاطين الجراكسة وبعض الامراء وأول من بنى المارستان في مصر احمد بن طولون وكان رحمهُ الله يركب بنفسه كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها من الاطباءِ. وينظر إلي المرضى وسائر ارباب العاهات والمحبوسين من المجانين.

ولما كانت الدولة الاخشيديَّة في مصر بنى كافور الاخشيدى

مارستاناً. ولما استولي الفاطميون بنوا في القاهرة مارستاناً أيضاً.

وفي زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر بفتح مارستان للمرضى والضعفاء واستخدم لهُ اطباءَ وجراحين وعمالاً وخداماً وامر بفتح المارستان القديم.

وفي زمن السلاطين الجراكسة بنى المارستان المنصورى واوقف عليه من الاملاك في مصر وغيرها ما يقارب ريعهُ في كل سنة ألف ألف درهم. وهذا القدر يعادل الآن أربعة وعشرين ألف بنتو ذهباً. وجعلهُ وقفاً علي كافة طبقات الناس ورتب فيه العقاقير والاطباءَ وقرر لهم ما يلزم من الفرش ونصب الاسرة وافرد قاعة للرمد وقاعة للجرحى. وقاعة لمن به اسهال. وأخرى للمبرودين. وافرد للنساء قسماً مخصوصاً. وجعل الماءً يجرى في جميع هذه الاماكن، وافرد مكاناً لطبخ الاطعمة والادوية والاشربة وغير ذلك.

الأ أنه في زمن الفرنسويين تخرب المارستان المنصورى وتغيرت معالمهُ وكان الموجود به من المرضى ستين مريضاً.

وفى خطط الفرنسويَّة ان عبد الرحمن كتخذا انشأ اسبتالية للنساء وكانت تحت الربع وكان بها حين ذاك ستة وعشرين من المرضى.

وكان يطلق عليها اسم تكية «وهى الآن تكية الجلشانية الموجودة للآن والتى يأوى اليها السليم الكسول بدل المريض والمكسور.

واما الرباطات فكانت من المحلات الخيرية أيضاً وبعضها كان لاقامة الصوفية وبعضها كان للنساء المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو العجايز الارامل العابدات وكان لها الجرايات والمقامات المشهورة من مجالس الوعظ. وقد انقطع ذلك كله الآن.

واما الاسبلة فقد جاءَ عنها أيضاً في الخطط انها كانت كثيرة العدد

وكان السبيل يتألف من ثلاث طبقات الاولي تحت الارض وهي الصهريج والثانية في مستوى الأرض أو فوقهُ بقليل وفيه المزملة لتفريق الماء بكيزان من النحاس مربوطة بسلاسل.

والثالثة مكتب لتعليم الاطفال. وكان المنشئون لها يعتنون ببنائها ويوقفون عليها الاوقاف الدارّة بالريع الكثير والاغلب الآن قد اندثر بسبب نسيان فعل الخير وبسبب الاهمال والترك الذي استولى علينا وفقد الاحساس والشعور بالمنفعة العامة التي عليها مدار بقاءُ هذا النوع الانسانى من جهة وحياته وسعادته من جهة أخرى واما دور العميان فكانت كثيرة. ولم يبقَ منهاَ الآن سوى زاوية العميان في الأزهر المعمور. وقد جاءَ في تاريخ الجبرتى انها من انشاء المرحوم عثمان كتخدا القازدغلى تابع حسن جاويش القازدغلى والد عبدالرحمن كتخدا القازدغلى صاحب العمائر الكثيرة والانشاءات الخيرية بناها في سنة ١١٤٠ هجرية.

ولم يقتصر احسانهم علي بنى الانسان فقط بل شمل الحيوانات أيضاً. اذ كان لها احواض بالقاهرة (شبه أحواض جمعية الرفق بالحيوان) لسقى الدواب وكانت العناية بها شديدة وكان اغلبها بقرب من الاسبلة وهى أحواض من الحجر تسقى منها الدواب علي اختلاف اجناسها. وكان لها أوقاف يصرف عليها من ريعها (ولكن لم يبق منها لنا الآن شيءٌ بل الذى تراهُ في باب الحديد وأمام سراى المحافظة انما اسسهُ جماعة الافرنج بيننا وهو مأخوذ منا كما مر عليك) ذلك فضلاً عن انشاء الحمامات للفقراء والمساكين والتى كان أغلبها موقوف علي هذا الغرضَ غير المقابر والمدافن للفقراء والمساكين المنقطعين. هذا ما كان السلف الصالح من الاغنياء يتنافسون ويتفاخرون به ويتزاحمون عليه.

أما الآن فقد فشا في الاغنياء منا ضياع عمل الخير والنافع وتمكن منهم عمل السوء والضار واشتهروا ببخلهم في عمل الخير وهذا لم يكن معروفاً في الاسلام قبلهم اذ تراهم يسخون في الاعمال المجلبة للتلف فلهم

فيها أكبر كرم واطول ساعد ممدود، كيف لا وقد يبذر الواحد منهم علي الملاهى ما استطاع وعلي الملاجئ يحرص ما وصل اليه من جهده وفي الفجور لهم عمل مشهور. من ذلك ان احدهم كان أغنى انسان يشار اليه بالبنان فلما قربت ايامهُ واشرف علي توديع أهله وامواله قام لاحياء ذكره وبدلاً من انشاء مستشفى أو ملجأً للعجزة والمعوزين شيد ناد مشهوراً وظن أنهُ بعمله هذا قد اتي شريف الاعمال، واحسن المحتاجين والمحتاجات. وهو لو انشأ مستشفى لداء الكلب لكان فضلهُ أوفى واتم. افلا لعجب القارئُ من هذه الامور المشينة وهل لا يستغرب اذا رأى جماعة الايطاليين في مصروهم علي ما تعلم من قلتهم أول من انشأ هذا المستشفى يعالجون فيها من مرضانا بهذا الداء العدد العديد.

أو لو كان لهؤلاء الاغنياء منا محبة لا متهم ولبلادهم لما بخلوا بشيء فيه نفع للامة وكان الاحرى بهم عندما يقلدون الافرنج في ازيائهم وعوائدهم ان يقلدوهم أيضاً في الاعمال الخيرية التي لا يبخل الواحد منهم ببذل النفيس لعملها لكانوا يحيون ذكرهم بالاعمال الخيرية النافعة والقارئُ لابد ان يعلم مآثر ذاك الرجل العظيم (افيروف) الذى لم ينسَ بلادهُ وما لها عليه من الحقوق والواجبات فوهبها المبالغ الآتية:

جنيه	
٢٠	ألف لبناء مدرسة زراعيّة
١٠٠	ألف لانشاء طراد حربى يسمى باسمه
٢٠	ألف لترقية العلوم والمعارف والصنائع
١٠	ألف لمدرسة الفنون
٢٠	ألف للمتحف الاثرى ببلاده
٣٠	ألف لاعمال نافعة ببلدته

هذا ما فعلهُ ذلك الرجل لامتهِ افلا يعتبر اغنياتنا بعملهِ وفيهم من لا يزال تقدر ثروتهُ بمئات الالوف.

أم لا يزالون مصرون علي استخلاف اولادهم علي اموالهم كي يستنزفها النزلاء في البلاد ليحيوا بها موات بلادهم وتخرب بلادنا.

أو لايخجل الاغنياءُ عندما يذهبون إلي ملجأ العجزة بشبرا التي فيه كل يوم يرون الموائد ممدودة وعليه الاطعمة الشهيّة لمن في ذلك الملجإ من العاجزين والفقراء والبائسين من كل الطوائف والملل. أو لا يخجل امرءً منهم لو زاد ذلك الملجأ ووجد ابن ملتهِ وجنسهِ هو الذى يطعم أكثر من غيره في هذا الملجإ . مع أن منشئُه من غير ملتهِ. أم لا يدركون نقص مروءتهم لو رأوا نساءَ قناصل الدول الجنرالية وعقيلات النزلاء واقفات حول اولئك العجزة يخدمنهم بانفسهنّ ويناولنهم الطعام بأيديهن ولا يستنكفن.

وهذه هي ضروب الصدقة التي كانت تجريها الامة قديماً. وهذه هي الصدقة التي كانت تعطى من امثالهم لفقير عاجز لا سند له ولا قوة عندهُ

نسينا ما كان لنا وتركناهُ فاخذهُ عنّا الأجانب وفعلوه ونسبوه اليهم .

تلك كانت مروّتنا التي كنّا نساعد بها الكسيح الاعمى ونتتشل بها المقعد في الارض والذي ليس لهُ نصير ولا ناصر، ضيعناها فاخذها غيرنا وعقدوا النيّة علي فعل الخير بها.

أما اغنياؤنا فينفقون كما قدمنا نفقات طائلة علي الملاهى والملذات وانواع الترف ويبخلون اذا فتح باب لمساعدة الفقراء ويجتهدون لجلب الوسائط اللازمة للتباعد عن سماع انين الفقراء. خوفاً من تأثير اذهانهم عند سماعهم كلامهم. حتى تزايدت حالة الفقراء سوءًا علي سوءٍ واشتد بهم الضنك ولا ندرى أين الضمائر الحرة التى كانت فيهم قبلاً والرحمة التي عليها مدار العمران وهى منشأ الخير والاحسان، ومن علامات

المسلمين التصدق علي المرضى والبائسين.وما أحلي قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصدقة انها «تطفىء الخطيئة كما يطفى الماءُ النار»

لا جدال ان أغنيا ءَنا ينحطون في ادراك الخير كل يوم عن يوم حتى تأخذهم السنة والنوم وشواهد الحال ظاهرة ودلائلهُ واضحة باهرة فقل الله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

*****

الآباءُ الاغنياءُ في نظر الابناءِ

قلنا في فصل تربية الاولاد ان مضار تمييز الرجل بعض اولادهِ عن بعض مفسد لنظام العائلة موقع للعداوة والبغضاء بين الاسرة وبالاخص بين الاخوة. اذ يتولد من هذا التفضيل نفور تستحكم حلقاتهُ ما دام الاخوان في قيد الحياة والسبب في ذلك انهُ لو غضب احدهم علي ولدهِ او ابنتهِ واراد أن يتشفى منهما يُفضّل أحدهما علي الآخر وهذه دون ريب جناية من الوالد يأتيها للتشفى والانتقام ولا يدرى عواقبها الوخيمة فتربو نفس المفضّل علي حب الخيلاءِ والكبرياء علي اخوتهِ واخوانهِ فيتيهُ في دنيا الغرور والخسران.

ثم يتطرق في نفسه الميل إلي السيئات معرضاً عما سوى ذلك نابذاً اياه ظهريًا قال احد الفلاسفة «ان فطرة الولد مركبة من متضادات لا تفتر عن اثارة معترك بين نفسه وجسده وان احدي جهتيهِ لا تزال راجحة تارة ومرجوحة أخرى حتى اذا تغلّبت احداهما علي الأخرى رسخ اما في الصلاح واما في الطلاح وانبتت سائر افعاله بعد ذلك علي الركن الذى نشأ عليه وان غاية التربية ان تستظهر جهة الصَلاح حتى يكون لها الغلب علي جهة الطلاح»

وذلك القول لا يدرك لهُ الاغنياء منا معنى ولذا تراهم عاملين علي ضدهِ في ابعاد اولادهم عن التربية وتفضيل الصلاح علي الطلاح. فكان

نصيبهم غير ما تقدّم انهم اصبحوا وهم متأثرون من اولادهم متأففون من سوء سلوكهم شاكون دواماً من عدم احترامهم لشخصهم وهم الكبار حتى انك لترى عدداً منهم ليس بالقليل يميل في حياته وقبل مماته الي ايقاف املاكه أو تقسيمها امام عينيه علي الورثة والمستحقين خوفاً من ان اولادهُ يبددون ويبذرون ثروتهم فتخرب بيوتهم العامرة وفقاً لما شاهدوهُ من اولاد اصحابهم الذين توفوا في زمنهم أو شفقة منهم لئلا يموتوا والابن يقوم من بعدهم معارضاً لزوجة ابيه قائلاً انها ليست بزوجة شرعيّة كما جرى كثيراً من اولاد الاغنياء الذين ادعوا ذلك ووافقهم البعض من رجال النفاق شاهدين بذلك.

والخلاصة انهُ بفقد التربية والتعليم اصبح الوالد الغنى يخشى سطوة الولد حتى انهُ يخافهُ اذا وقف امامهُ واراد نصحهُ واستلفات نظره لحالته. ولقد وصلت الحالة مع البعض أن يكتب لابنه ما يريد ويجعل الواسطة الخدم في توصيل المكاتيب . وهذا شئٌ جديد لازم أكثرهم وعن قريب يصبح شاملاً للكل وعلتهُ خوف الوالد شر الولد عند مواجهته فيهان علي كبره ويسمع اقوالاً والفاظاً ما سمعها قط في صغره. والاً لو كان الابناءُ عارفين فضل الآباء واقفين علي نصوص الدين واوامره كقوله تعالى (ولا تقل لهما أفٌ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً) الآية. لكانوا في سعادة حقيقيّة وحياة فضلى. عوضاً عن مقابلة الابن اباهُ ولسان حالهما يقول - يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين - وما يثبت هذا القول وهو مما علق بخاطري واثبتهُ النظر في مطالعتي لجريدة مصباح الشرق الاغر في احد اعدادها.

من ان اولاد الاغنياء والامراء يتمنون الموت لابائهم. حدث ان احدهم استطال عمر ابيه وملَّ الانتظار ليوم الفرج. فاقترض من احد الصيارفة اربعة آلاف جنيهاً ليقوم بسدادها لهُ اضعافاً مضاعفة مما سيرثُه بعد وفاة أبيه. ثم اشترى من هذا المبلغ عربة عالية من آخر طراز ودوام التنزه

عليها في شوارع العاصمة وكان يذهب بها أيضاً إلي الاسكندريّة كذلك. ولكن لسوءِ طالعه لم يمت ابوهُ وكان المبلغ قد نفد منهُ فاخذ الولد والصيرفي يعللان النفس بقرب الامل وحلول الاجل ليدفن الابن اباهُ ويعاود تبديد ما سيرثه منهُ. هذا هو حال الآباءِ الاغنياءِ مع الابناءِ في هذه الأيام.

أما الأمهات فهنَّ مع اولادهنَّ في تعاسة وشقاءٍ هنَّ أمام اولادهنَّ ضعيفات الحيل والحيلة تراهنَّ مرذولات محتقرات عرضة للسب واللعن كل يوم حتى انهنَّ كثيراً ما يضربنَ حدثني صديق عن ولد وامه قال:

كان الابن مرة في حاجة كبيرة إلي المال فذهب إلي امهِ وبيدهِ الفرد المسدس يصوبهُ الي فمه مهدداً اياها بقوله ان لم تعطني عليَ الفورِ مبلغ .... لأصرف واتنزه بهِ والاَّ فانا قاتلكِ وقاتلَ نفسي دون ريب.

وما ذهب من لدنها الأ وهو مستحصل علي ما طلب. فضلاً عن اخذه حلاها حلية بعد أخرى حتى أصبحت وهي لا تملك شيئاً. اللهُمَّ الأصيفة الاستعاذة منهُ والاستنجاد بالله من شرهِ. هذا حال الآباءِ أمام الابناءِ فليتدبر المؤمن أو يقول

لكَ الحمد أما ما نحب فلا نرى ونبصر ما لا نشتهي فلك الحمدُ

الأغنياء والموت

كل امـرئٍ مصبح فـي اهـله   والمـوت ادنى من شراك نعله

قد حدد الله لنا الاعمار كما حدد لنا الارزاق. والدين بيّن ذلك في كتبه اذ مهما طال عمر امرئ فلابد وان يموت ولو تحصّن منهُ في امنع المعاقل. والموت لابدّ ان يشربهُ كلٌ منا. فيوماً يقصف هذا الغصن غضاً رطيباً. ويوماً يودى بذلك الكهل وهو في ارذل العمر. سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً. والحزن علي الميت فطرى في النفس خصوصاً لموت حديثى السن، فانهُ مرُ المذاق علي الاحباب والاصحاب. ولكن الله قد علمنا بلسان رسوله الصادق الامين ان لكل أجل كتاباً وان الروح لابد وان تفارق الجسد مهما طال الامد. وامرنا الله في الكتاب ان نعمل صالحاً لنلقى في الدار الآخرة مثلهُ ولنعيش مع السعداء والصالحين، والعاقل من عرف ان هذه الكوارث وتلك الحوادث لا ريب في انها من قضائه جل وعلا والأولى بمن يصاب بالنرازل ان يصبر لها .ويتوكل علي الله وان يستسلم لارادته سبحانه وتعالي . «ان الأرض لله يورثها من يشاءُ من عباده»

نعم يحيى المرءُ بين أهله واقربائه فلا يكون لهُ تأثير ادبيٌ بينهم (الاَّ عند القليل منهم وهم المدركون غاية حياته العالمون حقيقة وجدانه أما في الرجال فالأب الأول والأخ الثاني وفي النساء فالزوجة الثالثة وتتبعانها الامَ رالأخت ومن بقى من الأهل والقرابة) فتأثير وجوده بينهم يكون . القرب منهم اليه. والاَّ فتأمل ذلك في نفسك - اذ الانسان احسن درس للانسان - تجد صحة ما نشير اليه .

انظر يوم تأخرك عن وقت حضورك الي البيت تعلم انهُ قد تململ والدك واخوك وكلٌ منهما يبحث عنك وزوجتك وامك حزينتان لبعدك فاذا كان ذلك كما تقول فكم يكون مقدار تأثير غيابك الذي لا رجوع لهُ حين لا ينفع فيك الحزن ولا يغنى عنك البكاء والنحيب حقًا أن التأثير والحزن يكونان شاملين الكل بلا امتراء.

ولكن للحزن مخرجاً يعرف بالصبر بلسمهُ العلم والمعرفة وقد كان هذا البلسم معروفاً عندنا قديماً وشواهدهُ في صدر الاسلام كثيرة لا تقع تحت حصر ولا يأخذها عد.

وكفانا بذلك شاهداً موت الرسول صلي الله عليه وسلم فان الحزن عليه كان غير ما نعرفهُ من اللطم والنواح وشق الجيوب، وقد كان حق الامة حينئذٍ ان تشبع الوجوه لطماً وتستنفد ما في الآماق من الدموع. لو كان في ذلك شيءٌ من الدين، والاً فمن كرسول الله حتي لا تشق عليه الجيوب ولا تسيل لموته الدموع. لو كان في ذلك شيءٌ مما يوجبهُ العلم والمعرفة أو يرضى به الدين.

ولنا بموت أبي بكر الصديق رضى الله عنهُ اعظم دليل واصدق برهان علي ذلك وما اصدق ما قالته السيدة عائشة ابنتهُ علي قبره مما يبين لنا تمسك المسلمات وقتئذٍ بالصبر واليك قولها رضى الله عنها[1] «نضر الله يا ابت وجهك وشكر لك صالح سعيك. فلقد كنت للدنيا مذلاً بادبارك عنها وللآخرة معزاً باقبالك عليها ولئن كان اعظم المصائب بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم رزؤك واكبر الاحداث بعده فقدك. ان كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض منك وأنا منتجزة من الله موعدهُ فيك بالصبر عنك ومستعينة بكثرة الاستغفار لك فسلم الله عليك توديع غير قالية لحياتك ولا زارية علي القضاء فيك» ثم ما قرأناهُ عن مقتل عمر بن الخطاب فاتح البلدان ومشيد أركان الدين اذ لم يحصل شيءٌ من مثل ذلك علي الاطلاق فضلاً عن ان ابنتهُ كانت تحض علي ما فيه راحة المسلمين ويتلو ذلك مقتل عثمان ذى النورين وجامع القرآن الكريم والامام علي كرم الله وجههُ ناشر لواءَ الدين والذائد عن بيضة الاسلام بسيفه وشجاعته. ثم الخلفاءُ من بنى امية والعباس وغيرهم كلهم تُوفوا ولم يجر شيءٌ من امثال ما نراهُ الآن من اعمال الاغنياء في المآتم والاحزان نعم لا.

(١) كتاب مفتاح الأفكار وجه ٨١ .

ننكر ان الاب والاخ لاختبارهما وواسع اطلاعهما ورجاحة عقلهما يخففان عما ألمّ بهما من الاحزان بخلاف الزوجة والام والاخت فانهنّ يكنّ علي الغم والحزن قائمات ولمحاسن فقيدهنّ معددات طول عمرهنّ والادلة كثيرة تقوم علي صحة دعوانا والسبب الاكبر في ذلك ان لم يكن لاختلاطهنّ بالنساء فلقلة فهمهنّ. "..." العلة الوجدانيّة. تراهنّ حينما يموت الميت لا يبتدئنَ بالبكاء حتّى تتوافد اليهنّ الجيران وبالاخص النساء من كل حدب وصوب ناشراتَ الشعور خالعات رداءَ الصون صارخات بصوت منكر دونهُ صوت الحمير. ثم يأخذنَ بالصراخ وتصعيد الزفرات والتظاهر بالندب وسوء المنقلب بما يفتت منهُ القلب وينفطر منهُ الفؤاد.

يعملنَ كل ذلك وهنّ لا يدركنَ معنى ما حلّ باهل الميت من الحيرة والارتباك وان الأولى بهنّ التعزية بكلام يخفف شيئاً من احزانهم ويكفكف دمعة من دموعهم. بل تأتى كل واحدة منهنّ فتجلس في ركن من أركان الدار هذه تندب وهذه تنوح وتلك تفوه بألفاظ تعديد لم يبق منها الشيطان بعد طرده من الجنة ما يندب به نفسهُ. وبينا الرجال يهتمون باحضار ما يلزم لتجهيز الميت ودفنه لا ترى للنساء اهتماماً بغير التهيوء للخروج وراءهُ بهيئة يتبرأ منها الدين والشرع والعقل.

يخرجنَ وهنّ حاسرات الرؤوس مشوّهات الوجوه في حال لم يأمر بها الدين القويم. وبعد ان كانت هذه العوائد القبيحة متبعة في الجاهلية الأولي. مرعيّة الجانب عند المصريين (١) اكتسبها الاسلام منهم وممن عاصرهم وجاورهم من باقى الامم فتمكنت في النفوس الجموحة التي استلبت عنانها من يد العلم والتهذيب تمكن الرذائل واستحكامها في الصدور.

(١) الندب وتشويه الوجوه بالسواد وشق الجيوب من عوائد المصريين القدماء كان هذا الأمر مشهوراً عنهم من عهد قديم تفننوا فيه من عهد الكهنة وغيرهم على طرق شتى واتصل منهم للرومان واليونان وأخذ ذلك عنهم المسلمون عند فتحهم للاقطار المصرية.

ومما يأسف له المسلمون ويغبطون عليه نساءُ اغنياء القبط الآن هو ان الاقباط ابطلوا كل هذه العوائد المأخوذة عنهم ولم يبطلها الاسلام حتي الآن. بل يبسطن أيديهم في اجرة النادبات[1] ولا غرو اذا ظلوا متمسكين بها طول عمرهم وحاضرهم متأخر عن الاقباط وعن باقى الطوائف في التعليم والتربية.

وليس لنا طريقة لمقاومة هذه الآفة سوى طرق المنع دينياً ام مدنيًا ونشر العلوم فيما بيننا.

وما علي اذكياتنا وعلماتنا ونبيهاتنا الا التحريض علي تركها وقد كان فضيلة العلامة الشيخ محمد عبده قدوة لنا في ذلك عند وفاة والدته وكذلك ما فعلهُ نابغتا الاسلام في هذا العصر الفاضلان سعد بك زغلول وأحمد فتحي بك زغلول وغيرهما من الاقتصار علي تشييع الجنازة حسب السنة واقامة المآتم ثلاثة أيام فقط فان ما نراهُ الآن عند موت طفل صغير وما يعمل لهُ من كبير المآتم دليل علي ضعفنا عن احتمال الحوادث التي يقضي بها علينا الله جل وعلا ومخالفتنا لسنته واحكامه ولقول الرسول في احدي تعازيه لمعاذ بن جبل في قوله «أما بعد فعظم الله لك الاجر والهمك الصبر ورزقنا واياك الشكر. ثم أن أنفسنا واهلينا وموالينا من مواهب الله السنيَّة وعوارفه المستودعة نمتع بها إلي أجل معدود وتقبض لوقت معلوم. ثم افترض علينا الشكر اذا اعطى والصبر اذا ابتلى وكان ابنك من مواهب الله الهنيَّة وعوارفهُ المستودعة متعك به في غبطة وسرور وقبضهُ منك باجر كثير الصلاة والرحمة والهدى ان صبرت واحتسبت فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين ان يُحبط جزعك صبرك فتندم علي ما فاتك فلو قدمت علي ثواب مصيبتك لقد اطعت ربك وتجزت موعوده عرفت أن المصيبة قد

(١) للنادبات أجرة عن كل يوم يتناولنها من أهل الميت «غير النقطة» حتي أن بعضهنَّ آحرزن ثروة ليست بقليلة ومن الأسف أن اكثرهن وأشهرهن مسلمات.

قصرت عنهُ واعلم ان الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع احزاناً فاحسن الجزاء وتنجز الموعود وليذهب اسفك ما هو نازل به[1].

أولا يرضي المسلمون أن يؤدوا بعض ما يجب تالله لو لم تكن الأ افعال المحازن والندب لكفى بها موجبة أن نعذب عن آخرنا ونكب في النار علي مناخرنا والله يحكم لا " . لحكمه.

*****

سلوك الأبناء بعد موت الآباء

وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً (قرآن شريف)

اذا قبض الله اليه أحد الأغنياء وترك اولاداً لهُ. يرث الاولاد مال ابيهم وفقاً لما قررتهُ شريعتنا الغراءَ أي يعطى الولد ضعف ما يعطى للبنت والغاية منهُ كما هو معلوم حفظ الثروة في العائلة بالعصبيةُ

وكل ذلك نافع لمن يتدبر غاية الشريعة السمحاء ولكنى أقول آسفاً ان حاضر كل غاية شريفة قد انعكست فينا لسبب الجهل المستولى علي النفوس لفقد العلم والتهذيب الذي كنا نتلقاهُ علي الخطة التي كنا سائرين عليها قبلاً حتى انا لا نغالى لو قلنا ان المتأمل البصير قد يتأكد لديه قرب انحلال فئة الاغنياء. اذ يري الاخوة منهم لا يكادون ينتهون من مأتم والديهم الأ وقد اخذ كلٌ منهم في تبديد ما آل اليه من ثروة ابيه وعكف علي مصاحبة كثيرٍ من المتملقين الذين هم أكبر الآفات المسببةَ لابتزاز الثروة وذهابها ادراج الرياح. مما لا يخلو شاب غنى من جماعة منهم. فيلتفون حولهُ لسلب ماله بطرائق الغش والتمليق الكاذب. مثل جماعة الأجانب وبعض الوطنيين من المنحطين في مهاوى الضعة والابتذال المنغمسين في حمأة الرذائل والقبائح. وهؤلاء يتلقون اولاد الاغنياء بوجوه

(١) مفتاح الأفكار صحيفة ٧٥ .

هاشةً باشة حتى أنه ليصدق فيهم القول:

تقلب في الآفاق صلاً كأنما　　　يقلب في فكيهِ شقة مبرد

يشيرون عليهم بما فيهِ ضياع مالهم وشرفهم. وانتهاك حرمة آدابهم ومبادئهم. ان كان لهم آداب ومبادئ. وان اراد القارئ ان يعلم حال الشبان الاغنياء فليرسل رائد بصيرته الي ما نقصهُ عليه وليعمل مطايا رويته وقوة فكرهِ وادراكهِ فيه يعلم ما لم يكن يفطن اليهِ وهو يراهُ كل يوم امام عينيه.

قد كان الزائر أو الضيف الذي يدخل بيوت الأغنياء ينشرح صدراً أو يقر عيناً بما يراهُ من رب الدار من الانس والحفاوة والدعة ولين الجانب. فضلاً عما ينشأ في نفسه من حب الخير والفضيلة وعمل الاحسان. اذ كان القوم اسمى فضلاً واوفى كمالاً. ذوو اخلاق مرضيّة محمودة ومكارم الهيّة موهوبة. قد تردى جمهورهم بالآداب وبعدوا عن الرذائل. شأن كل من اعترك مع الدهر وزادتهُ التجارب علماً وخبرةً فسمت معرفتهُ باكتساب ما يحمد والابتعاد عما يذم. نعم لا تنكر ان كل هذا الفضل لم يكن منهم لمجرد انهم كانوا لا يميلون الي عمل ما نراهُ ونشاهده الآن من النشأة الجديدة. فان التمدن الاوربى لم تكن حلقاتهُ مستحكمة في ذلك الحين استحكامها في وقتنا الحاضر، ولكننا نرجع الي القول عنهم ان وسائل تربيتهم كانت اقوي منها الآن، وهذا هو السبب في اخراج النتائج الحسنة زمناً طويلاً إلي عالم الفضل والنبل. اما الآن فقد تغير كل ذلك وعلي الأخص في المشاهد من اولادهم. اذ هم يتنافسون عند مقابلتهم بعضهم بعضاً خارج منازلهم بانهم يضعون التماثيل المجسمة داخل بيوتهم. وهي علي الاغلب مطروح عنها رداءُ الحياء ظاهرة بمظهر قبيح. يرتعد منهُ جسم الاديب ويقشعر جسم المخدرة حياءً وخجلاً. حتى اننا أصبحنا ونحن شديدو القنوط من تحسن امرهم وانقلاب احوالهم وابتعادها بعداً شاسعاً عن مواطن الذوق والمروءة واصبح الزائر وهو يرى تعليق الصور القبيحة المنافية

للآداب في غرف الاستقبال وقاعات الاستراحة فتنقطع به حبال الآمال في امكان اصلاحهم وردعهم عن غواياتهم اذ يرى الغنى يعتنى بها كثيراً فيضعها في الالواح والأطر الثمينة ليتباهى بها علي اهله واخوته ومعارفه وينافس بها اقرانهُ. اما ازياؤها القبيحة المختلفة فمما لا يقع تحت حصر ولا يأخذه عد لكثرته. منهُ العارى والمحجوب. والرقص والمعانق. وكل ذلك يراهُ الامهات والبنات وغيرهّن كلما حانت منهم التفاتة . ولا يخفى ان هذا الامر مكروه في الدين. تمجه الانسانيٌة والآداب. لانهُ مفسد للعفاف مضر بالتقوى والاعراض. ناطق بافصح لسان ان اولئك القوم منطرحين في حمأة الرذيلة. والأ فارني الفرق بين وضع صورة قبيحة ووضع كلمة فصيحة ككلمة «الحلم سيد الاخلاق» أو اين الفرق بين نصب تمثال بدلاً من آية كآية «قل لن يصيبنا الأ ما كتب الله لنا» بل اين عمل الاغنياء قبلاً وانت ترى حاضرهم من الذين شاركوا الغوانى في لباسهنً وتطبّعوا باخلاقهنً ودئبوا علي رص خزائنهم بقنانى المسكر وشغلوا زوايا بيوتهم برصف دنان الخمر. وهم يقضون نهارهم في شرائه بدلاً عن شراء الكتب المفيدة المثقفة للعقول المحسنة للاخلاق. حتى انك لو دخلت بيتَ احدهم لاخذتك الدهشة مما تراهُ. بل اين مساكنهم السالفة التى كانت تضم قبلاً اشباح تلك الشهامة المشتهرة عنهم والامانة المتوارثة عن آبائهم واجدادهم والتى . . . بها من عرف بعضها. حقًا انا لو اردنا ان نتفقدها الآن لما وجدنا لها آثراً. الأ في القليل منهم وما بقى منها فقد عدمت فيهم الأ في مظاهر النقائض فانا نجدها بينهم لتجلى بانواع شتى وغايتها ضياع المال والوقت .

أما ضياع المال فيكفيك ما في بيوتهم من لعب الميسر. واما الوقت فكثيراً ما يكون احدهم مراهناً للآخر ينتظر منها المغنم الصغير. مقابل ضياع وقت ثمين لو صرفوهُ في اصلاح احوالهم لكان لهم خيراً وابقى. واصناف مقامرتهم كثيرة منها ان يقامروا علي مضاربة ديك. أو مناطحة كبش. مقابل مبلغ طفيف. ولذا ترى دورهم لا تخلو من هذه الحيوانات وبجانبها قهاوى الحشيش.

أذكر أني مررت عرضاً علي ساحة رهان معقودة لهذا الغرض. نوجدت جماعة من ابناء ذواتنا ينظرون الي ديكين يتنافران. احدهما لحفيد قائد كان في حملة المرحوم ابراهيم باشا وله في حرب المورة همة مشكورة.والآخر لحشاش من جيرانه فوقفت أجيل النظر والديكان بين هجوم ودفاع والجمع في سكون تام كأن علي رؤسهم الطير وما زلت واقفاً انظر اليهم حتي كلّ ديك الحشاش وفر فتهلل وجه الغنى وطلب قيمة الرهان من مغلوبه وجوانحه ممتلئة فرحاً وقد كان آخذاً في معانقة ديكه الظافر والحشاش غائب العقل حاضر الشخص ساخط علي الزمن والساعة واليوم وقد اوسع الغنى من القول الهراء مما يأباهُ من كان حفيد قائد عظيم شريف المحتد لو كان باقياً في عروقه قليل من دم جده الباسل

أما مناطحة الكبوش فانهم يربونها ويزيدون لها العلف حتي يكون الكبش ذا قوة وبطش ملفوف القرون معوجها حتي اذا ازف وقت المناطحة وعقد الرهان يأتون بكبشيهم وهما اشبه منهما بضبعين فيتصادمان مبتعدين ومتقاربين حتي يخرج من قرونهما الشرر وتتجلى الحال عن فرار احدهما وفوز الآخر الكاسب للرهان واشهر ميادين المضاربة جهة عابدين والمناطحة جهة الحلمية[1] وكل ذلك يدل علي كيفية حفظ الوقت عند ابناء اغنيائنا الآن وفهمهم طرق المعيشة وكيف تحولت من هدوء واستقرار كانا ملازمين للاغنياء الي حركة وكدح في امثال هذه المضاربات المعيبة. ولا يخفى ما لذلك من التأثير اذ يتبع الفقراءُ الاغنياءَ فيقلدونهم فيها لما علم من ان الضعيف يتبع القوى في احواله وعوائده لاعتقاده في نفس القوى الكمال والرجحان.

---

(١) أصل «مضاربة» الديوك ومناطحة الكبوش مأخوذة عن الارنؤوط الذين كانوا بمصر بكثرة من أمد ليس ببعيد وفي بلادهم ساحات معدة لهذا الغرض. اذكر مرة أنى قرأت حكاية قيام قرية علي أخرى وانتشاب القتال بينهما وكان السبب في ذلك «مضاربة»

ولاولاد اغنيائنا تفاخر بالقبيح مشاهد بينهم حتي عند جلوسهم في ؟ندية فانك تراهم يقصون علي بعضهم الرذائل والموبقات التي ارتكبوها يفاخرون بها امثالهم فترى هذا يقص علي الآخر سوءَ سلوكه وكثرة تبذيره ي اماكن المقامرة واللهو ومقدار ما يجود به علي الادنياء والقوادين وذلك شـرح (والفرح ملءُ فؤاده وحواسه) اساليب الخداع التي استخدمها يستخدمها في الاحتيال علي سلب الأموال واهتضام الحقوق - ولو كانت سوال زوجة وحق والدة أو اخوة - وآخر يفتخر في سب آخر وشتمه وضربه ضلاً عن استحلالهم تمزيق اعراض المخدرات وقد يكنَّ زوجات رجال لفاضل من ذوى الوجاهة والفضل مما يدل علي سقوطهم الادبي وانحطاطهم لانساني ويثبت صراحة بعدهم عن الكمالات الادبيَّة والمبادئ الصحيحة تي كانت في آبائهم قبلاً وكانوا يوصون بها بعضهم بعضاً(١)

الديوك انظر مجلة اللطائف الغراء للسنة الرابعة الصفحة ١٦٠ .

١) نذكر هنا شيئاً من بعض ما كتبه البديع إلي أحد أصدقائه وهو وصلت رقعتك يا سيدي والمصاب لعمر الله كبير. وأنت بالجزع جدير، ولكنك بالصبر أجدر، والعزاء عن الأعزاء رشد. كان الغي وقد مات الميت فليحيى الحى. فاشدد علي مالك بالخمس فأنت اليوم غيرك بالأمس. قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك تضحك وتبكي لك. وقد مولك بما ألف بين سراه وسيره، وخلفك فقيراً إلي الله غنياً إلي غيره، وسيعجم الشيطان عودك فان استلانه رماك بقوم يقولون خير المال ما اتلف بين الشراب والشباب، واتفق بين الحباب والأحباب. والعيش بين الاقداح والقداح، ولولا الاستعمال لما أريد المال، فان اطعتهم فاليوم في الشراب وغداً في الخراب. واليوم وأطربا للكاس وغداً وأخرباً من الافلاس.

يا مولاى ذلك الخارج من العود يسميه العاقل نقراً. والجاهل نقراً. وذلك المسموع من الناى هو اليوم في الآذان زمر وغداً في الأبواب سمر. والعمر مع هذه الآلات ساعة. والقنطار في هذا العمل بضاعة. وان لم يجد الشيطان مغمزاً في عودك من هذا الوجه. رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتناقش عينك وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك. وتراه في الآخرة في ميزان غيرك. لا ولكن قصداً بين الطريقين. وميلاً عن الفريقين. لا منع ولا اسراف ، والبخل فقر حاضر وضير عاجل، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه. فليكن لله في مالك قسط. وللمروءة قسط. وفصل الرحم ما استطعت . وقدر إذا قطعت. فلأن تكون في جانب التقدير، خير من أن تكون في جانب

أما عيشتهم مع اقرانهم فعيشة منحطة جداً حشوها اغتياب البعيد وقلق الموجود وكلهم حسادٌ لبعضهم نمامون يتلقطون دائماً بما يعاف سماعهُ الكرام

والمزاج بينهم ليس كما قال سعيد بن العاص - اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء وتركهُ يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين - بل هو مزاح في القبح والسفاهة وقلة الادب وكذلك ضحكهم فانهُ يدل علي وجود الرعونة فيهم. اذا يراد مضحكاتهم هي علي سبيل التعريض ببعض سواءٌ كان كذباً أو حقًا، ولا ينتهي مزاحهم أو ضحكهم بدون سباب بعضهم البعض والسباب عندهم علي ثلاثة انواع. قدح في النسب. وقدح في النفس أو البدن. لعاهة بلي بها المسبوب أو لآفة لحقت به. والثالث في امر فعلهُ أو وقع عليه. ولا ينتهي مزاحهم الأ بمشاجرتهم علي الاغلب وان لم تكن المشاجرة فالخصام. وهم في ذلك دون تلامذة المكاتب والسوقة. وفي بيوت الاغنياء قديماً كانت تهدى إلي الخدم والحواشي الهدايا المختلفة والقصد من ذلك اظهار العواطف وتمكين المحبة القوميّة أو المليّة. حتي كان لا فرق بين الخدم والاولاد واستمر السلف الصالح علي ذلك وهم عليه محافظون وبهذا الاحساس متمسكون. لعلمهم ما لهذه العوائد من المزايا والفوائد حتي اثمرت هذه الامور ثمراً طيباً في الخدم وكانت سبباً لتدرجهم الي السير في الطريق المؤدى للادب والامانة. ولا غروفهم كانوا المدركين لمعنى «قول معروف ومغفرة خيرٌ من صدقة يتبعها أذى» أما الآن وقد ترك خلفهم الحاضر هذه العوائد الحسنة وابتعد عنها وانقبضت يدهُ دونها فقد سقطت منزلته في أعين خدمه لاهتمامه بما يأول لنفعه دون غيره اكثر مما هو واجب عليه اداؤهُ لذلك الغير - ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم - فاصبحنا ونحن نرى ذلك الخادم الحقير يتقاضي ذلك الامير الكبير لاقل هفوة تصدر منهُ اليه وتسبب عن ذلك أن أصبح الخدم فوضى لا وازع لهم وضاع الادب منهم وقلّت الامانة فيهم. ثم انخفضت شركة الأعيان والوجهاء وصراتهم والسبب في كل ذلك

التبذير. انظر مفتاح الأفكار للنثر المختار وجه ٤٦٦ .

الخدم لا غير. ونحن نذكر القارئ بياناً لما نقولهُ بمسألة الامير .... ومقاضاة خادمه لهُ بالاسكندريَّة وذلك الامير ومقاضاة خادمه لهُ بمصر. فلو كان للاغنياء والعظماء منا شفقة ومرحمة علي الخدم والحواشى لما كنا سمعنا شيئاً من هذا والسبب في ذلك كله معاملة العنف بدل اللين والاساءَة عوض الاحسان. ،وقد يكفيك برهاناً ما تراهُ مجسماً أمام نظرك في شهر الصوم والاحسان والزكاة (رمضان) اذ يأمر السيد خدمهُ بعمل اعمال شاقة واشغال متعبة قلَّ ان يأمر بها في غير الصوم وامر العدائين «القمشجية» ظاهر لكل ذى عينين وهو يدل علي سوء معاملتهم. فان مع معرفة احدهم بصوم «السائس» طول نهاره يأتيه عصراً ويأمرهُ باعداد العربة فيذهب مثلاً من الناصريَّة للعباسيَّة او من الجماليَّة للجزيرة ولا تأخذهم الشفقة «ما داموا من الذين يحبون العاجلة» و«السائس» يعدو وهو يخط من التعب امام العربة كأن هذه لا تمشي ولا يكون جريها حثيثاً ما لم يعدُ هذا «السائس» امامها[1] فاين الحنان بعد هذا كله واين الشفقة والشهامة التى كانت تعرف فيهم قبلاً. قل لى بعيشك هل هؤلاء القوم ممن قيل عنهم «الهينون اللينون» بعد ما ذكر أو هم الذين يزينون اعمالهم بزينة الرفق التي كانوا يوصفون بها قبلاً؟؟

هذا ودلائل الكسل ظاهرة ظهوراً واضحاً عليهم فهم النائمون نهاراً القائمون ليلاً أي عكس ما اعتادت عليه النفوس منذ خلقتها حتى ان الفقير ليأبى ان يكون غنيًا كسولاً مثل هؤلاء ولا يرضى بالغنى مع ما في النفس من الطمع. ومن لم يعلم شيئاً من كسلهم وانواعه فلينظرهم في متنزهاتهم يرهم كسالى علي ظهور الخيل يتباهون بركوبها وهم أجبن من النساء علي متونها.

(١) ومن العجيب أنهم ينعلون أرجل أفراسهم ويتركون العدائين يمشون حفاة فوق الرمضاء وحصي الغبراء في قيظ البلاد الشديد. وقد تسبب من هؤلاء العدائين مشاكل كثيرة بين الأمراء والأجانب.

وقد فشت عدوى الكسل بخيلهم فهى ناعسة لا همة لها في المسير كأنها أن سبقتهم حماسة خافت أن يصيبها من قلة العلف ما يكون عقاباً لها علي عدم مجاراتهم والتشبه بهم. وهذا مشاهد فيهم ومخالف لما كان عليه اباؤهم فكيف يرجى منهم بعد هذا للوطن خير ومنفعة وانت لو تأملت فيهم لوجدهتم يهتمون بالاقطار النائية ويحلمون دائماً بالسفر اليها حيث ينفقون القناطير من الذهب في طرق الفساد فعدمت بذلك منفعتهم المرجوة للبلاد وعدمت فيهم الحماسة القوميّة وانعكس الحال الي ضده.

وكل هذا ما لحقهم وحقك الا من جراء اضمحلال التربية الحقة وفعل الآثام واتيان المنكرات حتي اعترى بعضهم أمراض مزمنة عز شفاؤها وذلك لجهلهم كنه العافية فاوقعوا فيها انفسهم ثم أرادوا التنصل منها فما أغناهم دواءٌ بعد ذلك. نعم ان كثيراً من الأمراض مما هو تحت طاقة الانسان الحكيم يمكن ازالتها لو وفق لذلك وكان ذا حوطةٍ علي نفسه بصيراً. ولكن أين لهؤلاء الشفاءُ وهم خوفاً من المرض يوقعون انفسهم في المرض ويكونون السبب في جلبه. حتي انك لو عرفت احدهم وهو صحيح البدن قوى العضل وعرفته بعد تملك المرض منهُ لانكرتهُ ولكذبت نفسك فيه. وكأن امراضهم تأتي اليهم غنية بألمها وشدتها حتي انهم لا يبرأون منها الا بازهاق الانفس وخروج الروح وهو داءٌ دويٌّ علي اية حال ذهب بهم. ودليلنا ما نسمع يومياً من موتهم وهم في غضارة الشباب وعنفوان الصبا.

هذا ما ذكرناهُ عن تضييع اوقاتهم الثمينة اما عما يبددون من المال الذى ورثوه عن آبائهم دون تعب ونصب فهو علي كل حال دون حد أو حساب وهم بعد ان يتسلطوا علي تلك الأموال الموروثة يفتحون الخزائن ويملأون حفنة يدهم منها ثم يعطونها للزنادقة من الأجانب وغيرهم وكلما فرغت من التبذير ملأوها من ريع أراضيهم الموروثة عفواً ثم يأخذون في صرفها في سبيل العار والفضيحة وهم لو تعلموا الأخذ والعطاءَ لحفظوا ثروة والديهم أو زادوا عليها ولكفونا تبذيرهم أموالهم علي جماعة يكونون

بالأمس يمدون أيديهم إليهم للتسول وطلب الرفد، وبعد مدة يغنون ويثرون وعلي من أحسن إليهم يتكبرون وهم لو نشأوا علي القول المأثور - اصلحوا أموالكم التى رزقكم الله فان اقلالاً في رفق خير من اكثار في خرق - (١) لما وصلت حالهم إلي ما ترى من انهم يزرعون ويحصدون والاجانب يجبون ويقبضون وهم ينظرون نظر الخامل الابله الذي لا حول لهُ ولا قوة عندهُ. حتى انهم وصلوا إلي درجة هى الجبن أو دونهُ للناقد البصير. والأ كيف نرى ثروتهم في القطر الآن قد تحولت بعد ان كانت لهم ولوالديهم من قبلهم لجماعة الافرنج وهم قد اصبحوا اصحاب الأباعد والمزارع اسماً وأصبح غيرهم أصحابها فعلاً(٢)

وناهيك بما اقدموا عليه أخيراً في لعب البورصة وخسروهُ فيها «بالكنتراتات» وأقل خسارة الفَرد الواحد منهم قد تجاوزت الأثنى عشر ألف جنيهاً، ولا يبعد أن نرى جميع ما لأولاد الأغنياء في قطرنا العزيز قد خرج من أيديهم إلي يد الأجنبي. وهم نيام يبذرون أَموالهم في الأزبكية ينتقلون من محل خمر إلي منزل عهر. ومنها إلي دوائر الميسر والخسر، يدوسون الشرف بأقدامهم ناسين مجد آبائهم لاهين عن حقوق بلادهم غافلين عما يستقبلهم من الأضرار في حياتهم يمر عمرهم ضياعاً بين أقداح الراح ومداعبة الخود الملاح. وكفى أن نسمع عنهم ما ذكر والمال الذي يبددونهُ اسبوعاً يكفى لانشاءِ شركة وطنيَّة تضارع احدي شركات الأجانب الذين هم بين ظهرانينا .

أما حالة بعض الذين نفدت أموالهم من جراءِ سلوكهم هذا الرديءْ فحالة مضحكة مبكية. اذ ترى بعضهم يلتمس الخدمةَ في المصالح الاميريَّةَ . ضارعاً إلي زيد من الناس متشفعاً بعمر وليلحق بوظيفة لا يزيد راتبها

(١) قول لأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) أطلعنى صديق في البنك العقارى علي كشف اجمالى فيه بيان الرهونات المرهونة من أولاد الذوات فعلمت منه أن جميع أولاد الأغنياء علي شفاء جرف هار، وبعضهم حسابه لا يأتي عليه آخر هذه السنة الا وينكشف أمره وتنقلب حالته من نعيم إلي شقاء مقيم.

عن راتب أحد خدمه قبلاً. وأصبح يرضى بذل الخدمة وهو لو عقل لدخل أبواب الرزق الواسعة ولارتفع شأنهُ وعلا قدرهُ ونما فضلهُ. الأ أن حالتهم ووصولهم إلي تعاستهم وإهمالهم لأنفسهم تدفع بهم إلي ما ذكر وترمى بهم إلي ما وراءهُ.

فتراهم يجلسون علي القهاوى والمنتديات الحقيرة التي لم يكن أحد منهم يتنازل من علياء مجده إلى النظر إليها أو الجلوس فيها فيتخذونها لهم مأوى نهاراً وليلاً بعد ان كانوا يظهرون علي الناس بمظهر الابهة والجلال وكنت ترى أحدهم راكباً عربة يستحث الخيل ضرباً بالسياط ويلهبها سيراً حثيثاً حتي تشخص اليه الابصار وتمتد اليه الأعناق أو ممتطياً جواداً من الصافنات الجياد. وكل هؤلاء قد أصبحوا عالة علي أقاربهم من الرجال والنساء يلتمسون الاحسان والاسعاف كل شهر ويوم. وهو درس عظيم لمن يتأملهُ ممن بقى منهم ليقف علي كيفيةُ اخفاق الجاهل ونجاح العاقل وناهيك بالدرس الذى يكتسب بالممارسة والتجارب فانهُ اوقع في النفس من درس يكتسب بالمطالعة. ومن شاءَ ان يعتبر فليشاهد من ذكرناهم وهم بلباس بال ورداءٍ ممزق حتي أنك لو نظرت إلي أحدهم لتذكرت قول القائل

أصبحت كالثوب اللبيس قد اخلقت جِدَّتُهُ منهُ فعاد مذالا

وعلي وجوههم ملامح الفقر والمسكنة بعد ذلك العز وتلك الصولة .
تالله ان النظر اليهم لحقيقة تبين لنا ما لحق بنا من الخزى بعد السرور والعار بعد الافتخار حقًا انا نراهم كل يوم منحدرين إلي منحدر سهل بدلاً من مرتقى صعب حتي أصابهم ما يصيب الأرض المزروعة إذا استولى عليها الشوك والتى لا مناص لها من اضرام النار فيها حتي تصلح ثانيةً بعد أن ترتدي زمناً رداءَ السواد عوضاً عن لونها الطبيعى الجميل والله القاهر فوق عبادهِ.

*****

مقاضاة أولاد الأغنياء

متى وقف القارئُ علي سير وسلوك أولاد الأغنياء السابق بيانهُ لابدَّ ان ليتسائل عن كيفيَّة مقاضاتهم بعضهم البعض اذ لا يعقل أن يكون سيرهم علي نحو ما قدمناه ويخلو من المقاضاة أمام المحاكم. أما نحن فنقول أن قضاياهم تنقسم إلي ثلاثة أقسام قضايا مدنية علي حقوق لهم يقيمها بعضهم علي بعض وهذه لا تعد ولا تحصى ولا غرض لنا فيها وإن كانت أسبابها دنيئة في الغالب.

وقضايا شرعيَّة لاثبات الوراثة أو قدح في الوصايا أو في الوقفيَّة أو لطلاق زوج من زوجته وهذه أيضاً لا يأخذها العد لكثرتها غير أنا نأسف لما ينجم عن هذه القضايا من التلاعب والبلايا التى تجر الويل والخراب وتبدد الأموال في غير أبوابها وسببها سوءُ الظن بين الأهل والأخوة أو ربما كانت لغرض ما .

الأ أن براعتهم في القضايا الآنفة الذكر وكثرة مصاحبتهم لرجال المحاماة جرأتهم علي ولوج أبواب المقاضاة مع اختلاف أنواعها. حتي لا يقال أنهم الأغنياءُ ولكنهم المقصرون عن الوقوف لدى جميع درجات المحاكم فلذا تراهم وقد وجد فيهم من أمد ليس ببعيد خلق الترافع إلى المحاكم الجنائية التى كان لا يدخلها غير القتلة واللصوص من قطاع الطرق والمسالك كما هان عليهم أيضاً المثول لدى محاكم المخالفات بجانب فاسدى الأخلاق وأرباب الشرور والفجور من حمار وحوذى وحمال والأسباب الداعية لهم إلي ذلك هي سيرتهم غير المحمودة وعدم مراعاتهم ما يقتضيه شرفهم من حسن السير والمعاملة كما مرَّ عليك ومن الغريب ان علة كل ذلك النساءُ من مصونات وفاجرات ودليلنا علي ذلك مسألة ذلك الأمير وتلك الحادثة التي كادت تهدم ركناً من أركان العائلة الخديويَّة الكريمة وتؤلم فؤاد كل محب لتلك الأسرة. ومن يتأملها يجد أن سببها النساءُ

ذوات القلوب القاسية والدهاء والتأثير وتنبيه الخواطر التي يهيجها القول ويثيرها الكلام الجارح.

وأما عن النساء العموميات فشواهده عديدة تقع كل يوم منها ما حصل بين أولاد الذوات في محل «بوديجا» بسبب مشاحنة علي امرأة عموميّة اوربيّة وقفوا بسببها أمام المحاكم المذكورة بجلالهم الحاضر وعزمهم المشاهد فما اغني ما ذكر أمام الحق والقانون شيئاً بل حوكموا علي ما فرط منهم ولا تقتصر حالهم علي ما ذكر بل ان منهم من يعتدى ويتطاول علي رجال الضبط وقد كان لبعضهم اعتداءً فحوكموا عليه.

ومنهم من يحاكم لتعديه علي المارة لمصادمتهم اياهم بخيولهم وعرباتهم في روحاتهم وغدواتهم كما انهم يسبون بعضهم بعضاً ثم يذهبون لمحاكم المخالفات لتفصل بينهم كما حدث ذلك بين خال وابن اخته فاذا حوكم الخال وحكم عليه تفاقم الخطب بينهم وازداد النفور استحكاماً فيتسع الخرق ويشيع بعضهم عن بعض امور الخلل في إدارة الأموال وضبط الأشغال ويؤدى بهم ذلك إلي طلب الحجر من كلٍّ منهم علي صاحبه. وما جرّ هذه الأمور الا عدم وجود المبادئ الصحيحة في السواد الأعظم منهم ولو شئنا الاتيان علي ذكر كل قضاياهم لطال بنا المقام فاجتزأنا بما تقدم وحسبنا ذلك دليلاً كافياً علي فساد أحوالهم وهل بعدهُ دليل علي سر انحطاطهم وخراب أنفسهم بأنفسهم وسقوطهم من عالى المجد إلي هاوية الخراب وشواهد الحال ظاهرة للمتأمل.

* * * * *

بيوت الأغنياء الخربة أخيراً

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾

- قرآن شريف -

تعفو الرسوم والاطلال. فلا يبقى لها أثر ولا عين، وتشاد الدور الشاهقة والصروح الباذخة فلا يمضى عليها حين من الزمن حتى تصبح معالم دارسة. وكأنى بأبناء الأغنياء منا قد ادركوا هذه الحقيقة فوطنوا النفس علي بذل كل نفيس ورخيص لديهم في طرق حرمها الله فاعطوا النفس مداها ونفس المرء امارة «بالسوء» وباتوا يكيلون الأموال جزافاً انفاقاً علي الملذات والشهوات وكان من أمرهم انهم حرموا لذة الراحة والوسن ومن أمر صروحهم الباذخة انها لعبت بها أيدى الدمار والخراب فأوى إليها ألبوم ونعق فيها الغراب فصدقت فيهم كلمة الله (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) درست تلك الدور في سنوات عددها أقل من عدد الأصابع ففقدت البلاد والأمة بخرابها ما فقدت. أقول هذا وأنا أقصد أمتى التى فقدت أبناءها الذين كانت تعلق الآمال بهم. أبناء خالتهم بررة صالحين فكانوا لها من العاقين الضارين المفسدين. ولدوا في سعادة ونعمة ورخاء. واذا لم يكن لهم من المنح الجزيلة سوى أنهم قادرون علي أن يحصلوا علي مرغوبهم متى راموا تثقيف عقولهم لكفى بها نعمة يحسدهم عليها الملايين من أبناء الفقراء المساكين. بل يحسدهم عليها من هم أقل منهم غنى وثروة لكنهم تاهوا في بيداء الملاذ فنكبوا عن الصراط المستقيم وتورطوا في الانكباب علي البدع وأقل ما يقال في هذه البدع انها تستنزف الدراهم من أيديهم. بدع جاءنا بها الفرنجة كما مرَّ بك أيها القارئ. وأهم ما يكلم الفؤاد تحسراً وأسفاً عليهم أن بعضهم منذ خمسة

سنوات كانوا يملكون دوراً تطاول السماء ارتفاعاً فباتوا الآن يفتشون عن بيوت من كانوا مماليك لابائهم لكى يشتروها ويسكنوا فيها أو انهم يسكنون في الفنادق بدلاً من تلك السرايات الباذخات وإذا لم يكن للمرء زاجرٌ من نفسه فلا يردعهُ رادع ورحم الله القائل «لا ترجع الانفس عن غيها وما لم يكن منها لها زاجر» ساروا علي هوى اراداتهم وكلما مرَّ بهم يوم زاد بهم الميل إلي احترام المنكرات والتورط في الموبقات إلي أن ذهبت ثروتهم كذهاب أمس الدابر ولم يبق لهم في الحياة مطمع الأ الرمس وعين تبصر الاعداء وقلب ممتلئٌ اسي وتحسراً. أقول هذا واعني بهؤلاء الشبان أبناء الأغنياء المسلمين خصوصاً والمصريين عموماً وأني أخاف علي شبان الأغنياء أن يكون مصيرهم مثل مصير من تقدمهم من جماعة الجركس والأرنؤود[1] ما دمنا وقد أصبحنا أن أفتقدنا أولا أصحاب هاتيك الدور وهم سادة الأمة وسراتها قلَّ أن نستدل عليهم بعد خراب بيوتهم. اللهمَّ إن غاية ما يعرف عنهم بعد طول البحث والاستقراء انهم بله إنزووا في خفايا الأزقة والحوارى. وليس تبديد الثروة وخراب البيوت مقتصراً علي أبناء أعيان القاهرة بل هو عام في كافة مدن القطر وسائر بنادره، ولو شئنا تعداد البيوت التي حاق بها الخراب والتلاشى فكان دمارها عظيماً. أو التي تغيرت معالمها من جراءً فعل أبناء سراتنا لطال بنا الكلام دون أن نسهب في المقال. الأ أننا نرجو القارئَ أنعام النظر في الجدول الآتى الذى جمعناهُ بعد كثرة التعب[2].

(١) أخبرنى فاضل وجيه من له في الوجاهة أثر يذكر أن الباقى من جماعة الجركس والأرنؤود الذين كان لهم الصول والطول بمصر ١٥ من الأولين و٣ من الآخرين.

(٢) أعتمدت في جمع هذا الجدول علي أصدقائى في جهات القطر سواء كانوا في الوجه البحرى أو القبلى وقد طرحت منه جزءاً عظيماً تخفيفاً للبلوى.

جدول

بيان عدد البيوت التي خربت في أثناءِ السنوات الخمس الماضية

وجه قبلى	وجه بحرى	الإسكندرية	مصر	
١	٢	٦	٢١	بيوت أمراء وعظماء
--	--	--	٣	وزراء
٦	٧	٩	١٩	وجهاء
١٩	٢١	٢٠	٤١	تجار
٣٤	٩٢	--	--	عمد ومشايخ
١٥	١٩	٢	٧	كبار ومزارعين
١	٤	٥	٩	علماء

٣٦٣ المجموع العمومى

هذا والمجموع العمومى ٣٦٣ بيتاً خربت كلها في الخمس سنوات الأخيرة. والناظر بعين البصيرة إلي هذا الجدول تتجلى لهُ هذه الحقيقة وهى أنهُ في كل خمسة أيام تمر علينا يخرب بيت من بيوت الأغنياءِ. فهل نحتاج إلي دليل اعظم من هذا علي انحطاط ابناءِ الأغنياء عن الآباء والحفدة عن الأجداد حتي صح فيهم قول الشاعر

«نعم الجدود ولكن بئس من ولدوا»

★ ★ ★ ★ ★

المجالس الحسبية وأولاد الأغنياء

أنشئت المجالس الحسبية لغرض سامٍ وفائدة جليلة فأقل ما فيه أنها شكيمة الجهال ووازع المبذرين لأنها تحجز علي من لا يحسن التصرف في ماله أما لعاهة فيه أو لعادة ذميمة اعتادها وتغل يديه عن التبذير رحمة به وشفقة علي عائلته وحفظاً لما بقى من ماله وتدربه علي الاقتصاد في المعيشة حتَّى يقوِّم اعوجاجهُ والأ بقى تحت سيطرتها إلي ما شاءَ الله. وقد جاءت المجالس الحسبية عندنا بفائدة لا تنكر الأ أنها لم تؤدِّ تمام المطلوب منها. نعم انها حجرت علي سيئي التصرف والمسرفين ولكنها لم تأتِ ذلك الأ بعد أن كادت الأموال تنفد واستفحل الأمر إلي حد يوشك أن لا يرجى معهُ تدارك ولا اصلاح. وما ذلك الأ لعدم الاهتداءِ إلي طريقة كافلة لاتم النجاح.

ومن حقوق هذه المجالس تنصيب الاوصياءِ وتعيين القوام وتقدير المال اللازم لاحتياجات المحجور عليهم. ويشترط علي من ولى رئاسة مجلس منها ألأ يألو جهداً في اتخاذ الذرائع الفعالة لنجاح سير المجلس واصلاح حال المحجور عليهم لانهُ اختُصَّ بثقة عظيمة واستودع امانة كبيرة. ولا يقوم باعباءِ هذه المهمة الأ كل خادم أمين صادق في خدمته لأن لكل محجور عليه مسائل متعددة وقصصاً متفرقة ففيهم أبناء امراءَ وعلماءَ وفيهم فقراءُ وأبرياءُ ولكل من هؤلاء طرق ومعاملات تختلف باختلاف أصله وحالتهُ وعيشته في الحياة. فالمسأوليَّة علي المجالس الحسبيَّة عظيمة ان لم تقم بواجباتها حق القيام ولم تدقق البحث في كل أمر يعرض عليها اذ لا يخفى أن المطامع والأغراض تبعث قوماً علي جر غيرهم إلي المجالس حسداً وبغضاً أو تشفياً وانتقاماً وكثيراً ما يكون ذلك بين الأقرباءِ

والانسباء كما يظهر لمن يتأمل أمر المجالس الحسبيّة في هذه الأيام. وهذه الأغراض وتلك المطامع زادت في تشويش أعمال المجالس وأفسدت عملها مع حسن قصدها حتى أصبحت عرضة لسوء الظن وهدفاً للقيل والقال. وللناس أن يتقولوا ما شاؤا ويظنوا ما أرادوا ما داموا يسمعون عن دخل بعض أولاد الأمراء السنوى ولا يعلمون الحقيقة ويبلغهم أن أولئك الامراءَ. تركوا لأولادهم المحجور عليهم ثروة لا تنفد والمجالس الحسبيّة تكتم خبرهم بعد فحص أمورهم ولا تشهر أسباب أسرافهم ولا تبين سوءَ سلوكهم وطرق استنزاف ثروتهم ليعلم الناس ما جرى لأولاد الأغنياء ويعرفوا الأسباب التى طوحت بهم في مهاوى الديون ولا حرج علي المجالس الحسبية إذا افشت أسرارهم تبصرة وذكرى لمن بقى منهم والاَّ تحكم الداءُ العياءُ فيهم كلهم قبل أن يبادر حكماء الأمة إلي تلافيه ومنعه عن أن ينخر عظامهم ويوردهم حتفهم. ثم ان اعلان هذه المجالس الحسبية لاعمالها يعد خدمة للجمهور عموماً والتجار خصوصاً لأنهُ يحذرهم من الوقوع في اشراكهم.

ولقد قلنا ان للمجالس حق تعيين القوام والأوصياء علي من يطلب الحجر عليهم الاَّ اننا لو تأملنا لرأينا أولئك الذين يعينون لمثل هذه الأمور يحتاجون هم أنفسهم إلي أوصياء. ولا يعدم المحجور عليه فرصة من الزمان ينتهزها وان طال توقع سنوحها ما دام له جماعة يشهدون أمام المجلس بحسن سلوكه وقدرته علي ادارة اعماله بنفسه تذرّعاً إلي رفع الحجر عنهُ. وكم من مرة قبلت تلك المجالس أمثال هذه الشهادات وأطلقت سراح المحجور عليهم ثم حجرت عليهم ثانية وعينت القوّام والأوصياءَ. ولقد قابلتُ أخيراً سعادة الهمام الفاضل محمد ماهر باشا محافظ مصر ورئيس المجلس الحسبي لمعرفة عدد أولاد الأغنياء المحجور عليهم فاطلعنى حفظهُ الله علي دفتر للمجلس الحسبي فيه اسماءُ من ينيفون علي المئتين من أولاد الأمراء والباشوات والتجار والوجهاء والأغنياء المحجور عليهم. بعضهم حجر عليهم لأنهم أضاعوا أموالهم في المقامرة ومغازلة الحسان،

وبعضهم علي زمرة من المتشردين الأفرنج وبعضهم لادمان المسكر والعربدة في المراقص والمفاجر وبعضهم لغير ذلك من المعرات. وكنت أود نشر أسمائهم لولا خوف الإطالة وتكدير المطالع وإطاعة أمر من إشارته واجبة الإطاعة.

فإذا فرضنا ان كلاً من هؤلاء المئتى شاب ترك له أبوه عشرة آلاف جنيه لا غير – مع أن منهم من ترك له والده المائة والمائتى ألف من الجنيهات – بلغ مجموع ذلك مبلغاً كبيراً أي مليون جنيه أو عشرة أضعاف ثمن شركة البواخر التي بكتها الجرائد. أو ثمن سدس أطيان الدائرة السنيّة أو نصف ما أنفق علي فتح السودان وانقاذ أهله من أسر المهدى بعد ما قضوا فيه ١٥ عاماً. أو تسعة أضعاف رأسمال شركة بسنديلة أو الترامواي في القاهرة.

ويا ليت ذلك كان قاصراً علي الذكور من أبناء الأغنياء. بل قد عم أيضاً الإناث منهم. فانى اطلعت علي تقرير فيه ما يقرب من أسماء الستين امرأة وكلهن محجور عليهنّ لما اتينهُ من طرق الاسراف والتبذير أو لما اصبنَ به من العاهات والأمراض.

وهؤلاء المحجور عليهم قد خرجت بيوتهم وكانت قبلاً عامرة والعلة في جميع ما ذكر نخر الجهل لعظامهم باهمال تربيتهم التربية الحقة المفيدة التي تجعل الانسان انساناً وتخلد له أحسن الذكر وأجمل الأثر في حياته وبعد مماته. وعلم الله أن حالة أغنيائنا جديرة أن تسح العين الدمع مدراراً فحسبنا الله ونعم الوكيل. هذا ولقد سعيت جهدى لمعرفة عدد أولاد الأغنياء المحجور عليهم في المحافظات والمديريات فما أمكننى الوقوف علي غير ما يأتى بيانهُ ادناهُ.

عدد	
١٩	محافظة الاسكندرية
٢	محافظة القنال
٩	مديرية البحيرة
١٨	محافظة الغربية
١٢	محافظة الشرقية
١١	محافظة المنوفية
٣	محافظة القليوبية
٦	محافظة الدقهلية
٢	محافظة الجيزة
٢	محافظة الفيوم
٣	محافظة بنى سويف
٤	محافظة المنيا
٣	محافظة أسيوط «من عائلة واحدة»
٣	محافظة جرجا

فتأمل أيها القارئُ واحكم بما شئت تجد كيف تقرض أولاد الأغنياءِ الأعمار وتهدم العمارة والأعمار، وقل معى يا لها محنة ما أضرها وفتنةَ ما أعظم شرها وقانا الله ذلك وارشد من بقى منهم لاصلاح حاله وصيانة ماله والحرص علي تدبير شؤونه وانتظام معيشته والسعى وراءَ ما يخلد مجداً باقياً وعزاً دائماً.

ولله عاقبة الأمور

القسم الثانى

في الوسط

* * * * *

وسط الأمة

قد تقدم لنا أننا ذكرنا الطبقة العليا من الأمة المصرية. وهم الذين يأتى لهم رزقهم من أطيانهم أو من مرتباتهم أو من أوقاف آبائهم ومتروكات مورثيهم. وبقى علينا أن نذكر أواسط الأمة المصرية وهم الذي يشتغلون لنفع الأمة بالأعمال كالتجارة والزراعة والصناعة. كما أن منهم من يشتغل بالعلم والتأليف والاستخدام وغير ذلك. وهؤلاء في الحقيقة زهرة الأمة وزينتها وانما توزن بهم لأنهم إذا حدث في الأمة نجاح فانما يكون منهم. وهم المعول عليهم في الحقيقة لارتقاء الأمة وتهذيبها وتعليمها. اذ هم كالأعضاء العاملة في الجسم. وهم الذين يسعون لاكتساب الفضائل فان ظهر نجاح في الطبقة السفلى فبإنهاضهم. وان ظهر تهذيب في الاخلاق من الطبقة المثرية فباجتنابهم لانهم هم الوسط بين الطبقتين تستفيد كل طبقة منهم وفي الحديث الشريف «خير الأمور أوساطها» لانهم خلصوا من الإفراط والتفريط فليس فيهم خمول الطبقة العليا، ولا جهل الطبقة السفلى. فان حلّ في هذه الطبقة تقصير فقد خسرت الأمة وأصبحت لا نجاح لها. وليس في قوة الطبقة العليا أن تخطو خطو الطبقة الوسطى فتهذب الطبقة الدنيا. ومنزلة الوسط فى الأمة منزلة المهيمن على الطبقتين. ولذلك كثيراً ما أرسل الله الرسل الذين جعلهم أعلام الهدى للخلق من الطبقة الوسطى. ففيهم يمكن عقد الاخاء وهو أصل التعاون في جميع الأعمال الدنيويّة والأخرويّة. لأن الحسد فيهم أقل منهُ في الطبقة العليا. وكفى أنه لم يقم عالم متشرع ولا قاض قانونى ولا محام بارع ولا

مـهندس رياضـي ولا ـ ـ ديني ولا ولا. إلا كان من أواسط الأمـة الذين جمعتهم روابط العصبية. والخلاصة أن جماعة الوسط يمتازون بالقوة عقلاً وبدنا وعاطفة ويتبين لك كل ما ذكر مما سنذكره في الأبواب الآتية.

* * * * *

الجامع الأزهر والأزهريون

الجامع الأزهر وضع أساسه مملوك رومي من أهالي صقلية. وهو جوهر بن عبد الله الرومي المغربي مولى المعز لدين الله العبيدي واخر من شاد بنيانهُ عبد الرحمن كتخدا ابن حسن جاويش القازدغلي وذلك قبل الرواق العباسي الجديد. أما جوهر الرومي فقصد مصر بعد موت حاكمها كافور الاخشيدي سنة ٣٥٨ للهجرة واستلمها بعد قتال قليل وخطط القاهرة وبنى الجامع الأزهر علي ما قاله جمهور المؤرخين. شرع في بنائه لست بقين من جماد الأولى سنة ٣٥٩ وكمل بناءهُ لتسع خلون من رمضان سنة ٣٦١ وترتب المتصدرون لقراءة العلم فيه سنة ٣٨٠ في عهد العزيز بالله المعز. وعليه فقد جعل هذا الجامع مدرسة للعلم سنة ٩٩٠ للميلاد. وهو أقدم المدارس المشهورة في العالم ولا يوجد في أوربا أقدم منهُ وأكبر في وقتنا الحاضر سوى بضع مدارس. لكن التدريس لم يتصل فيه من ذلك العهد إلي عهدنا الحاضر. فان الحاكم بن العزيز بنى جامعاً كبيراً سنة ٤٠٤ للهجرة ونقل المدرسين من الأزهر اليه ولم يبق في الأزهر الا صلاة الجمعة. ثم اقفلهُ صلاح الدين الأيوبي وبقى مقفلاً إلي أيام الملك الظاهر بيبرس الذي ولي سنة ٦٦٥ للهجرة. أي بقي معطلاً من التدريس نحو مائتين وستين سنة. لكن الخلفاء الفاطميين استمروا علي الاعتناء به وان كان قد نقلوا التدريس منهُ إلي جامع الحاكم. فان الحاكم نفسهُ وقف عليه الفاً وسبعة وستين ديناراً ونصف دينار تدفع له كل سنة من الذهب العين المعزي. وجعل فيه تنوراً من فضة وسبعة عشر قنديلاً من الفضة، وذكر

يوسف أفندى أحمد رسام لجنة الآثار العربية ان في متحف الآثار العربية بجامع الحاكم «الآن» محراباً من الخشب عليه كتابة بالخط الكوفى يقال فيها ما نصه

بسم الله الرحمن الرحيم. حافظوا علي الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين. ان الصلاة كانت علي المؤمنين كتاباً موقوتاً. مما امر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الأزهر الشريف بالقاهرة المعزية مولانا وسيدنا المنصور أبو علي الأمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلي آبائه الطاهرين وابناءَه الأكرمين ابن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين وعلي آبائهم الأئمة الطاهرين الهداة الراشدين وسلم تسليماً كثيراً إلي يوم الدين في شهور سنة ٥١٩ والحمد لله وحدهُ.

وفصل يوسف أفندى أحمد كيفية تجديده في عهد الملك الظاهر بيبرس. قال. ان الأمير عز الدين ايدمر جدد بناءَهُ ورد لهُ ما كان مغتصباً من الحقوق وتبرع له بشيءٍ جزيل من المال وأطلق له مالاً طائلاً من السلطان وشيد الواهى من أركانه وأعلى سقفه ذراعاً بعد أن كان قليل الارتفاع. ثم رمم وجدد بناءَهُ في أزمنة مختلفة وأضيفت إليه أروقة جديدة. ومن الذين اهتموا بتوسيعه وترميمه الملك الأشرف أبو النصر قايتباى والملك الأشرف قانصوه الغورى الذي بنى فيه المنارة المنسوبة اليه وقد كتب عليها ما نصه

«أمر بإنشاء هذه المأذنة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الأشرف قانصوه الغورى عز نصرهُ بمحمد وآله وكان الفراغ من عمل هذا المكان المبارك في شهر شوال المبارك سنة ٩٢٠ من تاريخ النبى «صلي الله عليه وسلم»

وآخر من جدد بنيانه وأضاف إليه إضافات كثيرة قبل العائلة العلويّة عبد الرحمن كتخداابن حسن جاويش القازدغلي وذلك سنة ١١٦٧ للهجرة فانه انشأ فيه الليوان الشرقي المعروف باسمه والمدفون بهً. وبنى رواقاً للصعايدة وجدد المدرسة الطبرسية وانشأ الباب الكبير المشهور بباب المزينيين وانشأ رواقاً للمكاويين والتكروريين. وللعائلة الخديوية الايادى البيضاء في توسيعه وتجديده ولاسيما للجناب الخديوى «عباس حلمي الثانى» ففي عهده بنى الرواق العباسي وأنشئت فيه المكتبة الأزهرية العمومية. وبلغ ما جمع فيها حتى الآن نحو العشرين ألف مجلد تقريباً قال «المقتطف» الأغر بعد ذكره ما تقدم ولو كتب تاريخ الأزهر من حيث بنائه واختلاف الأساليب التي جرى عليها بناؤه ومزخرفوه لملأ كتاباً كبيراً .

وفي الأزهر الآن ٢٦ رواقاً و١٥ حارة ويدرس فيه ٢٣٦ مدرساً ويدرس ٨٨٠٩ طالباً. عددهم بالنسبة إلي المذاهب هكذا.

الجملة	مالكية	شافعية	حنفية	حنابلة	
٢٣٦	٧١	٩٦	٦٦	٣٠	علماء
	٢٠٣٠	٣٨٧٦	٢٦٣٢	٣٥	طلبة علم
٨٨٠٩	٢١٠١	٣٩٧٢	٢٦٩٨	٣٨	

واما مقدار ما ينفق علي الأزهر من خبز ونقود فبيانهُ هكذا

الجرايات يوميا

رغيف

٤٠٥١ وارد من ديون الأوقاف

٧٦٢٣ وارد من أوقاف أهلية.

١١٦٧٤ الجملة يوميا[1] «أما سنوياً فيكون عدد ما يأكلونهُ من الأرغفة ٤٢٦١٠١٠ »

النقود سنويا وارد من الماليّة

مليم	جنيه	مليم	جنيه	
		٥٢٨	٥٨٨٣	لحضرات العلماء وأولاد المتوفين منهم باعتبار كل شهر ٤٩٠ جنيه و٢٩٤ مليماً
		٧٣٧	٠٧٢٧	لحضرات العلماء بدل كسوة سنوية يصرف في شهر رمضان
٢٦٥	٦٩١١			

وارد من ديوان الأوقاف

مليم	جنيه		مليم	جنيه
	٧٠٠	لحضرات العلماء باعتبا كل شهر باعتبار كل شهر	٣٣٣	٥٨
	٦٤٨	لحضرات مدرسى العلوم الرياضية باعتبار كل شهر		٥٤
	٦٣٠	لحضرات معلمى الخط باعتبار كل شهر		٣٠
	٤٦٨	لحضرات مشايخ الأروقة باعتبار كل شهر		٣٩
	١٨٠	لحضرات العلماء علي الوقف الخيري باعتبار كل شهر		١٥
	٠٨٤	باعتبار العلماء علي وقف والدة حسين بك باعتبار كل شهر		٧
١٤٥	٠٣٥	لحضرات العلماء من ثمن غلال سنوى		
	٦٠٠	مكافئات للممتازين بجودة التحصيل من طلبة الأزهر		

(١) قال المستر بنفيلد قنصل أميركا الجنرال السابق بمصر في كتابه تاريخ مصر الحالى – أن العيش الذى يعطى للأزهريين لا يأكلونه كله بل يتصرفون في بعضه بالبيع بواسطة متعهدين يشترونه منهم –

مليم	جنيه	مليم	جنيه	
			٢٠	للكتبخانة الأزهرية
		٢٠٠	١٧٩٨	ماهيات لخدمة الجامع والكتبخانة باعتبار كل شهر ١٤٩ جنيه و ٨٥٠ مليم
			١٥٠	مصروفات إدارة الجامع
		٢٠٠	٤٠٠	للمجاورين علي الوقف الخيرى باعتبار كل شهر ٣٣ جنيه و ٣٥٠ مليم
			٠٤٨	لزاوية العميان
٨٠٦	١٢٢٩٦		٠١٤	لأحياء ليلتى ١٣، ١٤ رمضان

وارد من أوقاف الأورقة

مليم	جنيه	
٤٨٠	٥٠	رواق المغـــاربة
..	٥٠	رواق الصـعـايدة
٦٨٨	٠٤٢	رواق ابن مـعـمـر
	٠٢٧	رواق الشـراقـوه
٤٨	١٢	رواق الحنفـيـة
١٠٥	٠٩٤	رواق الشـــوام
٩١٠	٠٨٦	رواق الاكـــراد
٨٥٥	٥١٦	رواق الاتـــراك
...	٠١١	رواق الحـــرمين
٣٦٠	٠١٣	رواق السلمـانيـة
٦٠٠	٠٠٦	رواق الســنارية
٩٢٠	١٩٦	زاوية العـمـيـان

٣٩٨ ١٥١٢ ٢٠٤ ١٥١٢

٢٤ ٩ ١٣٨

هذا هو تاريخ الأزهر الشريف عن أصدق المصادر بسطناه بايجاز. أما ميزانيته فقد أخذناها من مولانا العلامة الفاضل الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية. أما شيخه الآن فهو الأستاذ الأكبر شيخ الاسلام مولانا الشيخ سليم البشري. والغرض من الأزهر الشريف إنما هو تخريج أهل العلم في الدين والشرع من علماءَ وفقهاءَ ليتفقهوا في الدين ويُفقهوا أهله فيه مستمدين ذلك من الكتاب والسنة علي مذاهب الأئمة الأربعة(١)

وحيث أن الغرض من تعليم الأزهر هو اخراج علماءَ البـاءَ ذوى بصيرة نيّرة وفهم قويم. فالواجب علي المتخرجين منه تهذيب اخلاق الأمة بمعرفتهم التربية الدينية الصحيحة وبما منحوا من العلم النافع واستخراج الفائدة بعد طول بحثهم. والمدارس التي من هذا القبيل نحن أحوج الأمم إليها وهى بالنسبة إلي المدارس الأخرى يجب أن تكون ارقاها درجة واعظمها نفعاً. لأن المتخرجين منها هم قادة الشعب ورؤساؤه ووكلاؤه ولايحسن حال المتخرج إلا إذا كان المتخرج منهُ حسناً. ولكن من الأسف أن المدارس التى من هذا القبيل فضلاً عن قلتها فحاضرها مما يؤسف له ولو كان الأزهر الشريف مقر الرئاسة الدينية ومستودع أحكام الشريعة الغراء والواجب أن تكون حالته الظاهرة والباطنة معادلة لأهمية هذه الدرجة حتي يتجدد فيه ما اندثر من المجد في الأزمنة الماضية. أما وقد أصبح أهله يعدون الفلسَفة كفراً والمنطق زندقة والرياضيات ضلالة والطبيعيات بدعة والكيمياء فرية. ثم يفاخرون بابن رشد وابن سينا وغيرهم مع انهم هم الذين كانوا يشتغلون بتلك العلوم في عصرهم وهم الذين سطعوا بانوارها مشارق الأرض ومغاربها فهذا دليل مهم علي سوءِ حاضرهم ان لم يتداركوه

(١) وهم

	ولادته هجرية سنة	وفاته هجرية سنة
الإمام أبى حنيفة النعمان	٠٨٠	١٥٠
الإمام مالك إبن أنس	٠٩٥	١٧٩
الإمام محمد بن ادريس الشافعى	١٥٠	٢٠٤
الإمام أحمد بن حنبل	١٦٤	٢٤١

بالاصلاح والتحسين. والإزهريون في تعلمهم المسائل العقلية في دائرة ضيقة لا يتزحزحون منها. اذ طرق التعليم في الأزهر الآن مما يعدم اظهار المواهب العقلية في الانسان لانعدام الوسائل التى تفتح للمتعلمين المجال إلي ارتقاء الانسان في عقله واعلاء همته في شؤون حياته وسعادته وذلك لانصراف الاعتناء من المعلمين إلي حفظ القواعد المدونة في الكتب لا إلي التمرين والعمل في الفنون التي يتلقونها. فإنهم يقابلون كل شيء يلزمه الاشتغال بالعقل بأوهام سخيفة نشأوا عليها والظوا بها ولو لم يكن سلفهم الأول مثلهم قبل. وهم في علوم الدين والشريعة أشبه ببغاء يؤدي الإشارة ولا ينفذ الا ما فيها من الاسرار وما انطوت عليه من مناهج الحكمة والقسطاس المستقيم. وكم اعترض عليهم معترض في أمرهم وصاح بهم ان انظروا في تمحيص الحق من الباطل ولا تنظروا في تلك المشاغبات التى لا تجدى نفعاً ولا تدفع ضراً فلا يسمع منهم الأ قولهم «اعتقد ولا تجادل» ولو كانت أحكام ديننا القويم تأمرهم بالنظر في العلم والتبصر في كل شيء. ولا ندرى كيف يكون لنا قوام منهم للنهضة الحقيقيّة والعلم الصحيح وهم محسوبون علي الامة انهم أهل العلم والفهم فيها. وتراهم يحضرون دروسهم علي أمل أنها صناعات يجب عليهم أن ينظروها لا أن يتعلموها لينفعوا بها أنفسهم وأخوانهم كما هو الغرض من العلم والتعليم وقلما يزجر المعلم منهم تلميذه اذا تطاول عليه أو ينصحه اذا اخلّ بالآداب التى ينبغى أن يكون عليها. وكثيراً ما يقع بينهم النزاع بما لا طائل تحتهُ ويفضى إلي الشتم بدلاً عن التى هى أحسن كما هو اللازم بشأن أمثالهم. وحبذا لو تعتنى المشيخة بايجاد مراقبين علي من يحل بآداب العلم أو الدرس والمذاكرة. أو تلزم المدرسين أن يكونوا هم أنفسهم مراقبين علي التلامذة وان يهتموا بنصحهم وتقويم عوجهم حتي يخلص لنا منهم علماء مرشدون وأدباء مهذبون. لا يظنون ان قراءة الاوراد والاحزاب تبعد الجهل من بيننا[1] بل يعلمون ان من الواجب أن يرشدوا الأمة في وقتها الحاضر

(١) أن شمهورش كان صحابيا. وكان يحضر علي المرحوم الشيخ السقا.

إلي ما فيه النفع لها بواسطة نشر العلم في الرسائل والمجلات. مع أن كل طائفة في مصر لها نشرة من سادة علمائها للتعليم وبث الفائدة بما يحسن الاعتقاد في الدين. ويبين حقيقته التي غمضت. وهذا لعمرى منتهى الجبن منهم والاغفال لواجبهم. وما عهدنا في من يعلم العلم أن يجبن عن اظهاره أو يضن بهِ علي اخوانهِ ومن يروم الانتفاع منهُ. هذا ولا يظنن القارئ أن علوم النحو والصرف وما بقى من مشتملات اللغة العربية متقدمة عندهم أو أنهم مجيدون فيها. كلاً بل الحقيقة أنهم مقصرون في الانشاءِ والكتابة فيها ولا يحسنونها وذلك لحفظهم القواعد وحده دون التمرن علي ما وضعت له القواعد عملاً. فهم يجهدون القوى في البحث في القواعد دون تحصيل ملكة العلم التي بها يكون الانسان عالماً حقيقيًا وبها يستغنى عن النظر في القواعد واضاعة الزمن في صحتها وفسادها. فلذا ترى الأكثر منهم ليس لاحدهم مقدرة علي التعبير عن فكرهِ. وهم ان كتبوا ظنَّ القارئُ لكتابتهم انها تعاليق أو شرح علي متن أو تفسير لشيءٍ مبهم. وكفى دليلاً علي انحطاط طرق تعليمهم انه لا ينجح في امتحان العالمية بين هذا الجم الغفير في كل سنة الاَّ ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط. ومثل تفريطهم فى الأنشاء تفريطهم في ضياع أوقاتهم فيما لا يجديهم نفعاً ولا يغنى عنهم شيئاً. فلقد اختلفوا مرة في مسألة صرف «عمر» وقضوا فيها زمناً طويلاً بين أخذ وردّ فى القول بصرف «عمر» وعدمهِ حتى ضاع على بعضهم وقتهُ فى البحث عن هذه الكلمة وسخر منهم كثير من معاصريهم وما انتج البحث في الصرف اضافة حرف أو اهمال حرف. وبقيت كلمة عمر هى هى على ما هى عليهِ كما تركها سيبويه بعد دقة تصريفه وغرابة ترصيفه. ومثل تفريطهم في اوقاتهم تفريطهم في ضياع امتعتهم وكتبهم وملابسهم ودراهمهم فان الزائر للازهر المعمور لا يمر بين عمود وآخر أو خزانة وأخرى الاَّ يجد الاعلانات عن فقدان أشيائهم ملصوقة علي الجدران. ولقد ذهبت أخيراً فعددت عشرة اعلانات احدهم معلناً فيه ضياع كيس

نقود فيه سبعة عشر غرشاً ومليماً وآخر معلناً فيهَ ضياع كتاب «الكفراوى» وآخر ضياع شهادته المدرسية[1] وآخر ضياع دواية نحاس وآخر معلنا بقوله: «يا من لقى منكم جزمة علي درس الشيخ رزق صبح فليسأل علي حسن ابراهيم» وليس للازهريين عناية تذكر بالنظافة وكثيراً ما يراهم الانسان في صحن الجامع يحلقون ويتركون شعر الحلاقة يتطاير في الجامع وهم ينشرون الخبز في الشمس. وقلَّ أن تعرف أجسامهم الماءَ صيفاً أو شتاءَ مع ان النظافة اجدر بهم وأليق ما داموا يقرأون قوله تعالي - وثيابك فطهر والرجز فاهجر - كما أن التربية والآداب فيما بين الكثير مفقودة مع انهما أهم شيءٍ ينبغى أن يكون بينهم حتى يمكنهم أن يعظوا غيرهم ويرشدوه. ومن المعلوم أن فاقد الشيءِ لا يعطيه. ولكن اللعب مع بعضهم بعضاً موجود «ومن نقص في تربية نفسه كيف يتعرض لتربية الخلق» فانك لا تمر بينهم الأ وتسمع سب الام والابِ من شخص لآخر. نعم ان الآداب السامية بينهم ولكن في بطون الكتب التي يقرأونها ولا يعونها. والخلاصة ان حاضر الأزهر محتاج لزيادة الاهتمام به من جميع الامة صغيرها وكبيرها. وهو في حاجة لاستبدال الحصر بالمقاعد والكراسى فان الطلبة قلَّ ان تجد منهم من لم يكن مصاباً بالروماتزم والبواسير وسببه جلوسهم علي البلاط شتاءَ وصيفاً. وحبذا لو تبارى الاغنياء في اهداء ذلك اليه واهداء الكتب التي تلزمه كما اهدى ورثة المرحوم سليمان باشا اباظه

(١) إليك صورة الإعلان المعلن به صاحب الشهادة المدرسية تأتي عليه بالحرف الواحد ليتبين للقارئ تقسير الأزهريين فى الإنشاء والكتابة

اعلان

حضرات المجاورين الفخام

أعلن حرضرات المجاورين الفخام، بأن الشهادة الدراسية الابتدائية تعلقى نحن حافظ أمين ابن أمين اسماعيل المولود في قلما «قليوبية» بتاريخ ١٨٨٣ قد فقدت منى ما بين بيت الشيخ النجاري والبوستة والأزهر فمن لقاها منكم فليكتب اسمه علي الاعلان ويعرفنا عن مكانه في أي جهة وله من الله الأجر ومن صاحبها المحترم الدعاء اناء الليّل وأطراف النهار، ومن قطع هذه الورقة قطعه الله من المكان.

مكتبته الي الجامع الأزهر وهي علي ما يقال نحو الفى مجلد أكثرها من الكتب الخطيّة النادرة الوجود العزيزة المثال. وغير ذلك من الرسائل التى لابد للتعليم منها مثل الكرات الأرضية والفلكيّة والخرايط والاطالس والمجسمات وغير ذلك مما يوجد عند بعض الاغنياء مهملاً ويباع في المزاد بعد وفاتهم بابخس الاثمان. حتى يسهل بذلك علي اللجنة المنوط بها اصلاح التعليم في الجامع الأزهر. ويقوى فيهم حب ما نتمناهُ ويتمناهُ كل مسلم غيور علي الاسلام راغب في ارتقاء العلم بين أهله وأمته والأ فقد تداوت للكل عللهم الأ نحن فعللنا باقية في اندمال

الهمنا الله روح الحكمة والسداد حتي نفقه قول المرشد الاعظم - افضل من يمشى علي الأرض المعلمون والمتعلمون -

* * * * *

العلماء

«قال عليه الصلاة والسلام» من اراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن ارادهما معاً فعليه بالعلم.

ماضى العلماء في الاسلام يظهر منه أنهم كانوا مصابيح للدين يستضاءُ بنبراس هدايتهم للحق اليقين نجوماً للارشاد حلفاء للصدق. هداة للمارق والضال تقام بهم أحكام السنة وتهدم بهم أركان البدعة. تشرق بهم أنوار العدالة وتتحلى بهم وتزهو بأدابهم أندية الفضل مصادر للعفة والنزاهة ويغنينا عن ذكر ذلك أن نتأمل في سير الماضين منهم رحمهم الله. أما خلفهم الآن فقد اهملوا كل ما تقدم وانقطعوا عن العمل بالنصح والارشاد للحق اليقين وأصبح ضنهم بعلمهم علي الأمة غنيها وفقيرها مشهوراً. ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل تناول أولادهم وأحفادهم. فلذا ترى أولادهم يشار إليهم بالبنان في الجهل وسقم الفهم. ولو سألت عن ابن ذاك الشيخ الثاقب البصر والبصيرة الخادم للدين والشرع لساءك ما تعلمهُ

عنه. ولتبين لديك العار والفضيحة من جراء عمل علمائنا الحاضرين لاشتغالهم فيما ليس فيه نفع الأمة والدين بل وتضييعهم لما هو الصق بهم من تهذيب أولادهم وتربيتهم تربية حسنة مع أنهم يعكفون علي تضييع أوقاتهم بما لا يجدى نفعاً ولا يذهب ضراً ولو كانت الأمة غنيها وفقيرها احوج إليهم كي يهدوها إلي الشفاء مما ألم بها مما لم يكن فيها قبلا. في حين أن أكثر أهل الاسلام لا يعرفون من أمور دينهم الا ما ينكرهُ الدين عليهم وفي وقت أصبح الفكر فيه غير سليم من الاضطراب عند البحث فى مسألة دينية. وفي وقت تقلص ذلك العلم اليقينى والمعرفة الصحيحة وانبسط ظلال الجهالة والخرافة حتى تغيرت معالم كل شيء. ودخل في الدين ما الدين بعيدٌ عنهُ وبريءٌ منه. والا فارنى عالماً منهم قام وحض الأمة علي نفع يذكر من مثل حض الناس علي المحبة وترك الشقاق المستولى علي الكل والتفرق الذى أوصلنا إلى أسوأ الأحوال - ولا ترنى تداخل بعضهم لاستفحال الشر وجلب الضر بين الأخ وأخيه ومسائل المواريث فأنه معلومة أمرها - بل أرنى اعتراض البعض منهم علي عدم مبيع الأوقاف للأجانب وغيرهم أو أرنى حض الناس علي دفع مال الزكاة والزكاة واجب أداءَها وهى أحد الأركان الخمس الذي بنى عليها الإسلام وما حض القرآن علي شيء من الأركان حضهُ عليها. وزكاة المال فرض عين عند حولان الحول علي كل مسلم بالغ عاقل مالك للنصاب. أو أرنى من قام ودل الأمة علي الأحاديث الموضوعة ليجتنبوها وهى عندنا تعد بالآلاف وذكر بعضها فاضل أديب(١) وان شئت فقل لا تجد بين العامة والجمهور منتشراً وشائعاً الا الحديث الموضوع. تالله لو كان علماء الاسلام يهتمون بحض الناس علي التمسك بالفضيلة والبعد عن الرذيلة والسير بمخافة الله لما قامت للشرور بين الأمة قائمة ولا انتشر فيها ما نشاهده الآن ونتجرع غصصه وآلامه.

(١) ذكر بعض تلك الأحاديث الموضوعة محمد البشير ظاهر الشاذلى في مجلة الموسوعات عدد ٢٣ جزء ٢ وذكر بعض أسماء الكذابين والمتروكين عند أئمة الحديث والكتب المشحونة بها ولكن يوجد غيرها كثير لم يذكره حضرته.

أما وأكثرهم ضان بمعارفه باخل بعلومه وأفراد الشعب خاصته وعامته في الرذائل قائمون منهمكون فلا عجب اذا دخل في الدين ما ليس منه ولا استغراب ان زادت الآثام إلي الحد الذى يستوجب كدر العقلاء وكل ذى احساس. نعم اسف العقلاء من ذلك كثير ولكن أسفهم من عدم دعوتهم للدين أكثر إذ - الدعوة إلي الدين وبعث البعوث لها من أطراف الأرض إلي أطرافها أمر واجب في الدين الاسلامى فانه لم ينتشر من بطاح مكة إلي حيطان الصين إلي أقصى الغرب إلى مجاهل الجنوب إلي جزائر المحيط الأ بهذه الدعوة محمولة في صدور رجال تجشموا متاعب الأسفار في زمن كان فيه السفر قطعة من العذاب فلم يمنعهم هذا العذاب من الوصول إلي حدود الهند وغيرها خطوة خطوة يصيبهم الظمأ وينهكهم التعب وتنبرى تحتهم أبدان الإبل وتغور أعين المطايا[1] قاموا بهذا امتثالاً لأمر الله بالجهاد في سبيل الله والجهاد ليس السيف وحده والسيف القاضب مخراق لاعب اذا لم تمض الدعوة حقه وجهاد الغى والغواية والجهل والجهالة والهوى والضلالة بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر وهذا هوالجهاد في الله قال تعالى - وجاهدوا في الله حق جهاده - قال المحققون من المفسرين في تفسير هذه الآية - هو أمر بالغزو ومجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر - وعن النبى صلي الله عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال «رجعنا من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر»

هذه كانت سير السلف رضى الله عنهم وهذا كان ديدنهم وهذا كان عملهم في نشر الدين الاسلامي وانارة القلوب بنوره وهداية النفوس بهديه وتطهير الصدور من ادران الضلالة وأوضار الخرافة بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة. ولكن من نكد الدنيا ان خلف من بعدهم خلف انقطعوا عن العمل وقعدوا عن الواجب وركنوا إلي الراحة ووقفوا عند التفاخر

(١) رحم الله عقبة بن نافع القائل عند وصوله بجنوده شمال أفريقيا حتي بلغ المحيط الاطلنطيقى - اللهم رب محمد لولا أن أمواج هذا البحر تعوقنى للذهبت لانشر مجد اسمك العظيم في أقصي حدود الدنيا.

والتشامخ بأعمال غيرهم حتي اضمحل ذلك التفاخر علي طول الزمن بانقطاع العمل والعمل بنيان اذا لم يسنده عمل آخر تهدم وانتقض وما زلنا علي هذا التقاعد والتقاعس والتخاذل حتي ضاعت الفرص وانسدت وجوه المساعى وأنست النفوس بهذا الخمول وألفت القلوب هذا القعود[1] وأصبح أحدهم لا يهتز لمصيبة تقع علي أخوانه وبنى ملته ولكنه يرتعد ويهتز إذا أصيب بأدنى شئ يقطع عنه معيشته أو يؤخر عنه منفعته وهذا من الذين ذكرهم الله في قوله عن أمثالهم من الذين لا يهتمون الأ لمنفعتهم (جعل فتنة الناس كعذاب الله) والمتأمل لرجال العلم والدين عند السوى يأخذه العجب لاقدامهم وأحجامنا مما يجعله أن يغبطهم ويتمنى لنا ما لهم فانا نسمع كل بضعة أيام بارسالية للتبشير تذهب إلي الأقطار السودانية من بروتستنت وكاثوليك بغية بث تعاليمهم وارشاداتهم وديانتهم حتي لقد بلغ منهم السعى أنهم ترجموا الانجيل الشريف بلغة سكان النوبة (البرابرة) وطبعوه علي ورق نباتى حتي يظنه ابناء تلك الجهات جزءا من أجزاء القرآن الشريف ثم هم يوزعونه عليهم بدون مقابل وهو أول كتاب كتب علي ما نعلم بلغة (البرابرة) ولا يحق لنا لومهم وتعنيفهم ما داموا يقومون علي كل عمل يعود علي دينهم بالفائدة[2] ولا يقتصرون علي البعثات الدينية

(١) عن مصباح الشرق عدد ٣٠.

(٢) الفضل في ذلك للجمعية البريطانية والأجنبية لنشر التوراة والإنجيل. وهذه الجمعية تأسست في سنة ١٨٠٤ بقصد نشر كلمة الله في العالم بأسره وقد صرفت هذه الجمعية أكثر من ٦ ملايين جنيه انكليزي في طبع وترجمة مائة وعشرين نسخة من الكتب المقدسة إلي مائتين وثمانين لغة من اللغات التي لم يوجد لأكثرها حروف كتابية وكانت العلماء والمرسلون في كل الأنحاء هم العاملين المجدين من طبيعتهم علي اتام هذا المشروع. ولم تخل بلدة من البلاد من نصيب من نفحات هذه الجمعية ولها في أوربا وكلاء ومكاتبين وعمال ومكاتب يشتغلون بكل وفاق واتحاد مع جمعيات المرسلين الأخر في أقصى البلاد. فالسوريون والعجم والهنديون والصينيون والحبش والكفرة وسكان مداغشقر وزيلانده الجديدة وبولينزيا والمكسيك والاسكيمو وأمم أخرى قد استميلوا بواسطة هذه الجمعية لسماع كلمة الله تتلى بلغتهم .

والجمعية ترجو المسيحيين علي اختلاف مذاهبهم أن يتكرموا ليس فقط بمساعدة الجمعية

ل يرسلون أيضاً البعثات الطبية وقد عزمت الجمعية المسماه «بتشرتش ميشونرى سوسايتى» علي بناء مستشفى تذكاراً لاسم غردون ولهذه الجمعية طبيب يدعى هاربر ورجل آخر من أشراف الانكليز الذين لا يستنكفون من خدمة الانسانية مع علو منزلتهم وقد سافرت جماعتهم في الشتاء الماضى للأقطار السودانية وشاهدنا سفرهم علي محطة مصر في ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٩ وهم علي أشد ما يمكن أن يكونوا عليه من الفرح والسرور العظيم. وودعهم جماعة من كبار الانكليز وسائر مستخدمى الجمعيات الانكليزية في القاهرة ومصر القديمة والدكاترة وطسن وهارفى من المرسلين الاميركان وسائر سيدات المستشفيات ورئيسات المدارس الانكليزية وموظفوا الجمعيات ولما تحرك القطار للسفر هتف لهم الحضور بصوت واحد داعين لهم بالتوفيق. ولقد أثر هذا المنظر في نفسى فدعوت لهم أيضاً شكراً علي همتهم. كما أني تألمت من ضعف همتنا وتقاعدنا عن أقرب الأشياء الينا وبعدنا عن المساعى المحمودة بهمة علمائنا العاكفين

بعطاياهم بل للاستقاء من كنز المعارف والآداب التي تفتحه لهم. فالمدارس والمستشفيات والسجون والمحلات المخصصة للتربية والجيش البرى والبحرى يشهدون بما أتته هذه الجمعية من الخبرات والمساعدة. وهى تعتبر أن الانقلابات السياسية والاشتراكية والمهاجرة والمعارض العمومية والحروب والمصايب التي تصيب عموم الجنس البشري كأنها تطالبها بمضاعفة همتها لادخال كلمة الله في كل مكان.

والجمعية يخدمها أكثر من ألف مترجم ومصحح وكلهم يشتغلون بترجمة الكتب المقدسة في لغات الأرض ويصلحون الترجمات القديمة وقد ترجم الانجيل في سنة ١٨٩٩ فقط إلي ١٣ لغة منها لغة قبائل الهنود وجنوبى أوستريا ومتوسط ما صرف من الكتب بقصد توزيعه من مكتبة لندن وحدها يزيد علي سبعة آلاف نسخة سنوياً وما يخرج من المخازن الأخري في الجهات الأخري يزيد علي ذلك، والجمعية المذكورة تطبع كتبها في لندن وباريس ونانسى وبروكسل وامستردام وبرلين وكولونى وفينا وورومه ومدريد ولسبون وكوبنهاج واستوكهولم وبطرس برج والقسطنطينية وبيروت وبمباى وكلكوتا ومدراس وشنجهاى والكاب وسدنى وفى باقى البلاد الأخرى الكبرى وأخيراً طبع الانجيل بلغة «البرابرة» في الإسكندرية.

ترجمنا ما ذكر من مقدمة عينة ترجمة الانجيل إلى لغات ورطان جميع الأمم تقريباً المطبوع بمعرفة جمعية نشر التوراة والإنجيل بشارع كوين فيكتوريا استريت نمرة ١٤٨ المطبوعة سنة ١٨٩٠ .

نهاراً علي التفتيش في الكتب والتفاسير التي عليها[1] حتي إذا وقف أحدهم علي بيت من النظم قديم قلبه ذات اليمين وذات الشمال وأكثر عنه البحث والتنقيب كالبيت الآتي:

ويسقط بينها المرئي لغو كماء العنب في الدبة الحواء

ثم يتناظر مع رفقائه وكل منهما يجتهد في إظهار غلطة فيه. وقد يعكف أذكاهم علي إظهار خطائه. ثم يقول أن فيه خمس عشرة غلطة بعدد أوتاده وأسبابه ثلاثاً منهن من خطإ الاشمونى والرابعة من خطإ الحفنى وعشراً من خطإ الصبان والأخري لغيره وتشتغل الجرائد بكتابة الفصول الطويلة والجمل العريضة عن ذلك وباقى الأمة يقرأون وهم عن خيرهم لاهون. ولا يقتصر الحال علي ذلك فقط بل إن مسألة منع «عمر» وصرفه شغلتهم أيضاً زمناً ليس بالقليل ولا تنس بحثهم عن نملة سليمان أهي ذكر أم أنثى فان هذا مما يضحك الثكلى. فهذه السفاسف وأمثالها تثبت عدم اعتنائهم بوقتهم من جهة وغفلتهم عما هم فيه من الأحوال وما ينبغى أن يكونوا عليه أمام الله والناس. وهذه مسألة اصلاح المحاكم الشرعية أقامتهم وأقعدتهم ولا يزال تأثيرها في الأذهان لأنهم حيروا الأمة بمخالفتهم بعضهم لبعض في ما هو الصواب من ذلك كله. ففريق كان يقول بأن الاصلاح المنوى ادخاله علي المحاكم الشرعية مخالف للشرع. وفريق يخالف هذا القول ويكتب في الجرائد ضده. حتى أن الأمة للآن لا تدرى بعد طول هذا الشقاق أي الفريقين مصيب في دعواه.

(١) وحبذا لو كان هذا البحث دأب الكثير ولكن منهم من لا يهتم بشيء من البحث ما دام يجد تعظيماً من العوام وتفخيماً من الجهلاء فتراه يلهو ويزهو وسواء عليه أكان الاسلام والمسلمون في عز ورفعة وانحطاط وذلة. أو لم يعلم أن أهم شيء يجب عليه هو السعى فى أن يكون دينه عزيزاً وأمته مرتقية وهذا شيء أرشد إليه القرآن الكريم بقوله «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» وفق الله علماءنا لان يكونوا عاملين بمقتضي هذه الآية الجليلة آمين.

ويغلب علي الظن أنه الفريق المجوز ادخال الاصلاح. ،الأ لما قبل به لعلامة الفاضل الشيخ محمد عبده ووضع له ذلك التقرير المشهور (ولو كان للآن لم يعمل به تماماً) والمنتظر تنفيذ ما فيه لأنه هو الذى ينتظم به مر هذه المحاكم وبه يعود إليها العدل والإنصاف ويرتفع النزاع والخلاف ومن هنا يمكننا الاستنتاج أن زمن علمائنا في مصر ينقضي في ما لا نفع لهم وللأمة منه وهذا شيءٌ يسوءنا ذكره ويدل علي أن أوقات العلماء تمر بلا فائدة سوي إظهار التقصير في العلم. والاقتصار علي الدعوى عوضاً عن الاجتهاد في التحصيل. ولا شك أن الأمة التي يسوسها في دينها ودنياها أمثال هؤلاء الرجال تتأخر وتعفو آثارها ولست في حاجة إلي تكرار الأسباب التي أوجبت جهالة هؤلاء ما داموا هم العاكفين علي درس ما تقدم من كل شيءٍ لا ينفع الأ في أزمانه الماضية.

ذلك عملهم في النهار يعملونه حال اشتغالهم بعملهم أما عملهم وقت فراغهم فيما بقى من النهار وبعض الليل فعمل وسعى حثيث في زيارة هذا العظيم والتزلف لذاك الغني أو في بث الشكوى لولاة الأمور من قلة المرتب والجراية والرجاء والواسطة في ميراث مورث أو غيره حتى أصبح أمر تزلفهم مشهوراً عنهم بعد أن كان سلفهم إذا دعى أحدهم لمجالسة أمير أو عظيم لا يلبي دعوته وكما هو معروف في سير السلف الصالح منهم(١) وقد حدث عند هؤلاء العلماء شيءٌ لم يكن معروفا لدى العلماء من قبل

(١) في السير أن بعض الخلفاء أرسل يطلب أحد العلماء فلما جاءه الخادم وجده جالساً وحوله الكتب وهو يطالع فيها. فقال له أن أمير المؤمنين يدعوك. فقال قل له عندى قوم من الحكماء أحادثهم فاذا فرغت منهم حضرت. فلما عاد الخادم إلي الخليفة وأخبره بذلك قال ويحلك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده. قال والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد قال فاحضره الساعة كيف كان. فلما حضر قال له الخليفة من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك فقال

لنا جلساءٌ ما نمل حديثهم — الباءُ مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى — ورأيا وتأديبا ومجدا وسؤددا
فان قلت أموات فلم تعد أمرهم — وأن قلت أحياءٌ فلست مفندا

وهو سهرهم في الأفراح والمحافل . فان العلماء قديماً كانوا لا يسهرون إلي ما بعد العشاء الأ قليلاً للمذاكرة وتحصيل العلم. أما الآن فترى بعض العلماء هذا ساهراً في فرح وذاك في وليمة أو ليلة طرب يراهم الرائي وهم مختلطون بين القوم فيعجب ويأسف لزى عربى جميل كان أولى ان يصان من أن يكون بين السكيرين ليلاً إذ يشاهدهم الناظر بقرب قاعات المشروب فيظن بهم ما هم براءٌ منه. ومن الذي يبرئهم وهم مختلطون بأولئك اختلاط الحابل بالنابل، تالله أنهم يجرون عليهم بوجودهم في تلك المحافل اثم الظن وظن الاثم مع ما في ذلك من اقرارهم المنكر وعدم انكارهم إياه وكأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس من شأنهم مع أنهم المخاطبون به والمأمورون بامتثاله. والأ فأين هم الآن والدين يحرم عليهم ذلك. أن الديانة الاسلامية روح العمران وسعادة الانسان وهى التى لا تجعل في الأذهان نقيصة أو شبه نقيصة لمن وهب العلم بها واطلع علي ما في كتابها الحكيم من مناهج الحق والكمال، إلا أن من العلماء الحاضرين من هم من أفسد الناس أخلاقاً وأداباً. ولكن حاشا الدين أن يكون قد أفسد أخلاقهم وآدابهم. ولكن المرجح أن لذلك أسباباً أخري هى علي ما نعلم اشتغالهم بالدنيا وانكبابهم علي التزلف للأغنياء وقلة الثقة بالله وعدم المبالاة بالأوامر والنواهى حتي التحقوا بالعامة. ويكاد بعضهم يكون ذا خلقين خلق اجتماعهم مع الناس، وخلق حال وجودهم في بيوتهم مع نسائهم وخدمهم. يسلكون في كل حالة مسلكاً يخالف الآخر. ففى الأولى اظهار اخلاص وولاء وطاعة وسعى في انجاح حقوق الله. وفي الثانية سوء معاملة وكدر واحتقار بعكس حالهم في اجتماعهم مع الناس حتى أنه ليصدق عليم مثل العرب قديماً عنهم - ان أشد الناس بغضاً للعالم امرأته وخادمه - وحتى ان زوجة الواحد منهم لا تتكلم عنهُ بين معارفها الأ بذكر معايبه وقل من لا عيب فيه منهم.

ولكن الذنب في ذلك علي الأزواج الذين لم يهدوا نساءهم إلي العلم والتربية الصحيحة حتى لا يستوى لدى احداهن العالم والجاهل. ذلك

حاضر العلماء عندنا فتأمله وقل اللهم الهمهم من لدن جلالك الأسمى مواهب الاتحاد المقرون بالثبات حتي يعوضوا مما فقدوه وفقدناه بسبب توغلهم في الاهمال. وحتى يمكننا أن نرفع رؤوسنا بهم بين الأمم المحدقة بنا ونفاخرهم بعلمهم ونعلمهم أننا حقيقة كثيرون أقوياء.

* * * * *

الوعظ والوعاظ

«لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاءَ مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً» (قرآن شريف)

الوعظ هو الحث علي أداء عمل أو اجتنابه سواءً كان بالترغيب أو الأرهاب أو التذكير. فالترغيب انما يكون في عمل نتيجته حسنة وعقباهُ حميدة. والأرهاب لمن حاد عن جادة الصواب والصراط المستقيم. والتذكير لقوم نسوا واجباتهم أو تناسوها. فالوعظ اذاً نتيجته رد النفوس الزائغة عن سواءً السبيل وكبح جماح التائهين في بيداء الغى والضلالة وواجب أداؤه ممن وفق لمعرفة الحق ليردع الذين خدعوا بظواهر الأشياء وراجت عندهم الخزعبلات التي نخرت عظامهم وهم لا يشعرون. وتدثروا بالباطل وهم لا يعلمون. وهو دواءً الهى وشفاءً سماوى نافع لأن القائم به حق القيام يستمده من قول من سعت رحمته كل شيءٍ فالمحتاجون إليه هم أهل الغفلة في دينهم ودنياهم. الذين استولى عليهم القنوط في معيشتهم والحمق في أعمالهم والذين تكاثرت علي نفوسهم ارزاءً الخطايا والأوزار. لأن الوعظ للموعوظ به أشبه شيءٍ بالدواء للمريض. وكم من موعظة حسنة ضرب بها وجه السكير فاقلع عن سكره. وصفع بها السفيه فغشيه الحياءُ. وسمعها التعيس فشمله التوفيق بفضل الوعظ والواعظين الذين وفقوا لتشخيص الداء ووصف الدواء هذا هو الوعظ كما ذكرنا. وليس كما نسمع به إذ ليستَ نتيجة وعظ اليوم سوى وضع التضليل علي التضليل. ونحن أيها

القارئ نقص عليك بعض ما يجرى في الوعظ من الواعظين. ونسألك وأبيك أهذا هو المقصود منه أم لا. الوعاظ بيننا الآن أكثرهم ممن تلقوا العلم في الأزهر الشريف وحفظوا القرآن والحديث كلمة كلمة ولكنهم لم يتفقهوا فيهما كمن يجب عليه حفظ ذلك ومعرفته معرفة حقيقية. فتراهم في المساجد يجلسون للوعظ وإرشاد الناس. وأكثر ما يكون جلوسهم في أيام الصوم من رمضان وأيام الجمع بعد تأدية الصلاة.

يبينون علي زعمهم ما اغمض علي الناس فهمه. وهم أحوج الناس لمن يبين لهم ذلك الذى يبينونه. فيذكرون للناس السنن ويتركون الفروض كما أنهم يشرحون الحرام ولا يذكرون الحلال. ويحببون إلي الناس الجدال في الدين. ولو كان الجدال مكروهاً عند العلماء. فيجرى هؤلاء العامة في الجدال جرى العلماء فيه حتى لقد يخرج الصاحبان متخاصمين بفضل هذا الجدال الأمر الذى يوقع النفور بين الأفراد ويصبح عثرة في سبيل توحيد الأمة وضمها علي قلب رجل واحد

نعم أن الجدال مع ما فيه قد يوقظ الفهم ويثير الانفة لاقتباس العلم. ولكن ذلك لا يجدى نفعاً ما دمنا نعرف حال العامة منا ممن حقت كلمة الله عليهم «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير» وناهيك عما يعلمه هؤلاءً الوعاظ وما يذكرونه من الأحاديث الموضوعة كذباً علي النبى صلي الله عليه وسلم كالذى قيل عن الأرز نذكره[1] والأسف ملءَ الضلوع - الأرز منى وأنا من الأرز - أو (خلق الأرز من بقيّة نفسى) أو (لو كان الأرز حيواناً لكان آدميًا ولو كان آدميًا لكان رجلاً صالحاً ولو كان رجلاً صالحاً لكان نبيًا ولو كان نبيًا لكان مرسلاً ولو كان مرسلاً لكنت أنا) أو (من أكل الأرز أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه) يقول الوعاظ هذا القول ولا يخشون الله وعذابه. وهؤلاء الوعاظ لا يقتصر وجودهم علي مصر بل هم مبثوثون في كافة مدن القطر

(١) نقلنا ذلك عن مجلة الأرغول الاسلامية عدد ٣ سنة ٥ والعهدة عليها.

ونواحيه ولا يقتصر الأمر علي جماعة الوعاظ بل يشاركهم فيه أيضاً خطباء المساجد الذين فقدوا الرشد كما فقدت الأمة الرشاد فضاعت بسببهم حكمة الخطابة وما وضعت لأجهل ولقد سمع أحدهم خطيباً في الريف ذا جهل وتخريف صعد المنبر وحمد وكبر ثم انثنى في تفخيم وترقيق إلي ذكر طول قصر أبي بكر الصديق. فقال. ان جبريل سارفي طوله ثلاثة أشهر بأجنحته الأربعين ومن المعلوم أنه كان ينزل علي النبى صلي الله عليه وسلم بجناحين ويقطع ألفى سنة وخمسمائة في دقيقتين(١) هذا بعض من كل مما يأتيه زمرة الوعاظ والخطباء فى المساجد لفساد الدين وتضليل المسلمين. الأمر الذى نمسك القلم عن الخوض في عبابه لأنه يفطر الأكباد ويفتت أفئدة الذين يغارون علي الدين. والله يعلم ما بنا من الأسف لقاء ذكر ما تقدم ولكنها الحقيقة نذكرها ولو جرحت. غير أنا لا ننسى فضل بعضهم ولو كانوا قليلين جداً ولا ننسى فضل الفضلاء من كبار العلماء الذين علموا احتياج الأمة للوعظ والارشاد واقدموا عليه بغية نيل الأجر والقيام بالواجب ومن هؤلاء العلامة الفاضل مولانا الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية حفظه الله. فأنه يعظ بعض ليال في درس التفسير الذي يقرأه في الأزهر المعمور. ولا يضن بالايضاح الوافى والشرح الشافى بما يقص علي سامعيه من التفسير والتذكير، وبمقدار شكراننا له نأسف كثيراً علي بعض الأزهريين الذين يحضرون حلقته وجلهم وقت القاء تفسيره يشغل نفسه بالمماحكات اللفظية ولا يعير سمعه للاستفادة والفهم كما ينبغى. وبعضهم لا يحضر الا لتمضية الوقت بين المغرب والعشاء وللتفرج لا غير، وكثيراً ما شاهدت الأستاذ الفاضل المنوه عنه يبرهن لهم علي عدم صحة بعض التفاسير فلا يجد منهم الا الخروج عن الطريق بالسؤال في مسألة منطقية أو مسألة نحوية. وليس لهم غرض الا اخراج الشيخ من دائرة البحث إلي دائرة أخري فيقابل ذلك حفظه الله بالصبر الجميل.

(١) انظر مجلة الارغول الاسلمية عدد ٣ سنة ٥.

تلك حال أهل الوعظ عندنا وهم المنتظر منهم استنارة العقل بالإرشاد وصلاح القلوب بصالح التعليم والتهذيب.

تالله لو داموا سائرين علي خطتهم هذه ولم يحيدوا عنها ولم يجدوا من يردعهم عن غيهم ويوقفهم عن وعظهم حتي تستنير أنفسهم ويفقهوا ما يقولون. قل علي الاسلام الحق السلام وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * * * *

القرآن والفقهاء

قد جاءكم من الله كتاب ونور مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلي النور بإذنه ويهديهم إلي صراط مستقيم(قرآن شريف)

القرآن كتاب مجيد. واجب التعظيم لا يمسه إلا المطهرون. ابان ما لله علي عباده وما لهم عليه من الحقوق. ضرب فيه من كل مثل وما فرط فيه من شيء جمع فاوعى كل ما فيه سعادة البشر في دنياهم وآخراهم. وحقائق راهنة لا يزيدها كر الليالى وتعاقب الأيام الأ وضوحاً وسطوعاً. نزل علي رسول الله « صلى الله عليه وسلم» وحيا حسب الوقائع. فكان رابطة للمسلمين وجامعة للوحدة الدينية. سورة أربع عشرة ومائة. تختلف طولاً وقصراً. ولا تتجاوز الأربعون الأخيرة خمسين آية. ولا تنقص عن ثلاث. وهو مكى الأ ثماني عشرة سورة فمدنية.

له أسلوب شرعى في الترتيل يعرفه من عرف دينه وتفقه في شريعته وليست قراءته الحقيقية كالقراءة الشائعة الذائعة الآن في أكثر البلاد الاسلامية. بل الحقيقة أن الصحابة والسلف الصالح كانوا يقرأونه من غير تلحين. ولقد انكر الامام مالك رضى الله عنه القراءة بالتلحين كما هو منصوص في مذهبه ومعروف، وأجازها الشافعي «رضي الله عنه» ولكن لا علي الكيفية التي نسمعها من أكثر الفقهاء مما يجعل القراءة

تغنياً فقرئ القرآن علي سبع طرق اختصت بالانتساب إلي من أشتهر برواياتها. وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إليها - وقراءُ القرآن فيما مضى من الزمن كانوا يتلونه بكل خشوع وأدب وتدبر وتعقل. فأوجد فيهم كل الفضائل كما أعد عنهم كل الرذائل. ولا غرو فهو كلام المهيمن جل وعلا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد .

أما حاضر قرائنا الآن من الفقهاء فمما يؤسف له. فأنه مع ما نراه من أكثرهم غير حافظين له تمام الحفظ لعدم فهمهم معنى الغرض من حفظه. تراهم يقرأونه في حالة التذاذ. بعذوبة أصوات وتوقيع نغم وهم لا يأتون علي قراءة القليل منه حتي يختمونه بالغناء وأنواع الخلاعة التي لا تناسب ذلك المقام العظيم. وهذا من الوقاحة التي كان الفقهاء أمثالهم من قبل لا يعرفونها. وقد بعد الفقهاء الآن بعملهم هذا عما أمروا به واغفلوا عن واجبهم. فبعدت عن السامعين للقراءة موعظة القرآن الشريف وحكمته. وهبطت درجة تأثير النفوس من أحكام هذا الكتاب السماوى الجليل. فهوى الارتباط الدينى وضعف الإحساس الملى. وما منشأ ذلك غير الفقهاء الذين يتلون كلام الله بغير خشية منه تعالى.

وما أحسن وأجمل ما كتبه الشيخ الفاضل صاحب المؤيد الأغر في مؤيده وفي المجلة المصرية العدد الثالث حيث قال. وفي اعتقادى أن تلحين الآيات القرآنية علي الطريقة المألوفة الشائعة بين المسلمين كانت من أكبر دواعى انحطاطهم منذ قرون مضت إلي الآن.-لأن هذا التلحين جعل القرآن من قبيل المغانى التى تؤثر علي مشاعر النفس من السامع بتأثير الصوت وانغامه لا تأثير المعنى المقصود بالذات حتي أن السامع كثيراً ما ينتعش وجدانه سروراً أو تنفعل نفسه انفعالا يختلف آناً فآناً من مجرد سماع صوت القارئ تلحيناً من حيث لا يعرف الآية التي يلحنها لبعد ما بينه وبين القارئ بعداً لا يمكن معه تمييز الكلمات ما هى أي سورة تتلى. وبطول

العهد وزيادة إلف الناس لهده الطريقة اتخذ تلحين القرآن ضرباً من الضروب المكملة لسرور الجماعات في الأفراح أو المسلية للنفوس في المآتم وشعائر الأحزان. وبذلك خرجت قراءة القرآن عندنا من الدائرة التى رسمها الوحى النازل بها من عند الله. إلي دائرة صناعية يستوى الأمر والنهى والزجر الشديد. والقصص التاريخية والمواعظ الحسنة والدعاء. كلها تطبق علي نقرات الجركا والسيكا والحجازى والعراقى وما أشبه. فلا تقع الآية الصادعة بالحق في أمرى الدنيا والآخرة علي سامع الاكما تقع مقاطع التلحين عند سماع المغنين. تلك الآية التى كانت تلقى علي سمع الاعرابي. وقد امتلاء قلبه كفراً وشرا. وآخر في كل جارحة من جوارحه غدراً للاسلام والمسلمين فكأنما هى الصاعقة نزلت من السماء بأشد تأثيرها علي جميع حواسه فيغشاه منها ما يغشاه. ثم لا يفيق الأ وهو صاغر أمام هذه القوة الإلهية يبهت منها اولاً ويخضع لها ثانياً. أصبحت لا تؤثر علي كل سامع لها بطريقة القراءة المألوفة الآن الأ كما تقع مقاطع التلحين عند سماع المغنين ان اجاد الملحن سمع من كل اطراف المجلس الله. الله. أحسنت . أحسنت. كما يسمع المغنى المطرب سواءً بسواءٍ والأ فلا. ثم زاد الطين بله ان ملحنى القرآن أنفسهم تفننوا في طريقة تلحينه بالتخنث بالصوت وابداء الحركات الغريبة المختلفة في الالقاء بما اخرجه عن كونه قرآناً إلي الغناء المحض ففقد السامعون بذلك كل شيءٍ يعزى إلي قراءة القرآن وسماعه.

وإذا كان القرآن كتاب الله الذي أنزله علي سيدنا محمد «صلي الله عليه وسلم» لهداية البشر وتقويم أخلاقهم واصلاحهم في معاشهم ومعادهم ينقلب في كيفية أدائه وإلقائه إلي هذا الحد وتنصرف مشاعر الوجدان عند سماعه عن معانيه إلي محض مغان هي لجوهره الأسنى عرض عار مستعار، فليس بغريب أن تفسد الأمة الاسلامية بهذا الفساد كما كان صلاحها بذلك الصلاح أ. هـ.

* * * * *

المحاكم الشرعية وحاضرها

قال[1] العلامة الفاضل الشيخ محمد عبده في تقريره المشهور. تدخل المحاكم الشرعية بين الرجل وزوجته والوالد وولده. والأخ وأخيه والوصى ومحجوره وما من حق من حقوق القرابة القريبة أو البعيدة الأ ولها سلطان السيطرة عليه والقضاء فيه. وانها تنظر من ذلك في أدق الشؤون وأخفاها ويسمع قاضيها ما لا يسمح لأحد سواه أن يسمعه سوى ما يكون من الزوج لزوجته أو الزوجة لزوجها. فكما أنها هياكل عدل هي كذلك مستودع سر وأي سر فمنزلتها من نظام الأسر «العائلات» تلى منزلة المحبة وروابط القرابة. فاذا تراخت تلك الروابط ومرضت المروءات تعلق حفظ نظام البيوت بالمحاكم الشرعية. وللشريعة الاسلامية في ذلك دقائق لا يسهل الالتفات إليها الا علي من احاط علماً بكليات أحكامها ووقف بالبحث الصحيح علي مقاصدها. ووصل إلي أدق معانيها وكان من العلم بلغتها في منزلة يعرفها له أربابها. ولن يكون الرجل كذلك حتى يأخذ الشرع عن أهله وتكون تربيته علي السنة الدينية الصحيحة. ثم لا يكون القاضى حافظاً لنظام الأسر والبيوت بعد الاحاطة بأحكام الشرع. حتى يكون للشرع سلطان أي سلطان علي نفسه.

هذا هو التعريف الحق عن هذه المحاكم في تقرير وضع لتدفق منه الغيرة الدينية رحمة بمعاهد الشرع الشريف. ونحن نقتطف من هذا التقرير ما يدل علي الخلل في المحاكم الشرعية. إذ بفضل الأستاذ قد اكتفينا مؤونة البحث في هذه المحاكم من الوجه الذي و[illegible] له.

قال حفظه الله عن أماكن هذه المحاكم. اذا ذهبت إلي ديوان مديرية

(١) إنما آثرنا .. حكم لحضرة الأستاذ لأنه أوفى دلالة وأوسع اطلاعاً وقوله الفصل في هذه المباحث الهامة والمقاصد العامة ولا زال يفيد الأمة خيراً واصلاحاً.

وأردت أن تعرف محل المحكمة الشرعية في ذلك الديوان فابحث عن اردا محل فيه تجده مكان المحكمة الشرعية. ثم قال عن فرش هذه المحاكم أنه رث قذر وعن الكراسى التي توجد في هذه المحاكم أنها من الصنف المعروف بالأخضر، وان وجد عشرة فستة كراسى لا تخلو من كسر، وقال عن حالة الكتبة أنهم يشترون الحبر من مالهم. وأنه حفظه الله نظر مضبطة في محكمة من المحاكم طمست سطورها من رداءة الحبر. وقال في ختام كلامه عن محال المحاكم الشرعية انها سبب يجعل المتقاضين ينظرون إلي القضاء الشرعى بما يحط من قدره.

وفي باب الكتبة ما مؤداه. أن أكثرهم لا يعرف كيف تعلم صناعة الكتابة. ولا أين كانت تربيته فلذا تكون معرفتهم ناقصة وقليل بينهم الكفوء لعلمه. وأنهم يحفظون ألفاظاً وعبارات رديئة التركيب مشوشة التأليف إلي أن قال. ثم علمت من اختلاط أرباب الحاجات بالكتاب ما لا يمكن معه انقطاع الشكوي. ومهما وضع من القواعد لضبط الأعمال لا يمكن أن يقطع شأفة الفساد مع دوام هذا الاختلاط.

وجاءَ عن القضاة. أنه وجد كثيراً من قضاة المحاكم الشرعية خصوصاً في المراكز لا تسر معارفهم الشرعية والنظامية. ولا يرضى العدل في أعمالهم وأن الحاذق منهم يحول جميع القضايا تقريباً إلي محاضر صلح تجنباً للحكم. ولا يلبث المتصالحان بين يديه أن يختلفا لان الصلح غير حقيقى. وان كثيراً من القضاة يتحاشى سؤال الخصم فيما يهم السؤال عنه خشية التهمة. ولكنه يستبيح لنفسه أن ينصح أحد الخصوم بأن يطلب شطب القضية.

وفي الأعمال الكتابية. قال حفظ كتاب هذه المحاكم ألفاظاً معينة يضعونها في أساليب معتلة مع تكرار بارد يعسر معه الفهم ويسأم منه الذهن. وان لهؤلاء الكتاب جرأة في تعريف الأشخاص من متعاقدين

وشهود وجيران في الحدود حتى يضطرونهم إلي الكذب. أو إلي اختراع أسماء يتخلصون بها من جهل الكاتب وحماقته .

وذكر الأستاذ حفظه الله. أنه رأى اشهاداً باقامة الجناب الخديوي ناظراً علي وقف في دمياط استغرق سبع صفحات بالخط الدقيق وهو لو كتب بالخطوط المعتادة لاستغرق عشرين صفحة أو ما يزيد. ومعظمه من اللغو الذي لا فائدة فيه بل مما يضر بفهم الكلام. وأنه أي الأستاذ جاءه رقيم بطريق البريد من أحد الأدباء يستغيث به مرسله من تكرار لفظ المذكور والمذكورة في عقود المحاكم ومرافعتها. وأنه عرض له أن عد هذين اللفظين في شهادتين صغيرتين فوجدهما تكررا سبعاً وعشرين مرة. ربما يحتاج الكلام إلي أربع مرات منها فقط والباقي لغو لا معنى له.

وقال عما يتعلق بالعقود الواردة من المحاكم المختلطة إلي المحاكم الشرعية ما نوجه إليه نظر القارئ ليقرأه من الصحيفة ٢٣ إلي ٢٦ من التقرير المذكور.

وجاء في الكلام علي اختصاص المحاكم الشرعية ما يؤخذ منه أن بعض القضاة يلتبس عليهم الأمر عند التخاصم فيحكمون بعدم الاختصاص فيما هو متعلق بالمواد الشرعية .

وفي باب المرافعات. والتوكيل في المخاصمات من صفحة ٣٥ إلي ٤٤ ما يدل علي مصاعب جمة تفضى بالحقوق إلي الضياع كما قد يضيع الوقت علي القاضى في سؤال المنادى وتعريف. الزوج الغائب والزوجة الحاضرة مما يدل علي أن الحقوق معطلة والمصاعب دون الوصول إليها غير مذللة مع أن دين الله يسر ولا عسر فيه[1] وما ذلك الا لتمسكهم بالمذاهب

(١) وقد قال تعالي ما جعل عليكم في الدين من حرج وقال عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السمحاء ليلها كنهارها.

والأخذ بظواهرها بدون انعام نظر في مقاصد قائلها. وفي الكلام عن الجلسات في هذه المحاكم أنه لا نظام فيها. وان المتخاصمات من النساء يلعبن في أطراف المكان وليس في المجلس ما يمنع متكلماً ان يتكلم ولا مشوشاً أن يشوش. وإذا دخل علي القضاة محترم قاموا له وحيوه والمرافعة جارية. وقد قال الأستاذ أنه رأي بنفسه الكاتب ذا سلطة أكثر من سلطة القاضى مما لا يليق بحرمة القضاء الاسلامي الذي كان يعد مجلسه أوقر المجالس وأعمها هيبة حيث كان يجلس الخليفة.

وفي باب حضور الخصوم ما يشهد بعظم الخلل مما يجعل القضايا تشطب أو تنظر بعد زمن طويل.

وفي باب المرافعة ما نوجه إليه نظر القارئ أيضاً ليراه في التقرير المذكور من الأمور المضحكة وكذا في باب الشهادات والأدلة ما فيه من المماحكات وتضييع الحقوق علي كثيرين وكذا في باب التنفيذ أمور تجعل التنفيذ كعدمه لقلة اهتمام أولي الأمر في المحافظات والمديريات.

هذا مختصر مما بينه الأستاذ حفظه الله في تقريره المذكور، ومن يعرف عطل الأشغال في هذه المحاكم الشرعية وما يجرى فيها من شهادة الزور[1] وتلاعب المأذونين في عقود الزوج الذين اكثرت الناس الشكوى منهم. واتعب الحكومة أمرهم وعم ضررهم الأزواج والزوجات وادخل بسببهم في الانساب ما ليس منها. ومن يعرف أن المحاكم فيه الآن من التلاعب بالحق والباطل ما فيها وعرف أن حجابها يستبدون ومحاميها قد

(١) حدث أخيراً من بعض الشهادة أمام محكمة مصر الشرعية الكبرى أن الشاهد يؤدى شهادته من ورقة فيها صورة الشهادة. وقد نظرت محكمة الموسكى الأهلية الجزئية في هذه القضية يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٩٩ وبعد أن اعترف المتهمون بذلك ودافع عنهم المحامون دفاعاً طويلاً حكمت المحكمة عليهم بالبراءة. نظراً لأن القانون لا يعاقب شاهد الزور الا إذا حلف اليمين والا فلا تعتبر شهادتهم .

نسخوا الشرع بأقوالهم. علم أن الشرع أصبح منسوخاً بسببهم حتى كثرت المساوئ وذهبت الغاية المقصودة منها، وغير ذلك كثير يحصل في مسائل المواريث وغيرها ولذلك يطلب العالم بهذه المساوئ مع الطالبين إلي ولاة الأمور الاسراع بادخال الاصلاح الحقيقى الذي ذكره فضيلة مولانا المفتى في تقريره رأفة بالعجزة الذين لا قوة لهم وبالأمهات والأطفال والضعفاء الذين لا سند لهم والذين جرهم نكد طالعهم للمقاضاة أمام هذه المحاكم. وليس بعزيز لو أخلصت النية في اصلاح المحاكم الشرعية أن تهدى الأمة إلي شرعها الشريف الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم وقد جعل الله فيه صلاح الدين والدنيا معاً فعسى قومنا يتأملون وإلي شرعهم القويم يرجعون ففيه كل الخير والصلاح والنجاح.

* * * * *

المدارس والتعليم

المدارس الابتدائية

كان التعليم في مصر من عهد غير بعيد اجبارياً. ولأجل أن يعلم القارئُ حقيقة أحوال المعارف في الأزمنة الغابرة وطرق التعليم فيها نذكره بالحالة التي كان عليها قبل وقتنا هذا بمئة عام ليقيس بمعيار ذكائه درجة العلم في الماضى بعلم وقتنا الحاضر فنقول.

كانت بلادنا المصرية منذ مئة عام أو تزيد غارقة في بحار الجهل والخمول بسبب تملك دولة المماليك عليها. والولاة الذين كانوا يولون تباعاً بعد انقراض هذه الدولة من قبل دولتنا العلية صاحبة الدولة وقتئذٍ ولا يمكثون الأ قليلاً ريثما ينالون غرضهم في زمن توليتهم. وهو جلب المنفعة والمغانم اليهم بأية وسيلة كانت. ولذلك السبب لم يعبأوا بنشر التعليم ولم يهتموا به وجاراهم في ذلك المسلمون منا اقتداءً بهم فلم يهتموا أيضاً

بتحصيل العلوم والمعارف في زمن هؤلاء الولاة الغاشمين الاَّ القليل منهم فإنهم كانوا يقفون أنفسهم علي تعليم الدين في الجامع الأزهر المعمور، أما غيرهم من الطوائف الأخري فصرفوا جل اهتمامهم إلي حفظ حياتهم وكيانهم بالعلم، ودليلنا علي ذلك ما كان عليه الاقباط من المنزلة الكبرى في مناصب الدولة المصرية والمقام الأعلى فكانوا متقلدين وظائف حسابية وكتابية وادارية كلها علي جانب عظيم من الأهمية والخطارة دون منازع أو مزاحم لانغماس المسلمين في بحار الجهل واستصغارهم لامثال هذه المناصب التي لا تليق علي زعمهم بأصحاب البلاد نظيرهم.

علي أنه ما مضى زمن كبير يذكر حتى من الله سبحانه وتعالي علي بلادنا وعلينا بولاية المرحوم الحاج محمد علي باشا كبير الأسرة الخديوية الكريمة الذي نظر لأمر التعليم نظرة الحكيم العاقل فوجه أنظاره إلي المعارف وخطا فيها الخطوة الكبرى مما لا يزال أثره باقياً بيننا للآن. وبين ظهرانينا الآن بضعة من أولئك التلامذة الذين درسوا في المدارس التى أسسها رحمه الله من ابتدائية وتجهيزية وعالية.

وكانت العلوم التي يتلقاها الطلبة فيها من هندسية فطبية علي نوعيها البشرى والبيطرى فعسكرية فملكية. وكان اثابه الله وطيب ثراه يجبر أهالى التلامذة علي ارسال أولادهم إلي المدارس المجانية التي كان يغدق عليها من فيوض مراحمه واحساناته. وكان يبعث بالنابغ منهم إلي أوربا لتعليم العلوم العالية حتى إذا عاد استعان بامثاله[1] في القيام

(١) ومع هذا فلا ننكر أن بعضاً من المتعلمين في البلاد الأوروبية لم يجعلوا في المناصب التى يليق بهم أن يكونوا بها فضاع كثير مما كان يؤمل أن ينمو بيننا نمواً حقيقياً فان كثيراً من الذين اتقنوا الرياضيات والطبيعيات لم تستقر وظائفهم علي ما علموه ليكونوا عاملين حقيقة بل جعلوا في وظائف وان تكن سامية ولكن بمزاولتهم لها أهملوا ما كان ساطعاً في نفوسهم ففقد القطر الانتفاع بما عندهم في الوقت الذي كان أحوج ما يكون إليم وعلي كل فان ما تحصلت عليه مصر في ذلك الحين لم يكن منتظراً أن تتحصل عليه ببضعة قرون ولله في خلقه شؤون .

بأعباء الوظائف في خدمة الحكومة وتنظيم شؤونها[1] ودام علي عمله هذا حتى توفاه الله وخلفه من بعده ابناؤه الكرام الذي حذوا حذوه في عمله المشكور إلي زمن الخديوى الأسبق «اسماعيل باشا» رحمه الله الذي تقدمت المعارف في أول عهده ونمت وأخرجت العلماء والفضلاء فكانوا منارة ساطعة في ظلام الجهل وأئمة تحج اليهم ركاب الطلاب من كل صوب وناد. ولكن لم يكد التعليم يبلغ ذلك المبلغ الكبير حتي أخذ في أواخر أيامه بالتأخر والهبوط ابتدأت المعارف في هبوط مستمر وخصوصاً قبل أيام شبوب نيران الثورة العرابية وما بعدها. التي أوجبت تشويش كل عمل نافع في ذلك الحين وبعده فاعترى ازهار المعارف اليانعة الذبول وأقمار العلوم المشرقة الأفول وعفت آثار العلم وعلت عناكب النسيان والأهمال جدرانها وكادت يد الأقدار تمحو ما خطته يد التقدم من الفنون لولا أن قيض الله محيي مواتها ومجدد آثارها سليل المجد وربيب الكفاءة ساكن الجنان المرحوم «توفيق باشا» الخديوى السابق الذى في عهده انتعشت روح العلوم وعادت إلي سابق مجراها ولكنها لم تكن لتصل إلي ما وصلت إليه من قبل وسبب ذلك عدم الاهتمام الذي اظهره المحتلون للبلاد وقلة ما هو مخصص لها في ميزانية الحكومة.

ويكاد عن ذلك يعلم من متولي ادارة المعارف قولهم أن علي الأغنياء والموسرين ان يتبرعوا بشيءٍ من أموالهم للأعمال اللازمة لنظارة المعارف. وان يتباروا في ميدان البذل والعطاء كما جرت عادتهم في بلادهم فاعلوا بهذه الواسطة منار العلم والأدب بين ظهرانيهم سعياً وراء الارتقاء لان المرء عليه أن يتوخى في أعماله نفع وطنه وبلاده وهذا أعظم سر لارتقائهم في مضمار الحضارة والعمران في هذا الزمان. وأنت لو

(١) نوجه التفات القارئ الكريم لقراءة ما كتبه المغفور له علي مبارك باشا في كتابه «الخطط التوفيقية» المطبوع سنة ١٣٠٦ هجرية عن تاريخ حياته.

اعترضت عليهم لحاجوك بقول آخر. وهو لماذا لم تساعد الأوقاف علي انتشار المعارف وانتشار المعارف كما تعلم عمل يرضى به الواقفون لكونه عملاً خيرياً. فان اجبتهم أن بين المعارف أوقافاً يبلغ ريعها من ٣٠ ألف جنيه إلي ٣٥ ألفاً كل سنة وقفها الكثيرون من أهل الخير كما أوقف ساكن الجنان اسماعيل باشا الخديوى الأسبق علي الكتاتيب الأهلية تفتيش الوادى وزوائد المساحة في المديريات والحصص التى آلت إلي بيت المال. أجابوا أنه واجب علي الأمة انفاقها علي المعارف لاحيائها وتعميمها ليعود عليها وعلي أبنائها بالربح فيرتفع شأن الوطن والوطنيين ويزيد العلم في مجدهم وفخارهم لان المرءَ يعتز بعز أمته ويذل بذلها وما مدارس الحكومة الأ مثال للمدارس الخصوصية ينسج علي منواله الناسجون نعم لا مراءَ في ذلك كله ولكن كيف تفهم الأمة ذلك وهي في حالة ظاهرة من التأخر ولو أنه قد ثبت بالاستقراء ان المصريين ليسوا أقل من الانكليز والفرنسيس سخاء وبذلا للمال ولكن أكثرهم لا يضعون كرمهم في مواضعه ليجنوا منه الثمر المطلوب ويعود بذلهم بالنفع عليهم. وقد أدرك الكثيرون ذلك أخيراً فأنشأوا المدارس الخاصة بهم لتعليم أبنائهم وتنافسوا فيها ولكن لا يزال المسلمون وهم الأكثر عدداً أقل همة من الطوائف الأخري المتألفة منها الأمة المصرية لقلة المطلع علي فائدة التعليم منهم ولبيان ذلك نقول لما علم تبهاء الأمة القبطية ان لا وسيلة لبث العلم والمعارف الا بالمدارس الأهلية الخاصة علي التعليم لينشأ فيها رجال الغد مستكملين للفضائل عالمين بمعرفة ما ينفع وما يضر بلادهم وأبناءَهم. نهضوا نهضة كبرى لانشاء المدارس الأهلية ولم يدعوا فرصة تذهب سدى لتشييد أركان المدارس وتوطيد دعائمها فاينعت عندهم رياض المعارف وسارت مدارسهم علي منهج من التقدم قويم. إلا نحن معاشر المسلمين فأنا رغبنا عن السعي وجعلنا دأبنا وديدننا التنديد علي الحكومة لأنها علّي مذهبنا ملزومة بتعليم أولادنا مدفوعة بحق الحكم إي ترقيتهم في معارج التربية والتعليم وعكفنا علي

التنديد أعواماً كثيرة ولا تزال حتى الآن مع علمنا بأن باقى الطوائف قد اهتمت بتعليم أولادها باعتمادها في ذلك علي نفسها وعلي غيرة أفرادها حتي تقدموا وتأخرنا نحن لاصرارنا علي مطالبة الحكومة بتعليم أولادنا وعدم اهتمامنا بأن نعلمهم بأنفسنا وقد تمر السنين ويشب الولد ويكبر ونحن نتناسي واجباتنا القومية في هذا المطلب سائلين الحكومة المبادرة إلي عمل ما نظنه من واجباتها دون أن نقتدى بالطوائف التي تسعى لازالة عوائق التقدم من سبيل غايتها المجيدة وازالة كل آفة تلحق بسير التعليم ضرراً حتي حصدوا أخيراً نباتاً جيداً ونحن حصدنا نتائج اهمالنا وعاقبة تقصيرنا(١) ثم هم يطلبون الأحسن فائدة لتقدمهم مشمرين عن ساعد الجد باذلين قصارى الجهد. وما حملهم وحقك علي الجهاد في سبيل التعليم غير علمهم بأن لا شيء يخول للسيد سيادته وللخادم خدمته الأ سبب معرفة الأول بما يوصله للارتقاء وعدم معرفة الاثنى ما يرقيه في مدارج العلاء.

نعم لا ننكر فضل الهمة التي ظهرت أخيراً ولكن ذلك قليل علي أمة تعدادها يقارب تسعة ملايين من النفوس. ولسنا في الحقيقة الأ متأخرين اذ لو قابلنا بين عدد المدارس الأهلية الاسلامية والمدارس التي للطوائف الأخري في كل بلد لوجدنا أن نسبة ما للطوائف الأخرى يضاهى عشرة أضعاف ما لنا. خذ لذلك مثلاً أي بلد شئته تر صدق ما نشير إليه. ونحن نقدم لذلك مثلاً مدينة سوهاج في الوجه القبلى فان فيها خمس مدارس وطنية عدا مدرستها الأميرية منها واحدة للمسلمين وأربع للاقباط وكذلك المنيا فيها سبع مدارس غير مدرستها الأميرية واحدة للمسلمين وأربع للاقباط وكذلك المنيا فيها سبع مدارس غير مدرستها الأميرية واحدة

(١) أن نسبة المسيحيين إلي المسلمين أقل من نسبة ٢ إلي ١٠ ومع ذلك فعدد التلامذة المسيحيين الذين نالوا الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ - ٢٥٠ أى أكثر من ثلث التلامذة الذين نالوا الشهادة كلهم.

للمسلمين وأربع للاقباط وكذلك المنيا فيها سبع مدارس غير مدرستها الأميرية واحدة للمسلمين وست لأخواننا الأقباط ولا يعزب عن فكر القارئ أن مدارس الاسلام قاصرة علي تعليم الذكور أما مدارس المسيحيين ففيها من الذكور والأناث علي السواء والفضل كل الفضل في انتشار مدارس المسيحيين انما هو لجمعياتهم. التى أوجدت فيهم النهضة الحقيقية في طلب المعارف، وإذا دامت نهضتهم هذه وعمت جميعهم لم يمر عليهم زمان طويل حتي يصبحوا في المعارف من الذين يشار إليهم بالبنان ونحن يشار إلينا بالغباوة والجهل. ولكن نهضتهم وتأخرنا عائق مهم لتقدم مجموع الأمة إذ هم بالنسبة إلينا كنسبة ٦ إلي المئة ونحن كنسبة أكثر من ٩٢ في المائة بحسب الاحصاء الأخير فكيف تعتز الأمة المصرية والشطر الأكبر منها جاهل واجبات الحياة والارتقاء أن نهضة الاقباط حقيقية شهد بها الكل واية شهادة أكبر من شهادة اللورد كرومر في تقريره الأخير من أن المسلمين في مدارس الحكومة أقل من ٨ في المئة وعدد التلامذة من الاقباط في المدارس الاميرية ١٧ في المئة فلابد لذلك من سبب ؟؟ والسبب هو أنا نرى منهم حبا للتعليم واقداماً شديداً عليه وولوعاً بالتقدم. غير أنا نذكر علة هي السبب المهم لانحطاط التعليم عندنا معشر المسلمين وهى ناتجة من فكر متسلط علي الأغلبية منا وهو قولنا عن مدارس الأجانب أنها تميل قلوب التلامذة نحوهم ونحو دينهم. ولذا نحجم عن ارسال أبنائنا إلي مدارسهم ونحرمهم من التعليم فيها بيد أن الطوائف الأخرى المسيحية قد عكفت علي إرسال أبنائها إليها فنجحوا وتقدموا ونحن لم ننتبه لهذه الغلطة ونقدم علي انشاء المدارس التي تغنينا عنهم والتي نحن أحوج إليها منهم الأ في هذه السنين الأخيرة وما سبب ذلك الأ انقسامات الدين فان المسيحى يظن أن بواسطة ادخال ابنه لمدارس المسلمين يسلم والمسلم يظن أن بواسطة ادخال ابنه المسلم لمدارس المسيحيين يستنصر. وفي ذلك ما يدل علي استحكام الجهل في عقول الآباءً. «وقد كان الجهل هذه المرة مفيداً في الاقدام علي التنافس» وتملك ملكة الانقسام بين العنصرين الوطنيين لدرجة

تؤدى بهم للهلاك وهم لا يدركون والاً لو عملوا الواجب وتركوا الانقسامات من بينهم لأنشأوا المكاتب لقبول الطلبة من المسلمين والنصاري معاً علي نسق المكاتب الرشدية الموجودة في بلاد الدولة العلية التي يبلغ عددها المائدة ما بين داخلية وخارجية ولامتنع ما نشاهده الآن من أحجام أب التلميذ عن ادخال ابنه للمدرسة التي تكون من غير مذهبه وملته كما هو مشاهد في مدارس الجمعيات الاسلامية والجمعيات المسيحية. فأنه مع عدم وجود المدارس للمسلمين في بلد يمتنع الآباء عن تعليم أبنائهم وكذلك تفعل أمة الاقباط وغيرهم لو لم يكن لهم مدرسة والسبب و الانقسام المتقدم ذكره. وجهل الاساتذة هو سبب آخر مهم - هذا ونبين للقارئ بأجلي بيان عدد مدارسنا الأهلية الاسلامية ومدارس الطوائف الأهلية المسيحية ليتأكد لديه قلة مدارسنا وكثرة مدارسهم. نذكر ذلك علي سبيل التنافس العصرى المؤدى بالعقلاء إلي التمسك بأهداب العلم والتربية والذى هو سبب يجعل القوة في جانب القلة كما يجعل الضعف في جانب الكثرة حتي لا يضيع الوقت بالمجادلة وتقريع الحكومة والطلب منها تعليم أولادنا. والله يعلم ما نرمى إليه. فنقول: اشتغلت الأفكار من عهد قريب بنشر التعليم في البلاد حتي انتهت الحال إلي تأسيس بضع مدارس أهلية في البلدان ففى الوجه القبلى تأسست مدرسة زعزوع بك ببنى سويف ومدرسة علي بك رفاعة في طهطا وبعض مدارس لأفراد آخرين عددها قليل. وفي الوجه البحرى وبالأخص المنوفية جمعية المساعى المشكورة التى لها ستة مدارس وفي الاسكندرية جمعية العروة الوثقى التي أنشأت من المدارس أيضا ما يقرب من هذا العدد. وفي القاهرة مدارس أيضاً أشهرها مدرسة القره جلى ومصطفي كامل وولى العهد والعثمانية والعزية المتمدنة التي انشأها سمو مولانا الخديوى المعظم. وبعض مدارس أيضاً للأفراد لا يتجاوز عددها الست.

أنشئت هذه المدارس وسببها التنافس العصرى كما قدمنا فاذا اضفنا عدد هذه المدارس إلي عدد مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية الأربع

التي سبقت الجميع في انشاء المدارس وجدناها لا تتجاوز الثلاثين عداً وكلها مدارس اسلامية. أما لو قابلنا عدد المدارس التي للطوائف الأخري فاننا نجد أن عددها أضعاف ما لنا من المدارس بكثير فللاميريكان وحدهم علي ما جاء في تقريرهم الصادر في سنة ١٨٩٨ ـ ١٨٠ مدرسة وللفرير والجزويت ما يقرب من الستين مدرسة. ولاخواننا الأقباط الارثوذكس مدارس تابعة للبطركخانة عددها تسع وللجمعيات وللأفراد مدارس عددها ٦٥ مدرسة وقد وقفنا علي هذا العدد من تقرير المرسلين الأميريكان والفرير والجزويت ومن حضرة وهبى بك ناظر المدارس القبطية ومن حضرة رئيس جمعية التوفيق وقد أخذت من حضراتهم كشوفات موضحاً فيها عدد المدارس والتلامذة التي بها فسرنى ما علمته من النجاح الباهر. وأني أقدر عدد تلامذة هذه المدارس بأربعين ألف تلميذ وكان بودى درج الكشوف لولا خوف الاطالة وسآمة القارئ وكفانا دليلاً علي صدق ما تقدم عنا وكفاهم فخراً علي تقدمهم. أنهم أول من فتح المدارس في أم درمان وباشر التعليم فيها بعد طول انقطاعه عن الأمة السودانية فان جماعة الاقباط الارثوذكس المستخدمين هناك اكتتبوا بواسطة اسقفهم وجمعوا مقداراً وافراً من المال ثم ساعدتهم جميعة انتشار الدين المسيحى أيضاً بمبلغ ٢٥٠ جنيهاً مصريًا فانشأوا بالدراهم التي جمعوها علي هذه الكيفية مدرسة فيها علي ما جاء في الجرائد ٥٠ تلميذاً مسلماً و٢٧ مسيحيا و٣ اسرائيليين[1] فاذا عرفت هذا جميعه وعرفت الأسباب الناتجة من قلة التعليم فينا وأنا أقل همة في التجارة والصناعة كما سنبين ذلك فيما يلي. فلا تقع باللائمة علي الحكومة وتنحى عليها بالتقريع وتقول عن الغير انهم نائلون أكثر من استحقاقهم في الوظائف وغيرها. كما ذكرت ذلك احدى الجرائد في احد أعدادها. بل حبب إلي قومك تعليم أبنائهم وبناتهم واستنفرهم لفتح المدارس وتهيئة الأسباب التى تعدهم للارتقاء والنجاح فقد سلك من تقدم هذا المسلك وفاز في ميدان الحضارة والعمران ونال قصب السبق علي الأقران.

---

(١) راجع عدد ١٣٧٣ من جريدة مصر والمقطم الصادر في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٠ .

* * * * *

المدارس التجهيزية

جميع ما تقدم ذكره خاص بالمدارس الابتدائية الأهلية. أما المدارس التجهيزية التى هي الواسطة بين العلوم الابتدائية والعالية. والتى هي من كماليات المدارس وضرورة وجودها لازمة في وقت تهيأت لقبولها النفوس لسطوع نور العلم والمعرفة سيما وقد كملت فيه الاستعدادات التي تؤهلها للظهور. وغير خافٍ ان النفوس راغبة في العلم ترجو أن تنفتح أمامها وسائل الارتقاء والعمل لتربية الشبيبة علي تنمية عقول أفرادها وتثقيفهم ليعملوا علي ارتقاء امتهم وحفظها بعوامل المعرفة والعلم. وحتى تكون حلقة العلوم متواصلة مرتبطة .

ان شئت البحث عن هذه المدارس التجهيزية رجعت والنفس آسفة لعدم وجودها بين المدارس الأهلية. بل هنالك شبه مدرسة تجهيزية لاخواننا الاقباط الارثوذكس بالقاهرة وأخري مثلها للمرسلين الاميريكان بأسيوط وثالثة هي عبارة عن قسم تجهيزى في مدرسة خليل أغا بالقاهرة توفق أخيراً ديوان عموم الأوقاف إلي انشائه. أما بين مدارس الحكومة فثلاث مدارس اثنتان بمصر والثالثة بالاسكندرية جميعها غير كافٍ لمن يتخرج من المدارس الابتدائية المتقدم ذكرها. فضلاً عن مدارس الحكومة.

فلذا شعرت النفوس الشريفة بهذا النقص من عهد ليس ببعيد. وكتبت الجرائد عن مسيس الحاجة إليه فصولاً إضافية. ولكن للآن لم يهتد الأغنياء في الأمة إلي السعى في انشاء مدرسة أهلية من هذا القبيل مسلمين كانوا أو مسيحيين لأنه لا يزال في نفوس هاتين الطائفتين الظن أنه من الواجب علي الحكومة أن تنشيء لهم من هذه المدارس ما يكفى عدد المتخرجين من مدارسها ومدارسهم الأهلية وفاتهم أن هذا عين الخطأ الذي كانوا يطالبون به الحكومة قبل انشائهم المدارس الابتدائية الأهلية .

وليس من الصعب أن يتحد أرباب المدارس الأهلية علي ايجاد كلية لهم أو بالحرى مدرسة تجهيزية تسد عوزهم وتقوم بحاجتهم وهذا الواجب ملقى علي عاتقهم وعاتق من يمكنه ان يجمعهم علي هذا وهو أولى بهم من دائرة معارف أهلية فان هذا العمل الأولى هو الباب الذى يدخل منه إلي تلك وما علينا الأ أن نستفز حميتهم وغيرتهم ونسأله تعالي أن يوفقهم لصالح الأعمال ويجمع قلوبهم علي حب الخير العام والقيام بما يعلى شأن الأمة ويصلحها آمين.

* * * * *

المدارس العالية

المدارس العالية في القطر المصرى عددها قليل واحتياج القطر إليها عظيم لمحبة أهله العلم في الوقت الحاضر أكثر مما في الزمن الغابر

وليس في القطر كله من المدارس العالية الأ بضع مدارس للحكومة فقط واغلبها يدل علي اعتناء المرحوم الحاج محمد علي باشا بالتعليم كما تقدم بيانه فللطب مدرسة واحدة حاضرها متأخر عما كان عليه قبلاً في زمن مؤسسها رحمه الله. ينفر من دخولها التلامذة لقلة أنصاف الحكومة للمتخرجين منها. فان التلميذ بعد أن يحوز الدبلوما يتقاضي راتباً قدره ثمانية جنيهات في الشهر وهو مبلغ حقير لقاء عمل كبير. وناهيك بدراسة فن الطب فان له من الصعوبة في الوقوف علي حقائقه ما ربما ينقضى العمر ولا تنقضي معرفتها ومن الغريب لدي الحكومة أن تعطى أقل مستخدم من عمالها كالكتبة وخلافهم عشرة جنيهات في الشهر والطبيب ينقد من فيوض كرمها ثمانية جنيهات أو أقل فلا بدع أن قل الراغبون في دراسة هذا الفن الجليل. ولا غرابة أن نرى أغلب الأطباء المرظفين في الجيش المصرى من السوريين المتخرجين من مدارس الأميريكان في بيروت.

أما عن مدارس الصناعة فليس للحكومة منها الأ اثنتان احداهما في القاهرة والثانية في المنصورة. أما المدارس الصناعية الأهلية فلا يوجد منها شيء(١) ومدارس الزراعة لا يوجد منها سوى واحدة وهى أيضاً للحكومة. ولا يخفى عليك احتياج القطر وهو زراعى محض لمدارس الزراعة. وافتقار أهله إليها أشد مما يتصور أنهن بكثير مما سيظهر معنا فيما يأتى. وهذه المدرسة تخرج منها السنة الماضية تسعة تلامذة فقط اثنان منهم من الأجانب (اليونان) والسبعة الباقون من الوطنيين. فالاولان أبيا الأ الاستخدام في أطيانهما والقيام علي غرسها وتنميتها. والآخرون استخدم بعضهم في بعض التفاتيش والبعض الآخر في مصلحة الدومين(٢)

أما مدارس التجارة فلم يتح الله للقطر منها شيئاً كما لم يتح للشرق باسره بذلك اذ لو فتشت عن مدارس التجارة في كل بلدان المشرق لا تجد سوى قسم صغير في المدرسة الكلية الاميريكية في بيروت (كان انشاؤه في أول هذا العام ولم يكن من قبل موجوداً» فلا عجب إذاً من تأخر التجارة علي ما سيأتى القول عنها في موضعه(٣)

غير أنه يوجد مدرسة للحربية وأخرى للمنهدسخانة ومدرسة واحدة للحقوق من انشاء الحكومة. ومن أمثال هذه الأخيرة يوجد قسم ليلى لتعليم الحقوق تحت مباشرة جماعة النزلاء من الفرنسويين. وهذا القسم كان سبباً مهمًا لمن تعلم فيه من جماعة المستخدمين للانفكاك من قيد

(١) وغاية ما يعرف عن مدارس الصناعة الأهلية أن في عزم جمعية العروة الوثقي الخيرية الاسلامية انشاء مدرسة بالاسكندرية بما جمعته من الاكتتاب أخيراً وبما فضل عن مال الجمعية البالغ قدره ٤٣٥ جنيهاً الأ كسر الجنيه.

(٢) جاء في تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠١ أن في هذه المدرسة الآن ٥٤ تلميذاً ٣٤ منهم مصريون و٢٠ أوربيون. أي بنسبة من فيها من الأجانب أكثر بكثير من الوطنيين .

(٣) بينما نحن نكتب هذا علمنا أن جماعة من اليونانيين القاطنين بمصر قد رأوا أن أبناءهم في حاجة شديدة لتعليم أصول التجارة وقواعدها حتي ينبغ منهم التجار. فعقدوا النية علي تأسيس مدرسة وجعلوا رأس مالها ٢٠٠٠ جنيه في بادئ الأمر تجمع بطريق السهام وكل سهم قيمته أربع جنيهات فتأمل.

الاستخدام في الحكومة ومباشرة حرفة المحاماة. أما مدارس التلامذة «المعلمين» فلا يوجد الأ مدرسة منها واحدة وقسم للمعلمين بمدرسة التوفيقية. ولا يوجد قسم ولا مدرسة لاخراج المعلمات ليباشرن تعليم البنات ولذا كانت معلمات البنات المصريات من متخرجات مدارس سوريا.

هذه هى حقيقة حال المدارس العالية في القطر المصرى. ومنه يظهر عظم الحاجة وشدة الافتقار إلي العلوم العالية. حتى يرجع للأمة بعض المجد والسؤدد الذي نعلمه من مطالعة كتب التاريخ من أنه كان منا الأساتذة في الطب والكيمياء والطبيعة والعلوم الرياضية والصناعية والتجارية وعلوم الحقوق والفلسفة والجغرافية وعلم الاقتصاد وغيرها.

* * * * *

مدارس تعليم البنات

تعليم البنت فرض من فروض الانسانية وركن من أركان المدنية. لان الله أوجدها شريكة للرجل ومساعدة له وعاضدة اياه في شؤونه فهو بدونها ناقص تدفعه الطبيعة نحوها لسد الخلل الموجود فيه. هذه سنة الله في الخلق ولن تجد لسنة الله تبديلاً. فاذا كانت عاضدة الرجل ومكملته مهذبة معلمة مدبرة ذات اخلاق راضية اثرت علي الرجل بل كانت أكبر عامل علي انحيازه اليها والتمسك بعادتها والتخلق بأخلاقها وبهذا عمار الكون.

ومن الغريب أن تعليم البنت المصرية منذ بضع عشرة سنة كان لا يعرف عند المصريين كافة لجهلهم فائدة تعليمها ولزعمهم أن البنت اذا تعلمت وتثقفت ترجع بالضرر علي العائلة وتكون في عرفهم أهلاً للمغازلة والمكاتبة مما يفسد الاخلاق. عكفوا علي هذا الزعم مسلمين واقباط. لان عوائدهم واحدة واختلاطهم واحد لا فرق بينهما. وظللت الحال علي هذا حتي الهم الله ولاة الأمور وانشأوا المدارس لتعليم البنات. قامت الحكومة أولاً

بتأسيس مدرسة غير أن الأمة كانت تنفر من هذه المدارس نفور السليم من الاجرب. حتى أن هذه المدارس كانت لا تحتوي الأ علي البنات اللقيطات فكان بعضهن بعد أن يتعلمن القراءة والكتابة يتلقين دروس فن الولادة وتطبيب النساء في قسم خاص لهن بمدرسة القصر العينى.

أما الأجنبيات من جماعة النزلاء الأفرنج في البلاد فكان لهن مدارس أهلية مخصوصة يتعلمن فيها. إلي أن وفدت بنات سوريا علي مصر بعد أن تعلمن في مدارس الأميركان وغيرها في بلاد الشام. فانحدن مع المدارس الأهلية للأميركان والفرير والجزويت وفتحن أبواب مدارسهن للبنت المصرية. فكان الاقبال عليها من بنات سوريا لا غير وظل المسلمون والاقباط علي زعمهم بأنه لا يجوز تعليم البنت لأن التعليم مضر بها فلذا تقدمت البنت السورية أيضاً تقدماً يسر الخاطر علي البنت المصرية مسلمة كانت أو قبطية.

غير أنه لما ظهر نفع التعليم والارشاد للبنت بأجلى بيان ترك الأقباط المسلمين علي زعمهم الذي كانوا متمسكين به معاً. وتقديم قسم من الاقباط لتعليم البنت فنجح وما زال الأقبال منهم يتلو الأقبال حتي ظهرت لهم منافع ذلك فاقبلوا عليه بعد أن كانوا مدبرين وادخلوا بناتهم في مدارس الحكومة ومدارس الأميركان والراهبات. إلي أن ضاقت بهن علي سعتها قاموا أخيراً «والفضل لجمعياتهم» وانشأوا دور التعليم الخاصة لهن وأخذت البنت السورية تدأب علي تعليم أختها المصرية.

.. ومن مطالعة تقرير المرسلين الأميركان يظهر أن عدد البنات عندهم بلغ في سنة ١٨٩٨ - ٣٧٢٠ بنتاً كلهن من بنات الاقباط إلاّ قليلات يعددن بالعشرات من بنات الاسلام. وكذلك يظهر من الكشف الذي أخذناه من ناظر المدارس القبطية أن لدى مدارس البطركخانة ٤٢٥ بنتاً وكذلك ظهر من الكشف الذي أخذناه عن مدارس جمعيات «التوفيق» أن لديها ما يقرب من ألفين وخمس مئة بنت. أما لو أضفنا إلي ما تقدم عدد البنات

اللواتى في مدارس الحكومة ومدارس الراهبات وغيرها بلغ عددهن ما يقرب من الثمانية عشر ألف بنت مصرية قبطية. كلهن يتعلمن نظام بيوتهن. مع هذا العدد العظيم لا يتجاوز عدد البنات المسلمات اللواتى يتعلمن ألفين وخمسمائة بنت لقلة اهتدائنا لتعليم البنت أو توجيه العناية من موسرينا إلي إنشاء المدارس لها[1]

ولسوف تجنى الأمة القبطية عن قريب ثمراً طيباً صالحاً هي في حاجة إليه مثلنا. إذ لو فرضنا أن هؤلاء الثمانية عشر ألف بنت. هنَّ في سن العاشرة وعرفنا أن زواج البنت المصرية علي الأغلب في سن الثامنة عشر عرفنا أنه بعد مضى ثمانى سنوات يكون لدى هذه الطائفة ثمانية عشر ألف بيت منظم مرتب فيها من يساعدن أزواجهن علي مكافحة الزمن والفاقة إذا نزلت فيها من يساعدن أزواجهن علي تربية أبنائهم من يسعدن أهليهن علي معرفة صلاحية وتطهير المنزل وتنقية هوائه وترتيب الأثاث فيه مع التوفير في اللبس وغيره. وهكذا تستمر لقدمهم علَي هذا المنوال اذ في كل سنة يخرج من بناتهم مثل هذ العدد.

ودعنا نحن معشر الاسلام ننفر من تعليم البنت ونحلج بعدم جواز ذلك. ونقول بأن المعلمات اللاتى هن أهل لتعليم بناتنا لا يوجدن فيما بيننا وان وجدن فعددهن قليل في بلادنا المصرية أو أنهن غير أكفاء للتعليم والارشاد وان كان هذا الاحتجاج الصبيانى مردوداً ومرذولاً لما نعلمه من أن في البلاد السورية التي هي علي قرب منا كثيرات من المدرسات اللواتى مارسن صناعة التعليم. ولا بأس من احضار بعضهن للتدريس والتعليم. حتى إذا وجد من البنات عندنا من يكون في امكانهن القيام باعطاء الدرس والتعليم نستعيض بهن عن المدرسات السوريات وليس في ذلك

(١) استغفر الله في عزم فرد فاضل منهم (أحمد باشا المنشاوى انشاء مدرسة لتعليمهن في طنطا وفى عزمه عند اتمامها الشروع في بناء مستشفى للمرضى والمساكين. انظر جوابه لحضرة الدكتور شبلى شميل المندرج في عدد المقطم الصادر بتاريخ ٤ أكتوبر سنة ١٨٩٩

عار علينا ما دام السلف الصالح تلقى العلوم العالية من كتب اليونان والرومان وغيرهم من الأعجام والأمم السالفة. وهاته السوريات أقرب الناس منا وأحسنهن مودة إلينا فهلاً نرضى أن تتساوي وسائط الترقى بين أبناء الوطن الواحد في هذا العمل الصالح والله سبحانه وتعالى يقول (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون).

* * * * *

الجمعيات

وجدت الجمعيات في الاسلام حين وجد. وناهيك بالجمعية الأولى التى كانت أول جمعية ومعاهدة اسلامية. وهى المسماة «ببيعة الرضوان» عقدها النبى «صلي الله عليه وسلم» وبايعه فيها الأصحاب العشرة الكرام بعد التئامها تحت الشجرة لجمع الكلمة وظهور الرسالة. ثم أن هؤلاء العشرة أصبحوا مئات والوفا بعد ذلك. ولو رجعنا إلي البحث والاستقراء لعلمنا كيف تجتمع الأجسام وتتألف القلوب وتجتمع الكلمة والمتأمل في سيرة الاسلام الأولى يجد أن الجمعيات لم يخل منها قطر من أقطاره وكانوا يقتبسون من نورها الاستبصار والاستبشار «حتي ان الآثم بعد دخوله اليها يخرج بالفوز ويحظى بالسعادة والقانط بدخوله اليها يخرج وهو أشد ما يكون رجاءً يرتاح إلي العمل وتفرغ عليه السكينة بعد الدهشة والراحة بعد الحيرة»

وتلك الجمعيات كانت في زمن انتشار المعارف والعلوم أما وقد عمت الظلمة بعد ذاك النور بتملك الجهل لنفوس الكل فحاضر الجمعيات الاسلامية من التخاذل علي ما نعلم وعلي الأخص بمصر نعم لا ننكر فضل الجمعيات الموجودة حالاً مثل الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية العروة

الوثقى[1] والمساعى المشكورة وجمعية طبع الكتب العربية. الأ أنها ويا للاسف أقل من الواجب أن يكون في أمة استولي عليها الجهل بعد العلم والفساد بعد الرشاد حتي انحط ابناؤها وبناتها إلي ما تراه في حاضرها من فهمهم معنى الغرض من الجمعيات إلي قصد الضحك والمجون والتكلم «بالانقاط» يتلقاها الكل من الأوباش بالقهاوى والأفراح بدلاً من مجتمعات العلم والعرفان. ومن الغريب أن تدوم هذه الجمعيات الهزلية ولا تدوم تلك الجمعيات المفيدة التي شرع فيها بعض النبهاء. فانك لو شئت تعداد الجمعيات التي قامت لغرض شريف ثم عفت آثارها لعجبت. وعلي الأخص إذا علمت أن الذين أنشأوها من أبناء المدارس ومشايخ الأزهر وبعض رجال الفائدة والعمل وما سبب عفاء آثارها واندثارها الأ عدم تكوينها علي أساس متين فلذا ينحل عراها في أقرب وقت وتصبح في خبر كان. ولو كان منشئوا الجمعيات التي عفت آثارها ممن ذكرنا فقط لالتمسنا لهم عذراً يقبل ولكن ما قولك في جمعية ظهرت واختفت بسرعة عجيبة. ولو كان من أعضائها فحول العلم عندنا ورجال الأدب منا. اجتمعوا علي قولهم في مجتمع دعوه (مجتمع اللغة العربية) فما أثمر ذلك الاجتماع بشيء سوى الغوص في بحار اللغة واخراج بعض كلمات[2] قالوا باستعمالها بدلاً من كلمات دخيلة في اللغة العربية .

هذا المجتمع أيضاً عفت آثاره بعد التئامه مرتين أو ثلاثاً ولو

---

(١) هذه الجمعية تأسست في شهر شوال من سنة ١٣٠٩ هجرية.

(٢) وإليك بعض تلك الكلمات

مرحي	بدل	برافو
مدره	بدل	أفوكاتو
المسرة	بدل	التيليفون
عم صباحاً	بدل	بون جور
عم مساءً	بدل	بنسوار
البهو	بدل	الصالون
قفاز	بدل	الجوانتى

استقصيت حقيقته لوجدت عدم ثبات أعضائه في مجتمعهم هذا انما هو من اختلافهم في فهم معنى لغتهم ولذا كان انحلاله سريعاً. وغاية ما يمكننا أن نقول اذا تكلمنا بوجود جمعيات علمية بيننا أنه يوجد جمعية واحدة طبية مصرية لا غير. هذا فيما يتعلق بالجمعيات التي يطلق عليها لقب جمعيات العلم والأدب. أما الجمعيات التي نحن في حاجة إليها حقيقة أي مثل جمعيات المحاماة والتجارة والصناعة لنموها ولزيادة الكسب ووفرة الربح من طريقها الصحيح فهى معدومة بالمرة من بين المصريين جميعهم. ولم يفكر أحد منهم للآن في انشاء جمعية من هذا القبيل. ولو كانوا يعلمون بوجودها بين ظهرانى أهل التجارة والصناعة من جماعة الأفرنج النزلاء[1] الذين لم يقتصروا عليها بل عمت الجمعيات عندهم حتي منعت القسوة عن الحيوان.

ومع كل هذا النقص المعيب نقول أنا قد دخلنا في دور التقدم بفهم لوازم الحضارة والتمدن ونحن في الحقيقة ليس منا غير القليل في الجمعية الجغرافية الخديوية وما بقى فيها من نزلاء البلاد.

هذا ولا مندوحة لنا من التنبيه علي أمر ينبغى التفطن له والتنويه به اذ في ذكره ما يسر الخاطر من نحو اخواننا الاقباط الارثوذكس. فان لهؤلاء الاخوان ما حقنا أن نغبطهم عليه ونتمنى لنا حقيقة من حقيقتهم الدالة علي تقدمهم علينا. واليك النظر لجمعياتهم التي منها «التوفيق» التي تحتوى علي نبهاء هذه الطائفة المحبوبة.

هذه الجمعية نشأت في سنة ١٨٩١ ميلادية بهمة بعض الأفراد وشمرت عن ساعد الجد وجعلت رائدها الثبات والاستقامة فنجحت النجاح الباهر الذى نودُّ دوامه لها وكان من ثمرة ثباتها

(١) للانكليز وغيرهم جمعيات تجارية لها علي تجارتهم وصناعتهم فضل كبير ومن أهم جمعياتهم الجمعية التجارية الانكليزية بالاسكندرية.

انها ابطلت عوائد كثيرة كانت مضرة بامتها وسهلت عليهم كثيراً من الأعمال وأسست جمعيات فرعيّة تابعة لها في سائر مديريات القطر. وبهذه الواسطة أوجدت لأبناء أمتها المدارس العديدة للبنين والبنات. وسهلت عليهم نقل موتاهم الفقراءً بواسطة مركبات أعدتها لذلك وهى تصدر مجلة أسبوعية تدعى «التوفيق» تملأها كل أسبوع بالحث والترغيب فى اقتباس العلم والاستضاءة بأنواره. وأخيراً أوجدت للجمعية سراى عظيمة مساحتها ٦١٠٠ متر وفي النيّة انشاءُ مستشفى لمعالجة الفقراء مجاناً. توصلت هذه الجمعية إلي عمل كل ما ذكر بهمة أولئك الأفراد وفى مقدمتهم سعادة رئيسهم الدكتور ابراهيم بك منصور وبهمة المحسنين من أبناء الطائفة الذين تبرعوا وما زالوا يتبرعون دواماً بما فيه قوامها ونجاحها. وأولئك العاملون علي ترقى الأمة بالوسائط اللازمة للترقى اوجدوا أيضاً مطبعة خصوصية للجمعية[1] وناديا ومحلاً لمركبات دفن الموتى وقد اشترت الجمعيّة أخيراً مركبات للأفراح فدل ذلك دلالة واضحة علي حسن المستقبل الزاهر الزاهى. وعدا جمعية التوفيق يوجد جمعيات أخرى مفيدة منها جمعية المساعى الخيرية التي غرضها جمع الاحسان وتوزيعه علي الفقراء وهذه الجمعية لها وقف تحت ادارة سعادة الفاضل باسيلى بك تادرس المستشار في محكمة الاستئناف. ريعه يصرف علي الأعمال الخيرية كما تقدم.

وجمعية النشأة القبطية تهتم بالفقراء أيضاً ولها أعمال نافعة من أهمها اصدار نتيجة سنوية. وجمعية التوفيق بمصر القديمة تابعة للجمعية المركزية وهي مخصصة للوعظ وتحتفل كل يوم الجمعة

(١) لمطبعة جمعية التوفيق هذه فضلٌ يذكر علي جريدتى مصر أولاً والوطن ثانياً. فأنهما عند أول ظهورهما كانتا تطبعان في هذه المطبعة.

والأحد بإلقاء المواعظ وتفسير الأناجيل للشعب ولها أيضاً أعمال خيرية ممدوحة. هذا وفي الوجه القبلى لهم جمعيات كثيرة سواء كان في بلد أو قرية. ومن أشهرها جمعية الاعتدال بأسيوط التي يبلغ عدد أعضائها المائتين كلهم ساعون علي الحض بنبذ شرب المسكرات أو الاعتدال فيه. ونحن لا نزداد الأ شغفا علي الادمان في الخمر. وهي محرمة عندنا كما أننا لا ندرى إلي متى نبقى نشاوي ويبقون ساهرين مجدين في مراقى العلي والتوفيق وكلنا أمة مصرية واحدة. نسأله تعالي الهداية لنا جميعاً إلي أقوم طريق.

* * * * *

الاستخدام والمستخدمون

الاستخدام في الحكومة الآن داء سرى مكروبه في جميع الشبان حباً بالمظاهرات الفارغة. وأغلبهم غير ناظرين إلي نتائجه التي هي علي الغالب غير مفيدة للوطن فائدة تذكر لأنها مدعاة للكسل وغير سائقة كما يراد للعمل. فترى الشبان بعد أن يفارقوا المدارس كلهم آمال في حياة الاستخدام. آمال مكذوبة يظنون انها تليق بشرفهم أو علمهم وتقيهم من طوارق الفاقة والفقر أو تعلي شأنهم وفاتهم أن من أقدم عليه يرهن الحواس الخمس والحرية والموهبة الطبيعية براتب طفيف يمنع عنه الجوع ويوجد في النفوس اليأس والخمول. والذى يزيد الطين بلة أن الوطن العزيز لا يعود عليه أدنى فائدة من استخدام أبنائه خصوصاً في الأحوال والظروف الحاضرة التي لا تسمح لشبابنا ان يتطلعوا إلي وظائف عالية فيها حقيقة تكون خدمة الوطن والأمة خدمة صحيحة مفيدة ثابتة دائمة. لأن تلك بأيدى قوم ساهرين علي مصالحهم ونحن عنها غافلون.

ومن الأسف العظيم أن هذا الأمر هو مرض مصر العام المسبب منه عدم تكوين الثروة في القطر والمقعد بالهمم والقاتل لصفة الاعتماد علي النفس واجمال القول أنه قد كان يصح ذلك الاستخدام قبلاً وعندما كانت وظيفة الاستخدام من أجل المهن وأسماها. فان المستقصى سبب حب الناس الاستخدام قبلاً ووضعهم أنفسهم بأنفسهم في موقف المسخرين لقضاء مأرب غيرهم حتي استسلموا للقضاء وتركوا جميع الأمم لتسابق في مضمار الجد والارتقاء وهم لاهون. ظن أن الحكومة منفصلة تمام الانفصال عن الأمة. ورسخ هذا الاعتقاد في نفوسهم أن الحكومة هي الهيئة المخدومة والأمة هي الهيئة الخادمة. مع أن الحال بضد ما ذكر. نعم كان بعض الشيء من ذلك في الزمن الماضي منذ عشرين سنة وأكثر أما الآن فالحكومة وحكامها يعلمون أنهم خدام للأمة لا سادتها وتساوي الصغير والكبير أمام الحق والقانون وأمن الناس علي أرواحهم وأموالهم وحقوقهم كلها

وأصبح التاجر بتجارته والصانع بحرفته والمزارع بزراعته كل واحد يفيد الأمة أكثر مما يفيدها بالاستخدام. غير أننا نقول ان الاستخدام في مثل المراكز العالية كالقضاء والادارة واجب لضرورة ذلك ولانتظام هيئة الحكومة. ولكن أصحاب هذه المراكز مسأولون أمام الأمة بحفظ مراكزهم التى هي وديعة منا لأمة ويجب المحافظة عليها طبقاً للعدل والحق لا أن يتبعوا أهوا ءهم في وظائفهم ليحل بدلاً عنهم الأجانب فيسوسوا الأمة بغير ما يلزم أن تساس به ولكن هؤلاء ليسوا المقصودين منا بالقول بل المقصودون هم أولئك التعساء الذين لا تفسر تعاستهم علي ظواهر أحوالهم.

وأولئك المساكين من الناس الذين وصلوا إلي وسط من حالة الحياة. ولا يزالون ينظرون بلهف إلي ما فوقهم من الدرجات فرهنوا مستقبلهم كله علي نوال مرغوبهم بطرق الاستخدام. وهم يظنون أنهم بلغوا بها السعادة في مكان فسيح الرحاب قد تحجب بالعزة والمكانة ولو كانوا ضمناً يشتغلون كالآلة التي تتحرك من نفسها في قضاء أغراض ومآرب مديريها. إذ هم لا يعرفون الأ أن يأتوا صباحاً في الوقت المعين ويباشرون عملهم الذي يندر أن يتغير قليلاً ويذهبون الظهر إلي بيوتهم فيأكلون وينامون ولا هم لهم الا النزول ساعة العصر من بيتهم إلي القهاوى والأندية لتمضية الوقت وإذهابه سدى بلا جدوى ولا منفعة خصوصية أو عمومية وكل يوم هم علي هذا المنوال. والمستخدم واحد أمس واليوم وغداً.

ثم يحتجون لعدم زيادة مرتبهم ويلحون وهم باقون في مراكزهم. ولا يخطر ببالهم أن يعدوا أنفسهم لعمل آخر ولذا يفضلون البقاء علي حالة واحدة ولو كانت من مرادفات الموت. وقل أن ترى مستخدماً يحرص علي سيرته وصيته ولذا هم في المجتمعات وفي طرق الخلاعات وادمان المسكرات لا يجارون ولا يبارون ثم يشكون من حالتهم المعيشية. وما شكواهم الحقيقة الأ من تبذيرهم واسرافهم بلا ضابط حتي فاقوا الحد عن

بقية أفراد الأمة وقد فاقوا غيرهم في التورط في الدين علي اختلاف درجاتهم ومرتباتهم. ولا ذنب للحكومة في هذا بل الذنب كله واقع عليهم. اذ الموظف منهم صغيراً كان أو كبيراً يعتبر نفسه أنه من طبقة خلاف طبقات الأمة فلذا يعيش في الانفاق الكثير علي المنازل والخدم والحشم ومما يضحك ذكره تقسيمهم لايام الشهر علي ثلاثة أقسام فهم يعبرون علي العشرة أيام الأول منه «بالأيام البيض» نظراً لرواجهم من قبض مرتباتهم. والعشرة الثانية «بالأيام الحمر» لأنهم فى هذه الأيام الحمر يضطرون لصرف ما هو مقتصد معهم والعشر أيام أواخر الشهر «بالعشر السود» لأنهم يقترضون من أهليهم أو من جماعة المرابين «وأكثرهم جماعة الدخاخنية الأروام» ولذا اذا قابل أحدهم الآخر فقبل أن يسلم عليه يسأله ان كان للأيام عليه تأثير ثم أن البعض منهم يحتاط لذلك فترى جيوبهم بالدراهم محملة دائماً ساعة العصر والبعض منهم لا يبذرون في أوائل الشهر ولا يسهرون ويوفرون إلي أواخر الشهر اسرافهم وتبذيرهم خوفاً من تبكيتهم بتأثير الأيام عليهم - ومن من الناس لم تؤثر عليه الأيام - والمستخدمون كلهم حساد بعضهم لبعض حتي أن بعضهم إذا عرف شخصاً لأول وهلة يسأله ما هي وظيفتك في الديوان وكم هو مرتبك في الشهر. فان وجده متقدماً عنه أسف علي حالته وتعاسته وسب مصلحته ووظيفته نادباً الزمن ومصائبه التي انكبت عليه. وان وجده دونه سقط من عينه ولم يعد يعتبره أن رآه مرة أخري «وقد وقع لنا من قبيل ما ذكرنا شيءٌ كثير». وهذا أمر سببه أن السعد والنحس ملازمان للمستخدمين من عهد قديم فان بينهم فئة تعرف بالفئة الداخلة هيئة العمال وفئة تعرف بالخارجة عنها(١) وللأولى حق في المعاش بعد أن تعمل في الخدمة مدة معينة ولو كانت الأولى علي بساط الراحة. والثانية محرومة منه ولو انهكها النصب واذابها العناء.

(١) في الوقت الحاضر أغلب مستخدمي الحكومة في نظارة الأشغال ومصلحة السكة الحديدية المصرية والبوستة والتلغراف وغيرهما من هذه الفئة لا فرق بين الوطنيين والأجانب فأنهم كلهم «ظهورات».

وعلة ذلك تعدد الأوامر التي أصدرتها الحكومة في هذا الشأن من قديم وحديث [1] وليس من دليل أوضح من الدليل الآتي علي ظلم المحاباة بين المستخدمين.

كان في مصلحة البوستة حتي سنة ١٨٩٧ رجلان خدما فيها أكثر من أربعين سنة بأمانة واستقامة منذ عهد جنتمكان الحاج محمد علي باشا ووظيفتهما كانت أخذ البريد سعياً علي الأقدام من القاهرة إلي الاسكندرية وذلك قبل انشاء السكك الحديدة. وكثيراً ما كان أحدهما يسعى ليوصل مراسلات الولاة السالفين «وبالأخص المرحوم سعيد باشا» ولا يتأتى له ذلك الاّ بعد التعب الشديد. فقد كان يذهب أحدهما إلي البلدة التي يقال له أن بها الوالى فلا يراه فيه ويعلم أنه ذهب إلي غيرها فيتبعه إليها. وقد كان نصيب أحدهما بعد أن هرم وشاب أن يعين ليوصل الدراهم والمراسلات من العاصمة إلي بولاق مصر ذهاباً وإياباً ثلاث مرات في اليوم. ولما وهنت رجلاه وخارت قواه عين في بوسته مصر يشتغل فيها وعمره قد ناهز الخمسة والسبعين فمكث مدة يشتغل من الساعة السادسة صباحاً إلى الحادثة عشرة مساءً وليس له يوم راحة في الأسبوع كله. ثم عجزا عن القيام بخدمتهما فتراءَى للمصلحة أن تعزلهما فأمرت بذلك ولو لم تقرر شركة الاقتصاد والتعاون الخيرى في البوستة التى أسست بهمة سعادة مديرها العام «يوسف باشا سابا» اعطاءهما مرتبهما سنة كاملة رأفة بهما وبعائلتهما لذهبا ولسان حالهما يقول مع باقى أمثالهما من المستخدمين.

ما ذا لقيت من الدنيا وأعجبها　　　إنى بما أنا باكٍ منهُ محسودُ

في هذا الباب الضيق المنافس المملوءِ بفقدان الشهامة المضيع لزمن

(١) بفضل هذا التمييز في الأزمنة الماضية نال كثيرون مع عائلتهم شيئاً كثيراً من المعاش وهم الآن يتنعمون به وان كانوا لم يفيدوا الأمة بشيء بل قد يمكن أنهم اضروا بها واستعبدوا عباد الله وسلبوهم أموالهم وأطيانهم. ولا يزال باقياً منهم من له في المديريات ما ينيف علي المئة أو المائتين فداناً وعن خمسين أو مئة جنيه شهرياً في «الرزنامه».

الشبيبة المصرية. المبعد لنمو الثروة المربى في النفس الاعتماد علي الغير. يلقى الشبـان المتـعلمـون أنفسـهم بأيديهم ولا يسـعـون في طرق أبواب المعايش الأخري كالتجارة. والزراعة والصناعة فانسلخوا عن كل شيء من موارد الكسب الصحيح والعمل المفيد ولم يبق لهم قوام ذاتى الا التعلق باذيال الحكومة وأهداب الوظائف وهيهات لهم أن ينالوها الا بشق الأنفس واراقة ماء الوجه وليس ما ينالونه مما يذكر ولكنه من سقط المتاع وما زالوا علي هذا الحال حتي فقدت الأمـة أواسطها من المتـعلمين وباتت في أنين دائم. وذل مهين لطف الله بعباده. والهم شبابنا إلي ما فيه صالحهم وصالح الوطن العزيز. أنه علي كل شيء قدير.

* * * * *

التجارة

قال صلي الله عليه وسلم (ما املق تاجر صدوق)

وقال عليه الصلاة والسلام (رحم الله رجلاً سمحاً قاضياً ومقتضيا بائعاً ومشترياً)

وقال أيضاً من بورك له في شيء فليلزمه

باب الاتجار مفتوح لكل داخل. وليس كباب الاستخدام يخص باناس قلائل. وثروة البلاد موقوفة علي التجارة سواءً كانت داخلية أو خارجية. ويشترط علي من سلك سبيلها أن يكون سيره فيها علي علم وبصيرة. وأن يكون عنده مال يدير حركة عمله التجارى. وبالمال ينتهز الفرص كلما ظهر له شيءٌ رخيص يمكن الاكتساب منهُ. وعلي هذين الشرطين قوامُ التجارة.

وللتجارة شروط أخرى لازمة لكل تاجر وهي الاتصاف بصفات الصدق رائدها في المعاملة ليستميل بها قلوب معامليه. والاتصاف

بالأمانة لمن يترك شيئاً عنده ليباع علي ذمته. فان في ذلك مجلبة لقصد الناس له من أقصى الجهات. وبالتمسك بالتقوى وما أمرت به الشريعة . حتى تكلل تجارته بالبركة ورزقه بالتيسير وبالاقتصاد حتي تنمو مكاسبه. وتظهر نتيجة تعبه وتزيد الرغبة فيه لتوسيع نطاق تجارته. وبالبعد ما أمكن عن الدين حتي لا تشتغل أفكاره بما لا طائل تحتـه - وأحب شيء إلي الانسان أن تعطيه ولو من مالك وابغضه أن تأخذ منه ولو حقك - ومن أهم شروطها انتظام معيشة الانسان بها علي حسب القواعد الاقتصادية وترتيب شؤون أعماله بحيث لا يتطرق إليها الاختلال والوهن وسوء الادارة فإن هذا مما يحبط عمله ويجعل الناس غير واثقة بنجاحه.

هذه هي شروط من يقدم علي التجارة. وفيها لعمرى مجال فسيح لاظهار موهبة العقل. واستثمار ما بقى من المواهب. التى أودعها الله في الانسان «والعقل في موضعه يمكنه أن يعمل من النار جنة ومن الجنة ناراً[١]» وناهيك بما في التجارة من اللذة المتعاقبة عقب كل نجاح يثمره الاجتهاد فيها. اسأل التاجر المستجمع للشروط المتقدمة تره يقص عليك ما منح من العطايا وما وهب من الأرزاق. ولكن لا يغرب عن فكرك أنه ما نال ذلك عفواً. بل ناله باهتمامه الاهتمام الذي هو شأن كل متجلد ثابت لا يؤخر عمل يوم إلي غده. حتى أنه يحرص كل الحرص علي عمله توقعاً للأحدوثة الجميلة وهي من امدح الخصال في الرجال وكفى التاجر أن يقال فيه أن فلاناً متوقد الفؤاد ذا حركة ونشاط يقدم علي جلائل الأمور.

والتجارة حياة كل أمة. وما امتازت دولة علي أخري الا وقد كان للتجارة الفضل الأكبر في سعادتها. تأمل تاريخ المشرق الماضى تر فضل أعتزازه الماضي انما هو راجع لاشتغال أهله بالتجارة. وتأمل ضعفه الحاضر تر سببه ترك أهله للتجارة. ولدينا حاضر أوربا فالدولة الأكثر اتجاراً لها السلطان الأول بين سائر الدول تدوم لها المنعة والسلطان ما تاجر أهلها مع الامصار والأقطار.

(١) قول شكسبير.

ومصرنا وان كانت أرضها زراعية يشتغل غنيها وفقيرها بالزراعة دون التجارة والصناعة. الأ أنها منذ خمسين سنة كان اهتمام أهلها بالتجارة عظيماً جداً فأنه في تلك الأزمان قام من أواسط أهليها من احترف التجارة فنجح وأفلح وكان ذلك النجاح الباهر حينما استعمرت حكومتنا السودان في أزمنة الولاة الأول من العائلة العلوية الحاكمة. ذلك أنه ذهب البعض إلي السودان للاتجار فكان ذهابهم سبباً لموارد اليسر. ومنهلاً لسائغ الرزق. ارجع بنظرك قليلاً لتعلم توسع المتاجر في هاتيك الاصقاع سنة بعد سنة. ولنا شاهد علي نمو التجارة في ذلك الأوان وهو قلة الوارد إلي البلاد ووفور الصادر منها. مع ما في ذلك الزمن من العسف والجور وعدم سهولة المواصلات. ولا يزال بعض أولئك التجار الذين اتجروا بين القطرين في قيد الحياة يرزقون ويقص البعض منهم عليك حديث تجارتهم بالأصناف وغيرها. كما قد يقص أيضاً الطرق والمسالك الوعرة والمتاعب التي اجتازها في ذهابه وإيابه وهم يعدون لك أن شئت المحال التجارية التي كانت واسعة المتجر قبل عهد الدراويش حتي أنه كان للتجارة مجالس مشهودة. غير أنه قضت الحال بانفصال السودان سنة ١٨٨٤ ميلادية فاعتزل كثيرون الاتجار وباشر بعضهم الزراعة. وما من مزارع كان تاجراً الأ وقد زادت زراعته واتسعت بتقدم مستمر ونجاح باهر لكونه وجد من نفسه ميلاً وارتياحاً إلي العمل والكسب.

أما من بقي في تجارته إلي الآن فقد اكتفى بالاسم ولو كانت تجارته في أشياء قليلة كلها يجلبها الأجانب له من الخارج هذا تاجر القماش صاحب الوكالة الكبيرة في مصر ترد إليه الأقمشة باسمه وهو يخزنها في مخزنه ويبيعها إلي عملائه الأصاغر لهذا مئة ثوب ولذاك خمسين ثوباً بزيادة مبلغ طفيف في المئة عما وردت إليه. ويا ليته يقبض الثمن فوراً. بل يقيده في دفتر الذممات ويدفع إليه العميل ثمن ما أخذه أقساطاً بمواعيد متفاوتة كما هو أيضاً مع الفوريقة مقيد بكمبيالات يدفعها عند استحقاقها بمواعيد متفاوتة أيضاً. وما يقال عن تاجر القماش يقال عن

باقى التجار حتى تجار الزيتون. أخبرنى صديق «كمسيونجى» لاحدي الفوريقات الانكليزية للزيوت أن تجار مصر يشترون الزيت والشحم بمعرفته من الفوريقه وهو عند ذهابه إلي الأرياف يجدهم يبيعونه بأقل من ثمنه الأساسي. أي أن كانوا قد اشتروا الرطل الواحد بثلاثة غروش ونصف غرش يبيعونه بثلاثة غروش.

وتجار الأرز يفعلون كذلك فأنهم يجلبونه من الاسكندرية ورشيد ويدفعون عليه أجرة السكة الحديد ثم يبيعونه في مصر بمثل سعره في الاسكندرية وإذا اعترض عليهم معترض عارف بسعر البلدين وسألهم عن مكسبهم. احتجوا بأنهم يبيعون بجانبه صنفين آخرين من العطارة يربحون فيهما ربحاً عظيماً.

وغالبهم جاهل بمعرفة أسعار أصناف البضاعة وقليل منهم يعرف غلاءَ الثمن لقلة الموجود فأنك لو ذهبت إلى تاجرين مثلا يتاجران في صنف واحد وساومت أحدهما على شراء شيء منه أخبرك بثمن ثم أنت لو ذهبت إلى آخر لاخبرك بثمن أقل من الأول وان استقصيت السبب علمت أنه يبيع لك مطلوبك تنكيلا بجاره أو أنهُ قد يكون مستحقاً عليه دفع بعض الكمبيالات فيضطر إلي البيع بالرخيص. ولقد عرف بعض أهالى الريف ذلك منهم فلذا قد ينتقل أحدهم من مخزن إلى آخر ليساوم السعى فمن رآه يبيع بالرخص عن جيرانه يشترى منهُ. وقد يرضى التاجر منهم أن يكون مكسبه صناديق الفوارغ كتجار الكبريت والشمع مثلاً. وهم مع ذلك يفتخر بعضهم علي بعضهم بكثرة البيع ولا يشعرون بخطائهم. الأ إذا حان أجل دفع الكمبيالات فتراهم يتململون ويشكون وتراهم يرهبون محصلى البنوك وقت مرورهم بهم وقد يظهرون لهم غاية الخضوع ومنتهى الذل والمسكنة.

ولذلك أسباب غير ما تقدم وهى أن بعضهم إذا اتسعت تجارتهم بالقدر «لا بالمعرفة» يأخذون في مشترى العقارات التي كثيراً ما تكون

داخل الحوارى والأزقة. حتي يقال أن السيد فلان صاحب ملك في الجهة الفلانية والجهة الفلانية. وقد يشترون هذه الأملاك بالتقاسيط ويفضلون دفع أقساطها علي دفع ما هو عليهم للفوريقات ولو كان فيما ذكر شهرة الاسم ونجاح العمل وفاتهم معرفة الربح من الطرفين. اذ مهما بلغت مكاسبهم من الاملاك لا تتجاوز ستة في المئة. أما في المتجر فيربو الربح عما ذكر. إذ لو فرضنا أن المقدار ألف جنيه والجر به ووضع تحت أمر التاجر لاربحه أضعاف ما ذكر ولا غنى التاجر عن التذلل يوماً لمحصلى البنوكة ويوماً للقومسيونجي. ولوجد ما يدفع منه وقت الحاجة. وهو لو شغله لأمكن التاجر الاشتراء بالنقد وبالنقد يمكن خصم ما يساوى أقله ٥ في المئة وفي خلال السنة يمكنه به أن يشترى ثلاث أو أربع مرات فيخصم له ما ذكر أعنى أربع مرات في خمسة تساوي عشرين في المئة بدلاً من الستة التي تعود من شراء الأملاك وناهيك بالتاجر الذي يحتاط في عمله في أخذه وعطائه فأنه يشعر بلذة حقيقية في عمله فضلاً عن عدم انذاره بالبرتستو يتلو البرتستو وبالتهديد بحجز الأملاك وبالبعد عن الافلاس المهين الذي يكون معرضاً له كل حين.

وليس للتجار حيلة أو آراء محكمة في مباشرة تجارتهم بل حيلهم وآراؤهم لا تحضهم إلا إذا وقعوا في الأمور المتقدمة . والا فمعظمهم يحضرون إلي محالهم ضحى ويتركونها عصراً لحبهم النوم وايثارهم الراحة علي التعب. ولداعى أنهم كثيروا الاشتغال في أصناف يجهلونها حتي في لفظ أسمائها يعتمد البعض منهم علي الموظفين الأجانب فيشاركونهم في الربح ولو كانوا هم أصحاب رأس المال. أو يستخدمون لديهم جماعة من الرجال العجائز المتقدمين في السن أهل السعال واحد يداب القامة الذين ربما قد ينسون أكل الزاد اذا حضر. ويعطونهم مرتبات تافهة وهم مع ذلك يأتمنونهم علي مخازنهم التي كثيراً ما يكون فيها عشرات الألوف من الجنيهات. نعم أنهم قد انتبهوا أخيراً واستخدموا بعض الشبان ولكنهم يبخلون عليهم أيضاً بدفع المرتبات الكافية لهم وهؤلاء لقلة المرتب يلتزمون

بالسير في طريق تأباهُ الأمانة والعفة. وكثيراً ما يلاحظ التاجر من سيرهم وسلوكهم انهم لا يخدمون بالشرف والاستقامة ولكن لكسلهم ولتصورهم أنه لو خرج المستخدم تقف حركة عملهم يتركونهم يعبثون بأموالهم وهم ينظرون نظرة الخامل الابله. وأغلب مخازنهم بعيدة عن محلات بيعهم وشرائهم فاذا جاءهم مشتر نادوا علي خادمهم أن يأخذ المفاتيح ويسلم عدد كذا من صنف كذا فيذهب هذا ولا يكاد يصل إلاّ بعد ساعات لبعد المخازن وفي هذه الأثناء قد يتواطأ أحدهم مع الشاري أما بتسليمه صنفاً غير الصنف المطلوب أو باعطائه عدداً أكثر من مطلوبه لقاء مبلغ جزئي يعطي من الشارب للمخزنجي. ولسبب عدم علمهم بحقيقة ما في مخازنهم أو لكثرة ما يوجد من الصنف المطلوب فلا يمكنهم ادراك ما يسلم إلي الشاري. هذا فضلاً عن عدم معرفتهم محال مخازنهم وقل من يدخلها منهم في السنة مرة. ولو دخلها أحدهم فعزيز عليه معرفة ما تحتويه لقلة الترتيب وسوء الانتظام ولذا نري كثيرين منهم يكتفون بقولهم لنا مخازن في الجهة الفلانية.

وهذه المخازن أغلبها وكالات مهجورة يمكن السطو عليها في أي وقت كان فضلاً عن عدم تسجيلها منهم أمام شركات الحريق الأمر الذي كثيراً ما تذهب بسببه تجارة أحدهم كذهاب أمس الدابر.

وهم للآن جاهلون طريقة تصدير بضائعهم سواء كان لداخلية القطر لخارجه وجاهلون حتي طريقة ارسال طرود البوستة مع تحويل الثمن عليها. مع ان المصلحة المذكورة مهتمة في هذا الباب بتسهيل عظيم بغية رواج والجاح التجارة التي يمكن ارسالها بصفة طرود بوستة. وللمصلحة كتاب الدليل فيه كل ما ذكر بأبسط عبارة ولكن لا اهتمام لاحدهم به مثل اهتمام جماعة تجار الأجانب. فأنهم ينتظرونه بالساعة حتي يقتنوه ويدركوا ما جاء فيه. وثمنه لا يتجاوز عشرة مليمات وليس للتجار الوطنيين اعتناء بتجارة السجاير التي تصدر إلي الخارج مع أن في ذلك ربحاً عظيماً لهم

وان وجد منهم أشخاص فلا يتجاوز عددهم الأربعة وفي كل شهر يتأخرون عن شهر. فأنك لو راجعت ما تصدر من محالهم في هذه السنة وقابلته علي السنة الماضية لظهر لك كبر العجز بخلاف نجاح هذه التجارة عند جماعة اليونان والأرمن. ويكفي التجار الوطنيين أن تنسب السجاير اليهم وأنها مصرية من عندهم[1] وليس النجاح مع جماعة الأوروبيين قاصراً علي السجاير فقط بل تناولوا كل شيء يربحون منه حتي تصدير بيض الدجاج بعد جمعه من البنادر والقري بثمن رخيص[2] وحتي البلح فان لهم فيه مكسباً كبيراً لانهم يصدرون «العمري» منه إلي الخارج في علب مخصوصة من الزنك يكون فيها البلح مرصوصاً مرتباً. وغير ذلك من الأصناف الأخري كالبرتقان والتين والشمام. هذه أبواب السودان قد فتحت والحكومة فيه قد انتظمت وأسباب الأمن فيه قد استتبت فما لنا لا نري تلك المحال التجارية المتقدم ذكرها قد عادت إلي أصلا. وما لنا لا نري لنا في تلك البلاد نصيباً من التجارة كالسابق حتي لا يشكو التجار كثرة الموجود وقلة الطلب. وحتي لا يشكو التاجر من الدهر ومعاتبة الأيام لأنها تحرمه خيرات بلاده وتغدق نعمها علي غيره من جماعة الأوروبيين هذه أمور يمكننا الاجابة عليها بقولنا أن من يتعاطي التجارة منا ليسوا في الاحتياط فيها علي شيء لانهم لم يسعوا إلي الترقي فيها والاعتماد علي شهامتهم مثل ما كانوا قبلاً. والا فأكثر التجارة لبعض الأوربيين وبعض جماعة الأرمن والسوريين الذين هم في الحقيقة بيدهم تجارة القطر، والسبب خمولنا وشهامتهم وتأخرنا وتقدمهم والا فالبلاد السودانية أقرب إلينا

(١) بلغت كمية المتصدر من السجاير المصرية سنة ١٨٩٨ م ٢٤٦٩٢٨٣٧٤ سجارة وسنة ١٨٩٩ م ٢٩٤٩٠٥٠٨٩ سجارة كلها لجماعة التجار من الارمن واليونان.

(٢) بلغ المتصدر من البيض سنة ١٨٩٧م ١٣٦٧٠٠٠٠ قيمتها ١٢٣٧٣ جنيه وسنة ١٨٩٨م ٣٤٩٨٢٠٠٠ قيمتها ٤٣١٧٧ جنيه وسنة ١٨٩٩م ٣٩٧٦١٠٠٠٠ قيمتها ٤٣٢٤٤ جنيه وسنة ١٩٠٠ بلغ قيمة ما صدر من البيض للخارج ١٠٢٨٠٠ جنيه وأهم ما يصدر البيض إلي بريطانيا العظمي. وأكثره يستحضر من مديريات الوجه القبلي كقنا وجرجا وأسيوط والفيوم ومن هذه المديرية الأخيرة يجلب أحسن أنواعه.

منهم والحكومة واحد فلماذا لا نذهب اليها كالسابق. مع أن أحد البيوت التجارية في منشتسر كان له وكالة في الخرطوم قبل عهد الدراويش فأعاد الوكالة الآن وهو يرسل إليها البضاعة والمنسوجات مثل ما كان يفعل منذ عشرين سنة

وفي القاهرة كثيرون من الأروام وغيرهم لا يمر بهم يوم إلا ويذهبون إلي الأقطار السودانية فينتخبون أحسن البلدان ويباشرون المشروعات التجارية. حتي ان أحقر البلاد هناك صارت تجارتها بيدهم ولهم في مصر عملاء لأجل سرعة انجاز الطلبات بكل دقة. وناهيك بطرود البوستة التي تسافر إليهم يوميا من قلم طرود بوستة مصر. ويقرب متوسط عددها من مئتي طرد أسبوعيا كلها تقريباً بأسماء تجار من الأروام واليهود والسوريين. هذا عدا ما يرسل عن طريق السكة الحديد برسم هاتيك الاصقاع.

هكذا تكون حال التجارة وطريقة سيرها. ودع التجار المصريين وبالاخص المسلمين منهم يقضون ليلهم ونهارهم بغيبة بعضهم بعضا ويرضخون للعجز والكسل وحب الراحة إلي ما فوق الحد المقبول والقدر المعقول ولله عاقبة الأمور.

* * * * *

الزراعـــة

قال عليه الصلاة والسلام «التمسوا الرزق من خبايا الأرض»

الزراعة علم عملي مبني على الحقائق التي عرفها أرباب الزراعة بالاختبار. والزراعة أفضل صناعة. وأربح بضاعة والفلاح الذي يبذل عافيته لتحصيل ما يفوق كفايته من الثمرات لتغذية أبناء نوعه وغيرهم من الحيوانات أولى بالاكرام وأحق بالاحترام من غيره.

والزراعة تكاد تكون هي العمل الخاص لجمهور سكان مصر. وستبقى كذلك إلى ما شاء الله. ولا يزدري بها إلا من كان جاهلاً لفوائدها. وفي مقدمة هؤلاء جماعة منا قد انخرطوا في سلك الاستخدام الميري المتقدم ذكره. وسببه كما قدمنا جهلهم فضلها. وبالتالي استيلاء الكسل عليهم لما اعتادوا عليه في صغرهم من الخلود إلى الراحة. والقناعة الممزوجة بالذل بما يكتسبونه من استخدامهم في دواوين الحكومة ومصالحها. وإلا لو كانوا يدركون فائدتها ولذة عيشتها لرأينا أولئك الذي استغنت الحكومة أخيراً عن خدمتهم بعد الغاءَ وظائفهم عاملين في خدمتها من استئجارهم للأطيان الأميرية وغير الأميرية ولكانت أوجدت فيهم الحنكة حب الكد والعمل واستنبات ما يخرج من الأرض من فولها وعدسها وبصلها وقمحها وقطنها. بدلاً مما هم متعودون عليه من حب المعيشة الاتكالية في وظائف الحكومة. ولكن ليس رجال الاستخدام فقط هم الذين يستنكفون العمل في الزراعة بل وأبناء الفلاحين أنفسهم الذين يخرجون من المدارس سنوياً ويعدون بالمئات. فهم أيضاً لا يعودون إلى زراعة والديهم وحرف آبائهم. بل يبعدون عنها كل البعد ويستنكفون من نسبتهم اليها ويطلبون الاستخدام في المصالح الأميرية بالأشغال الكتابية.

نعم أن ذلك لا ينقص عدد الفلاحين ولكنهم لو باشروا شؤون أعمال والديهم واهتموا بها لتقدمت الزراعة واستخيت الأرض بفضل عملهم

وعـرفـانهم وكدهـم واهتـمـامـهم. إذ الزراعـة إنما ترتقي بالعـقل واليـد وفي اجتـمـاع العلم والعـمل يكون التـقـدم الحـقيـقي. وفـلاحنا في حـاجة كـبري لأمثال هؤلاء إذ أن جهلة ظاهر في عيشته وحرفته.

أما في عيشته فدليلنا عليه أخذه الأموال بالرباء الباهظ وحتي أنه يقع في أحـبـولة أولئك الذين يعـيـشـون خـلال دياره من جـمـاعـة الأروام وغيرهم[1] وناهيك بالفلاح المصري وحبه للاسراف وجهله حاضره ومستقبله وقلة اهتـمـامـه لغده قدر اهتـمـامـه بيـومـه وهم المتوسعون في نفـقـاتهم في السـير إلي حد دونه السفه فضلاً عن خلق التنافس (حتي في الزواج) وهم الكثيـرو الخصومات في معاملتهم بعضـهم بعضاً لأقل سبب. وقضـاياهم ومواقفهم في مزادات البيوع وأخذهم وعطاهم مع جيرانهم وأقربائهم. كلها أسباب تجر بهم إلي الاسراف والاستـدانة حتي توقـعـهم في تعاسة الفـقر والعيشة الضنكة. حتي أن ديونهم أصبحت ثقيلة الحمل عليهم[2] وميلهم إلي الفتور وإلي ما يسئ السمعة جعلهم في حاجة إلي من يتولي أعمالهم بالجد من أهل العلم حتي يجد فيهم حب الانتباه إلي ماينفع وما يضر. إذ هم يبيعون محصولهم قبل حصاده أو في ابتداء الموسم برخيص الاثمان. وهم لا يعلمون ما يأتي به الغد من الأسعار. والشاهد السنة الماضية وما قبلها فأنه مع صعود الأثمان باعوا كلهم في ابتداء الموسم برخيص الثمن. فضلاً عن ولوجهم أبواباً يجهلونها من شراء الأسهم والسندات التي كثرت

(١) وفي مصر وحدها من بيوت تسليف النقود نحو ٥٠ بيتاً. وهو أضعاف العدد الذي يوجد في مدينة باريس

(٢) ظهر من سجلات المحاكم المختلطة في سنة ١٨٩٨ أن الدين الموجود علي الفلاحين ٧٣٢٣٣٠ جنيه وقد يكون عليهم ديون غير مسجلة ربما زادت علي ما ذكر ضعفاً أو ضعفين «وناهيك عما لحق بهم في سنة ١٩٠٠ بسبب الشراقي ومضاربات البورصة التي قدرها البعض بما يقرب من هذا المبلغ» وليس لهذا الدين سبب موجب سوي أنهم غير عارفين بالاقتصاد الزراعي وتقدير الدخل والنفقات. إذ يستدين الواحد منهم مبلغاً يشتري به أرضاً فلا يكون دخلها نصف ربا الدين.

أخيراً بسبب الشركات[1] التي لا يعرفون حقيقتها ولا ما هو الغرض منها مما يدل صراحة علي احتياجهم كلهم لمن يفهمهم حقيقة ذلك. والفلاح لو وفق إلى من يعرفه ما يجلب عليه الضرر وإلي من يعرفه ايراداته ومصروفاته لتحسنت شؤونه وأحواله. ولبعد عن السير الذي يتبعه.

أما جهلهم في حرفتهم فدليلنا عليه قلة غلة الزراعة في القطر إذ هي لا تزيد علي الثلاثين مليون جنيه لو قسمت علي السكان لما نال كل نفس سوي أربعة جنيهات وهو مبلغ قليل بالنسبة إلي ما تستغله الأمم الأخرى التي أراضيها كأراضينا مثل أمريكا وفرنسا وغيرها فأنهم يستغلون أضعاف هذا المعدل ولذلك أسباب جمة منها اتقان الحرث والصرف وتعاقب الزراعة باضافة السماد لا تعاقبها بقلة الدراسة حتي يؤدي لموتها. والسماد الجيد في مصر كثير. وحتي إذا لم يكن موجوداً فيمكن استحضاره بالمعرفة وهو لو وجد وساعده خصب الأرض المشهور لضاعف غلتها. أفليس في القاء أجسام الحيوانات في النيل وفي الطرقات بعد موتها ضياع لأعظم سماد. وهي لو تحفر لها الحفر وتطمر فيها إلي أن تتحلل وتمتزج بالتراب لوجد فيها فوائد عظيمة تنفع الأرض فضلاً عن منافعها الصحية.

وجهل الفلاح لما يلائم طعاماً للحيوانات ضرره كذلك عظيم. فأنهم يتركون حيواناتهم إذا أصيبت بالأمراض تعدي بعضها بعضاً وتموت. هذا ولا تسأل عما جد فيهم من تسميم حيوانات بعضهم بعضاً واتلاف مزروعاتهم لجيرانهم ولغيرهم أيضاً.

(١) للشركات سماسرة عددهم يزيد عن الثلاثة آلاف عدا كلهم يسرحون في القرى والبنادر لبيع الأسهم والسندات للشركات بتقاسيط شهرية من عشرين غرشاً إلي مائة غرش. «ذكر المؤيد الأغر» أن شخصاً من النزلاء الأفرنج أنشأ من مدة ثلاثة سنوات بيتاً ماليا في القاهرة رأس ماله ألفين جنيه فأصبح الآن وهو صاحب خمسين ألف جنيه مصرى وهو لو راعى الذمة فى عمله ما ربح هذا القدر حلماً ومناماً.

ومن الغريب أن قطرنا العزيز كان مقر تربية الخيول من قديم الزمان وكان أهل الشام وغيرهم يأتون إليه لابتياع الخيل منه فصار أهل مصر يمضون إلي الشام وغيرها لابتياع الخيل منها[1] والخيل لازمة لكل البلدان الزراعية للحمل وغيره ونفقتها فيها قليلة. كل ذلك دليل جهلهم في حرفتهم والأ فأرني دعائم الزراعة من بساتين لامتحان الزرع واتقان لالات الزراعة «ولا يزال المحراث المستعمل في مصر هو الذي كان مستعملاً من ألفي سنة» أو أرني من مستلزمات الزراعة شيئاً من تربية النحل في الجبائن وهي الكثيرة وهو لا يحتاج لكبير مشقة.

ذلك فضلاً عن حاجتهم لديوان زراعي يهتم بكل ما يتعلق بأراضي القطر ليغني الحكومة والأهالي من انفاق النفقات علي التجارب مثل ابادة الحشرات التي تسطو علي المزروعات سنويا ويهتم بادخال المزروعات الجديدة التي تنمو في القطر والشروع في انشاء الأحراش وغيرها التي كان في القطر منها شيء كثير والتي لا غني لقطر زراعى كقطرنا عنها. وتداعى ما يجلبه المزارعون من الخارج مما يكونوا فى غنى عنه لو زاد الاهتمام بالزراعة فيداويه. إذ المتأمل فيما يرد علي القطر من الحاصلات الزراعية تأخذه الدهشة وخصوصاً لو علم ما يجلب بكثرة من الغنم ونحوها من المواشي ومن اللحم المقدد والمدخن ومن السمك المقدد والمملح ومن الجبن والزبدة[2] ومن القمح ومن الذرة والشعير والأرز والسمسم والبطاطس والنيلة.

والقطر في حاجة لكثرة المعارض الزراعية التي هي من أقوي دعائم الزراعة والتي من الواجب أن يكون كل شهر معرض في احدي المديريات، ولا يخفي ما في المعارض الزراعية من المنافسة والمسابقة والاختبار والاعتبار.

(١) كثيراً ما احتاجت نظارة الحربية ومصلحة البوليس للخيل وارسلا الوفود لشرائها من سوريا وبالأخص في حرب السودان الأخير من سنة ١٨٩٦ إلي سنة ١٨٩٩

(٢) جد من أمد ليس ببعيد ثلاثة معامل للزبدة ولكن كلها لجماعة الأ[illegible]رنج.

ثعم أن الحكومة اهتمت بما ذكر وأيضاً بعض كبار المزارعين واقامت معارض لهذا الغرض من بضع سنوات مضت. ولكن المتأمل يري أن ذلك قليل النفع إذا لم يعمم في كل المديريات مديرية بعد أخري علي عدد أشهر السنة.

وهذا معرض سنة ١٩٠٠ أعظم شاهد علي قلة الفائدة فان الزائرين (لا العارضين) له لم يتجاوز عددهم ٨٠٦٤ زائراً وأنت لو استقصيت الحقيقة لوجدت أكثر من نصف زائريه من الأجانب وأكثر من الربع بعد تلامذة المدارس.

لعمرى أن ما بقي لعدد قليل علي قطر زراعي يبغي التقدم الحقيقي ويود تحسين زراعته وكل أهله من أربابها وحياتهم كلها منها. هذا حاضر الزراعة المصرية وهي الموروثة من أجيال مضت وقبل أن يعرفها من سبقنا فيها بأجيال.

أفبعد ذلك من دليل علي العجز في مباشرة شؤونها. أم تقول معي حبذا الزراعة لو اقترنت بالعقل واليد مع النشاط والجد لنصبح يوماً ونحن غير مفتقرين لغيرنا فنعيش بسلام آمنين.

* * * * *

الصناعة

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه (قيمة كل امرئٍ ما يحسنه) وقال أيضاً (الناس أبناء ما يحسنون)

لولا الصناعة لدام الانسان في فطرته الأولي متأخراً خاملاً. والصناعة من الأمور الضرورية للهيئة الاجتماعية وعليها تتوقف حياة كل أمة وهي السبب في تعليم الشعوب حب الاستقلال بالأفكار والأعمال. وحب الاعتماد علي النفس وكانت مقاليد الصناعة في مصر في عهد

الولاة الأولين تناط بالحكومة فكانت هي المتولية أمورها وشؤونها. حتي أنه ليصعب علي المرء معرفة حالة الحكومة المصرية الماضية. وما إذا كانت حكومة ادارية أو زراعية أو تجارية أو صناعية لما يعلم من أنها هي التي كانت تأخذ علي عاتقها انشاء المعامل وادارتها ومد الخطوط الحديدية وتسيير السفن البخارية التجارية وانشاء المطابع وغير ذلك من الأعمال والمشروعات التي لا تقوم عادة بها الحكومات المتمدنة. بل تعد الأمة نفسها للاقدام عليه. تقول هذا عن الحكومة الماضية وهو قول حق. لأنه كان السبب في اقعاد الأمة عن السعي في ترقية شؤون الصناعة بنفسها لانماء ثروتها. وفي ايراد الصناعة موارد التقصير المعيبة كحال الصناعة الوطنية التي نراها في نكوص دائم وتأخر مستمر يوماً فيوماً. والتي إذا بقيت حالها سائرة القهقرى آلت إلي العفاء والمحو. علي أن غاية ما يمكن أن يقال في الصناعة الوطنية أنها منحصرة في صنع الحصر والفخار وحياكة بعض المنسوجات القطنية وغيرها من مثل الحدادة والبرادة وعمل الجزم التي يتولي عملها بعض الأفراد في معامل وورش حقيرة وهي غير آخذة في التقدم غير أن حالة الصناعة عند النزلاء الأوربيين بيننا في تقدم ونجاح. فهم أصحاب معامل السكر وتكريره وأصحاب وابورات حلج القطن ومعاصر الزيوت واستخراج الصودا والنطرون وغير ذلك. ومع هذا فالناظر إلي واردات القطر يجد الصناعة فيه بوجه الاجمال متأخرة تأخراً عظيماً والمصري يعذر من وجه ويلام من وجه آخر علي تواكله وتخاذله وبيان هذا الاجمال أنه لا يؤمل صنع المصنوعات التي يؤتي بكل موادها الأولية من البلدان الخارجية في قطرنا. ولكن يؤمل أن المصنوعات التي موادها الأصلية موجودة في القطر يجب أن تصنع علي الأقل فيه. فالسكر المكرر يرد منه من الخارج ما تقدر قيمته بثلاثين ألف جنيه مع أن معامله في القطر علي ما مر بنا وكان الواجب أن يفي بحاجاته أو يزيد عليها. والورق وهو سهل العمل ومواده عندنافكان الواجب أن يعمل في قطرنا وحاجتنا إليه شديدة لأنه من لوازم العمران وبعض الأمم تقيس عمرانهاعلي مقدار ما تستهلك

منه فمن العار علينا اذاً هذا التقصير في عمله. والقطر السوري الذي هو متأخر عنا بمراحل يصنعه ولا يشكو أهله قلته كما تشكو نحن وجرائدنا[1] ومثل ذلك يقال عن الحبر وحبر المطابع التي أصبحت كثيرة الآن بمصر. ومن الغريب في الصناعة المصرية أن أهلها من المصريين لم يتقدموا فيها ولم يحافظوا علي ما كان معروفاً لديهم. فأن المتأمل يراهم قد نسوا أو تناسوا ما كان آباؤهم وأجدادهم يصنعونه قبل مما يعجز صناع أوربا عن عمله مثل التجارة العربية «الانتيكة المشربية» التي ضيعوها وان صنعوها الآن مسخوها وهي الآن بيد جماعة من الأفرنج وليس ببعيد عليهم أن يشتهروا بها في زمن قريب[2] وقد غفلوا عن استقطار ماء الزهور الكثيرة في مصر مثل ماء النعناع والورد والفليا. وفائدة استقطارها معلومة لا تخفي علي أحد. وأن وجد من يستقطرها فأفراد من النساء يستخرجون منها القليل ويمزجونه بالماء الكثير ويبيعونه داخل قناني في القهاوي وهن متهتكات وغني عن البيان أن البلاد في حاجة إلي ذلك ولاسيما حينما تتغير ماء النيل في شهري مايو ويونيو ويوليو من كل سنة. والمتأمل في تقرير مصلحة الجمارك يري كثرة ما يرد علي القطر سنويا من ذلك من البلاد السورية وغيرها. وهذه أشياء سهلة العمل جداً وممكن تعلمها بعد المشاهدة مرة واحدة. كما هو ممكن صنع أنواع الطيب الأخرى التي يرد منها علي القطر من الخارج ما تقدر قيمته بإحدي عشر ألف جنيه. وممكن أيضاً صنع الأكياس والحبال. ليستغني القطر عن جلبها من الخارج. وممكن عمل قماش القلوع الذي يرد علينا منها ما تقدر قيمته ١٥٠٠ جنيه وجميع مواد هذه الاحتياجات موجود عندنا ويمكننا صنعها في بلادنا فنريح نحن

(١) علينا أنه قد تأنت شركة صغيرة في الاسكندرية لعمل الورق وبلغنا أنها تصنعه علي أنواعه وألوانه ما عدا ورق الكتابة وورق الجرائد. وهي تصنع علي ما يقال في اليوم الواحد من ٥٠ إلى ٦٠ قنطاراً بما كينة صغيرة واحدة فقط لأن أسهمها كلها بمبلغ ٨٠٠٠ وربما كان الداعي فى عدم توسيع نطاقها قلة رأس مالها.

(٢) إذ المكان الجميل الذى وضعت فيه مخلفات سيد الكون (عليه الصلاة والسلام) فى المشهد الحسينى من صنع الأجنبى وهو لعمرى أقدس الأماكن في القطر المصرى.

ما يربحه التاجر الأوربي الذي نستوردها علي يده وينتفع عملتنا الفقراء بأجور صنع هذه الحاجيات عوضاً عن نفع العامل الأجنبي.

ويضيق بنا المقام لو عددنا الأصناف الأخري التي يمكنا صنعها مثل الجير والأجر فان قيمة الوارد منهما لا تقل عن الخمسة والعشرين ألف جنيه.

والخلاصة أنا مقصرون في الصناعة حتي في صناعة عمل الخبز فان باعة الخبز عموماً يملأونه ماء حتي يثقل وزنه علي غير زيادة في مواده الغذائية[1] وما يقال عن الخبز يقال أيضاً عن الجبن فان قيمة الوارد منه سنة ١٨٩٨ تقدر بمبلغ ثلاثة عشر ألف وست مئة جنيه. ونحن مقصرون حتي في تنظيف ما في بيوتنا من الأواني الغالية الثمن حتي أننا نحتاج عند تنظيفها إلي الأجانب وربما احوجتنا الحالة أن نرسلها إلي الخارج. وان أردنا لحم شيء بآخر ولو كان من الزنك لا ندري كيف يصنع ذلك وهذا غاية في الكسل ونهاية الاهمال وما أظن أمة من الأمم قد أدي بها الانحطاط إلي ما نحن فيه وان لم نتدارك شؤون الحياة بهمة قوية وعزيمة ماضية صرنا إلي ما لا تحمد عقباه من سوء الحال وخيبة الآمال والعياذ بالله.

نسأل الله أن يحيي فينا حب الميل إلي الصناعة حتي نحيا حياة اقتصادية جديدة ولجد فينا حب الابتكار في الصناعة فيكتسب الصانع كسبه بطرق محللة فان الصناعة ينبوع ثروة لا ينضب وسر من أسرار الاستقلال الصحيح.

* * * * *

(١) لهذا السبب انشأ الأجانب في الاسكندرية (مخابز صحية) بواسطة شركة بلجيكية.

المطابع والطباعة

ونفعها الماضي وضررها الحاضر

أهتم المصريون بالمطابع والطباعة بعد أن عرفوها من حكومتهم عند اهتمامها بانشاء مطبعة بولاق سنة ١٢٣٨ هجرية فانشأ الأفراد منهم مطابعهم الخاصة ليشتغلوا فيها بطبع الكتب والرسائل فطبعوا ونشروا الشيء الكثير وكان جل اهتمامهم في أول أمرهم بطبع كتب العلم من الحديث والتفسير وكتب التاريخ وغير ذلك مما وفقوا لطبعه من باقي العلوم الأخري التي تكسب النفوس بعض الحياة وتحيي فيها بعض ما اندرس من العلم وبين بعض ما انطمس من الحقيقة علي الفهم. ظلوا علي ذلك في مبدأ أمرهم حتي استبشر العقلاء بالمستقبل الحسن لتقدم الأمة المصرية. غير أن الحال لم تدم طويلاً بل تبدلت بطبع الضار والمفسد من الكتب حتي أصبح ديدن أصحاب المطابع المصرية (وخصوصاً الاسلامية منها) الميل إلي طبع كتب السخافة والأوهام. ولعلمهم أن العامة أميل إلي ذلك من العلم والحقائق أكثروا من طبع القصص والحكايات الغرامية والفكاهية، والأشعار الغير المستظرفة وكتب النوادر والمجون المفسدة للأخلاق والطباع والخيال ككتب الجفر والزايرجة والملاحم المملوءة بقول الزور والبهتان المنسوبة كذبا إلي مشاهير الاسلام من أهل البيت وغيرهم[1] من ذوي الأصل الكريم

(١) وحبذا لو كان ينهبون علي هذه الكتب الضارة ليجتنبها الناس ولا يلتفتوا إليها وما اضر بالمسلمين شيء كاضرار هذه الكتب التي أقعدتهم عن السعي والعمل وغلت أيديهم عن الجد والاشتغال بما ينفعهم ومن الأسف أن بعض من ينتسب إلي الأزهر قد طبع كتاباً في العام الماضي من أشنع الكتب المضرة وأعلن عن بيعه في الأزهر ولولا أن ينتبه لذلك ذوو الحكمة ويضربوا على يده ويؤدبوه لكان الأمر من أفظع الأمور وأنا نستلفت أنظار العلماء إلى تلافي هذا الخلل ووضع قاعدة لدرء هذه المفاسد الناشئة عن هذه الكتب المنتشرة وهذا واجب يلقى على عاتقهم لا يمكنهم التخلص منه أمام الله والناس.

ما يربحه التاجر الأوربي الذي نستوردها علي يده وينتفع عملتنا الفقراء بأجور صنع هذه الحاجيات عوضاً عن نفع العامل الأجنبي.

ويضيق بنا المقام لو عددنا الأصناف الأخري التي يمكنا صنعها مثل الجير والأجر فان قيمة الوارد منهما لا تقل عن الخمسة والعشرين ألف جنيه.

والخلاصة أنا مقصرون في الصناعة حتي في صناعة عمل الخبز فان باعة الخبز عموماً يملأونه ماء حتي يثقل وزنه علي غير زيادة في مواده الغذائية[1] وما يقال عن الخبز يقال أيضاً عن الجبن فان قيمة الوارد منه سنة ١٨٩٨ تقدر بمبلغ ثلاثة عشر ألف وست مئة جنيه. ونحن مقصرون حتي في تنظيف ما في بيوتنا من الأواني الغالية الثمن حتي أننا نحتاج عند تنظيفها إلي الأجانب وربما احوجتنا الحالة أن نرسلها إلي الخارج. وان أردنا لحم شيء بآخر ولو كان من الزنك لا ندري كيف يصنع ذلك وهذا غاية في الكسل ونهاية الاهمال وما أظن أمة من الأمم قد أدي بها الانحطاط إلي ما نحن فيه وان لم نتدارك شؤون الحياة بهمة قوية وعزيمة ماضية صرنا إلي ما لا تحمد عقباه من سوء الحال وخيبة الآمال والعياذ بالله.

نسأل الله أن يحيي فينا حب الميل إلي الصناعة حتي نحيا حياة اقتصادية جديدة ونجد فينا حب الابتكار في الصناعة فيكتسب الصانع كسبه بطرق محللة فان الصناعة ينبوع ثروة لا ينضب وسر من أسرار الاستقلال الصحيح.

*****

(١) لهذا السبب انشأ الأجانب في الاسكندرية (مخابز صحية) بواسطة شركة بلجيكية.

المطابع والطبا ~

ونفعها الماضي وضررها الحاضر

أهتم المصريون بالمطابع والطباعة بعد أن عرفوها من حكومتهم عند اهتمامها بانشاء مطبعة بولاق سنة ١٢٣٨ هجرية فانشأ الأفراد منهم مطابعهم الخاصة ليشتغلوا فيها بطبع الكتب والرسائل فطبعوا ونشروا الشيء الكثير وكان جل اهتمامهم في أول أمرهم بطبع كتب العلم من الحديث والتفسير وكتب التاريخ وغير ذلك مما وفقوا لطبعه من باقي العلوم الأخري التي تكسب النفوس بعض الحياة وتحيي فيها بعض ما اندرس من العلم وبين بعض ما انطمس من الحقيقة علي الفهم. ظلوا علي ذلك في مبدأ أمرهم حتي استبشر العقلاء بالمستقبل الحسن لتقدم الأمة المصرية. غير أن الحال لم تدم طويلاً بل تبدلت بطبع الضار والمفسد من الكتب حتي أصبح ديدن أصحاب المطابع المصرية (وخصوصاً الاسلامية منها) الميل إلي طبع كتب السخافة والأوهام. ولعلمهم أن العامة أميل إلي ذلك من العلم والحقائق أكثروا من طبع القصص والحكايات الغرامية والفكاهية، والأشعار الغير المستظرفة وكتب النوادر والمجون المفسدة للأخلاق والطباع والخيال ككتب الجفر والزايرجة والملاحم المملؤة بقول الزور والبهتان المنسوبة كذبا إلي مشاهير الاسلام من أهل البيت وغيرهم[1] من ذوي الأصل الكريم

(١) وحبذا لو كان ينهبون علي هذه الكتب الضارة ليجتنبها الناس ولا يلتفتوا إليها وما اضر بالمسلمين شيء كاضرار هذه الكتب التى أقعدتهم عن السعى والعمل وغلت أيديهم عن الجد والاشتغال بما ينفعهم ومن الأسف أن بعض من ينتسب إلي الأزهر قد طبع كتاباً فى العام الماضى من أشنع الكتب المضرة وأعلن عن بيعه في الأزهر ولولا أن ينتبه لذلك ذوو الحكمة ويضربوا على يده ويؤدبوه لكان الأمر من أفظع الأمور وأنا نستلفت أنظار العلماء إلى تلافى هذا الخلل ووضع قاعدة لدرء هذه المفاسد الناشئة عن هذه الكتب المنتشرة وهذا واجب يلقى على عاتقهم لا يمكنهم التخلص منه أمام الله والناس.

والفرع الطيب غير أن أصحاب المطابع السورية وخصوصاً في هذه الأيام لم يتلفتوا إلي مثل هذه الخزعبلات بل ساروا سيراً حثيثاً يدل علي اهتمامهم بمطابعهم وطبعهم الشيء النافع فأنك لتري بين أيديهم كتب الجد الحاثة للأمة علي الظهور في عالم الحقيقة وما السبب في ذلك الأ اعتناؤهم بطبع كل شيء نافع مفيد، خذ لذلك مثلاً كتب الأفاضل الذين ألفوها أو ترجموها في الحقائق تراها مطبوعة في تلك المطابع وما بقي من كتب الجهل الدالة علي ضعف العزائم فمطبوع في مطابع المصريين وبالأخص المسلمين. مما جعل القراء المدققين في دهشة من ذلك واستغراب. حتي حق للعاقل أن يزدري بالمطابع المصرية ولا يطبع فيها ما دام يمكنه التمييز بين كتاب مطبوع في مطبعة أحد المصريين وكتاب مطبوع في مطبعة أحد السوريين. إذ يتبين له عظم الفرق بين ما يطبعه هذا وما يطبعه ذاك. ففي الأول يري من سقامة الطبع ورداءة الورق ما ينفر منه ذوقه. وفي الثاني دقة الوضع ونظافة الطبع. وما ذلك الأ من نتيجة أهمال الأولين لعملهم واعتناء الآخرين به وعدم جلب الأحرف الصحيحة بدلاً من الأحرف القديمة التي برت ضلوعها طرق الآلة الطباعية وطول الاستعمال وهذا هو السبب الثاني في تأخر مطابع المصريين. كل ذلك بقطع النظر عما يحصل في مطابع المصريين من كثرة الغلطات وسقوط نقطة أو كلمة أو تداخل أحرف اللفظة في أحرف جارتها ولذا يندر أن يكون كتاب مطبوعاً في مطابعهم بدون فهرست في آخره مبيناً فيه الخطاء من الصواب أو الاعتذار للقارئ عما عساه أن يكون فيه من السهو.

هذا قولنا عن المطابع المصرية وهو القول الحق الا أننا نؤمل خيراً في المستقبل فقد انتبه منا بعض الشبان المهذبين فانشأوا مطابع لطبع الكتب

طبعاً نظيفاً يسر الخاطر كمطبعة الشاب المهذب محمد علي كامل أفندي وغيره.

ومما يسرنا ذكره أيضاً أنه تألفت من مدة جمعية لطبع الكتب العربية[1] المفيدة وقد طبعت للآن سبعة كتب جديرة بالمطالعة لما فيها من بعض الفوائد. غير أنا لا نزال مقصرين ولا يزال باقياً لدينا كتب كثيرة ذات فائدة علمية وتاريخية ونحن محرومون منها مع أنها في لغتنا ونحن الأحق بمطالعتها وقراءتها لنقف على ما كتبه آباؤنا الأولون. ومن هذه الكتب عدد عظيم في دار الكتبخانة الخديوية وهي أحق بالطبع من كتب القصص والحكايات الغرامية وكتب النوادر والمجون والخيال التي اعتنينا بطبعها ونشرها. وهذه الكتب يعلم أسماؤها من مطالعة فهرست الكتبخانة المذكورة وإلا أفليس من العار علي من يعتني بطبع ما تقدم ألاّ يعتني بطبعها[2]. أليس من العار علينا أيضاً أن يطبعها الأفرنج بلغاتهم بعد ترجمتها ثم يدرسونها في منتدياتهم العلمية وهم بعيدون عن اللغة العربية ونحن أقرب إليها منهم. حقاً أن من يعرف كثرة طبع الأفرنج لها يأخذه

(١) بعد أن كتبنا عن هذه الجمعية علمنا أنه تشكلت جمعية باسم جمعية أحياء العلوم العربية تحت رئاسة الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية وقد طبعت كتاب المخصص في اللغة لابن سيده وهو من الكتب النادرة المثال وقد أعلنت الجمعية عنه وستوالى طبع الكتب النافعة وهذه الجمعية أعضاؤها من خيرة رجال القطر ونبهائه وفقهم الله وأكثر من أمثالهم آمين.

(٢) ومن العجيب الغريب المضحك المبكى أن باعة الكتب وطابعيها عندنا لاهم لهم ولا لذة إلا بمعاكسة بعضهم بعضاً والسعى في أضرار أنفسهم ولا يتنافسون الأ علي مثل كتاب ألف ليلة وليلة وكتاب سيف اليزن ورجوع الشيخ ولذا تراهم يكررون طبع الكتاب مراراً والحال أنه لم ينفذ ولكن سعياً في ايذاء الذي طبعه أولاً وهذا شأنهم ومن العجيب أن يطبع كتاب ألف ليلة عشرين مرة وكتاب المدخل لابن الحاج مرة واحدة وهذا يدل علي انحطاط كبير فينا وخذلان ليس له مثيل والعياذ بالله.

العجب[1] فعسي أن ينتبه أصحاب المطابع منا ويعتنوا بمطابعهم فينشروا تلك الكتب ويتنافسوا في طبعها بدلاً من كتب السخافة والهذيان التي أفسدت علينا أخلاقنا وغيرت محاسننا حتي أصبحنا نخاف أن يكثر أولادنا من قراءتها وأقاربنا وجيراننا أيضاً فتؤثر في عقولهم وأخلاقهم التأثير السيىء الذي ينغص الهيئة الاجتماعية والعائلية. وحبذا لو ساعد الأغنياء وأهل العلم منا جمعية طبع الكتب العربية وجمعية أحياء العلوم العربية أيضا هذا بماله وذاك بعلمه لتحيا اللغة ويكثر الانتفاع حقيقة بالطبع والنشر. حتي لا يضحك علينا بعدنا أولادنا ومؤرخونا ويقولوا عنا أنا كنا نهوي الداء وهو يتمادي مع أن الشفاء بيننا يتهادي ولكن لا نمد له يداً. وكيف لا يضحكون واليك جدولاً مبيناً فيه الكتب التي ألفت وطبعت في القطر خلال السنوات الخمس الأخيرة.

عدد	
٧٥	روايات وقصص
١٩	كتب تاريخية وأكثرها من أسلوب واحد.
١٥	كتب أدبية
٠٩	كتب مجون ونفاق مثل كتاب المسامير وسهام التدمير وانقاذ الاخوان
٠٤	كتب سياسية
٠٣	كتب حسابية

(١) انظر ما كتبه فاضل في مجلة المقتطف الجزء ٤ سنة ٢٥ .

٢٠ كتب في التربية

٢٠ كتب في الأمثال واصل الكلمات العامية.

٣٠ كتب في العلوم الفنية

٩٠ كتب ورسائل في المواضيع الدينية مثل رسائل الردود علي القسس والقسس علي المشايخ

٤٠ كتب في اللغة القبطية والهيروجليف

٢ كتب في الزراعة

٦ كتب في الرثاء

٤ كتب دواوين

٢ كتب في الانشاء

٣ كتب في التراجم

٢ كتب في الحقوق

٢ كتب في الطب

٢ كتب في علم الاثار

الكتب والمؤلفون بمصر

ان كان عدد المدارس وعدد المتعلمين والنظام المالي والاقتصادي يعتبر من الأدلة الصحيحة علي درجة مدنيّة البلاد فنوع المؤلفات التي تنشر فيها من حين الي حين وعددها ايضاً من احسن الشواهد علي درجة ماهيّة هذه المدنية . اذ هي خلاصة افكار وخواطر نخبة الامة ومرآة ذوق المتنورين واميال الفئة المتعلمة بآسرها . ومعلوم ان المصلحة الشخصية هي المحرك لجميع الاعمال في هذه الحياة ويستحيل ان يهتم شخص في الوجود لامر مالم يكن مسوقاً اليه بحب المصلحة الذاتيّة . فتارة يكون اندفاعهُ طلباً في الافتخار" والانسان طبيعة يفتخر بجماله وعلمه وادبه وثروته وتواضعه وتنسكه حتي عندما يكون ظاهر عمله تضحية حب الذات " وتارة سعياً وراء المال او الانعام وغير ذلك من العوامل الادبيّة الخفية. اذاً لابد ان يكون للمؤلف مثل غيره من غاية او محرك في عمله.ويمكن تقسيم المؤلفين من هذا القبيل الي (اولا) مؤلفين غايتهم نشر افكارهم العلمية خدمة للعلم او الوطنيّة او الدين او الآداب. ولشهرة انفسهم مع الامل بالربح المادي انما دون ان يكون هذا الاخير المطمح الرئيسي . وهذه هي اقل فئة بين العالمين .

(ثانياً) مؤلفين غايتهم في جانب الشهرة الربح المادي وربما اختلف البعض عن الآ خر في انهُ يرمي اولاً الي الشهرة او الي الربح انما بوجه الاجمال يصح القول بآن الغاية الرئيسية من السالف بوجه عام هي الربح والشهرة

ونحن مع كوننا من فئة المستبشرين القائلين بسير البلاد الي الامام نوعاً لا يمكننا ان نقول باعتقاد صحيح ان في مصر عدداً محسوساً من الفئة الاولي وربما لا يخلو الحال من افاضل هم حقيقة منها وما منعهم عن الظهور الاّ ترجيحهم بأنهُ لا يوجد في القوم من يقدر كتابتهم حق قدرها

ويهتم بقراءتها فلا يرون من العقل الاشتغال في أعمال لايتوقع فائدة منها . ولكن هذا لا يوجب الانشراح علي ايّة حال سواء كان الرآي صحيحاً ام لا فالنتيجة أن البلاد خالية من اعمال اهل العلم الصحيح " ماعدا النزر القليل جداً وسيأتي الكلام عن ذلك " وتدل ايضاً ان هذه النتيجة القليلة ليست مثل قريناتها في بلاد المتمدنين اقداماً ومنفعة للبلاد ولايصح التعويل عليها بصورة توجب الانشراح . اما القسم الثاني من المؤلفين فلو انهُ يوجد بعض التماثل بين اعمالهم واعمال بعض المؤلفين في غير هذا القطر ولكن بوجه الاجمال لايمكن مقارنتهم بهم لا من حيث عدد المؤلفات ونسبتها ولا بالاخص من حيث نوعها وقيمتها .

ففي البلاد المتمدنة يوجد مؤلفون علميون ومؤلفون سياسيون ومؤلفون اقتصاديون ومؤلفون دينيون ومؤلفون ادبيون ومؤلفون فكاهيون الخ الخ . يختلف طبعاً من حيث متانة البحث وآداب الكتابة ولكن ففي كل درجة منهم ما يكفي لحاجات جميع الطبقات . ويمكن ان يقال ان في بلادهم كل شيء في تقدم حتي الذل، نعم يتمني المرء العاقل ان تكون جميع الخواطر منصرفة الي الجد ولكن هذا يستحيل مادام الانسان انساناً والدنيا دنياولكن وجود الذل وغيرهُ يكاد لا يؤثر علي تقدم البلاد نظراً لاهتمام الفئة الكبري بما يرقي البلاد علماً وادابا وثروة اما في مصر فالمؤلفات المفيدة التي من هذا القبيل تكاد لاتذكر وعيوب العدد الاوفر منها اكثر من فضائلها. فجرائدنا وكتبنا لا تخلو من محل للانتقاد الصحيح اكثر بكثير من نظيراتها عند غيرنا. واغلبها خلو من المباحثات العلمية او الفلسفية او الادبية او التجارية وقاصرة علي التهكم علي بعض افراد لغايات دينية محضة او علي نشر اراجيف وخرافات وافكار ومباحث تضعف الذوق العلمي وملكة العقل الصحيح عند اهل البلاد فهي اذاً تساعد علي انحطاط العقل اكثر من مساعدتها علي ترقيته وتدل دلالة

واضحة علي انحطاط نفس المؤلفين وهم بحسب الارجح الفئة التي امتازت عن المجموع علماً واداباً وأمكنها ادارة الاقلام

ونحن لا نقول هذا عفواً بدون تبصر فان مصر مع انها تعتبر عاصمة البلاد العربية حضارة ومدنية هي بنسبة مركزها الحالي احوج الي الكتب العصريةالمفيدة من غيرها فالمؤلفات المذخورة في الكتبخانات العمومية والخصوصية تكاد تكون قاصرة علي بقايا العصور الخالية فالادبية والفلسفيّة منها قد لاتنطبق علي آداب وفلسفة الوقت الحاضر الانطباق اللازم .والتاريخية منها اكثرها خطل وحكايات ليس لها في الغالب أساس علمي " أنظر بعض المؤلفات التاريخية من التي طبعت اخيراً وذكرنا عددها في الفصل السالف " واللغوي منهاكلهُ تكرار ومزج غير مفيد" انظر كتابا من الكتابين المؤلفين في الانشاء اللذين ذكرنهما في الفصل السابق"

والعلمية منها لاعلم صحيح في اكثرها لان اغلب قضاياها قد ثبت عدم صحتها . ولو انهُ لايوجد الا نفر قليل مهتم فعلاً بمطالعتها ولكن مجموع خرافاتها واضاليلها ما زالت منتشرة بين الجمهور. وهذا هو أكبر عامل مساعد علي بقاء القوم في حالة الانحطاط العلمي خصوصاً وانه لم يفطن احد من ذوي النشاط العلمي إلي دحضها بالأساليب المألوفة في غير هذه البلاد.

نعم يظهر بيننا من وقت إلي آخر مؤلفات بعضها مفيد نوعا ولكن أغلبها كما قلنا عبارة عن ترجمة بعض روايات أفرنكية قد لا تنطبق علي المطلوب في هذه البلاد خصوصاً وان الترجمة تفقدها في الغالب قوة اللهجة ولذة العبارة وربما كان لمترجميها بعض الفوز إذ هم لا غاية لهم منها غير مجرد الفائدة المادية حيث ينظرون إلي هذه البلاد كسوق رابحة تروج فيها بضائعهم والغاية الأدبية من الروايات بوجه العموم تمثيل عوائد البلاد

ونقائص أحكامها ونظاماتها واستبداد حكامها إستنهاضاً لهمة الأمة ولتقويم المعوج. فالتي يكتب منها لبلاد معلومة قد لا يكون له كل المعنى المطلوب في هذه البلاد. فما عدا العدد القليل جدا لم يظهر عندنا شيء مفيد من هذا القبيل. وكذا قل عن التاريخ. أما عن الآداب والفلسفة فلا محل لهما في الكلام لخلو البلاد تقريباً من مباحث صحيحة فيها. والعلة الحقيقية في ذلك ما هو سائد في أذهان العوام من أن كل بحث عقلي يناقض الاعتقاد الديني. وان هذا مقدس لا يصح التعرض له ولا غرابة أن استمر مثل هذا الاحساس المضر في القوم ان كانت جميع المدارس العائلية والابتدائية والعالية والاجتماعية خالية كل الخلو من كل بحث في علل الأشياء ولا غرابة إذا انقضي القرن التاسع عشر ودخل القرن العشرون وأكبر مدرسة عربية «الجامع الأزهر وما يماثله» ليس فيه شيءٌ من المباحث الفلسفية العصرية التي بدونها يستحيل تقريباً تهذيب النفوس التهذيب الحقيقي الذي تقوم عليه المدنية الصحيحة. فان كان لمثل هذه المباحث أو لمثل هذه المبادئ . واعطي لتربية النفوس والاخلاق محلاً ولو جزئياً في بروجرامات المدارس لامكن التمييز بين منطقة نفوذ الدين ومنطقة نفوذ العلم ولظهرت بيننا كتب ومؤلفات تنهض بالأمة نهضة محسوسة يمكنها معها مجارات الأمم المزاحمة لنا هذه المزاحمة القوية.

أما المؤلفات العلمية فقد انقرض زمنها لأسباب شتي أخصها عدم وجود فائدة بالمرة من الاشتغال بها. أولاً لعدم استعمال المدارس الكتب العربية في تدريس العلوم. ثانياً لعدم اهتمام الناس بالعلوم حباً فيها لاعتقادهم عدم فائدتها في حالة البلاد الراهنة. ثالثاً لعدم وجود فئة محسوسة من أهل العلم الصحيح الذين يدأبون من أنفسهم علي نشره بصرف النظر عن جميع الموانع.

أما المجلات والجرائد فان استثني منها النزر القليل جدا الذي لا

يعود فضله لأهل البلاد الأصليين فالباقي إنما هو عبارة عن جرائد قليلة الاحتفاء بعزة النفس والرفعة الصحيحة غير واسعة الاطلاع والتمكن من المسائل السياسية والاجتماعية وجميعها ترمي إلي غايتين أساسيتين. الأولي خدمة مصلحة أصحابها. والثانية خدمة الفئة المنتسبة لها ديناً. فهي إذا من أقوي العوامل علي نشر التعصب وأضعاف البلاد وأكثر ما يدرج فيها يقصد منه التشفي الذاتي وتوليد الضغائن وبحمد الله كلها مجمعة علي البعد عن واجب الكتابة المباحث المفيدة الأ ما كان في بعض الأحيان من المسائل التي يجرهم إليها ظهور الحقائق . ـ تتغلب علي مآربهم وأميالهم من حيث لا يشعرون وهذا قليل من سوء حظ البلاد .

* * * * *

كتب مفيدة

وان كان كتاب «سر تقدم الانكليز السكسونيين» «وتحرير المرأة» «والمرأة الجديدة» مقدمة لحياة جديدة لهذه البلاد فهي كافية لمحو عارها واحياء آمال محبيها. أني لست أول . . بكل حرف من هذه الكتب النفسية ولست ممن خصوا بالنصيب الاوفر من العقل لتقدير ما ورد فيها من المبادئ السامية التي تستحق بلا مراء ان تزين بها العقول والمكاتب والمنازل ولست لسوء حظي من الذين يستطيعون اظهار فوائدها ولكن شغفي بها يدفعني دفعاً إلي أفراد باب لكل منها

«كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين»

«لسعادة العالم الفاضل أحمد فتحي زغلول بك»

قصد واضع هذا الكتاب أحسن علم إجتماعي جمع فيه خلاصة أبحاثه وأبحاث قرنائه في نظام فرنسا الاقتصادي السياسي ومقارنته مع

نظام انكلترا التي منها يتضح علة تقدم الأخيرين وتأخر الأولين. فهو إذا قاصر علي مباحث اجتماعية محضة لا دخل للدين فيها. ولوجود تشابه محسوس بين الجمعية المصرية والجمعية الفرنسوية من بعض الوجوه لاحظ سعادة العالم المدقق أحمد فتحي زغلول بك ما ينجم لأمته من الفائدة من نشره وشرحه وتذييله بالملحوظات الخاصة بهذا القطر.

فالكتاب جليل القدر (أولاً) لأنه أول مؤلف في بابه وقف علي علل انحطاط الأمة الأفرنسية الحقيقية من عالم مدقق تقريباً فريد من حيث كيفية أبحاثه وحرية نظرياته. (ثانياً) لأنه بحث في مسائل مالية جوهرية يتوقف عليها حياة أمة أو زوالها. (ثالثاً) لأنه يخص كل فرد من أفراد الأمة بدون أدني ارتباط للاعتقاد الديني.

وهو ذو قيمة خصوصية بالنسبة لهذه البلاد. أولاً لأنه أول مؤلف ظهر في بابه فيها. ثانياً: لأن البلاد في حاجة واضطرار إليه. ثالثاً: لأن ناقله إلي العربية عالم فاضل لا شبهة في اقتداره علي اظهار مزاياه واكسابه قوة التأثير التي لكتابه الأصلي في بلاده خصوصاً وأنه قد وضعه بصورة تفي بحاجات البلاد الخصوصية فرغماً عن هذه المزايا لم يلق كل الاهتمام اللائق له. وعذر القوم في ذلك واضح فانحطاطنا الأدبي مشاهد بالعيان. ونحن لا نلوم الفئة الكبري لأن جهلها المعلوم يلتمس لها العذر ولكن الفئة القليلة التي كان ينتظر أن تنظر له بعين الرضا علي الأقل وتهتم بالبحث فيه بقصد الامعان. كانت مع الأسف من أشد العاملين علي الحط من قيمته ومسخ معانيه ولعلمهم أن أكبر حجة تفلح في هذه البلاد هي التحكك في الدين قالوا أن مباحثه تناقض الدين والله أعلم بأوجه التناقض. والكتاب برئٌ منها. ولكن بما أن نواميس الطبيعة تقضي حتماً بضرورة ظهور الحقيقة ولو بعد حين فلابد من يوم تفهم الناس فيه معني الكتاب وتقدر قدر واضعيه وانهم بلا شك مع نوابغ الدهر ورحم الله القائل

ما ضر شمس الضحي في الأفق ساطعة   إن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

كتابا تحرير المرأة والمرأة الجديدة

«لسعادة العالم القانوني قاسم بك أمين»

ظلت الأمم ازماناً تجهل تأثير المرأة في العمران. وان لها حقوقاً وشأنا فيه. لا تقل عن حقوق الرجل وشأنه ان لم تكن أكثر. ولكن ما لبث هذا الجهل ان زال أو تقلص علي الأقل في الأمم المتمدنة بنسبة ارتقائها في سلم العلم الصحيح وأدركت أن أساس العلم والتربية هو المدرسة المنزلية وأساس هذه المدرسة هي المرأة وأنه بقدر ارتقاء هذه ترتقي هذه المدارس وبقدر ارتقائها ترتقى أفراد الأمة أيضاً. أدركت هذه الشعوب بأن المرأة خلقت مساوية للرجل في الحقوق وأكثر منه رقة في العواطف وسرعة في الخواطر وشغفاً بالمحافظة علي الآداب وان ما أنزلها إلي درجة الاستعباد خلافاً لما تأمر به الأديان جميعها الا تطرف الرجل وخروجه عن حد الإعتدال واستبداده وان هذا الحط مضر فعلاً بجسم الهيئة الاجتماعية ومفسد لقوامها وارتقائها اذ يترتب عليه أبعاد فئة كبرى من العمل المفيد بل ومن أكبر عمل يتوقف عليه التمدن الصحيح. فلما أدرك الرجال العارفون ذلك وثبت لهم أن سعادتهم لا تتم الا برفع احجافهم عن النساء واعطائهن مركزهن الطبيعي الذي اقرتهن عليه الشرائع هان عليهم التجاوز شيئاً فشيئاً عن الاستبداد وساعدهم علي ذلك ما شعروا به من الارتقاء وتوفر أسباب الهناء والعمران. هذه حقائق راهنة يكفي معرفتها للاقتناع بصحتها وهذه شعوب أوربا كلها دلائل ساطعة عليها. ولكن لما قام حضرة العالم الباحث سعادة قاسم بك أمين يحدث أهل بلاده بها قوبل بالسخط والازدراء ويا ليت هذا من فئة الأميين وسطحيي المعارف فقط الذي ألفوا استعباد المرأة واعتبارها احط منهم قدراً واتخاذها متاعاً من أمتعة البيت والدين يأبي ذلك بل من الفئة الممتازة «فئة العلماء» والظاهرين بمظهر

المرشدين والمعلمين وحاجوا المؤلف بالدين وجعلوه عكازهم الوحيد. نعم أنهم أفلحوا - ولكنه فلاح وقتى - في تنفير القلوب من هذه المبادئ السامية ومنعها من الوصول بالتربية الحقة إلي سعادتها. ولابد يوماً ما من انتصار الحق وتغلبه لاشتغال القوم بالعرض دون الجوهر فأنهم تمسكوا بمسألة الحجاب وتركوا التربية وأكثروا من الصياح والجلبة بالقول والكلام وتركوا العمل والفعل. وما فعلوه انما هو عراقيل وقتية لا تستطيع مقاومة قوة الحقائق فلابد لهذه من الفوز الأخير. ولابد من عصر يعرف فيه قدر رجل الفضل ونابغة هذا الزمن الذي أخذ علي نفسه المجاهرة بالحق والانتصار للمغبونين في بلاد لا تقابل فيها مثل هذه المجاهرة الأ بالنكران والازدراء

أما جعل القوم مسألة الحجاب دينية محضة فيخالفه أن المسلمين فيها ليسوا سواء في كل بلادهم وليس الحجاب شاملاً لجميعهم(١) وصاحبنا انما يريد تعديل هذا لدرجة توافق المصلحة ويسهل معها التربية والتعليم والقيام بشؤون الحياة التي يليق بالمرأة أن تكون فيها فما بالنا قد تركنا اللباب وهو السعي في التهذيب والاصلاح العائلي والتربية الحقة واشتغلنا بالقشر الذي هو الحجاب ووقفنا عنده مكابرة وعناداً وليت قومنا يعتنون بالتعليم والتربية مع وجود الحجاب بينهم ويظهروا لنا قوة عزيمتهم وشدة اهتمامهم ويحيون اسم الدين في منازلهم وفي قلوب أبنائهم وبناتهم

(١) قال الأستاذ الشيخ علي يوسف في رسالته من الاستانة العلية المؤرخة فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٠١ المندرجة في المؤيد الصادر في يوم الأربعاء ١٣ جماد أول سنة ١٣١٩ ٢٧ أغسطس سنة١٩٠١.

المرأة هنا ذات حجاب ولكن لا كحجاب المصرية فهو أقل منه بكثير في شكله وأكبر منه وظيفة، فهو كلا حجاب في نموذجه. ولكنه أمنع للناموس واصون للعرض، فلا يوجد هنا برقع ولا يشمق. ولكن خمار رقيق أسود، أو ذى لون آخر يسمى «بجه» تسدله الواحدة علي وجهها في مضايق الطرق وترفعه إذا قلت المارة وخف الزحام «ورفعه أكثر من وضعه» وقد لا تخرج الواحدة منهن إلأ وفي يدها شمسية لاتقاء حر الشمس أو رذاذ المطر وهي تنفعها كثير في الاحتجاب أيضاً عن أشعة الابصار فلا تحتاج معها إلي ذلك الخمار. أ هـ.

حتي تكون لنا تربية حقة وتعليم صحيح. أما «تحرير المرأة» ومساواتها بالرجل في كل الشؤون فلا يشمل الا في العلاقات الدنيوية السياسية النظامية وهذا ما يوافق عليه كل من بحث في المسألة باستقلال نظر.

فان كان هذا هو . . مثل هذه المؤلفات في هذه البلاد فلا عجب ان قلت فيها وضعف الاهتمام والاشتغال بها.

* * * * *

السياسة

السياسة عند كل أمة متمدنة علم كسائر العلوم الاجتماعية. له أصول وروابط يتقيد بها ويسير عليها. وما شذ عنها فهو خرق في السياسة لا يمكن التعويل عليه ولا تعليل النفس به إذا مست الحاجة اليه. وله مدارس خاصة به وأهمها الدهر والتاريخ ولا ينجح به الا من كان منذ نعومة أظافره ميالاً اليه فيتعلمه في كل آونة وهو لا يعلم به. لا. لأنه غير شاعر به. بل لان ذلك أصبح عادة لديه إذا تركها رأي في ذاته شيئاً غائباً عنه فيتطلبه حتي يجده ويكمل به ما نقص منه. ومن لفظة السياسة يفهم الغرض منها أي مسايرة الزمن واغتنام فرصه في معرفة المراتب الدينية والاجتماعية الفاضلة والمؤذية ووجه استيفاء كل واحد منها وعلة زواله ووجه انتقاله. ولا يستغني عن السياسة أحد من الناس ما دام الانسان مدنيا بالطبع ويجب عليه اختيار المدنية الفاضلة مسكنا والهجرة عن المؤذية وان يعلم كيف ينفع أهل مدينته وينتفع ولا يتم ذلك الا بالسياسة.

ونقصد الآن ما دمنا قد بينا ما تقدم الكلام علي علم السياسة عندنا المنتشر في القهاوي والمنتديات والحانات حيث يؤمها الجم الغفير منا سيما ساعة العصر ساعة انتشار الجرائد بيد باعتها من الاطفال البالغ عددهم في القاهرة وحدها زهاء المائة. والتي يتناولها منهم الغني والفقير

ويقضون ساعات فراغهم في طرق مباحثات في سياسات الدول عند اطلاعهم علي ما جاء به روتروما اخبر عنها هافاس

وأغلب أولئك الذين يتناقشون في السياسة من جماعة مستخدمي الحكومة وشبان المدارس العالية المنتظر منهم لدي نيلهم شهادتهم المدرسية أن يخدموا الوطن والوطنية بالتفاتهم نحو الزراعة والتجارة ولكنهم يفضلون الالتحاق بالخدم الأميرية ولو اماتت احساساتهم وعلمتهم علي الكسل وان كانوا في غني عنها أيضاً. حتي أنك لو سألتهم عن عملهم قالوا أنا كنا تلامذة والآن نحن منتظرون اجابة زيد في الحقانية وعمرو في المالية. هؤلاء لهم في ميدان السياسة قصب السبق في حين أنهم في ميدان الكسب خاملون وقد مضي عليهم سنون عديدة في تفضيل فرنسا علي انكلترا وانكلترا علي فرنسا حسب أهوائهم واهواء المدارس التي ربوا فيها واهواء الجرائد التي يقرأونها وكلهم متعشمون في خلاص الوطن لتوهمهم أنه في تعاسة وشقاء مثلهم وعلي هذا يسعون علي زعمهم في خلاصه من الاحتلال ولو كان فكرهم في اعتلال - اذ عندي أنه لو طبع لهم كتاب تاريخ الجبرتي مرة ووزع عليهم مجاناً وقرأوه لفهموا النعمة الحاضرة ولأدركوا خطاءهم ولحمدوا ربهم علي ما هم فيه من النعم الجزيلة - إذا سألت أحدهم من بدء الاحتلال إلي الآن بالاجمال أن شئت أو بالتفصيل إذا أحببت فهم له حافظون واسأل من تشاء منهم عن ما يسمونه ديلونكل أو هانوتو [1] ونمرة ٢ ونمرة ٣ فهو يفسره لك بأحسن تعبير كأنه يراجعه كل يوم فلا يفوته حرف منه ولا حركة. واسأل من تشاء منهم عن مجادلات

(١) ديلونكل كان عضواً في مجلس نواب جمهورية فرنسا في وزارة هانوتو سنة ١٨٩٥ للخارجية الفرنساوية. أتي مصر وساح في الوجه القبلي ووعد من رافقه من المصريين ووافقه علي سياسته ان الانكليز سيرحلون عن مصر في أكتوبر سنة ١٨٩٥ وللآن لم يصدق وعده لهم

المؤيد والمقطم من عهد نشأتهما يخبرك بها حرفيا أن شئت أو سطحيا أن اردت وكلهم يقولون لك أن الجهاد في سبيل الاستقلال واجب فان حاجتهم بجهل الأمة غنيها وفقيرها وبفقد التضامن الوطني الذي هو أكبر دعامة في الاستقلال الحق لتكون الأمة حية متضامنة وقفوا عن الاجابة وتمسكوا باذيال الفرار واستعملوا المواربة. ولا فرق بين البعض والبعض الآخر في سعة الادراك في هذه السياسة الأ أن هذا يحفظ وهذا لا يحفظ ما حدث في عهد الاحتلال للآن من الحوادث العظيمة التي كان لها بعض التأثير، ولما كان أغلب المشتغلين في هذه الأمور من المصريين جماعة الاسلام ووجدوا أن الحالة باقية علي ما كانت عليه ولم ينفعهم الاستصراخ بغلادستون وغيره من علماء السياسة في أوربا أوجدوا سياسة جديدة وهي سياسة الجامعة الاسلامية وسياسة الدين فلذا تري كلا منهم يقول أن ما يراه في نظره أولي بالاتباع وكفي وكل رأي يخالفه فهو ضلال وان كان حقا ويستنكف أن يجتمع بغيره حتي يقابل فكرته بما عنده لعل أحدهما يقنع الآخر ولذا تراه يخبط خبط عشواء يكتب بالدين والاسلام وهو أبعد الناس عنهما. ومن البديهي أن فاقد الشيء لا يعطيه، ولو شئنا تعداد الآراء التي كتبت في مثل هذه الخيالات في الجرائد لطال معنا القول. وحديث الجامعة والدين يلذ فيه البحث لمن لا يدرك حقيقة الجامعة ولا الدين مثلنا وهو كذلك ملذ للقارى والكاتب لا لأنه شيءٌ فكاهي مما تعودنا اللذة منه فقط. بل لأن القارئ يجد ما توده نفسه وما تصبو إليه أمياله «أن الانسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً»

فيطالع ما يكتب في هذا الموضوع بانشراح خاطر وسرور نفس وهكذا الكاتب يري أمامه الموضوع كبيراً متشعباً فيجري فيه قلمه حتي لو شاء الكتابة فيه إلي ما شاء الله ما استعصي عليه القلم ولا خانته القريحة. ولكن لا ندري ذلك وعاقبته وهل تصح الأحلام. أم الحقيقة هي أنه من بعد موت الرسول «صلي الله عليه وسلم» والخلفاء الراشدين لم يقم

للاسلام جامعة قط. ولدينا سير الاسلام وأقوال مؤرخي الاسلام أنفسهم في ذلك فان بعد موته «صلي الله عليه وسلم» والخلفاء الأربعة لم يقم للاسلام جامعة واللبيب يعلم هياج المسلمين وقيامهم في زمن الصديق «رضي الله عنه» وأنه قام في بدء خلافته من قام لولا تهدئة الخواطر بهمته[1] وبعد موته لولا اشتغال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» في الغزو والفتوح لحصل ما حصل في خلافة خلفية الامامين عثمان وعلي «رضي الله عنهما» ودولة بنى أمية فيها من التفريق بين ممالك الإسلام ما نعلمه وتاريخ الدول الاسلامية التي خلفتها حاو من الفشل وتفريق الكلمة بين الاسلام وأهله ما فيه.

ومنذ تبوأت دولة آل عثمان عرش الخلافة للآن ما سمعنا باهداء سلام من ملك مسلم عربي لملك مسلم تركي حتي صدق قول القائل.

الضب والنون قد يرجي اجتماعهما   وليس يرجي وداد الترك للعرب

بل كلهم يستنكفون تبادل السفراء في عواصمهم مع أنهم يقبلون علي الرحب والسعة سفراء الممالك الأوربية فوا اسفا

ما ذا التقاطع في الاسلام بينكم   وأنتم يا عباد الله اخوان

وها هو حاضر الإسلام في الاستانة منقسم علي نفسه وكلهم أحزاب وشيع وكذلك الحال في مصر كثيراً ما تكدر الصفا بين سمو مولانا

---

(١) لما توفى «النبى صلى الله عليه وسلم» ارتدت قبائل عمان والبحرين ومهرة وحضرموت وظهر مدعو النبوة طليحة فى نجد ومسيلمة في اليمامة وقيس قاتل الأسود في اليمن وهم بالعصيان أهل مكة والطائف وسائر أقليم الحجاز فوجه أبو بكر «رضى الله عنه» همته لقمع هذه الفتنة وبعث أسامة بن زيد إلي البلاد الشامية بجيش هائل أوقع الرعب في قلوب العرب أجمع وهو أجل عمل قام به هذا الخليفة الأول ومن جاء بعده فهو عيال عليه.

الخديوي المعظم وجلالة مولانا أمير المؤمنين. والفضل في ذلك لجماعة الاتراك الذين أموا مصر أخيراً فان منهم جماعة ضد جماعة كلهم هاجون بعهم بعضا بأقبح الألفاظ وأرذل النعوت.

وكل فريق يؤلف ضد الآخر الكتب والرسائل ومن هذه الكتب ظهر عدد كبير كما قدمنا وكان ذلك سبباً في تعكير العلاقات بين مصر والاستانة. حتي أصبح البلغاري لاتقاً للالتفات السلطاني أكثر من المصري وأصبح أبن الاستانة ينظر إي أبن مصر باحتقار وازدراء بعيشك قل لي هل من الجامعة أن يشتغل السلطان بالهدايا تتبع الهدايا إلي ملوك أوربا وذوي الامارات الصغيرة ويدع مثل سلطان مراكش وأمير الأفغان لا نسمع شيئاً عن مهاداته لهما ولو بالسلام فضلاً عن الاتحاد يداً واحدة والاجتماع علي كلمة واحدة مع أنه لا يتصور أن يبغي بعضهم علي بعض أو يطمع في زوال ملكه.

أفهل هذه هي السياسة التي أضعنا فيها الوقت الماضي كله. أم من الحقيقة وحسن السياسة القول أن جميع ممالك الاسلام تحتاج لفتح جديد ويد الله للتأييد.

ولا يتم ذلك ولا يتحقق شيءٌ مما يقولون الا بالعلم وبث المعارف حتي يبعد ذلك التغرير المشاهد بين المسلم وأخيه وحتي لا ينتظر كل منا وعد ساسة أوربا الاستقلال وكل منا متعلق بدولة ولو كان هذا التعلق أشبه بالمتعلق بأذيال الهواء أو المستجير من الرمضاء بالنار.

* * * * *

الجرائد السياسة المصرية

أول الجرائد السياسية المصرية التي أنشئت في مصر جريدة «وادي النيل» التي كانت تصدر مرتين في الأسبوع علي شكل كراس[1] وكان يحررها أبو السعود أفندي أنشئت بمصر ١٢٨٣ - ١٨٦٧ ثم عكف من بعدها جماعة النسوريين لانشاء الجرائد السياسية ومنهم تنبه المصريون علي انشاء الجرائد بكثرة تلك حقيقة نذكرها ولا نبخس الناس أشياءهم. والجرائد يقال عنها أنها مقياس كل أمة في ارتقائها ونموها. فكما تكون الأمة تكون جرائدها ومن رام أن يعرف جرائد أمة فليذكرها ليتضح له حالة تلك الأمة وتقدمها أو تأخرها بأجلي بيان والغرض من الجرائد السياسية العلم بحقائق الأمور الجارية. والوقوف علي الأخبار بين البلاد وبعضها فاذا عرفنا ما ذكر نقول عن جرائدنا السياسية المصرية والأسف ملء الفؤاد انها دون سائر الجرائد التي تنشئها الطوائف الأخري المعاصرة لنا في معرفة الأخبار وذكر الحقائق. والسبب في ذلك أنه يحرر فيها كل كاتب وجد في نفسه مقدرة علي حمل الأقلام وتجشم الآلام. واحتمال اللأواء ورزق قلباً ميتا وكان ذا استعداد ليعيث في أرض الكتابة إفساداً. واحتقب من الاوزار وهب من سنة الضياع فلهذا تنشأ الجرائد السياسية المصرية وأصحابها غير كفوءٍ لما انتدبوا إليه. وزد علي ذلك أنهم يتكلون علي مساعدة الغير مساعدات مادية وأدبية.

ويزداد عددها وعدد النسخ التي تطبع منها أيام اشتداد الأزمة ووقوع الحوادث العظيمة مثل أيام الحروب والمشاكل الداخلية حيث يكون مجال القول بها فسيحاً فتهرف بما لا تعرف سواءً كان بالكذب أو الصدق.

(١) أما الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) فقبل ذلك بكثير اذ أول صدورها كان في سنة ١٢٤٥ هجرية.

والكذب عندها أولي وهو غنيمة باردة. فان نشر الأراجيف المهيجة للخواطر، ونشر الاباطيل المثيرة للأذهان تروج بضاعتها لما في طبع الناس من الاقبال علي قراءة ما يقرع أذهانهم ويهيج خواطرهم صحيحاً كان أو باطلاً ويفضلونه علي قراءة الأخبار الصادقة المعتدلة الرواية المجردة عن التزويق والتنميق. وهذا شأن أغلب الجرائد السياسية المصرية وشأن أصحابها.

فان منهم كل خلي من مبدأ قويم كل محب للأباطيل والأراجيف والأضاليل بدلاً من الحقائق. ولذلك فلاثبات لها في الاعتدال. وفي انصاف القراء بتقرير الحقائق. وانما ثباتها في عرض البضاعة الرائجة من معارضة الحكومة والحقيقة. مثال ذلك ما نشره بعضها في المدة الماضية أيام حرب السودان. قال أن الجيش أبيد وأن التعايشي قطع الطريق عليه واثخن في العساكر الجروح. ولما تم الفتح ووصلت بشائر النصر اختفت تلك الأباطيل فمحي الأثر ولم تبق العين. ومن كتابة تلك الجرائد يظهر انحطاطها في الفكر وسقم الفهم. فان المواضيع التي تكتب فيها تعزيز في تعزيز حتي أنه ليسهي علي كاتب الجريدة منهم حالة أفكاره السياسية فيشحنها بأقوال الشتم والسب في الدول «كانكلترا» مثلاً أو «فرنسا» حسب أهوائه وأمياله وكل يغني علي ليلاه.

علي أن القارئ تتبين له حقيقة من ذلك وهي أن المقصود تسلية الخاطر وقتل الوقت وقت الفراغ عصراً هذا وناهيك عما يدرج فيها يوميا من السباب والشتائم وقذف أعراض البعض من الوجهاء عدا عن ذم سياسة الحكومة وتقبيح كل أفعالها حسنة كانت أو غير حسنة علي حد سوي. مثال ذلك. نعت الوزراء بالاستسلام وبأنهم لا يهمهم أن عاشت الأمة أو ماتت لترقية المصالح الانكليزية إلي غير ذلك من القول التافه العقيم.

وصاحب الجريدة منهم متسرع بحرفته في اظهار فكره في أي موضوع كان مسترسل في الكتابة بلا ترو مدع بأنه العالم في كل فن ومطلب سواءً كان نصحاً سياسيا أو صحيا. ولو كان ممن صدقت فيهم الآية «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم»

أما النصح السياسي فهو علي ما يذكر القارئ التشيع لإحدي الدول ضد الأخري ولا يسهي عن القارئ عكف الجرائد مدة العشر سنوات الماضية علي البحث في جعل نفوذ «فرنسا» أعظم من نفوذ «انكلترا» علي أن ذلك لم يجدها نفعاً سوي جعل الأمة فريقين فريقاً متشيعاً مبدؤه انكليزي يهوي مسالمة المحتلين بقدر ما يمكن وفريقاً متشيعاً علي فساد يعكف علي المناداة بالانجلاء والتعلق بأهداب الساسة في أوربا. ولكن ذلك لم ينتج ثمرة سوي ضياع الوقت وايغار الصدور عدا عن ظهور بهتان تلك الجرائد ليصدق فيها قول «عمر» من تخلق للناس بغير ما فيه فضحه الله. وأي فضيحة للجرائد المتشيعة لفرنسا ضد انكلترا من كذب ديلونكل وبهتان هانوتو ونفاقه فقد تمنطقت بهما وبغيرهما تلك الجرائد لظنها فيهم أن البلاد تستقل بجعجعتهم فكانوا ضحيات للدين واليقين. وللجرائد نصح آخر سياسي دليله أيام حرب الانكليز والترنسفال. فقد كانت تحرض الجيش المصري في السودان علي شق عصا الطاعة في معرض الحث علي النخوة والمروءة وتعير الجنود المصرية علي حسن طاعتها وحسن ولائها في معرض التباهي بصفاء نيتها وسلامة طويتها وترجف بأن زمن التمرد علي قوادها قد تهيأ. ولكن ذلك كان منها علي سبيل الانكار أو علي سبيل الاستفهام ولا سيما عند الأطناب في شجاعة البوير واشاعة الاشاعات الكاذبة عن الانكليز والأعجاب بما تفعله أمة صغيرة مثلهم والتحسر علي أمة كبيرة مثل المصريين وزد علي هذا تعبيرها الأمة وجيشها أنها تهاب اللقاء جبناً وتخلد إلي السكون ضعفاً وتوانياً. كل ذلك لكي يعود عليها بالمغنم

والربح ولو كان فيه ابعاد المودة من قلوب المحتلين للمصريين وبالأخص المسلمين ولتوقع النفور بينهم والجفاء. ونحن أمة ساد الجهل فيها وقصرت أفكارها عن فهم الحقائق وادراك ما ينفع وما يضر. وليس الحال مقتصراً علي النصح في السياسة فقط بل لهذه الجرائد نصح آخر في المتجر ضرره أشد وقعاً مما تقدم فأنها بمقدار قليل من المال تأخذه من إحدي الشركات أو «البورص» تعلن طرق الخداع والنصب وتحض الأمة إلي الولوج في أبواب الشركات المجهولة لديهم. ثم بعد حين تأخذ باللائمة عليهم لداعي ما خسروه واضاعوه في شراء الأسهم والسندات حتي وقع الناس من فضل هذه الجرائد في شرك الخراب وافتقر كثيرون منهم وساءت أمورهم. وللجرائد نصح آخر صحي تدعيه وهو الكتابة زمن تفشي الأمراض التي تنتشر بالعدوي ولم يدرك سيرها للآن أحد حتي ولا نطس الأطباء فأنها كثيراً ما تكتب كتابة يصدقها جماعة العامة ويساعدها في الكتابة بعض الأطباء الذين لم يدرسوا علم «البكتريولوجيا» فينشأ عن ذلك خطر عظيم تبيت به البلاد عرضة للوباء. ونذكر القارئ من نتائج ما كتبته الجرائد حادثة مصر القديمة التي هجم الرعاع فيها علي عمال التطهير من رجال الصحة وحادثة الأزهر التي اضطرت البوليس إلي استعمال القوة في أيام الهواء الأصفر. وحوادث الوطنيين في بورسعيد. وحوادث هجوم الرعاع في الأسكندرية في عام ١٨٩٨ وهنا مجال لتفكرة القارئ في ضرر الجرائد بالنصح الصحي الذي تدعيه وهي لا تعلمه.

ولقد سببت الجرائد التي لا تنفع المجادلات والمشاحنات حتي وقعت الأمة في انقسامات شتي فنحن الكل مصريين ولكن في الدين مختلفين. فاذا سنت الحكومة قانوناً «وهي الآن حكومة دستورية تعد من أول طبقة بين حكومات الشرق» فأنا جميعاً نقوم قومة واحدة لنري هل هو مطابق للدين. فان وجدناها وافقت الشرع الاسلامي قبلنا القانون نحن ولو كان

مخالفاً لسوانا من الآخرين المسيحيين الذين تهضم حقوقهم لما لنا من الأغلبية بالنسبة إلي عدد كل فريق. فيسود الشقاق أثر ذلك ونحن أحوج إلي الألفة ولهذا تجد الأحزاب في مصر حزب للمسلمين وآخر للمسيحيين.

تسمي الحكومة المسائل التي تختلف فيها مسائل ادارية كما تسمي في جميع بلدان العالم. أما الجرائد فتسميها مسائل دينية طائفية يخشي منها علي الدين تبتدئ صغيرة لا تكاد تذكر فتوسعها الجرائد حتي تتسع وتوشك أن تكون فتنة داخلية. ولا الجرائد تفهم الحقيقة ولا الأهالي يفهمون. ولدينا شاهد وهو منع الحج لوجود الطاعون في مكة المكرمة منذ سنتين. والقارئ لو استقرأ هذه المسألة التي شغلت الرأي العام الاسلامي في مصر أربعة أشهر وهاجت لها العواصم والقرى. لوجدها مسائل عمومية يهم الأمة التسليم بها لأن الدين لا ينافي ذلك في مثل هذه الأوقات. الا أن الأحقاد الجرائدية والأحزاب المتأخرة عدوة للوزارة الفهمية مهما عملت من الأعمال النافعة. والأمة لجهلها حقيقة دينها تحذو حذو نفر قليل من أصحاب الجرائد وتطلب طلباتها سواء كان أصحابها مخطئين أم لا. وهذا سر ودليل آخر علي تأخرنا. والا فلو كان فينا عدد عظيم ممن تعلم لكان الحال أرقي مما نحن عليه الآن.

خذ لهذا مثلاً آخر مسألة اصلاح المحاكم الشرعية التي شغلت الأذهان زمناً طويلاً وهاجت لها الأفكار العامة تجدها حقيقة تدل دلالة صريحة علي انحطاطنا، والا فلو كان فيها ضياع لسياج الدين ضياع للشرع ما قبل الاصلاح المتفقهين في الدين ووضعوا له التقارير وطلبوه. ولكن الجرائد قامت صائحة حائلة الأمة علي الاحتجاج علي عدم مس المحاكم الشرعية. وكان كل فقيه وعريف في القري يتنقل من مكان إلي مكان يحرض الأهالي المسلمين علي الاحتجاج وتقديم العرايض والتلغرافات للمعية السنية بمصر كأن اصلاح المحاكم الشرعية حرم كبير

وارتكاب محرم. وكان نتيجة ذلك كف يد الحكومة ورجالها حتي ألفت لجنة لمشاهدة المحاكم ووضع تقارير عن الحالة والله يعلم كم ناب الأهالي من تعطيل المحاكم وكم ناب الأمة من العار لدي الأمم الأخري. ولا يزال قصار العقول سقماء الأفكار واجدين علي الوزارة حاقدين عليها. والسبب انما تأتي من الجرائد التي يقرأ فيها العداء والبغضاء ولا يخفي ما للجرائد من التأثير - إذ الجرائد الدورية أسرع انتشاراً وأقرب إلي تناول الناس من الكتب ولها مشتركون مخصوصون ومواعيد ظهور تنتظر فيها بكل تشوق ولها باعة يعرفون مارب طلابها ومنتديات عمومية تعرض فيها بخلاف الكتب فأنها خالية من كل هذه المزايا في النشر[1] - هذا وللجرائد الاسلامية عادة غير مستحسنة وهي أنه عند وفاة مسيحي لا تترحم عليه فتتوهم الطوائف الأخري في المسلمين التعصب حصوصاً لتكرار وقوعه فضلاً عن تكرار اثارة الأحقاد والعداوة وتوسيع الخرق بين المسلمين والمسيحيين وعلي ذلك يبقي العداء منصوباً بيننا وبين أخواننا المسيحيين الوطنيين من جهة وبين الانكليز من جهة أخري. وكل هده الأسباب لها تأثير علي العامة وبعض الخاصة ولكن عقلائنا ولله الحمد قد ادركوا ذلك وعلموا هذا الشقاق فصاروا لا يثقون بقول أمثال هذه الجرائد التي تتعمد التفريق بين مجموع الأمة علي حد قولهم «فرق تسد» غير أن هده الجرائد التي تظهر بهذا المظهر حياتها قليلة وقل أن يمر عليها الحول

والسبب إما لأن البلاد والأمة عرفت عدم حاجتها إليها. أو لأن أصحابها انقطعت عنهم الامدادات الخارجية وحينئذ لا تلبث الاعشية أو ضحاها أو لسوق أصحابها للمحاكمة لجرمهم في كتابتهم علي طرق مستهجنة. مثل التعرض للشخصيات فحركمت وحكم علي أصحابها.

وعدد الجرائد السياسية المصرية التي ماتت في الخمس سنين الماضية

(١) قول أحمد بك الحسيني في إحدى مرافعاته أمام محكمة عابدين في يونية سنة ١٩

(٢) بقصيدة صدرت يوم تشريف سموه من الاسكندرية إل مصر في ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧

٩٧ جريدة سياسية كنا نحب درج أسمائها لولا خوف الاطالة غير أننا نقول أن الذين حوكموا من أصحاب هذه الجرائد لأسباب الهجو والسب والشتم والتزوير تسعة. منهم اثنان لطعنهم علي المرحومة جلالة ملكة الانكليز وأخر ساقط الآداب لهجوه سمو مولانا الخديوي الأكرم[٢] والباقون لشتمهم الامراء والعظماء ولتزوير الأوراق ولم يقتصر الحال علي أصحاب هذه الجرائد بل أن بعض وكلاء هذه الجرائد حوكموا أيضاً لاختلاسهم أموال الاشتراكات فيها وعددهم كذلك لا يقل عن ستة.

هذا هو حاضر جرائدنا المصرية السياسية نذكره بلا التفات إلي التحيز لفريق دون آخر لما في الحق من اللذة ولما هي الصدق من عدم التمييز والله عليم بذات الصدور

* * * * *

المجلات العلمية

الغرض من المجلات العلمية تمحيص الحقائق التاريخية وتخليص العلم من كل شائبة مع ذكر ما اهتدي إليه العلماء في بحثهم والحض علي بث التعليم والاستفادة بالطرق النافعة ودليل كثرة المجلات العلمية التي من هذا القبيل بين كل طائفة مبشر بتقدم العلم ونمو درجته بين أفرادها ذلك لما تبرره المناظرات فيها من الحقائق الراهنة التي ترسخ في أذهان قرائها ولقد أدرك الاسلام ذلك في زمن بهجته وعزه ولو لم تكن المجلات معروفة في ذاك الحين معرفتها في وقتنا الحاضر ولنا في جمع المأمون للعلماء ومناظرته أياهم المرة بعد المرة في مواضيع شتي من العلوم العالية ما يكفي للاستدلال بأن العلم كان آنذاك تحت حماية الخلفاء وكانوا يرعونه حق رعايته إذ كانوا يستجلبون رجاله إلي بواديهم بما يبذلونه لهم من واسع النفقات وما يعينون من الجوائز[١] حتي تكاثرت وفود العلماء علي

(١) لما ولي المأمون الخلافة استدعى من القسطنطينية عالماً يسمى «ليون» فأبي توفيل ملك القسطنطينية ان يرسله فكان بينهما سنة ٨٢٥ ميلادية حرب

ساحاتهم وازدحمت الادباء أفواجاً علي أبوابهم.. وهذا مما كان باعثا لهمم الطالبين علي النشاط فعمت الفائدة وانتشرت المنفعة. وهذا المفضل الضبي والاصمعي وأبو عبيدة وأحزابهم ممن تقدمهم أو تأخر عنهم ولولا تلك الجوائز الطائلة التي حصلوا عليها من المهدي والرشيد وغيرهما لما وصلت العلوم المأثورة عنهم إلي ما تراه في سير السلف. من انتشارها بين ظهرانيهم ولكن زمن هؤلاء الخلفاء انقضي وأصبحنا علي ما تعلم وشملنا السبات العميق المنتظر لتقلب أحوالنا وتغيير ملوكنا وامرائنا فتقلص ظل المعارف من بيننا. الأ أنه لم نعدم رجالاً ربوا في مهد العلم والفائدة فقام منهم أفاضل كثيرون خدموا العلم بعلمهم وعملهم ومن هؤلاء فاضلان «مسيحيان» عرفا الحقيقة باختبار الزمن فأنشأ مجلة «المقتطف» منذ خمس وعشرين سنة تملي علي نبهاء الأمم الشرقية بأسرها اسلامية أو مسيحية ما يجد من المباحث الفلسفية العلمية المفيدة. فتري تارة في أحد اعدادها مباحثات فلاسفة العصر في أوربا مترجمة عن اللغات الأفرنكية للغة العربية الشريفة وتارة يقابل صاحباها ما ذكره العرب قديماً مع ما حققه علماء الأفرنج حديثا فيتسني لهما علي هذا الأسلوب تمحيص الحقائق من القولين. أو ترجيح أحدهما علي الآخر ثم يهديانها للقراء. وفي عمل هذين الفاضلين خدمة جليلة لأهل اللسان العربي الجميل مما لو كانا معاصرين لتمدن الاسلام ونموه الأول السابق ذكره لانهالت عليهما النعم والاكرامات كما انهالت علي من سبقهما من العلماء المسيحيين في زمن المأمون وبعده.

وقد كانا والحق أولي أن يقال بعملهما هذا قدوة لنا معشر المسلمين في انشاء المجلات العلمية الاسلامية الأ أن مجلاتنا الاسلامية المحكي عنها ظهر كثير منها ثم اختفي حتي أنه من مدة ست سنين للآن ظهر ١٠٤ مجلات ثم ماتت وكأن لم يكن لها من أثر.

والسبب قلة الاستعداد لمثل هذا الأمر من الذين يقدمون عليه منا

وما يكتبه أصحابها فيها دليل عدم الاستعداد. فمن كتابة تكررت بعبارة سقيمة فيها موات اللغة. ومن طرق للمباحثات التي لا تجدي نفعاً. ومن أشعار أدرجت في العشق ومن وصف للخمر أو للعمامة أو لصبي أو صبية أو لدابة أو قطع من الحكايات التي لا تغني فتيلا نشرت وتكررت وكل ذلك بسجم الألفاظ والاتيان علي خيالات تروق لمن هو مثلنا في التأخر علما وعملاً وكفي شاهداً أنه لا يوجد لنا معشر المسلمين مجلة مثل مجلة الضياء تعتني بخدمة اللغة اليوم حتي تعيدها لما كانت عليه قبلاً مع أن منا رجال اللغة من الأزهريين(١) السابقين وغيرهم

وناهيك بالمناظرة التي يحمي وطيسها بين المناظرين في جرائدنا العلمية والتي كثيراً ما تؤدي بهم للمهاترة والمشاتمة وفي الختام تتجلي كما يتجلي النهار علي الأحلام. فتنقشع غيوم تلك السفسطات والأوهام. ولعل ذلك سبب أيابهم خاسرين مرذولين من ميدان المجلات العلمية دون باقي الطوائف ولو كان عددها في الوقت الحاضر تسعاً وكلها تظهر بمظهر المجلات التي تنسب إلي العلم وليس فيها منه غير شوائب كدر الاختلاق عنه والتمويه والمواربه فيه ما عدا واحدة أو اثنين. ولعل لهم عذراً يقبل ما داموا هم ومجلاتهم سبباً آخر يغمسنا في سبات الانحطاط والتأخر. في وقت نحن أحوج فيه إلي الاصلاح بذكر "..." الواقع.

غير أنا لا نبخس في الختام هذه الجرائد حقها ما دام يمكننا القول عن فائدتها أنها اتت بثمرة ترغيب الأمة في المطالعة وايجاد الميل إلي الوقوف علي ما يكتب وان كان بحثاً في خلط الحق بالباطل وتمويه القول الصحيح بالقول الهراء فسبحان من جعل الداء المجح علاج للأدواء وهو رب العرش العظيم.

* * * * *

(١) ومن العجيب أن علم اللغة لا يدرس في الأزهر كبقية العلوم التى تقرأ فيه مع أن علم اللغة هو العمدة فى العلوم والأساس التى تبنى عليه ومن الأسف أن هذا العلم ليس هو وحده الذي فقد من الأزهر بل له نظائر عديدة أيضاً وفق الله العاملين علي الاصلاح إلي اعادتها إليه آمين.

الجرائد الدينية الاسلامية

الغرض من الجرائد الدينية. ترويض النفوس بالتأمل في الدين وأسرار أحكامه السامية. والحض علي أحياء أوامره الصحيحة التي دفنها تقلب الزمن وتغير أفكار الرجال بالاختلاط المشين. وعلي اماتة باطل ظهر في الدين من عمل أرباب البدع الذين لا أخلاق ولا دين لهم واسداء النصيحة بالاحتراس من الوقوع في سيئات نهي الدين عنها ولو كانت صغيرة في شأنها. والأمر بالتفكر في الآخرة وما يلزم لها من صالح الأعمال والارشاد للسلوك في طرق مأمور بها من الله جل وعلا. توصل الانسان للصواب المبعد عن المؤاخذة لديه وتقرب الانسان بالثواب اليه. وحبذا هذا لعمري من غرض سام ومقصد حميد. خصوصاً في وقت ألبست فيه مبادئ ديننا غير لبوسها بواسطة أهل الفساد والجهل الذين لا يخلو منهم زمن. حتي أصبح يلتبس علي الفهيم المدقق فهم حقائقها التي كان لا يرتاب فيها البدوي الساذج فما دام الأمر علي ما ذكر فليعمل بأمر الله من أوتي العلم قياماً بالأمر وغيره علي الدين فقد قال عز من قائل - فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون - وقال تعالي ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون، لأنه إذا دام الحال علي ما نري فالعاقبة انحطاط في الحياة الدنيا وهلاك في الآخرة. وقد آن لنا أن نبحث عن الجرائد الموجودة لهذا القصد وننظر إليها نظرة ناقد لنتدبر أعندنا منها الكفاية؟؟ وهل أحاط الموجود بالأغراض المذكورة.

الجرائد الدينية الاسلامية أحدث عهداً من سواها من الجرائد السياسية والمجلات العلمية وعددها في الوقت الحاضر لا يتجاوز الاثنتين أو الثلاث يحررها بعض من متخرجي المدارس وبعضهم من متخرجي الحرف

والصنائع المجتهدين في تحصيل المعارف. ينشرون فيها بقدر الامكان ما يمكنهم معرفته من أمور الدين ووصاياه. وأكثر ما فيها ما ينقله أصحابها من الكتب المؤلفة ليبينوا الأوامر والنواهي بقدر ما تستطيعه مداركهم وهذا عدا عن كونه غير ممكن اعتقاد الصحة فيه بالنسبة لقدر الناقلين فهو قليل بالنسبة لما يلزم وغير كاف للتأثير علي الأخلاق والعقول إلي غير ذلك مما هو جوهري في انشاء مثل هذه المجلات[1]. ثم هم فوق ذلك يخلطون في المواضيع بين ديني وسياسي واخباري الخ. حتي لا نعود نعرف أنها مجلة دينية الأ من اسمها. وحتي ينقلب الخير المقصود شرا بواسطة هذا الخلط الذي لا يراعون الذوق في التأليف بين مواضيعه وذلك من عدم تمكينهم فيها وضعف كفاءتهم لها. والادهي أنها تظهر حينا وتختفي أحياناً. وفي كل ذلك من دواعي الأسف وبواعث القنوط لكل ذي شعور بحاجات أمته ما لا يقدر

والخلاصة أن جرائدنا الدينية الحالية ليست مما ينتفع به كل الانتفاع. والاهتمام بأمرها من أهم الواجبات ليس فقط لأنها عديمة النفع. بل لأن هناك أمراً يجعل الضرر مزدوجاً. وهو انتشار مجلات المذاهب الأخري الدينية بيننا انتشاراً «يكفل له الزمن واهمالنا إذا دام» عدول الأمة بأخلاقها ومشاربها عن شرع الاسلام وذوق آدابه وطرق سلوكه[2] واظن أن هذا الحال وحده كاف لانهاض هممنا واشعال غيرتنا.

وتوجيه أفكارنا لصد هذا التيار الجارف والعمل العدائي الذي

(١) لا تنكر أن مجلة المنار الإسلامية لها اليد الطولى الآن بالتنديد علي اهمال العلماء لواجبهم والتنفير عن البدع والخرافات التي لحقت بالدين كما أنها تتابع المقالات المفيدة في الاصلاح الديني وأنا نرجو لها نجاحاً دائماً ونأمل من محررها أن لا يجعل للشخصيات عليه سبيلاً وأن يوالي النصح والارشاد بالتي هي أحسن والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

(٢) خصوصاً إذا عرف القارئ أن كثيرين من المسلمين مشتركين فيها.

يعملونه في جرائدهم بانتظام ويظهرون فيه بمظهر الناصح المحق والمرشد الأمين ومن أين لنا هاد نستدل بتعاليمه في دياجي هذا التضليل وقوي كريم نعتز بحوله علي مصائب هذا الزمن غير علمائنا الكرام وعظماء امتنا الفخام وقد سبق لنا الكلام عنهم وأحوالهم لا ترضي الرجل الشهم الغيور.

فاللهم يا منير بصائر العلماء بالحكمة آنس عواطفهم بنار مباركة من عندك ويا رافع شأن الأعاظم بالغني والجاه علمهم أن يعرفوا فضلك في أنفسهم لكي يتآزر الفريقان ويتحدا محافظة علي شريعتك الغراء الضامنة لهم سعادة الحياتين الباقية والفانية انك أنت السميع المجيب.

خلاصة القول عن الجرائد

واجمال القول في الجرائد أننا معاشر المصريين وبالأخص المسلمين ليس لنا مجلات علمية بقدر ما للطوائف الأخري ولا ما يقار بها وبالأخص السوريين، اذ لا توجد بيننا مجلات قضائية ولا زراعية ولا طبية ولا تجارية ولا مدرسية ، وان وجد شيءٌ منها بلغتنا العربية فانما هو بأيدي اخواننا السوريين الأفاضل .

فلهم في ذلك فضل الأسبقية فان لهم أربعة مجلات قضائية وليس لنا واحدة منها . وثلاث مجلات زراعية وليس لنا منها الا واحدة. وأربعة طبية ولا شيء لنا منها. وواحدة تجارية ليس لنا منها أيضاً. ومجلتين نسائيتين وليس لنا منها الأ واحدة فقط ولطائفة الاقباط مجلة مدرسية وكان لنا واحدة مثلها فماتت.

ذكرنا ذلك بياناً للفرق وما نحن عليه من الخمول ولم يكن هذا الاحصاء منا رجماً بالغيب بل هو اعتماداً علي تقرير مصلحة البوستة وحسبك به تصديقاً.

الوطن والوطنية

الوطن تعريفاً هو الجهة التي ينتسب الانسان اليها بصفته فرداً من أفرادها خاضعاً لأحكامها ونظاماتها سواءٌ كان ذلك بحق الولادة أو الاقامة أو الانتساب للأمة. أما الوطنية فهي الشعور الذاتي برابطة الانتساب التي تجمع بين الانسان ووطنه ومن يشترك معه في هذه النسبة أي بوحدة مصلحة الطرفين ولضرورة السعي في رفعته وتقويته والذود عنه رفعة وتقوية وذودا عن المصلحة الفردية وقد يشعر الانسان بارتياح وحنين إلي الوطن خصوصاً عند الابتعاد عنه ولكن هذا تأثير طبيعي عام بجعل النفس تألف الأشياء والمناظر والحوادث التي تعودتها أو نشأت فيها وتشعر بالوحشة عند الابتعاد عنها. فهو إذاً ليس قاصراً علي الوطن بل قد ينشأ أيضاً نحو بلاد أجنبية عنه يكون قد عاش الانسان فيها زمناً وألف معاهدها. هذا هو الوطن وهذه هي الوطنية . . التعريف الاصح . وان كان لا يحتمل ان يختلف في ذلك دقيقو البحث في المسائل الاجتماعية والسياسية الا أنه لم يكن المتفق عليه شكلاً في جميع الازمنة. وأقول شكلاً لأن الجوهر في الوطنية وهو وحدة المصلحة أمر اتفقت عليه الشعوب والجماعات عفواً من حين ما نشأ الاجتماع علي وجه البسيطة بحكم الضرورة الطبيعية. فقبل ان يتنبه خاطر أول جماعة من الجنس البشري إلى معني الاجتماع اتحدوا بدون بحث وما كان الحامل علي ذلك غير الاضطرار والحاجة المصلحية. ومثل هذا الاتحاد الطبيعي ظاهر في جميع مظاهر الطبيعة. فخليات العضو الواحد من الجسم متحدة لوحدة مصلحتها وحاجاتها، إلي تنازع البقاء في وسط الجسم كله وهكذا عموم الأعضاء. أي الانسان في حالة الانفراد بالنسبة للوسط الذي هو قائم فيه سواءٌ كان عائلياً أو اجتماعياً أو سياسياً. وهكذا العائلة بالنسبة للوسط القائمة فيه والأمة والبلاد التي تنتسب إليها. وهكذا قل عن الناحية بالنسبة للمركز والمركز بالنسبة للمديرية والمديرية بالنسبة للحكومة

والحكومة بالنسبة للحكومات وهلم جراً . وما يقال عن النظامات الاجتماعية يقال عن النظامات الصناعية أو التجارية أو الفنية وغير ذلك فلتجار صنف معلوم في ناحية واحدة مصلحة ووحدة خصوصية يشعرون بها ويهتمون لشأنها اهتماماً خاصا ولجميع تجار الناحية اجمالاً مصلحة ووحدة أخري قائمة بنفسها ولجميع تجار المديرية أو البلاد أو العالم قاطبة وتكون هذه الوحدة وهذا الاتحاد تابعاً للمصلحة الحقيقية المسببة لها فتقوي طبعاً عندما تكون خالية من تأثير المصلحة الافرادية وعندما يكون هذا التأثير غير محسوس وتضعف بضد ما ذكرنا. فالوطنية اذاً قائمة في الحقيقة في وحدة المصلحة ليس الأ . فالأمم الراقية التي تدرك هذه الحقيقية تماماً لا تخلط فيها وتبني جميع أعمالها وسياستها عليها فتصبح قوية الدعائم يندر أن تفعل فيها تقلبات الدهر فعلاً محسوساً أما في الأمم الغير راقية تماماً فالوطنية الصحيحة لا تعرف انما هي تتحد والأصح أن يقال أنها تجتمع بحكم الحاجة لقضاء الغرض الذي ترمي اليه ولكن مثل هذا الاتحاد لا يلبث أن يزول بزوال الغاية لعدم ادراك الأفراد أساسه الصحيح ورسوخه في أذهانهم. ولا يخفي أنه ـ . علي جميع الناس تحديد هذه المصلحة ومعرفة ماهيتها ومن أين تبتدي وأين تنتهي ولكن لا اختلاف في حقيقتها عند الباحثين. فلكل بقعة في الأرض مزايا طبيعية واقتصادية خصوصية يشعر سكانها بالميل والحاجة إلي احتكارها وتوسيع نطاقها ما أمكن وليس من باعث لهم في ذلك غير حب المصلحة الذاتية وخدمة الانسان نفسه.-ولارتباط ثروة ومنافع العالم كله بعضها ببعض ولجنوح كل انسان وكل فئة من الناس فطرة إلي جعل نصيبه وافراً منها. نشأ التزاحم بين كل فرد وقرينه وبين كل فئة وأخري، وربما أدي هذا التزاحم بالانسان الفرد إلي مقاتلة الفرد الآخر. ولا يمنع هذا اختلاف شكل ووطنية كل عضو حيث أنه قائم علي ناموس الحاجة الفطرية. ويتحد أفراد كل . " بحكم الناموس نفسه إي مكا " أفراد البقعة الأخري، فان شذت

هذه الأعضاء أو الأفراد عن هذا الناموس الطبيعي انفرط عقدها وفقدت قوتها وعجزت ليس عن المقاتلة فقط بل عن المحافظة علي حياتها فتغتالها القوات المحاطة وتصبح في حكم العدم. هذه هي حقيقة ناموس الارتقاء تدل عليها حالة كل أمة ويدل عليها الأكثر انحطاط الشرق وتهيؤه الحالي لفقد الباقي من استقلاله ان كان هناك استقلال حقيقي باقٍ.

* * * * *

الوطنية في عرف الشرقيين وعلة شقائهم

ان انحطاط العلم في الشرق وفقدان قاعدة البحث في الحقائق جعل الأكثرين فيه لا يفهمون معني الوطنية كما هو. وجلهم أن لم أقل كلهم يعتقدون انها قائمة في جامعة الدين. نعم أن الدين يقوي تلك الروابط ويهذب أميالها ولكنه لا يحول دون هذه الجامعة أن أدرك كل فرد ماهية دينه والغاية الجوهرية منه. انما الجهل قد أبعد هذه الحقائق عن أكثر الشرقيين فهم يعتقدون ان لا جامعة حقيقية غير جامعة الدين فزال الاتحاد الوطني من نفوسهم وضعفت وحدتهم وأخذت في الانفراط.

* * * * *

عدم تنافر الدين والوطنية

الدين عبارة عن اعتقاد بتعاليم خصوصية لا تتعدي دائرة الضمير وهي قاصرة علي علاقة الانسان بربه انما يسن اليه القواعد التي تتعلق بشؤونه مع غيره في دائرة علاقاته الأدبية لا في علاقاته الاجتماعية التي يعود أمرها إلي القوانين النظامية السياسية. فوحدة الدين هي فقط الارتياح الذي يشعر به الانسان عندما يري آخر مشاركاً له في رأيه ومذهبه. والمصلحة الدينية قائمة فقط فيما يجده الانسان في شريكه في

الاعتقاد من التعضيد في اقامة الشعائر الدينية التي ربما يعجز الفرد الواحد عن اقامتها بالاحتفال المألوف. فكل ذلك يزيد الاتحاد قوة وجمالاً ولكنه في الحقيقة خارج عن العلاقات الضرورية التي تحتاج الوطنية إليها.

* * * * *

الحاصل الآن في مصر

نحن (أي السواد الأعظم) للآن لم ندرك الوطنية الصحيحة. ولم نشعر بوحدتها الحقيقية فالمسلمون يقولون لك أن لنا جامعة اسلامية مستقلة تمام الاستقلال عن كل فرد خارج عنها. ويعتبرون جميع مسلمي الأرض داخلون فيها. والنفر القليل المهذب منهم يفهم أن للوطنية معني آخر ودائرة نفوذ أخري انما لا يزال يشعر بعداء طبيعي ممتزج بدمه لكل من هو غير مسلم وربما يدون أن يدرك لذلك علة ظاهرة أما الذين يدركون ويعملون علي اعداد نفوسهم لائتلاف الوطنية كما هي فهم في حكم النادر وقد لا يشعر بوجودهم . وهم بدون شك ليس لهم تأثير علي جموع كثيرة العدد والبعد عن العلم والتمدن الصحيح. وما يقال علي المسلمين يقال أيضاً علي غيرهم من المسيحيين الوطنيين ولو أن ظواهرهم تدل علي أنهم أكثر رغبة واستعداداً إلي أحياء المبادئ الصحيحة وايجاد وحدة وطنية نحن أصبحنا أشد الأمم احتياجاً لها في الوقت الحاضر. إذ من حسن طالع الغربيين ونتيجة انحطاط مدنيتنا وخلو جميع طبقات مدارسنا من مبادئ التربية الصحيحة ترانا الآن منقسمين إلي قسمين رئيسيين قسم المسلمين وهو «حزب العرب وحزب الاتراك» «وقسم النصاري وهو الأقباط الأرثوذكس والكاثوليك والسوريين والارمن وغيرهم» وكل قسم ان لم يكن مهتماً في اذلال غيره فهو علي الأقل عامل لمصلحة خاصة بدون أدني ارتباط بالمصلحة العامة. وهم جميعاً يشتغلون ضد مصلحة أنفسهم ولخدمة الأجانب الذين لا غاية لهم الا ابتلاع البلاد وما فيها واماتة العواطف

الوطنية للاجهاز علي ما بقي أو يبقي لأهالي البلاد. والغريب أنا جميعاً غافلون عما تؤول البلاد اليه من التأخر المستمر فيما يختص بالوطنيين والبعض منا يتوهم أن المعارف تتقدم يوماً عن يوم وأنا بهذا التدرج انما نرتقي ارتقاء متوالياً. ولو انا بحثنا الأمر حقيقيا نري أن سيرنا بجانب سير غيرنا يكاد لا يشعر به والمعارف الصحيحة أقل انتشاراً بيننا من قبل. والحقيقية أنا كنا أكثر امتزاجاً واتحاداً من الآن. والسبب بعد المعارف الصحيحة عنا وكثرة الغرور المشاهد بيننا الآن.

* * * * *

حقيقة مصلحة المصريين

لنفرض ان للمسلمين جامعة ووحدة مستقلة عن جامعة ووحدة المسيحيين فهل يمكن للبلاد أن تنهض من خضوعها وانحطاطها الحالي؟؟ وان تحصل علي استقلالها بمثل هذا الانقسام؟؟ وهل يمكن أن يتوقع أن البلاد تخلو يوماً من الأيام من أحد هذين العنصرين؟؟ كل هذا يستحيل فلا وطنية بدون اتحاد حقيقي ولا فلاح ولا استقلال بدون وطنية. ولا أمل قط باختصاص البلاد بعنصر دون آخر. وحيث أنه لابد من اجتماع العنصرين في معيشة واحدة تحت سماء واحدة وأحكام واحدة مدي الدهر وما دامت حياتهم بجميع وجوهها أصبحت أكثر من كل زمن تتوقف علي القوة والتضامن وهذه لا توجد الا بالاتحاد وهذا لا يكون الا بتربية النفوس علي أن الدين لا ينافي العلاقات الوطنية وهذا الأمر طبعاً لا ينتظر من مدارس الحكومة حيث فكرة التعليم فيها تناقض المصلحة الوطنية الحقيقية فان رغب وود المخلصون لهذه البلاد ارتقائها الفعلي وتمهيد السبيل إلي استقلالها فلا يكون ذلك الا بفتح مدارس للبنات في جميع أنحاء البلاد. وجعل المبدأ الأساسي فيها التربية الصحيحة بجميع أنواعها. واكثار عدد المدارس الحالية للأولاد وانشاء جامعة في العاصمة يستحضر لها أساتذة

من بلاد لا غـاية سيـاسـيـة لهـا فـي القطر. والسـبـيل إلي ذلك صـعب لا مستحيل. انما نحن نترك البحث فـيه إلي غـيرنا من أصحاب النظر السليم والله يتولي أمورنا بالنجاح جميعاً.

* * * * *

الاسراف

"أو ميزانية الهدم في الأمة"

«والذين اذا انفقـوا لم يسرفـوا ولم يقتـروا وكـان بين ذلك قـواما» (قرآن شـريف). الاسـراف صـفـة عـامـة في كل الطوائف التي تتـألف منهـا الأمة المصرية ولكنه يختلف في كل طائفة عن الأخري. فليس الاسراف في الطائفـة الاسـرائيليـة مـثلاً ولا في الشـعب القـبطي كـمـا هو في الشـعب الاسلامي، وأسباب اختلافه حرص الأولين وتوفير الاقباط وبالعكس تبذير المسلمين. وما ذلك الأ لاحتياط الطائفتين الاسرائيلية والقبطية لأنفسهما في السيـر علي ما يكون لهما فـيه قوام الثروة. فلذا دأبهـما كنز المال ولو جارتا علي أنفسـهما والفضل في ذلك ليس لهؤلاء الطوائف بل للمصائب التي انتـابتهم من قديم الزمن وعلمتـهم الادخار لوقت الحاجة فـان للشعب الاسرائيلي الآن مركزاً مالياً عظيـماً في مصر وليس بعده في الدرجة الأ الشعب القبطي. اما الشـعب الاسلامي فلا يكاد يذكر بينهـما لانغمـاس المسلمين في الترف والابهـة والعظمة والتـهور في الملاهي والولائم. إذ قد ورثوا كل زينة باطلة وكل ما يفضي إلي الاسْراف والتبذير والخراب وهم لا يعلمون. ومن الغريب أن يحكم البلاد الآن غـير أهلها ولا تشعر الطوائف المتألفـة منها الأمة المصرية بالتحـوط لأنفسهم في حفظ أموالهم لتربية أبنائهم بما ينفعهم في أيامهم المستقبلة المجهولة إذ ليس أقـوي من المال علي حفظ كيان الأمة والجماعة. وما من أمة استغرق أفرادها في الاسراف والتـبذير الأ تلاشت وانحطت وضعـفت واضمحلت مـقامـاً وكـيانـاً، ومن

الأسف أن الأهالي عـمـومـاً والمسلمين منهم خـصـوصـاً ليس لهم في زمن حكومتـهم العـادلة وسائل لموارد الرزق لجهلهم كيف يستـخدمون الوسـائط فيما ينمي الثروة: والمتأمل يري أن عـمران القطر قد عاد بالفائدة المالية علي جماعـة الأجانب لعلمهم بطرق الاكتساب واغتنامهم الفرصة المناسبة في زمن العـدل فلذا تري الأجنبي يحل محل الوطني كل يوم في أكـثر مواطن التكسب لشيوع العلم فيهم وشيوع الجهل فينا وعلة ذلك الاسراف المشين الذي بليت الأمة باجمعـهـا به والمسيـحي لا يأمره دينه بالاسراف والمسلم أيضاً كذلك فان المتأمل لحكم أحكام الشريعة المطهرة يجد في كتب الفقه ما مؤداه أنه لا يجوز لمتوضيء أن يسرف من الماء أكثر مما يلزم منه للوضوء ولو كان علي شط نهر أو ساحل بحر. فاذا لم يجز لمن يتوضأ لعبادة ربه أن يسرف من مـاء البحر الذي هو أوفر الأشيـاء في الدنيا وأرخصها ولا ينقص بوضوء المتوضئين سواء أكثروا منه أو أقلوا فكيف يجوز لعاقل تبذير المال الذي عليه مدار مصالح الأمة في الدارين وأغلي الأشياء وأندرها بالنسبة للحاجيات العمومية ولاسيما إذا انفق الانسان فيما لاينفع وهو من المحتاجين إليه أشد الاحتياج وحالة العمران تستدعي الاعتماد علي المال في قضاء الحاجات والواجب علي كل انسان له زوجة وأولاد أن يستعد للموت العاجل أي أن يدخر لهم ما يقوم بحاجاتهم حتي إذا فاجأته المنية قبل أن يصيروا في غني عنه لا تبرح بهم المتربة ولا يكونون عـالة علي الناس. ولا يخـفي مـا في طوارئ المرض والعطلة والشيخوخة أيضاً من الحاجة إلي المال. ومن أحوج الناس إلي ذلك مثل جماعة الوسط من الأمة - فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً - ولقد انتبه إلي ذلك وسط جميع الأمم فانشأوا لذلك بنوك الاقتصاد ومن ثم كل يوم عـددها بينهم في ازدياد. ومـا كل مـا يشـاهد من الهـم في الأمم

المرتقيـة عنا الأ من آثار هذا العمل البـاهر. وهو سر من أسـرار ارتقـائهم عنا[١] وحبذا لو حثت علي الاقـتصاد الجرائد بدلاً من سياسـيـة «الطرابيش في الهند» أو ذكر ما روته جريدة «مـحمـدان» أو ذكر «نجاح وتقدم حزب تركيا الفتـاة» «ومصائب المابين» فـان الجرائد فـي تلك البلاد باذلة الجهد دائماً في تربية ملكة الاقتصاد في الأمة لأن به قوام شعبها وحياته. ولو فرطت الأمة في الثروة وبعثرتها وبددتها فلابد أن تصبح علي شفا جرف السقوط والاضمحلال خصوصـاً إذا كان التبذير والاسراف في مهـمات خارجية وفي زوائد تقليدية مثل استرسال جماعة الوسط الذي هو نتيجة عـدم تعليم وايـجاد ملكة الاقـتـصـاد سيـمـا وقـد سـاد علي العـقـول المثل «اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغـيب» ولبيان الأبواب الهادمة لثروة الأمة نقول افـات الاسراف كثيـرة منها آفة الميسر تلك الآفة الحديثة العهد في ديارنا فوق ما فـيها من الآفات الكثيـرة التي تسممت منها الأجسام وصغرت بسببها العقول فأماتت العواطف وضيعت الاحساس وافنت المروءة والشهامة فان مع منع هذه الآفة رسمياً بقرار صادر من الحكومة[٢] لا يزال لاعبوها المستترون كثيرين في بيوتهم ومجتمعاتهم الخصوصية وربما اشترك بعضهم مع مخدراتهم اشتراكهم معهن في معاقرة بنت الحان. وما سلطان القـانون علي النفس التي لم تهذب وتترب فـيها ملكة الاقـتصاد بمانع من

(١) أهم بنوك الأقـتصاد في أغلب البلدان المتمدنة بنوك البوستـة، ومما يسرنا ذكره سعي سعادة السهم الغيور يوسف باشا سابا مدير عموم البوستة في انشاء بنوك الاقتصاد في بعض مكاتب البوستة والمأمول أن يعم ذلك مكاتب البوستة كلها عن قريب فان من يعلم همة سعادته في ايجاد شركة «الاقتصاد والتعاون» بين موظفى ومستخدمى البوستة ونجاحها الباهر يتأكد لديه مقدرة سعادته علي ذلك.

(٢) القرار المذكور صادر من نظارة الداخلية في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩١ بعد تصديق محكمة الاستئناف المختلطة عليه. ويقال في المادة ١٧ منه ما نصه - لا يجوز لأصحاب ادارات المحلات العمومية أن يمكنوا أحداً من اللعب بألعاب القمار علي اختلاف أنواعها مثل البكارا والاتسكينة والواحد والثلاثين والأربعين والفرعون والزيرو وماكينة الخيول وما أشبه.

اللعب بين المنازل والمصيبة ان آفة الميسر لم تحل بالمدن الكبيرة فقط بل أن القري الحقيرة تئن منها وتشكو.

ومن الآفات العظيمة أيضاً انصراف الأمة الوسطي إلي المسكر واندفاعها في الشرب وتعاطي الخمور حتي أصبح السكر زينة الفتيان والحانات أعز مقاعد الشبان والمصري بميله إلي الافراط في كل شيء سبق غيره في ميدان الخمور فلم يبق مالاً ولا ترك صحة وجهله لدينه وتقليده للأجنبي فيما يضر ولا ينفع كلها أسباب مكنت فيه حب الميل إلي الخمر والا لو عرف أن الميسر والمسكر شيئان مخالفان لنصوص الدين والشرع وأوامر الكتاب والسنة من أول تربيته البيتية والمدرسية. وعرف معني المقصود بقوله تعالي.

«يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون - الآية»

وتحقق لديه حكمة تحريمها والتناول منها ما أقدم علي مخالفة أمر الله الناهي بذلك عن وارثه دمار الأمم الجالبة الفساد والخراب المقتلة للنفس الباعثة فساد الصحة[1]

ومعاصرة الافرنج المبثوثين في أطراف البلاد شرقاً ومغرباً ساعد

(١) يقول الأطباء أن الخمر تسبب ارتعاش الأيدى بعد القدرة علي تحريكها وتسبب عسر الهضم وفقدان الشهية، تلحق بالكبد الأذى. تضعف القريحة. تؤدى إلي كثر الهواجس. وازدياد هذيان المدمن عليها، تؤدى إلي الانتحار ولا يزول ضررها بانقضاء حياة المدمن عليها بل يسرى ضررها منه إلي ذريته فينشأ الأولاد بالأمراض العصبية علي تنوع أشكالها التى من أخصها داء الصرع ثم إنه مما أجمع عليه الأطباء أن ولد السكير يكون ضئيلاً ضعيفاً وإن عاش فقلّ ان يلد وحينئذ فجناية الخمرة علي العقل والجسم لا تضاهيها جناية مطلقاً وبهذا استحقت أن تسمى أم المعاصى.

علي انتشار شرب الخمر بما لهم من طرق الخداع والحيل حتي إعتادت أغلب الفئة الوسطي من الأمة علي شرب «المستكي» ظهراً «والبيرة عصراً» «والكنياك» «مساءً» فتراهم جماعات جماعات في الحانات عاكفين علي شربها لتمسكهم بأهداب مخازي التمدن والحضارة الغربية. ويا ليتهم في شربهم معتدلون ولا يصلون لحد العربدة والاسكار بحسوة الكأس أثر الكأس خمرة صرفا حتي لا يتشاجرون ويتضاربون إلي حد الاهانة والمحاكمة ولكن هي الخمر لا حكم لشاربها علي نفسه إذ هي المتصرفة بالعقل اني شاءت من ضحك ورقص وقهقهة وزعيق. ولا يخفي اضرارها المادية في أمة هي بحاجة إلي الاقتصاد من مرض يطرأ ومصيبة تحل ومبلغ جهلها لا يوصف. ومن الآفات المسببة للاسراف قهاوي الرقص المشتمل علي الحركات القبيحة التي يرتد عنها نظر الأديب حياءً وخجلاً.

هذا ولا نطيل فيما بقي من الأسباب المؤدية للإسراف ما دامت كثيرة معلومة لدي القارئ.

ولكننا نتقدم إليه باحصاء أخذناه من محافظة مصر - قلم تنفيذ اللوائح - عن بيان الخمامير وقهاوي الرقص والقهاوي العادية التي للأجانب والوطنيين حتي يظهر لديه بأجلي بيان كثرة مسببات الاسراف في الأمة.

كان في القاهرة وحدها للوطنيين ١٦٦١ محلاً من خمامير وقهاوي قبل صدور اللائحة سنة ١٨٩١ وكان للأوربيين ٧٥٥ محلاً من خمامير وقهاوي رقص وبيرات سنة ١٨٩١ أيضاً أي قبل صدور اللائحة.

ثم حدث من بعد صدور اللائحة المذكورة ٥٠٥٠ محلاً للوطنيين و ١٩٨٩ محلا للأجانب وبأضافة ما كان قبل صدور اللائحة إلي ما حدث بعد صدورها يكون المجموع ٩٤٧٥ محلاً في القاهرة وحدها.

فإذا تساهلنا وفرضنا ان كل خمارة أو بيرة أو قهوة من هذا العدد تبيع يوميا بنصف جنيه لا غير فأنهم يبيعون في السنة بمليون وسبعمائة وثلاثين ألف جنيه وكسور ثم لو فرضنا أن سائر محال الخمر والقهاوي في جميع القطر بمقدار ما في العاصمة فقط يكون مقدار ما يصرف في الخمر وعلي القهاوي والرقص وغيره يساوي مبلغ ثلاثة ملايين وأربعمائة وستين ألف جنيه وكسور.

كل هذا المبلغ الذي دونه دخل بعض الممالك الصغيرة في أوربا يذهب من أيدي الوطنيين اسرافاً وتبذيراً سنويا في شرب الخمر وعلي التفرج علي الرقص والقصف والخلاعة وعلي القعود في القهاوي.

ثم لو زدنا علي هذا ما ينفقه الشبان الجهلاء الذي يرثون من المال ما لا يحصي مقداره ويبذرونه في أماكن المقامرة المستورة وغير ذلك لضوعف المبلغ أربع أو خمس مرات.

فأي مصري عاقل لا ينفطر قلبه أسي وأسفا علي أمة هذا مبلغ حالتها في التبذير وأي انسان لا يتحسر علي مال ينفق بلا نفع أدبي يعود علي البلاد وتربية أبنائها .

وكيف يؤمل حفظ كيان أمة بغير الثروة وهي حياة الممالك. أو يؤمل لها مستقبل حسن. وغاية شبانها وكهولها التبذير والاسراف الذي يزيد البلاد تعاسة وتأخراً «فأما من أعطي واتقي وصدق بالحسني فسنيسره لليسري» صدق الله العظيم.

* * * * *

الغناء والحماسة

الغناء صدي النفس الصادر من أعماق القلب بعد احتكاكه بالعواطف والحاسيات. وهو الشاهد العدل علي الأميال الغريزية في الانسان. والواسطة لتجرد الانسان عن الأشياء الحسية وتعلقه بأهداب العقليات والتوسع في الانكار والخيالات لانماء الشعور واحياء العواطف وكان العرب في الجاهلية ينشدون الأغاني الدائرة علي الألسنة في ذلك الزمان في حفلاتهم وكانت كل قبيلة تفاخر الأخري بمقدار ما في قولها من الحماسة. حتي أن الفتيات اللواتي كن مخصصات برعي النوق والأبل كن يغنين ويحدين لها علي الطريق بغية أن لا يستحوذ الملل علي النوق والأبل وحتي قد اشتهر عندهم إذا أرادوا أن تسرع الأبل والجمال في السير غنوا لها وحدوا فتسرع جدا ولا يزال بعض ذلك فيهم كما قد اتصل منهم إلي بعض جهات في أوربا[1] وبقيت هذه العادة ونمت وتحسنت مع الزمن وتداولت علي الألسن واختلف نغمها باختلاف القبائل لأن كل قبيلة كانت تظهر أميالها واحساساتها أن كان فخراً أو حماسة أو حبا في الغزو أو اكرام الضيف.

لا مرحبا بالليل ان لم يأتني   في طيه ضيف عزيز نازل
والصبح لا سهلا به إذا أتي   ان كان عندي فيه ضيف راحل

أو اسداء المعروف وغير ذلك من صفات العرب الطيبة. فكان السامع يحكم لأول وهلة أن القبيلة التابع لها هذا المنشد موصوفة ومشهورة بالصفة التي يترنح بها في الانشاد .

(١) مما يذكر عن اختبارات أهل سويسرا أن البقر عندهم يتأثر من الصوت الحسن إلي حد أن ادراره للبن يزداد على الغناء. وخصوصاً إذا كانت الفتاة التي تحلب اللبن تغنى في وقت الحلب غناء شجياً فان اللبن يزيد إلي مقدار الخمس.

والغالب علي الظن أن الأغاني كانت عندهم دليلاً علي الفخر والترفع عن الدنايا وهذا مخالف لما نراه الآن. وبعد أن بزغ النور الاسلامي وتقشعت دياجير الكفر والجهالة واختلطت الأمم الإسلامية بعضها ببعض وتفرقت لفتح الممالك وكسح البلدان ومازجت العناصر الغربية طبقاً لقانون الترقي في الطبيعة. انتقلت الأغاني من دور كان حماتها رعيان النوق والابل إلي دور كانت حماتها فيه من الخلفاء والسلاطين. ولاسيما الاندلسيين الذين اشتهرت في أيامهم الأغاني وموشحاتهم لا تزال خير شاهد علي سبقهم في هذا المضمار(١) ومثل هذا يقال عن المصريين والمتأمل في أغاني تلك الأيام يقدر أن يحكم في الحالة التي كانت عليها الأمم الإسلامية في ذلك الزمن السالف فالحكيم يقول - من ثمارهم تعرفونهم - وهذه الموشحات التي كان يغنيها الاسلام تنطوي علي احساسات رقيقة تأبي الذل والهوان. عدا أنها كانت صادرة عن أفكار ثاقبة وقلوب امتلأت حكمة وكمالاً وتدل دلالة واضحة علي ما وصلت إليه الأمة من المجد والسؤدد. فلما تطرق الفساد إلي الأمة وإلي محترفي صناعة الغناء لانغماسهم في المسكر الذي لا يبقي علي العقل والادراك. انتقلت بذلك الأغاني إلي دور الانحطاط لاسيما وقد أفسد الأفرنج بها ذوقنا وسهلوا علينا طرق المفاسد لمآرب يرمون إليها فأخذت الأغاني في التأخر والسقوط إلي أن وصلنا إلي عصرنا الحاضر الذي أصبح المغني فيه متزوجاً بنائحة ليأخذ كل منهما بقسم من الحزن والفرح حتي إذا كان هناك فرح دعوه وأن كان حزن دعوها، ولا ينكر أن المصريين يميلون إلي الغناء والطرب وقد كاد الطرب يعم جميع أفراد الأمة وجميع طبقاتها وأصبح المرء يري الرائح والغادي ذاهباً إلي مكان المغني. فالغني عاكف علي سماعه بما في وسعه. أما في بيته أو في بيوت صحبه والوسط كذلك يسعي ما استطاع

(١) ترى بعض موشحاتهم في مقدمة ابن خلدون.

لسماعها والفقير والبياع المتنقل الذي يطوف في الشوارع والحواري ينادون بنغم حتي الفعلة وهم تحت الاثقال لا يحلو لهم العمل ولا يخفف أثقالهم شيء مثل التلحين والأنشاد.

والمغني ليس بمنكر ولا مكروه إذ قد ورد عن النبي «صلي الله عليه وسلم» أنه سمع نسوة يغنين في وليمة عرس فلم ينكر ذلك عليهن.

وجاء أيضاً أن نساء من الأنصار استقبلنه عند قدومه من إحدي الغزوات بالدفوف والمزاهر وهن يغنين علي الايقاع بقولهن.

طلع البدر علينا من ثنايات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ولم ينكر ذلك عليهن «صلي الله عليه وسلم» وفي سير الخلفاء حكايات كثيرة عن حضورهم مجالسه. وقيل أن عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» سمع الغناء فما انكره مع ورعه وتقشفه وصلابته في الدين وحتي أنه مر في بعض الأيام علي أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه في بيته فوجده يتغني فقال له ما هذا يا أبا عبيدة فقال أفعل ما يفعله الرجل في بيته ثم انشد.

ولله مني جانب لا أضيعه وللهو مني والخلاعة جانب

ويقولون أيضاً في كتب السير أن عبدالله بن جعفر رضي الله عنه كان يجلس للسماع. وللغناء عمل كبيز في تلطيف الوجدان وترقيق الشعور مما لا ينكره ذو احساس وما من أمة مرتقية أو منحطة أو همجية الا ولها نصيب منه علي حسب استعدادها وارتياحها. والغناء انتعاش للنفس وارتياح للجسم لو كانت في حماسة فيها دلالة علي شبه شيء في نفس السامع فان تأثير ذلك كالغذاء لها من بعد طول شقائها وبعدها عنه. ولذلك نستعمل الأغاني في الأفراح والحروب وتعالج المرضي بها وتستعمل في المآتم وبيوت العبادات ولا توجد أمة أميل إليها من أمم المشرق إذ

تاريخ الغناء فيهم أقدم وهم فيه أعرق وأكثر ارتياحاً يستحثون بها البطل في حومة الوغي ليدافع عن وطنه وأمته كما يسكتون بها الطفل عند بكائه وعند صراخه فيسكن لها ويرتاح إلي سمعها وشاهد ذلك ظاهر فيما لو تأمل القارئ في طفل تسكته أمه بأنشودة.

غير أن حاضر الغناء عندنا مذهب بالشهامة مقعد للحماسة مضيع للمروءة مفسد للأخلاق يربي في النفس السكون والاستسلام والضعة عدا حثها علي مخالفة الآداب وحث المرء علي حسو الخمرة ومداعبة النساء وهذا الجاري في أغاني عهدنا الحاضر وكما هو بين الرجال كذلك بين النساء فان أغانيهن في الأفراح مما يسوء ذكره لأنه دلالة فيهن علي بعدهن عن الكمالات وتورطهن في قلة الأدب إلي حد السفاهة أو دون (١) هذا والخلاصة أن الأغاني عندنا معشر أبناء العرب قد انحطت كثيراً عن الغرض المقصود بها حتي علتها أغاني « البرابرة » لما فيها من بعض الحماس والترفع عن الدنايا ويظهر ذلك من قولهم.

الدجينات الهمصه لا بد شيبن والنجيمات اللجلجن لابد غيبن
والبنات من غير رجال لابد عيبن والخيل من غير فرسان لابد غيبن

ولقد قابلت مرة شاعر الشبيبة المصرية حضرة أحمد بك شوقي وشكوت له سوء حال الأغاني العربية ورجوته أن يضع بعض أدوار لتكون سبباً لايجاد روح الحماسة في الأمة فوعدني خيراً فعسي أن يكون ذلك قريباً ليذهب عن الناس تنفس الصعداء وقت سرورهم وأفراحهم والاً فلله في خلقه شؤون.

* * * * *

(١) واليك بعض ما يقولون فى الأفراح

ان كنت خائف من أمي أمي علي ستورا
وان كنت خائف من أبويا أبويا عدا المنصوره
وان كنت خائف من أختى أختى عايقة ومشهورا
وان كنت خائف من جوزى جوزى بياكل طاطورا
وان كنت تايه عن بيتنا بيتنا قدامه دحضورا

حاجة الشبان

بين الوسط من الأمة شبان كثيرون من المتعلمين المهذبين محتاجون إلي مجتمعات لا تحط بقدرهم ولا تمس كرامتهم ولا تطفئ جذوة النشاط والهمة من نفوسهم محتاجون إلي ترويض الأبدان بوسائط الرياضة الصحية من مثل استنشاق الهواء النقي في الأماكن البعيدة عن السكني ذلك لأنهم كما ذكرنا متعلمون مهذبون عارفون أن ذلك سبب ارتقاء ونجاح الشعوب الأوربية ولاسيما الشعب الانكليزي الذي اعتمد علي تقوية عضلاته وترويض جسمه وأعضائه فنجح هذا النجاح المشاهد. وما وجد فيهم ذلك الا لأنهم تعودوا لعب «الجمنستيك» في المدارس وشبوا وهم عارفون منفعته فيصعب عليهم والحالة هذه أن يتركوا اللعب به حال اتمامهم لدروسهم وزادت فيهم الحاجة إلي ما ذكر لأنهم يعلمون أن الصحة والقوة لازمتان للجالس في مكتبته أكثر من العامل في حرفته. محتاجون إلي ما تقدم حتي لا يفقدوا الصحة بعدم انتظام المعدة التي شكا منها كثيرون.

وأكثر شعور الشبان بحاجاتهم وقت فراغهم من العمل فأنهم يشعرون بالحاجة الكبيرة إلي أماكن تأويهم من وعلي شاكلتهم وإلي ما يشرح الصدر منهم ويمنع عنهم الاندفاع مع تيار الشرور ما دامت كل المحال لا يقبل الشاب المؤدب أن يوجد فيها لسوء سمعتها وما دامت العائلات قد نسيت ذلك الاجتماع الذي كان معروفا بينها قبلا. وهو اجتماعهم عند بعضهم مرة في بيت هذا وأخري في بيت ذاك ليقضوا أوقات فراغهم بين مباحثات وأحاديث مفيدة. نعم كان ذلك والآن لا يوجد الا لجماعة الأفرنج وبعض أذكياء جماعة السوريين.

ولقد صدق الأديب حافظ أفندي عوض في مقالة له في المؤيد الأغر عدد ٣١١٩ حيث قال – وأقول ولا أخشي لومة لائم أنه إذا لم توجد أندية ومجتمعات عائلية فيها يقضي الناشئون أوقاتهم فالتربية ضائعة والكلام في التربية لا يجدي نفعاً وتذهب أقوال المعلمين والمربين هباءً منثوراً ولا

أدب يفيد ولا أديب - ونحن نزيد علي قوله أن الشبان في حاجة عظيمة إلي مداومة الرياضة البدنية واستنشاق النسيم النقي وخليق بهم الذهاب والتردد علي ما يكسبهم صحة علي صحة ونشاطاً علي نشاط وخليق بهم أن يتحدوا معاً حقيقة فيؤلفوا نادياً[1] توضع فيه بعض الجرائد اليومية والمجلات الشهرية والأسبوعية سواء كانت عربية أو أفرنجية بدلاً من الجلوس في القهاوي التي تقدم الكلام عنها فأنه لا شبان أكثر تشتيتاً وتفريقا من الشبان المصريين ولاسيما المسلمين منهم[2] وكثيراً ما يحتاج أحدهم إلي آخر فيفتش عنه في القهاوي كلها حتي يعثر عليه. والشبان مفطورون علي تمكين علائقهم ومحبتهم مع بعضهم فاذا أنشئت لهم الأندية تخلصوا من جلبة الجالسين علي المقاعد في القهاوي والهواء المنبعث من دخان «النراجيل» وليس في العاصمة مكان أجدر بهذا المشروع من حديقة الأزبكية حيث يخطر بليل الهواء فيها ويسبح الأوز علي صفحات الماء. وحيث تتمايل الأغصان تمايل قدود الحسان حتي إذا اشتد النسيم في خطراته حنت رؤوسها اجلالاً وعانق بعضها بعضاً تحبباً وامتثالاً فيسمع لها حفيف يزيل الهموم ويجلي عن القلوب صدا الغموم والا أليس بعار أن تصبح أندية مصر للاوربيين من انكليز وفرنساويين والمانيين ونمساويين وايطاليين[3].

(١) أنشأ الشبان المصريون لهم جملة أندية ولكنها لم تدم. وقد جمع بعضهم اكتتاباً أخيراً بواسطة البنك العثمانى ولكنا لا ندري ماذا تم إذا قد مرّ علي هذا الاكتتاب أكثر من سنتين ونصف ولم نسمع عنه شيئاً.

(٢) ينشأ التفريق بين الشبان وبعضهم من وقت طلبهم العلوم في المدارس. إذ تلامذة الحقوق بمعزل تام عن تلامذة الطب وهؤلاء لا يدرون من أمر أخوانهم بالمهندسخانة شيئاً ولهذا السبب بعد عنهم التآلف والاتحاد وبعدت عنهم المحبة.

(٣) أول من ابتدأ بعمل الأندية (الكلوب) الانكليز في أوائل القرن الخامس عشر والكلوب لفظة انكليزية مأخوذة من مادة يراد بها الاجتماع كاجتماع الانجم والأشجار في غيضة أو روضة مثلاً.

وليس للشرقيين شيء الا ناد واحد انشأه جماعة من أفاضل السوريين سموه «بالنادي الشرقي» وسنوا له قانونا ورد في المادة الأولي منه

«أن الغاية من تأسيس هذا النادي اجتماع ادباء الشرقيين لقضاء الوقت في ما يلذ ويفيد» «وفي المادة الثالثة»

«أن المشاحنات السياسية والدينية ممنوعة علي الاطلاق

فجاء ذلك وافيا لهم بحاجة نحن أحوج منهم إليهم نعم أن الشبان أحوج إلي ذلك كما هم في أشد الحاجة إلي إنشاء المكاتب للمطالعة إذ المستقصي دور المطالعة في القطر يجد عددها لا يتجاوز أصابع اليد وهي «الكتنخانة الخديوية» بمصر وكتبخانة المجلس البلدي في الاسكندرية ومكاتب المرسلين الأميريكان وبسبب فقدان ما ذكر من العواصم لم تنم التربية الصحيحة بين الشبان في العواصم وأصبحت صحيحة في الأرياف عليلة في البنادر والمدن لكثرة ما يوجد في الأخيرة من دواعي الترف والخلاعة.

يتبين لك صدق ذلك لو تأملت أولاد الأرياف فأنك تراهم أوفي كمالاً من أولاد المدن الذين هم أوفي رذيلة فلذا يشب الأولون وقد مارسوا غرس الأشجار وزرع البقول وتربية الحيوانات. والآخرون يشبون علي غرس البغضاء في النفوس وزرع الشحناء في الصدور وتربية النميمة والموارية والخداع وسوء الأخلاق، هذا ومن أهم حاجة الشبان التي لا تخفي علي من درس حالة البلاد أن المتعلمين منهم قد ابتعدوا عن الزواج لما علموا أن من يقترن بهم بعيدات الأفكار عنهم فان كن متحدات الأجسام وقلة الزواح في الأمم دليل علي انحطاطها والتاريخ وحاضر جمهورية فرنسا أصدق شاهد. هذا وحاجات الشبان المتعلمين لاختيار زواج المتعلمات من البنات تنمو

بوماً عن يوم[١] فهلا أدرك أهل البنات ذلك وبدأوا يشعرون بضرورة تعليمهن وفقاً لما أشار به العقلاء إذ من الصعب جداً أن يرتقي فريق في الأمة ونصف أعضائها غير مرتق أو كيف يهنأ عيش أحد الفريقين ما لم يكونا علي اتحاد تام في الأميال والأخلاق وعلم التربية أعظم شاهد والواقع أقوي برهان علي ما تقول.

نسأل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة ولا تأخذ باكظامها أنه السميع المجيب

(١) اقترح احدهم مرة في مجلة «السمير الصغير» علي الشبان أن لا يتزوجوا الا بكل متعلمة فصادف اقتراحه هذا استحساناً عاماً ممن قرأه من الشبان

القسم الثالث

في الفقراء

* * * * *

من هم الفقراء

الفقراء من الوجه الاجتماعي هم الأمة كلها لاحتياج الناس بعضهم إلي بعض كما قال المتنبي.

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

ومن الوجه الأدبي هم مظهر البلاد عوائد واصطلاحات وعواطف واحساسات ومن الوجه المادي هم معاملتها وعملتها الدارجة ومن الوجه المعنوي هم سمعها وبصرها وعصبها الحساس ومن الوجه المدني هم سورها المحيط بها. فتعال معي أيها المصري أو أيها الانسان المهذب الغيور علي أمتك وبلادك أو الغيور علي بني الانسان في كل بلاد الله. والق نظرة إلي كل وجه من هذه الوجوه واشفعها بنظرة إلي حالة الفقير في البلاد المصرية وقل معي. ولكن في أذني لأني واثق بأنك ستري ما رأيته وتقول ما استحي أن أجهر به أمام الناس شعب ولكنه ليس بحي ومظهر بدل علي الجهل. معاملة سيئة. وعملة رائفة اذان لا تسمع. وأعين لا تبصر وعصب لا يحس. سور ولكن يا للأسف لا يحفظ ما أحاط به ولا يدفع عنه أذي. إذا وقفت علي ذلك فهل من دواء لهذا الداء العضال المهلك للأمة بأسرها ؟؟ أجل ولكن يلزم معرفة السبب حتي يكون الدواء نافعاً للداء. سبب ذلك هو الجهل ولا دواء له الا العلم. فاجمل ما فصلت. وقل في تعريف الفقير المصري هو الجاهل وناد معي بين ذوي الأموال أصحاب الشهامة والغيرة علي الانسانية مستصرخاً مستنصراً لهذا الجاهل لعل هذا

الجزء الغني الصغير يرجم نفسه بالابقاء علي هذا الجزء الفقير الكبير الذي هو مظهره وسمعه وبصره وعصبه وعملته وسوره ولا تكون مبالغاً إذا قلت حوله وقوته بل حياته.

وما أراك بمؤمن لي علي افتقار هذا الفقير واحتياجه الكلي لالتفات أهل الغني واليسار واعتنائهم به وتسهيلهم له أبواب العلم ويستفيد فيستفيدون من وجوده. أكثر. فاسمع لأقص عليك أحواله الاجتماعية واحدة واحدة كما هي بدون زيادة من ساعة ولادته إلي حين موته من تربية وتعليم وزواج وطلاق وأعراس وأحزان وصحة ومرض وأوهام وخرافات إلي غير ذلك مما ستسمعه وتقول ما أنبئت بمثل هذه الجهالات في الغابرين.

* * * * *

زواج الفقراء

قال عليه السلام «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس»

المصري الفقير يتزوج وهو صغير السن وكذا المصرية الفقيرة أيضاً. والدافع لزواجهما في صغر السن أغلبه ميل الأب والأم لستر عرضهما في حياتهما ليطمئن خاطرهما. وهذا سبب ما نراه فيهما وهما كهلان من أنهما أباء لعائلات كبيرة وأفراد كثيرين وفي هذا بحث اجتماعي لا يستخف به «لأن من ورائه تكوين العصبية القومية وحبذا هي لو أدركت بالمعني الصحيح»

والمتأمل يجد من وراء هذا الزواج ما يدعو للعفة والصون وحبذا ذلك لو تم للفقير مع الوفق والراحة.

أما طريقة الخطبة عند الفقراء فهي كما عند الاغنياء والوسط أي بواسطة تكليف الأم أو الأخت أو احدي الجيران من الحريم ان كان الزوج لا

أهل له بالبحث عن ابنة. حيث لا يمكنه بنفسه ان يخطب لعدم تمكنه من نظر البنات فتتوجه المكلفة بذلك إلي البيوت التي فيها البنات وتنقدهم نقد الصيرفي للدنانير وتشم رائحة فمها وصدرها وتنظر كعب رجلها فان كان مثل المرجله «القبقاب» تكون المخطوبة سعيدة والا كانت بخلاف ذلك. إلي أن تستحسن ابنة فتتوجه إلي العريس وتبتدي تمدح له قائلة: (لها وجه مدور «كالصنية» وشرطة عين مثل «الفنجال» وأنف مثل «النبقة» وفم «كخاتم سليمان») وبناء علي هذا الوصف يوغب العريس في الزواج معتقداً في من كلفها بالخطبة الحق وحسن النظر وطهارة الذمة.

أما أفراح الفقراء فجميلة علي الغالب ولو أنها علي غير نظام لطيف إذ يظهر علي أوجه حاضرى الفرح مع بساطتهم السرور وأي فرح أشرح لصدر حاضره من أن يري الرجل الفقير علي فقره وبساطته[1] بين أولاده وأقاربه وانسبائه وصحبه من جيرانه وغيرهم قائما بخدمة مدعويه. كما تكون امرأته كذلك بين النساء هاشة باشة بين صبية وشابة وامرأة وجدة تعتني بهن ويعتنين بها والكل يخدم بعضهم بعضاً من حمل ملابسهم إلي نقل مأكلهم إلي رفع ما يغسلون به أيديهم. لا تكليف بينهم بل كلهم في الفرح والسرور منغمسون. وان شاءت المدعوات الرقص ترقص أولاً لهن ربة العرس وان شئن الغناء غنت في مقدمتهن اذ لا يعكر صفائهن سوي ارتفاع أصواتهن. وجهلهن بالقناعة التي كثيراً ما تخرجهن إلي طريق الاسراف فتخرج بهن البساطة وسلامة النية إلي الشره في الطعام والزهو في الملابس وفي أنواع الفرش والآنية التي كثيراً ما يجمعون كثيراً منها حتي يضيق نطاق البيت ولو كان رحبا ذا سعة. مع أن أشياء كثيرة يمكن الاستعاضة عنها بشيء آخر نافع للزوجة عند الاحتياج.

وأمر الزواج لا يتم من غير عقد يتولاه أحد مأذوني الشرع الشريف

(١) البساطة مصدر بسط، وهي الدالة والسذاجة، فالرجل البسيط حسب التعريف اللغوى المتهلل الوجه الكريم اليدين الطاهر القلب الساذج الأخلاق العديم الدهاء.

ليقيده في دفتر العقود، ويسمع الاشهاد علي الطلاق ان كانت الزوجة ثيباً أو غير ذلك ان كانت بنتاً بكراً. ولا يكون ذلك الا بعد الاتفاق بين الزوج وولي أمر الزوجة علي الصداق الذي يدفع ثلثاه ويؤخر الثلث الباقي فاذا تم الاتفاق علي الصداق بين يدي المأذون أو سمع الاشهاد علي الطلاق وحصلت عقدة النكاح حلت الزوجة للزوج شرعاً. وأخذت العائلة في اعداد ما يلزم وقدمت الأقارب الهدايا أمامهم قبل التوجه إليهم. وهذه الهدايا وان كانت مساعدة للزوج بحمل أثقال بعض المصروف ولكنها دين ووفاء يقوم به عند الفرص المناسبة لذلك ثم يبتدئ الفرح الذي كثيراً ما تدوم مدته أياماً عديدة قبل ليالي الحناء «والزفاف» فان العادة قبل ذلك أن يحيوا ليالي يدعونها «الضمم» فيها الغناء والطبل والمزمار علي فنون شتي إلي أن يكون ليلة «الحناء» فيحيي أهل العروس ليلتهم علي حسب مقدرتهم ثم في ثاني يوم يستعدون «للزفاف» الذي يحضر في ليلته الزوج وأهله لأخذ العروس لداره. وفي هذا «الزفاف» تظهر حالتهم وتهذيبهم ومقدار ترقيهم «وفي الحقيقة مظاهر الجهل والحماقة» وفي مقدمتها المصارعون الذين هم عراة الاجسام. وما يسمونه بابن «رابية» وجماعته المشهورون بالخلاعة واحط أوصافها ثم من بعدهم جماعة الطبول ممن يسير علي الأرض وممن هم علي جمالهم يقرعون الآذان ومن خلفهم «التختروانات» وأحياناً كثيرة تجد جماعة ينشئون قهاوي الحشيش علي عربات النقل معرشا عليها بسعف النخيل وغير ذلك مما هو دال فيهم علي حب الهوي والميل إلي التهتك وما يشمئز منه المرء العاقل ويداري وجهه خجلا وحياء. لان في ذلك مدعاة لازدراء الغير بنا وحكمهم علي مجموع الأمة غنيها وفقيرها أنها في منتهي الاسراف والتبذير في غير وقته ومحله. هذا ولا نذكر ما يحصل أمام هذه «الزفف» من المشاجرات والمشاحنات وغيرها بين الشبان وبعضهم مما يؤدي أحياناً كثيرة لتعكير الصفاء وما لا تحمد عقباه.

غير أنه إذا سلم الله ووصلت «الزفة» إلي دار العريس تستقبل

العروسة بالاحتفاء والتكريم والتحية والتسليم من جماعة الأهل والمعزومين «وتزف» العروسة ليلاً بنقلها من جهة إلي أخري داخل الدار، وبعد «الزفة» يوضعون لها وسادة في القاعة التي نقلت إليها أخيراً ويجلسونها ووجهها مغطي بشيء كثير من «التلي» ومن أصناف الزينة والجواهر التي ربما تكون قدر أوقيتين أو ثلاث أو أكثر. ثم تتقدم «الماشطة» وتفرد علي حجر العروسة «شاورة» مشغولة الأطراف بالمقصب وتقول «يا حبايب العروسة ومشطتها» فتتقدم أم العروسة وتلقي في «الشاورة» جزءاً من المال وبعدها يتقدم المعازيم ويحذون حذوها وكل يلقي علي قدر طاقته فيكون المجموع عبارة عن نقطة «للماشطة» وبعد ذلك تأتي «العالمة» وتفعل فعل الماشطة[1]

ثم تمد الموائد للمدعوين والمدعوات رجالاً ونساءً وفيما هم في وسط الأكل يجيء صبي الطباخ ومعه «زبدية خضراء» أو «مغرفة» ويوضعها في وسط المائدة فيلتزم الرجال والنساء أن «ينقطوه» كما سبق وتقدم بيانه وتنتهي الحالة بأن «يزف» العريس أيضاً بين صحبه وأخوانه بالشموع وغيرها حتي إذا آب العريس من «زفته» بسلام يصعد إلي داره فاذا عروسه مهيأة لقدومه فيدخل عليها ويقبلها وهي تقبل يده وبعد أن يقدم لها هدية كشف الوجه وتكون نقوداً علي الغالب ويعطي «الماشطة حلوانها» يلف «الشورة» علي أصبعه السبابة وهي خام بوبرها الخشن ويمسكنها له «الماشطة» والأقارب، فإذا ما نعت أو جفلت من مطلبهم يستنجد الزوج بهن فيشددنها إلي سريرها ويمسكونها قسراً بأيديهن من اليدين والرجلين ليتمم هذا الجاهل عادة يحسبها فخراً له وهي في الحقيقة اهانة له وضرر لزوجته وربما كانت سبباً لشقائها الأبدي فان كثيراً من النساء يصبن من هذه العادة بأمراض عصبية ورحمية تقلق راحة المرأة طول

(١) أسباب جمع نقطة «الماشطة» هي أنها تغسل للبنت من يوم ولادتها إلي ليلة عرسها مجاناً طمعاً بما ينالها من «النقطة» في هذه الليلة.

حياتها. وأقرب شيء تصاب به العرائس من هذا الفعل الوحشي داء (الهستيريا) «الصرع» وسببه الجهل المطبق وتملك العادة وان شئت فقل سوء الظن في بكر يعلم الله أنها مصونة العرض، واني اذكر أن عروسا ماتت في الصعيد وهي بين يدي عريسها الفظ الغليظ. وقرأت مرة في رسالة الاسكندرية لأحد مراسلي الجرائد من أمد ليس ببعيد أن العريس دخل علي عروسه بهذا الشكل فكان آخر عهده بها أول دقيقة من لقياها(١)

وعلماء الطب يقولون أن هذه العادة تكون سبباً للنزيف الدموي ولتمزيق الرحم فمن لنا بمن يعرف الفقراء ضرر ذلك بدلاً من تفهيمهم السياسة التي برعوا فيها حتي لا يتسببوا في مجلبة المرض. ولا يخفي عليك عيشة الازواج لو كانوا كذلك من قبل يحملون في أجسامهم الأمراض والعاهات الخبيثة ويقدمون علي الزواج قبل برئهم منها. لا شك أنهم يلدون أولادهم وهم في حزن وغم دائمين فلا يكونون أصحاء أو فيهم الأهلية لا عمال تنفعهم في مستقبل أيامهم ولا شك أن هؤلاء في عرف العقلاء أعظم الجناة فان جنايتهم تعم الهيئة الاجتماعية ودون ذلك القاتل والمنتحر.

أما المعيشة بين الزوجين الفقيرين فانها أما أن تكون دائمة لتماثل الطباع وائتلاف الامزجة وأما تكون علي ضد ذلك. فان كانت الأولي «وهي القليل» فراحة فطرية ومعيشة بسيطة، يحسدهم عليها من هم أعلي منهم طبقة حتي الأغنياء. وان كانت الثانية فسكون شهر وقلق دهر - لأسباب كثيرة أهمها عدم معرفة الزوجة القيام بواجبات الزوج مع مراعاة الاحترام لوالدته بنوع أخص واطاعتها في ما تأمرها به. والاستسلام لأوامرها. وان كانت بغلاظة وفظاظة. ثم صغر سن الزوجة ودخول الجيران

(١) نحن لا ندرى كيف تطرقت هذه العادة إلينا معشر الإسلام،ولربما كانت مقتبسة من الدخلاء في الإسلام أو من المصريين القدماء حيث لا تعرف الا بين المصريين فقط.

بينها وبين حماتها وغير حماتها وغيرة الحماة علي ولدها مشهور أمرها. فتختلق الهفوات لها فتضر بها وتشتمها وتسبها لأقل سبب واه ولا تألوا كلتاهما جهداً من اظهار الأسف والندامة ولعن الساعة التي فيها تناسبتا، كل ذلك يحصل يوميا بدون انقطاع فتربو بينهن الضغينة والكره وتسوء العشرة في زمن قليل فتشكو الأم لولدها زوجته وتظهر له نقايصها ومعايبها. وكذلك الزوجة تشتكي الحماة لزوجها فتسوء الحياة بينهم جميعاً ويتمني كلا منهم البعد عن صاحبه. ولا يخفي أن للنساء الضعيفات قوة عجيبة في الدهاء والكذب بهما يبلبلن الخاطر ويخفضن ما شئن في أعين من شئن. والرجل الصانع والمحترف الفقير لا تمييز عنده ليتلافي هذه الأسباب فيستسلم علي الأكثر لارادة والديه لانهما هما اللذان زوجاه بمالهما فيرضخ لاشارتهما.

فأما أن يأمراه بالطلاق فيطيع أمرهما أو بزواج زوجة أخري لتكيد الأولي ولتكون سبباً لتنغيص عيشتها وهنا تكون سيطرة الجهل علي الجهل[1] والفقراء في هذا القطر يميلون كثيراً للاكثار من الزواج وخصوصاً أهالي القرئ منهم فان العامل الذي لا يكسب قوت يومه الا بشق النفس يجمع بين زوجتين أو ثلاثاً أو أربعاً وإذا طلق واحدة منهن تزوج بغيرها علي الأثر فتكثر عائلته وتقل حيلته وتفسد معيشته فيعاملهن بسوء

(١) من الروايات المحزنة حكاية امرأة حكمت عليها محكمة الاسكندرية بالسجن ١٥ سنة وقد كانت هذه المرأة زوجة فلاح من مديرية البحيرة وللرجل زوجة أخرى فطلق احداهن يوما ثم خطر في باله أن يعيدها إلي بيته فخافت ضرتها من المناظرة والمسابقة وجعلت تدس الدسائس حتى إذا أحست المطلقة بتدابيرها عمدت إلى الانتقام منها بوضع شيء من السم في حلوى اعدتها واهدتها لابن الضرة فأكل الولد الحلوى ومات وارادت الثانية أن تنتقم من خصيمتها المطلقة فدست السم في نوع من الحلوى أيضا وقدمته لابن عدوتها فأكله ومات أيضاً فألقت الحكومة القبض علي الجانيتين وحكمت المحكمة علي المطلقة بما ذكرنا لانها أقرت بذنبها ولكنها برأت الثانية لأنه لم يثبت عليها شيء وهذه الحكاية المؤلمة بموت الولدين وسجن أحدي الزوجتين عمراً طويلاً علته زواج الاثنتين وسيطرة الجهل علي الجهل.

المعاملة وخشونة الطباع حتي أن بعضهن يتمنين الموت تخلصا من شراسة الازواج[1]. وأمر الطلاق صعب علي النساء كما هو صعب علي الرجال وعدم مقدرتهم علي التصرف فيه بالحسني يؤدي بهم كثيراً إلي الأضرار ببعض ولهم في أمور النفقة الألاعيب الشيطانية شيءٌ كثير فتلجأ الزوجات المطلقات إلي المحاكم الشرعية وكثيراً ما تصدر الأحكام علي الأزواج بنفقات زوجاتهم وأولادهم فتبقي حبراً علي ورق ولا تنفذ لضيق ذات اليد، ومداخلات مأذوني الشرع في ذلك مما يستحي من ذكره وعلي الأخص في تضييع حقوق المطلقات .

هذا وفي النساء المطلقات الفقراء حدثت بدعة ترك أزواجهن متي شئن ذلك وهن ليطلقن أنفسهن بأنفسهن غير منتظرات طلاق الرجل لهن ولداعي قلة الصداق بينهما تبرأ المرأة منهن رجلها وتحمل عفشها ذاهبة إلي حيث شاءت وهذه العادة انتشرت بينهن كثيراً ولا رادع لهن من رجال الشرع. وكثيراً ما تمكث أحداهن مع هذا أسبوعا وتبرئه ومع ذاك أسبوعاً وتتركه عابثات بالشرع عابثات بالدين مجلبات للسخط والعار علي الأمة بفعالهن.

ولمعترض يقول كيف يكون ذلك الزواج شرعي وهو لابد من وقوعه علي يد مأذون الشرع. فنقول أن لمأذوني الشرع تحليل بذلك وهو أن يتفق مع الزوج والزوجة علي كتابة العقد بينهما علي يد جماعة من الأسافل ولكن لا يثبته في دفتره الا بعد مضي أيام (العدة) كما حدث ذلك في جهة باب الشعرية من مدة سنة وجهة بولاق من سنة ونصف. ولا يقتصر ضرر مأذوني الشرع علي ذلك وإليك قصة حدثت في حي من أحياء العاصمة، وهو أن مأذوناً شرعيا عقد نكاح امرأة علي رجل علي صداق

(١) حدث في سنة ١٩٠٠ في جهة الدرب الأحمر بالقاهرة ان أمرأة اشترت جانباً من الكبريت وأذابت رؤوسه في الماء ثم تعاطته ولما أدركها الطبيب وسئلت عن قصدها قالت أنها تقصد أن تريح نفسها من سوء معاملة زوجها لها.

دفع عاجله وبقي في ذمته آجله وبعد قليل من الأيام قابل المأذون رجلاً آخر يهوي المرأة وترامي علي قدميه بعد تقبيل يديه شاكيا باكيا مما في قلبه من الهيام والوجد. وطالبا منه أن يرفق بحاله فأجابه المأذون لا بأس عليك أن صليت علي النبي (يعني بذلك طلب الحلوان) أو وحدت الله (يعني بذلك أن يحافظ علي السر حفظه علي توحيد الله) فوعده واغلظ في اليمين أنه لا يبوح بالسر ولا يمين فساومه المأذون حينئذ علي المبلغ المطلوب فأعطاه إياه ثم عقد له عليها فأصبحت المرأة زوجة لرجلين فوقع النزاع وأخذ كل منهما يشكو حاله وبلغ الأمر المحكمة الشرعية وما فعل المأذون فاستدعت الرجلين والمرأة وسمع القاضي حكايتهم.

وبعد ما افرغ القاضي ما في جعبته من الوسائط الشرعية اجاز للمرأة أن تختار أحدهما زوجاً لها من الاثنين فاختارت من تهواه ويهواها[1]. وكان جزاء المأذون أخذ الدفتر منه وتوقيفه عن العمل. حصل ذلك في العاصمة وأقبح منه ما حصل في أواخر شهر نوفمبر في الاسكندرية حيث تزوجت وطنية برجل من أهالي «حارة الراكشي» وبعد الزواج وجد أن الزوج خدعها بتواطيء مع مأذون الشرع وحقيقته أنه مسيحي فرفع الأمر إلي فضيلة القاضي هناك ليفصل إشكاله، وأرزل من ذلك يتكرر كثيراً في القري والبنادر بفضل المأذونين.

وقد جاء في عدد ٣٤٥٧ من المؤيد الأغر الصادر في يوم الأربعاء ٢٧ جماد الأولي سنة ١٣١٩ في رسالة مكاتبه بملوي ما يأتي بالحرف الواحد - بلغ من بعض مأذوني الشرع المفسدين أنه عقد لرجل علي امرأة

(١) ومن المضحك أن أحد أهالي «سنباط» حضر إلي المحكمة الشرعية مستفتياً بأنه يعشق أمرأة هي زوجة لأحد أصدقائه الذي هو مفتون بزوجته وقد اتفقا علي أن يتنازل كلاهما للآخر عن زوجته علي هيئة بدل وعوض الا أن زوجة المتظلم حاملة ويرغب عوض حملها «حمارة» زيادة علي الزوجة المبادل بها فهل يجوز الشرع اجراء هذا البدل أم يمنعه فضحك عليه المسؤول. وهذا يدل دلالة صريحة علي تقدير المرأة في نظر عامة المصريين - انظر جريدة الوطن ٦ مارس سنة ١٩٠١ عدد ١٩١٩ .

بعد أن طلق ابنتها التي كان تزوج بها ومضي علي هذا المنكر السيء ثلاث سنين ولدت المرأة فيها ولداً ولما سئل الرجل عن ذلك ادعي أنه يجهل حرمة هذا الأمر والقضية منظورة بالمحكمة الشرعية.

ولقد حقق لنا تواتر السماع أن كثرة الطلاق الفاشية جداً في قطرنا السعيد دون قيد تقريباً هي التي تحمل كثيرات من المطلقات الفقيرات علي اذلال النفس وارتكاب السوء فيظن للتكفف في الطرق العمومية. أو يضطرون إلي سلوك سبل الغواية ودخول بيوت الفجور، وليس من دافع لهن الا الفقر والجوع. وبهذه الواسطة يهملن أولادهن في الطرق والشوارع فيربون علي المبادئ الدنيئة والأخلاق الفاسدة وتقوي فيهم الرذيلة وحب الشر فيخرج منهم المتشرد واللص والقاتل وغيرهم من محاربي الهيئة الاجتماعية.

وقد تنبه رجال الضبط والنيابة العمومية إلي كثرة المتشردين الذي لا عمل لهم والمهملين من الأحداث في هذا القطر فقاموا يعالجون ذلك بسن اللوائح للمتشردين وانشاء السجون للاحداث[1] وغير ذلك مما فيه مقاومة الضرر وتقليل الشر، ولكن فاتهم أن الشفاء الحقيقي من هذا الداء لا يكون الا باستئصال أسبابه ولا يتم ذلك الا بمنع الفقراء من جمع عدة نساء في عصمة واحدة ما داموا لا يستطيعون الانفاق عليهن خصوصاً وان ضرر ذلك لا يقتصر علي الازواج وأولادهم بل يلحق الهيئة الاجتماعية كلها. ولقد احصي بعضهم الأحكام الشرعية التي صدرت علي الأزواج بنفقات زوجاتهم وأولادهم فوجد أن ما نفذ منها لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة في المئة والباقي بلا تنفيذ لعسر المحكوم عليهم وشدة فقرهم وعوزهم.

(١) سجن الأحداث ببولاق في أرض مجاورة للنيل عدد من فيه ١٣٠ ولداً يتعلمون فيه القراءة والخط والحساب والقرآن الشريف وصناعة الجلود والنجارة والحديد والصفيح، وحبذا لو انشئ مثل هذا السجن في الاسكندرية أيضاً وباقى عواصم المديريات.

ولا تظنن الطلاق الذي هو اكره الحلال عند الله قليلاً نادراً فقد ذكر القاضي الفاضل قاسم بك أمين في كتابه «تحرير المرأة» ان كل أربع زوجات في مدينة القاهرة ليطلق منهن ثلاث فهذه حال الزواج والطلاق بين الفقراء في هذا القطر وقد أدرك حضرة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده اضرار ذلك ونبه عليه في تقريره عن إصلاح المحاكم الشرعية بأقوال يجب أن تسترشد الحكومة والأمة بها في رتق هذا الفتق فقال ما نصه «أنني أرفع صوتي في الشكوي من كثرة ما يجمع الفقراء من الزوجات في عصمة واحدة فان الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاث أو اثنتان وهو لا يستطيع الانفاق عليهن ولا يزال معهن في نزاع علي النفقات وسائر حقوق الزوجية ولا يزال الفساد يتغلغل فيهن وفي أولادهن ولا يمكن له ولا لهن أن يقيموا حدود الله وضرر ذلك بالدين والأمة غير خاف علي أحد» ثم وصف العلاج الشافي من ذلك فقال حفظه الله «وأما الضرر الذي ينشأ من كثرة الزواج التي ولع بها الفقراء من سكان القري وهو من الضربات المعطلة لأعمالهم المفسدة لشؤونهم وشؤون أعقابهم فأري لتلافيه ن يلزم كل مأذون أن يسأل قبل عقد زواج أي شخص غير معروف بالثروة هل له زوجة أخري، فأن كان له فما هي الطريقة في الانفاق علي زوجاته وأولاده ويثبت جميع ذلك في ورقة العقد ثم يحدد حد معين من الثروة لمن يتزوج أكثر من واحدة متي كان غير معروف بأنه من أهلها علي أنه لو ذكر في كل عقد من عقود الزواج وسائل معيشة الزوج من كونه صاحب ملك أو تاجراً أو صانعاً أو عاملاً كان ذلك أدعي إلي تضييق دائرة الضرر ولا شيء من أصول الشريعة يأبي ذلك وهو من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا أحق به من القادر عليه والحاكم هو أقدر الناس عليه.

ومن المعلوم في أحكام الشريعة أنه متي تحقق أن الزوج لا يستطيع الانفاق علي زوجته وان الزواج يفسد أمر معيشته ويلجئه للخروج عن الحدود التي حددها الله له حرم عليه الزواج بلا خلاف فإذا وضعت لذلك قواعد وجب أن يراعي فيها جميع ما نصت به الشريعة المطهرة وما يقر

عليه رأي علمائها » فحبذا لو تعير الحكومة هذا النداء أصغائها وتسعي مع علماء الدين في تدبير حميد يقي الأمة والبلاد غائلة هذه الآفة التي تعاظم شرها وتفاقم ضررها.

* * * * *

الفقراء وأطفالهم

إذا تماثلت الطباع وأتلفت الأمزجة بين الزوجين الفقيرين ولم يحل بينهما الطلاق المتقدم ذكره وتعدد الزوجات المتقدم بيانه عمراً إلي ما شاء ربك وانتجا الذرية فيلدون أولادهم ضعافاً مهازيل فلا يعيشون الا وتظهر عليهم علامات الكساح أو يهلكون صغاراً لعدم الأعتناء بهم الا إذا وهبوا قوة المقاومة وفازوا علي الأمراض وأسباب ذلك وعدم الحنو عندهم علي الولد عدم العناية به لديهم الا بالخرافات فان الوالد لا عناية له بولده حال طفولته والمتصرفة فيه هي أمه تختار له الأسماء عند تسميته وتطببه أن مرض وتقمطه وترضعه إذا عرى أو جاع وهذه الام لاجل تسميته تحضر ليلة الأسبوع ثلاث شمعات وتسمي كل شمعة باسم خاص وتنيرها ليلاً وفي الصباح تسمي ولدها علي اسم الشمعة التي تكون قد بقيت أكثر من غيرها. ثم توضعه في (غربال وتحته شيء كثير من الحمص والبندق) وتغربله ولا ندري ماذا يلحقه من جراء ذلك فنترك ذلك التشخيص لرجال الطب ليبدر ملحوظاتهم فيه

تعليم الأم ولدها الكلام

متي ابتدأ انتباه الطفل قليلاً لما حوله تبتدى تعلمه أمه الكلام بألفاظ بذيئة قبيحة يشب عليها وينمو وتكون سبباً لتأصل الأخلاق والصفات القبيحة فيه ومدعاة لميله إلي الرذيلة.

تخويف الأمهات لأولادهم

إذا بكي الولد أو أراد النزول من السلالم ليلعب خارج البيت تخوفه

،مه وتحذره من (السماوي) والمغربي لئلا تأخذه عنده ليعلقه من رجليه فوق دست ماء يغلي علي النار ويصفي دمه «وقصدها بذلك عدم ابتعاد الطفل عن البيت لئلا (يتوه) ومع ذلك فأولادهم (يتوهون) بكثرة ويطلقون وراءهم المنادين أو يبلغون عنهم رجال البوليس»[1] وتحذره من أنه لو ذهب إلي البحر يبتلعه التمساح (وتريد ذلك عدم تعويد الطفل علي الذهاب إلي البحر خوفاً عليه من الغرق) ولا يخفي ما ينتج ذلك من الجبن علي النفس. والجبن عرفه الفضلاء بأنه انخذال في النفس عن مصادمة عارض لا يلائم حالها. والفقراء لا يتحدثون أمام أولادهم إلا في النوادر المخيفة ومدار حديثهم علي (العفريت) (والمارد) (والمزيرة) وما أشبه فمما يقولونه علي (المارد) أنه يظهر ليلاً للانسان ويسد عليه أربع جهات طريقه بحائط وما يقولونه عن (المزيرة) أنها جنية وكل أجسامها إبر ومسامير وتظهر بزي امرأة جميلة مزينة بالحلي ومرتدية إزاراً أبيض كالثلج إذا قرب منها الانسان تضمه إليها وتختفي به. وما يقولونه عن (العفريت) فشيء كثير كنا نتخوف منه حال الصغر وسمع أن أشكاله متنوعة فتارة يظهر شبه حمار عال أبيض فيركبه الانسان حتي يعلو به ثم يقذفه من فوق ظهره فيسقط علي الأرض مهشماً. وتارة أنه شبه قط أو كلب أو قربة. وبعضهم

(١) جاء في تقرير سعادة هرفي باشا عندما كان حكمداراً للعاصمة أن عدد البلاغات التي قدمت في سنة ١٨٩٩ م ٢٩٥ وجد منهم ٧٤ قبل تحرير ارانيك البحث عنهم و ٢٢١ بحثوا نهم فما وجدوا سوى ٤١ والباقين ١٨١ لم يعثر عليهم وفي التقرير المذكور حادثة منها يتبين مقدار الصعوبة التي يعانيها البوليس في الاستقصاء عن أقارب هؤلاء الأولاد وهذه الحادثة هي. أن بنتاً عمرها أربع سنوات وجدها البوليس في بولاق فبعد البحث عن أهلها عدة أيام استدل علي والدتها التي كانت ساكنة في فم الخليج فلما جيء بها إلي المحافظة انكرت معرفتها بالبنت كلية ولكن لما ادخلت البنت في المكان الذي كانت والدتها به ورأتها أسرعت إليها وتعلقت بأذيالها فدفعتها المرأة وادعت أنها لم تر البنت المذكورة من قبل وأخيراً لما استحضرت تلك المرأة أمام سعادة المحافظ وصار تهديدها اعترفت بأن البنت هي ابنتها ويظهر أن المرأة المحدث عنها كانت تزوجت حديثاً ولامتناع زوجها الجديد عن قبول البنت فعلت ما ذكر مرضاة لخاطره

ـفول في ؛صفه ا‌ـه سود كالليل طوبل القامه وعيناه بالطول يقدح منهما الشرر

بهده الخرافات التي يخوف بها الوالدين اولادهم ينمو في أذهان الصغار الجبن والخوف والرعب حتي أنهم لا يمكنهم الانتقال ليلاً ونهاراً خطوة الا مع أحد خوفاً من حادث يفزعهم ولو كان شخصاً مقبلاً عليهم من بعيد كما حدث ذلك في السنة الماضية في حي من أحياء العاصمة[1] ولا يقتصر تخويفهم أولادهم ساعة دون أخري بل قد يخوفونهم وهم يأكلون معهم، ومن دلك أن لو خطفت القطة من أمامهم شيئا من الأكل وقت العشاء وأحب الولد أن يضربها يمنعونه من ذلك ويفهمونه أن ضرب القطط ليلاً مضر به لزعمهم أن روح القطط مفصول من روح الملائكة. وأغرق من هذا في الوهم والخرافات أنه أن وقع الطفل علي الأرص سمت عليه أمه وسمت علي أخته معه مفهمة إياه أن له أختاً من بنات الجان.

ولهم خلاف ذلك حرفات كثيرة في ليالي المواسم فمن ذلك ما يتحدثون به ليلة العشر من شهر محرم من أنه تهبط بغلة من السماء حاملة الجنيهات لصاحب النصيب فيأمر الأب ابنه والأم بنتها بدعوي الله لتكون من نصيبهم فيحلم هؤلاء أحلاماً بقصها بعضهم علي بعض في اليوم التالي ولسان حالهم في الحقيقة يقول

ادا صدق الحد افتري العم للفتي   مكارم لا تخفي وان كذب الخال

وهذه الخرافات تسبب للأولاد أحياناً كثيرة الأمراض العصبية والتشنج إذ لا يخفي تأثير الوهم والخوف علي النفوس الصغيرة. إذا عرفنا

(١) حدث في شهر بوفمبر سنة   ١٩ أن خرجت ابنة صغيرة من سكان (حارة الروم) لتشترى شيئاً مع ابنة أخري فشاهدت أثناء سيرها رجلاً سقاءً ذا شعر طويل مدلى فخافت منه البنت وأسرعت بالعدو واختفت منه في منزل فاتفق أنه دخل ذلك المنزل فلما رأته هذه المسكينة انذعرت وارادت الاختفاء في مكان فسقطت في بئر المنزل وفارقت الحياة ودهبت ضحية خوفها الذي نربت عليه من الصغر بفضل آبائها

ذلك ونذكرنا يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٩ الذي تنبأ فيه بعضهم بانقضاء العالم لا نستغرب خوفهم ووهمهم الذي حدث و قولهم الكذب في احياء الوطنيين فقد روي عن كثيرين من الأقاصيص الي صورها لهم الوهم شيء كثير من فطير نطق في الفرن وطفل ابن يومه ابتلع فرخة قبل طبخها وآخر أعلم والدته بصحة النبا واخر (جادل القاضي مع والدته بطلب النفقة من أبيه) إلي غير ذلك مما يدل علي استيلاء الخوف والوهم علي النفوس بسبب التربية المنزلية التي ربوا عليها ووجدوا فيها ممتلئ الرؤوس بالوساوس والخرافات

هذا ونختم قولنا علي خرافاتهم باعتقادهم حال خسوف القمر وتشاؤمهم من ذلك فإنهم يأمرون أولادهم بالقرع علي غطاء الحلل والصفايح[1] والشمس أيضاً هي علي زعمهم يجرها الملائكة علي عجل وهم مسخرون لهذا الأمر وانها تغرق في البحر فيبتلعها الحوت

"اهمال نظافة أبنائهم"

الفقراء يتركون اولادهم في الحارات والأزقة يتضاربون ويهملنهم للدعارة والعبث بكل ما تصل إليه إيديهم انظر إليهم في الحواري والطرق تجدهم يتمرغون في التراب ويعفرون به بعضهم البعض حتي إذا أصيب احدهم برمد صعب الاستئصال تعلق الأم علي عين الابن خرزة حمراء يسمونها «البذلة». وأكثر الأمراض في الأطفال مسبب عن قذارتهم حتي أن الطفل يصاب بأمراض عدة وهو دون الحول من العمر وقد أثبت الاحصاء

١) يحكى أن فلكيا أنبأ أحد الأمراء عن خسوف القمر في ساعة معينة فلم يعتقد بنبأه واتهمه بالزندقة والمروق وتوعده بالموت ان كذب خبره وبجزيل العطاء أن صدق نبأه فلما خسف القمر كان الأمير نائماً فأراد حيلة لايقاظه ليشهد له بصحة نبأه فقال للناس أن الحوت يبتلع القمر فاضربوا الطبول وصيحوا شديداً ليجفل ويعود عن الكوكب فلما بدأ صياحهم وعلت ضجتهم سنيقظ الامير وراي القمر محسوفاً فكافأ الفلكي والله علم

أن أكثر من تسعين في المئة من هؤلاء الأطفال يصابون بأمراض العيون عن غير سبب سوي اهمال النظافة اهمالاً تاما لجهل الأم وخوفها عليه من شر العين فيقع في مرض العين.

ومن يتأمل في معدل الوفيات في بلادنا المصرية يجد أن أكثر من تصيبه المنايا من الصغار فتذهب بهم قبل أن يدبوا بأرجلهم علي الأرض، ومن قابل بين هذه الوفيات في بلادنا وبين جميع بلدان العالم وجد أن الموت له إلي أطفالنا طرق ومسالك قل أن يجدها في بلاد الله الأخري ومن بحث عن الأسباب ونقب عن العلل الناشيء منها موت الأطفال الذين ربما كان في القماط منهم ومن يحمي الرباط لوجد أسباب ذلك وعلته جهل عامة الأمهات بأبسط القواعد والقوانين الصحية في مساكنهم التي كثيراً ما يبتدئ المرض منها وينتشر إلي البيوت الأخري حاملاً الموت علي منكبيه. وإذ دققنا النظر في عدم نظافة بيوتهم نراها علي الأغلب من أهمالهم للنظافة وعدم اعتنائهم بمائهم وهوائهم والا فلو كانوا مهتمين لانهزمت جيوش الأمراض والأسقام من بينهم ولاعتدلت صحتهم وآمنوا شر الأمراض والحميات التي تطحن أجسامهم وأجسام أبنائهم وكفانا تعريفاً عن مساكن الفقراء أنها أكواخ حقيرة من الطين قد تراكمت حولها الاقذار وتلبدت علي أرضها وجدرانها الأوساخ وهامت الهوام عليها كأنها مزبلة من المزابل وأولادهم لهذا السبب صفر الألوان كبار البطون اكتسوا من الوسخ وشاحاً[1] وكلما كثرت الوساخة ساءت الصحة فساءت الأخلاق. وأجسام الفقراء قل أن يبللها الماء فتتراكم عليها الأوساخ أيضا

(١) ومن الغريب في أغنياء مصر أنهم يجاورون هذه المساكن بقصورهم المشيدة وينظرون كل ساعة للفقراء وهم بهذه الحالة ولا تأخذهم رحمة بهم كأن هؤلاء ليسوا من لحم سكان القصور ودمهم. أو بالحري كأن قد عدمت الانسانية منهم فهم لا يتأثرون.، ولو علموا الواجب لبنوا للفقراء مساكن صغيرة صحية بدلاً من تشييد صروح فخيمة تسكن شهراً وتهجر دهراً.

والأدران[١] حيث يجد من وراء ذلك لهم الثقل في البدن والضعف في الادراك والفهم وزد علي ذلك وسخ الثياب فأنها أيضاً مجلبة للأمراض والخمول والصداع إذ هي أعظم واسطة لانتقال المرض من واحد لآخر مثل الحمي القرمزية فأنها تنتقل إلي العائلة بثياب المرضع وكذلك الجدري والتيفوس

نسأل الله أن يقرب الأيام التي يشهر فيها الفقراء بلزوم التغلب علي الفقر بالمعرفة حتي تسعد أوقاتهم. ويصبحوا ساعين في تهذيب أنفسهم وتعليمها ما ينفع وما يضر ويعلمون (أن النظافة من الايمان).

* * * * *

تطبيب الأمهات الفقيرات لأطفالهن

الأولاد وهم في سن الطفولية معرضون لجملة أمراض تنتابهم من وقت لآخر غير أن الاعتناء بهم يخفف ويلاتها عنهم إذا لم يكن يمنعها بالكلية. وهذا الاعتناء تختلف الطرق المؤدية إليه والوسائل التي تستعمل للوصول إلي هذه الغاية باختلاف عوائد الأمهات ومعارفها الا أنه بقدر عناية الأم بولدها حسب ما توجبه حالته بقدر ما تخف وطأة المرض حتي يزول بتمامه. وعليه نري أن أهل اليسار لا يعتري أولادهم المرض بقدر ما يعتري أهل الوسط وأهل الوسط لا يكون المرض بين أولادهم منتشرا كما هو بين الفقراء. وعلي الانسان بقدر طاقته أن يتحاشي كل سبب من شأنه

(١) يظهر مما كتبه الفرنساويين في خططهم أن عدد الحمامات التى كانت موجودة لوقتهم تزيد علي المئة والآن لا يوجد بالقاهرة سوي ٥ حماماً وهذا بالنسبة لما بلغته المدينة من الاتساع وزيادة السكان قليل جداً، وقد ذكر المسبحي في تاريخه أن العزيز بالله هو أول من بنى الحمامات في مصر وقال الشريف استعد نقلاً عن القاضى القضاعى أنه كان في مصر ألف ومائة وسبعون حماماً وكان أغلب هذه الحمامات موقوف علي الفقراء، وباهمالها تخربت وتصرف فيها الملاك واستعوضت بمبان أخري (خطط علي مبارك باشا) (جزء أول وجه ١٩٥

احداث المرض وما ذلك بعسير إذ كل انسان ميال بالطبع لدفع ما يؤذي ويؤلم. أما أخواننا الفقراء فأنهم حقيقة يخافون المرض ولكن لا يعتقدون بطب ولا طبيب بل جل اعتمادهم في مداواة أنفسهم مبني علي علم معروف عندهم اسمه (علم الركة) وهذا كله مستوصفات منها النافع والضار، وفي كل مداواتهم للأمراض يعتمدون علي الوهم والظن لا علي الحقيقة. مثلاً يوجد بين النساء الفقراء معتقد وهو إذا مرضت أطفالهن وحكوا أنوفهم فيزعمن أن في رؤوس أطفالهن ديدان فيستعن في اخراجها برجل عالم عندهن يمر في الحواري صارخا بقوله (يا فرج) إذا احضرته يرقي الأطفال علي زعمه ويمر براحته علي وجوههم فتتساقط الديدان من أنوفهم واذانهم. والحقيقة ان ذلك خزعبلات يموه بها علي عقولهن لأخذ أموالهن وقد تكون الديدان بين أصابعه أو في كمه وقد ادخرها هناك ليلقيها وهو يمر براحته علي جبهة الطفل.

وكثيراً ما يصاب الأطفال (بالسعال الديكي) والشهقة فيصف النساء لبعضهن أن يأخذنه إلي جزار ابن جزار لكي يموه عليه بجر المدية علي عنقه فيشفي أما الحقيقة فيعلمها العقلاء والأطباء[1] ولا يخفي أن الأطفال معرضون في صغرهم للحصبة والجدري والحمي التيفوسية أو القرمزية فاذا كان شيء من ذلك واعتمدن في شفاء أولادهن علي تجاربهن ولم تنجح أشرن علي بعضهن البعض بأن يزور الأطفال ثلاثة أسابيع متتالية (الطاقة) التي في مقام أولاد عنان (رضي الله عنهم) وهناك أي في أولاد عنان (طاقة) صغيرة يدخلن فيها أولادهن كل يوم (سبت) لا فرق بين رضيع وفطيم وبعد دفع الرسوم لشيخ المقام يقرأ عليهم ما يأتي بصوت جهور «يا بركة الطاقة وما فيها تشافيه وتعافيه وان كانت نفس

(١) ورد في مجلة (طبيب العائلة) جزء ٨ سنة ٥ أن الشهقة ويسميها العامة (الزغطة) فعل عضلى عصبى خارج عن سلطة الارادة مركزة الحبوط الصوتية للحنجرة وهى تأتى بدون علة ولا سبب وتضايق صاحبها كثيراً بل كلما اظهر تضايقه منها زاد فعلها.

تمنعوها وان كانت كافية تزيحوها وان كانت مشاهرة فكوها يا عنانية تشفعوا له بالشفا والعافية تحفظ بدنك (يا محمد) (مثلا) قوم هات العافية في كمك واجري كلم أمك»

،في هذا المقام قبلة مهجورة أيضاً يقرأون فيها علي الأولاد ما يشبه هذا الكلام وكذلك يوجد بئر[1] يقولون أن بها ولية تدعي ستي سكرة.

يلقون فيها قطعة من السكر ويقرأون مثل ما تقدم ويداوم الطفل علي الحضور ثلاثة سبوت وفي الثالث يلقون بملابسه القديمة في الميضة ويلبسونه أخري غيرها جديدة. ولا يخفي علي العاقل فتك الحمي وعدواها والحصبة والجدري فان علماء الطب قرروا أن هذه الأمراض مستعدة للعدوي من أقل سبب. ولربما ظن القارئ أن الذين يذهبون إلي ذلك من النساء كل يوم سبت من المسلمات والمسيحيات (الأقباط) لا يقل عددهن عن المائتين أو الثلاثة مئة يحضرن راكبات عربات النقل وراجلات علي الأقدام من أطراف العاصمة أفواجاً. وعندنا أن ذلك سبب مهم في جلب العدوي لأولادهن من حيث لا يشعرن ولا الحكومة تشعر بذلك. فحبذا لو خصص الأوقاف من أمواله الكثيرة جزاء وبني مستوصفاً لهؤلاء الأولاد في جانب هذا المقام الشريف حتي تطبب فيه الأطفال مجاناً والاً فتكون الحالة المتبعة الآن سبباً يدعو بالأطفال إلي الموت عاجلاً وإلي العدوي وانتشار الأمراض فيهم وانتقالها من حي إلي حي مما لا يرضي هؤلاء الأسياد. والله يعلم أن أولياء الله كانوا يعملون بالحديث الشريف (الناس عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله) ومن تأمل فيما قلناه ير ضرورة بناء المستوصف بجانب المقام رحمة بعباد الله ورحم الله من سهل للفقراء راحتهم في ضيقهم وشدتهم.

* * * * *

(١) كان لاخواننا الاقباط الارثوذكس بئر مثلها في كنيسة العلبوية بالقبيلة فابطلتها جمعية التوفيق.

تعليم أولاد الفقراء

كم من صبي ولد فقيراً لا ذنب له في قلة تربيته وتعليمه الا الفقر الذي نشأ فيه إذ كان قد وهب النباهة والادراك فقد اهملت فيه هذه المواهب. وان لم يكن وهبها فهو لم يستعض عنها بشيء من العلم. تري ذلك بلا مشقة في الأمة المصرية الفقيرة حال مرورك في الشوارع بين أبناء أمتك المهملين تربية وتعليماً ولقد أنبأنا التاريخ أن كثيراً من الفقراء الذين لم يفتهم حظ العلم قد شبوا نافعين لأمتهم ووطنهم وخدموا بلادهم الخدم الجليلة. كما ينبئنا البحث أن العقل يبدو كزهرة صغيرة فأما وسائط تنمو بها وتكبر ويضوع عبيرها. وأما اهمال تضعف به فتذبل وتسقط إلي الحضيض الق نظرك نحو أولاد الأغنياء والفقراء وهم في المدارس فتري الأولين متأخرين غالباً والآخرين متقدمين يسابقونهم علي احراز العلم والفهم ذلك لأن الفقر الذي هم قائمون فيه يربي فيهم ملكة الاعتماد علي النفس في المطالعة والدرس بخلاف أولئك الذين أكثر ما يعتمدون علي الوسائط والجاه. والأولاد الفقراء عندنا ذوو استعداد أحسن لقبول العلم لأنهم لم يتعودوا عيشة الرفاهية والدلال. وللدلال كما لا يخفي سلطان علي أولاد الأغنياء وأي سلطان. مثبط للهمم في نضارة العمر حائل بينها وبين ما يسمي التفات واكتساب من كل ما يمر بالشخص في المدرسة أو البيت أو السوق ومع علمنا الأكيد لتلك المزايا لأولاد الفقراء. فأننا لا نجد لهم من المدارس ما يسد احتياجاتهم وغاية ما هناك منها بعض مدارس للجمعيات الخيرية كالجمعية الخيرية الاسلامية(١) وجمعية العروة الوثقي والمساعي المشكورة وبعض مدارس للأميركان والفرير وبعض المحسنين(٢)

(١) عدد مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية أربعة لا غير تلامذتها كانوا لغاية السنة الماضية ٣٥٣ منهم فقط ٣٠ دفعوا الأجرة والباقون مجاناً لولا فضل الجمعية لما حصلوا علي ثمرة من العلم فإذا كان هذا ثمرة الأربعة مدارس فكم يكون لو عضدها ذوو اليسار بأموالهم.

(٢) كالمرحوم الخواجه رفله عبيد الذي أوقف علي المدرسة العبيدية الفين وخمس مئة فدان وجعل فيها التعليم مجاناً.

من الذين هزتهم الاريحية لتعليم أولاد الفقراء مجاناً. وما عدا ذلك فلا يوجد ثمة مدارس للفقراء بل يوجد لهم كتاتيب واحدها المكتب أو الكتاب. وهو عبارة عن قاعة أرضية حقيرة لا تصلح الا لأيواء البقر أو الحيوانات الأخري يجمع فيها العريف أو الشيخ كل يوم صباحاً صبية أطفالاً من الحواري والعطف لتعليمهم علي زعمه وعلي زعم الآباء للخلاص من جلبتهم ولعبهم في البيت طول نهارهم فيجلس التلامذة ومعلموهم في حالة سيئة ركاما فوق بعضهم ولو كانوا يفوقون الستين عدا. علي أرض رطبة قذرة لا منفذ لتجديد الهواء فيها. حتي ان الرائي قد يظنن لأول وهلة انهم جماد رص في قاعة لحين الحاجة إليه لولا صراخهم الذي يبعد الظن ويقرب إلي الذهن أنهم مخلوقات فيهم دم الحياة وطيب الروح. وأكثر الكتاتيب لجماعة المسلمين منا وما بقي من الطوائف فليس لهم الا النزر القليل منها.

وأجرة تعليم هؤلاء الأطفال كل يوم رغيف من العيش وجزء من عشرة من القرش يأخذ نصفها أو أكثر العريف أو الشيخ وما بقي فطعام الطفل فطورا وغداء ساعة الظهر. أما الحقيقة عن أجرة تعليمهم فما يتحصل من تشيعهم الجنازات .

وفي هذه الكتاتيب يتعلم الطفل جزءا من السور الصغيرة من القرآن صباحاً عن ظهر قلب والأوراد والأدعية فيما بقي من النهار، وليس تعليمهم من العريف أو الشيخ بل من بعضهم البعض الا من خشي الشيخ سطوة أهله وتعنيفهم فان ذلك يتلقي تعليما من العريف مباشرة أو من ولد متقدماً عنهم قليلاً وما سوي ذلك فمهمل. والولد الذي يوكل بتعليم جماعة لنباهته قليلاً في زعم العريف له السلطان المطلق علي الأولاد كلها فيقضي طول نهارة يلطم هذا وينهر ذاك ويخز الآخر أو يوغر قلب العريف عليه ليضربه في «الفلقة»[1] ولذا من صالح الأولاد مسالمته حتي لا

(١) كثيراً ما يصاب الأولاد بعلل وعاهات يكون سببها ضرب الفقهاء والعرفاء ومن عهد قريب فقأ فقيه عين ولد يتعلم عنده في مصر القديمة.

يضايقهم بل يلعب معهم طول نهارهم في عمل ما يسمونه الأطفال (فريرة) أو حبك خوص النخيل بما يسمونه (بيت النمل) أو حبك دوبارة الحصر الجالسين عليها بأيديهم وأرجلهم وكثيراً ما يجلس جماعة منهم في ناحية من المكان ولا يكادون يقومون الا وخيطان (الحصيرة) كله معدوم فضلاً عن سرقتهم حاجتهم من بعضهم البعض ثم حصول الاتفاق بينهم علي أكل لقمة كبيرة مرة واحدة يسمونها «لقمة الزقوم» كثيراً ما تضر بهم.

كل ذلك يجرونه والعريف متغافل عنهم متمني انقضاء اليوم. وإذا أراد نهيهم عن اللعب واتباع القراءة فأنهم يقرأون السور المحفوظة في أذهانهم عكسا لطرد. أو يهزون أكتافهم بغية إيقانه أنهم عاكفون علي الحفظ إلي أن يجيء العصر ويتولي معظم النهار فيجمعهم العريف لقراءة الحزب ويصرفهم غير آسف والخلاصة أن ما يسمونه الكتاتيب مفسدة للأولاد في صغرهم مفسدة لتربيتهم وصحتهم. لأن الكتاتيب لا يتغذرن جسماً ولا روحاً. وفي شربهم يشربون من داخل «بلاليص» من فخار في وسطها غابات البوص يمتصون الماء منها مصا وهي واسطة عظيمة أيضاً لنقل عدوي الأمراض والعاهات بسرعة وأخص ما هم معرضون له من الأمراض مرض القراع والبرص والقوبة والجرب وغير ذلك.

غير أن لديوان الأوقاف ولنظارة المعارف العمومية كتاتيب أرقي من هذه قليلاً جاء عنها في خطبة الشيخ محمد شريف التي خطبها في ديوان نظارة المعارف يوم ٥ ديسمبر سنة ١٩٠١ ما ملخصه: أن لديوان الأوقاف كتاتيب تديرها نظارة المعارف عدد تلامذتها في هذا العام ٤٢٩١ وكان في العام الماضي ٣٩٦٦ وزاد عدد البنات المتعلمات بها فصار ٧٦٣ بعد أن كان في العام الماضي ٦٤٣ وأما عدد المعلمين الاكفاء فهو آخذ في الزيادة وقتاً فوقتاً فقد كان في سنة ١٨٩٨ م ١٩ وفي سنة ١٨٩٩ م ٤٥ وفي سنة ١٩٠٠ م ٦٤ ووصل هذا العام ٩٠ منهم عدد ٤ من النساء وكل واحد من العرفاء الذين نجحوا في الامتحان يقبض مرتباً شهرياً قدره ٧٠

قرشاً وأما الفقهاء فيقبض كل منهم ١٤٠ قرشاً وهذا غير مرتبات التلامذة المعروفة «بالخميس» فأنها كلها تقسم بين الفقهاء والعرفاء. وقد عينت النظارة بكل كتاب فراشاً يقوم بنظافته وما يلزم له وما زالت ميزانية هذه الكتاتيب ترقي حتي صارت في هذا العام ٥٥٧١ جنيهاً بعد أن كانت في سنة ١٨٩٧ م٣٥٢ جنيهاً فقط. أما التعليم والنظافة ودواعي الانتظام في هذه الكتاتيب لقد ارتقت كثيراً عما كانت عليه. ولكن مما يؤسف عليه أنه رغماً عن زيارة أطباء المدارس لهذه الكتاتيب فان صحة التلامذة لم تتقدم كثير هذا العام فقد أظهر الاحصاء الذي عمله حضرة حكيمباشي المعارف أن نسبة المصابين بالرمد الحبيبي هذا العام لا تزال ٨٠ في المئة كما كانت في العام الماضي والسبب الأكبر في وقوف التقدم عند هذا الحد هو رداءة أماكن الكتاتيب فان الكثير منها غير صحي بالمرة ولا يصلح لأن يكون محلا للتعليم وهذه هي أكبر عقبة الآن في تقدم الكتاتيب التي صارت محط الآمال في تربية طبقة كبيرة من الأمة، ولذا رأي ولاة الأمور من رجال الأوقاف والمعارف أنه ينبغي أن يبنوا كتاب جديد علي نظام صحي حسن يكون مثالاً في البنيان والتعليم والنظام لما يبني في المستقبل من الكتاتيب في الديار المصرية. وهذا الكتاب يشيد الآن بجوار قبة الفدوية وسيتم بعد أيام وتدور فيه الدراسة. هذا ملخص قول حضرة الأستاذ عن حاضر الكتاتيب التابعة للأوقاف التي تديرها نظارة المعارف بالنيابة عنه.

أما الكتاتيب الأخري التي تكلفت بها المعارف وتمدها بالاعانات وتهتم بملاحظتها وتفتيشها فقد قال في خطبته عنها حضرة الأستاذ أنها تقدمت في هذه السنة تقدماً باهراً كما يعلم من الأمور الاتية. أولاً عددها قد زاد في هذه السنة زيادة عظيمة حتي أنه لم يكف لتفتيشها أقل من عشرة مفتشين إذ بلغ هذا العدد ٩٢٥ بعد أن كانت في سنة ١٩٠٠ م ٤٨٤ وسنة ١٨٩٩ م ٤٠٣ وسنة ١٨٩٨ م ٣٠١ التي هي مبدأ التفتيش وقد زاد أيضاً عدد الكتاتيب التي أمكنتها لائقة للتعليم فصار الآن ٢٦٨ وكان سنة ١٩٠٠ م ٢٤١ وسنة ١٨٩٩ م ١٢٩ وسنة ١٨٩٨ م ٤٨ وكذلك

زاد عدد الكتاتيب التي امتحنتها كافية فبلغت في هذا العام ٢٢٠ وكانت سنة ١٩٠٠ م ٩٩ وسنة ١٨٩٩ م ٧٧ رسنة ١٨٩٨ م ٢٧. ثانياً عدد المعلمين الاكفاء الذين يتولون التعليم فيها قد زاد في هذا العام عن الأعوام التي قبله فبلغ الآن ١٣١ معلماً و٤ معلمات. وكان سنة ١٩٠٠ م ٦٢ وسنة ١٨٩٩ م ٥٥ وسنة ١٨٩٨ م ٤٠. ثالثاً عدد التلامذة ولا سيما البنات قد زاد عما قبله زيادة وافرة فبلغ ٢٤٦٩١ من البنين و ٢١٤٠ من النبات وكان سنة ١٩٠٠ م ١١٣١٨ من البنين و ٩٩٧ من البنات وسنة ١٨٩٩ من البنين و٥٦٨ من النبات وفي سنة ١٨٩٨ م ٦٩٣٦ من البنين و ٥٩٨ من البنات ومما يحسن ذكره أنه فضلاً عن كثرة وفود البنات علي الكتاتيب من سنة إلي سنة قد أنشيء لهن كتاتيب خاصة بهن ومن أحسن ما أنشيء لهذا الغرض المدرسة الخيرية بدمياط فأنها أسست علي نظام بديع يمكن أن يعد من أحسن مدارس البنات بمصر. رابعاً فضلاً عن تعليم القرآن الكريم في هذه الكتاتيب قد انتشر فيها تعليم مبادئ اللغة العربية والخط والحساب هذا العام بكثرة زيادة عن الأعوام الماضية إذ بلغ عدد الكتاتيب التي تعلم فيها تلك المواد ٣١٢ وكان في سنة ١٩٠٠ م ٨٢ وسنة ١٨٩٩ م ٥٨ وسنة ١٨٩٨ م ٣٥، خامساً التعليم الافرادي الذي كان مستعملاً في هذه الكتاتيب وهو تعليم فرد فرد من التلامذة نقص كثيراً جداً عن الأعوام السابقة وقام مقامه التعليم الجمعي وهو تعليم جمع من الأطفال بعضهم مع بعض وقد استعاض هذا التعليم الجمعي في الكتاتيب هذا العام حتي بلغ عدد الكتاتيب التي يستعمل فيها ٣٩٤ وكان سنة ١٩٠٠ م ١٥٤ وسنة ١٨٩٩ م ٧٧ وسنة ١٨٩٨ م ٣٤. سادساً تحسن النظام في هذا الكتاتيب هذ العام زيادة عن الأعوام السالفة حتي بلغ عدد الكتاتيب التي يمكن اعتبارها منتظمة ١٠٥ وكان سنة ١٩٠٠ م ٣٩ وسنة ١٨٩٩ م ٣٧ وسنة ١٨٩٨ م ١٧ وجميع أوجه التقدم المتقدمة نتيجة التفتيش وبالأخص منح المكافئات لأهل الكفاءة من معلمي تلك الكتاتيب فإنه بعث كثيراً من رغبة الفقهاء في نيل الاعانة واستنهض

هممهم إلي تحسين أحوالهم علي قدر الاستطاعة واصلاح أمكنة كتاتيبهم والقيام بما يلزم لها من الأمتعة علي قدر الإمكان. ومن أجل ذلك زادت الإعانة التي قدر هذا العام لتلك الكتاتيب فبلغت ٢١٣٨ جنيها مصريا و ٦٠ غرشاً صاغا وكانت سنة ١٩٠٠ م ١٠٠٠ وسنة ١٨٩٩ م ٧١٩ جنيها مصريا و ٩٠ غرشا صاغا وسنة ١٨٩٨ م ٤٩٥ جنيها مصريا و ٢٥ غرشا صاغا وهذه المبالغ بلا شك لا تعد شيئاً بالنسبة للنجاح العظيم الذي حصلت عليه كتاتيب الاعانة في هذه المدة القصيرة التي لا تتجاوز أربع سنين ومثل هذا النجاح يبشر بأن مستقبلها سيكون أحسن وأنها ستخطو خطوات عظيمة في طريق التقدم والارتقاء. وقد تأكدت به ثقة النظارة من نجاح مشروع الاعانة وأنه كفيل بتعميم الإصلاح في جميع الكتاتيب الأهلية فزادت في مبلغ الإعانة للعام ونظمت للكتاتيب جميعها تفتيشاً عاما متفرعا إلي تفتيشات محلية في القاهرة والوجه البحري والوجه القبلي وأعدت له المفتشين ورتبت له ما يلزم من الأمكنة والأمتعة والعمال وعما قريب تخرجه إلي حيز الفعل وتستمر في طريق الاصلاح إلي أن تصل إلي الغاية المقصودة المؤدية إلي سعادة البلاد انتهي باختصار قليل وفي ذلك بعض الاطمئنان علي أولاد الفقراء الذين هم أولاد كل الأمة.

* * * * *

كتب الفقراء

كما للأغنياء والوسط كتب يغذون بها عقولهم ويعلمون منها ما طرأ علي العلم والأدب من التقلبات. كذلك للفقراء كتب بذيئة يتعلمون منها السفاهة ويعلمون منها ما طرأ علي قلة الأدب والرذيلة من الطوارئ. وهذه الكتب يؤلفها لهم السفهاء والحشاشون وهي مملوءة بصور هزلية قبيحة يقطر منها القبح وقلة الحياء. وهي المفسدة للأخلاق فيهم علي فسادها المتضمنة للهذر والمجون مع كثرته بين الفقراء. ويصدر منها كل يوم شيء جديد كثير حشوه قلة الأدب والسفاهة والبعد عن المبادئ القويمة. وهذه الكتب يغنينا التفكر قليلاً في أسمائها ككتاب «رجوع الشيخ إلي صباه» وكتاب منعظ العنين ومغني عن المعاجين) والايضاح في علم النكاح وقصة «الفلاح مع الثلاث نساء» (وعفريت الشوام) «ونوادر جحي»[1] (والقاضي والحرامي) «وبدع بطه» (وراس الغول) «وخضرة الشريفة» (وبشر ذات العلم) و «علي الزيبق» (والمرأة اللي حبلت جوزها) «وقمر الزمان بن الملك شهرمان» (والعمدة اللي إجوز ستة) «وبدع خرج من الحمام» (وتسالي رمضان القبيحة) كل هذا يغني عن زيادة الشرح وهو لا يقع تحت حصر مما من شأنه افساد الأخلاق والآداب والدين. واغراء الناسك علي التهتك في الفسق وتخدير العقول بمخدرات الجهل فوق ما هي عليه. ومن الغريب رواجها بسرعة عجيبة حتي إنها تطبع مراراً كثيرة في شهر واحد[2]. ولكن لا غرابة ولا عجب ما دامت نفوس الفقراء متربية علي حب التوغل في الرذيلة والقبح من الصغر.

إذا حق علي العاقل المطالبة بابادة هذه الكتب لما تحويه من الغش

(١) غاية ما يعلم عن جحى المغفل المشهور أنه عاش في الكوفة في زمن خروج أبي مسلم الخراساني. ويروى أنه كان له نوادر كثيرة أغلبها في السفه.

(٢) اذكر أن «بدع بطه» طبع في أقل من شهر واحد ستة مرات.

والخداع خدمة للفضائل والآداب والانسانية. وحق للحكومة أن تعاقب أصحابها وطابعيها ولا يعز عليها ذلك ما دام أصحابها والذين يطبعونها يكتبون أسماءهم عليها. وهي لو اهتمت بالأمر لوقفت علي خفايا ما هنالك وعلمت أنها محشوة بالأكاذيب في الدين والخداع في الآداب والاختلاق مما يودع في رؤوس العوام رذيلة السفه ويولد بينهم مكروب الفساد وليس أقدر من الحكومة علي استئصال ذلك كما ليس أحد مسئولا أكثر منها عما يحفظ أدب الأمة ومجدها وفخارها وفي القانون ما يساعدها علي العقوبات[1] والا فصعب والحكومة اصلاحية أن تتخلي عن الفقراء وتتركهم يقرأون لهذه الكتب حتي يصيبهم من الضرر والشر شيء كثير يؤثر علي أرواحهم فضلا عن تأثير الاعتقادات «بالعفريت والخيال والقرين».

* * * * *

المحبة والفقراء

المحبة صلة القلوب بين الناس ويجب أن تكون متينة العرى بين الفقراء ليتخلصوا من شر أهوائهم المتفرقة ومذاهبهم المختلفة وليقربوا إلي ما من شأنه تجنب الفساد وصرف الهمم إلي الضار المشين. ولتقطع أعصاب الدسائس التي يدسونها لبعضهم البعض من غير موجب - والفقراء أولي الناس بالمحبة لتضم قلوبهم المتفرقة التي حجبها التغرير والتمويه بسبب فقدهم لها. حتي أصبحوا منبت البغض واشتهرت عنهم آفات الكذب والخيانة والخداع. ناهيك عن احتياجهم إليها لتحليهم بدلاً عما ذكر بالصدق والأمانة والمحافظة علي جلب الرحمة إليهم والشفقة. وحبذا هي لو عرفت بينهم لتكون سبباً يدعو الأقوياء إلي الاعتراف

(١)-جاء في المواد ١٥٦ و ١٦١ من قانون العقوبات ما يأتي «كل من انتهك حرمة الآداب وحسن الأخلاق باشهار رسم أو نقش أو تصوير أو رمز وتمثيل يعاقب بالحبس من شهر إلي سنة ويدفع غرامة من مئة قرش ديواني وقرش إلي ألف قرش».

بحقوقهم والنظر في رغائبهم فينالونها بدون بذل ماء الحياة والتذلل الذي يذهب بالشرف الآدمي. أما وقد صارت المحبة بين الفقراء سطحية تقع بينهم عفواً عن غير قصد. سعياً وراء منفعة ذاتية حتي إذا نالوها انقشعت تلك المحبة من قلوبهم وعادوا إلي التنافر والتباغض. فلا لوم علينا لو قلنا أنهم في كره متزايد وعدوان مستمر وكل يوم لهم في البغض أثر في حاراتهم واخطاطهم مع أهليهم وبني وطنهم وبني ملتهم ينشأون وينشأ معهم الشقاق والبغضاء منذ الصغر ويعيشون عاملين علي البعد عنها في الكبر. الا جماعات منهم قليلون وهؤلاء ممن رزقهم الله حلية العقل والادراك. وما عداهم فالكل عائشون بالتحاسد والبغضاء. حتي صارت قلة الأدب فيهم خلقية موروثة وضاعت من بينهم الشهامة والمروءة والأمانة. وعلاهم البربري ببربريته في المحبة لأهله وبني جنسه مما لا يخفي علي أحد، إذ البربري يأتي من بلده ولا يملك ما يسد به الرمق ويستر به العورة فبالمحبة ينزل ضيفاً عند معارفه وبني نوعه وبالمحبة يفتشون له علي خدمة أو حرفة يقتات منها لا فرق بين رجل منهم أو صبي بل بالمحبة ينتقون لهما ما يصلح شأنهما وبها يجمعون لبني جنسهم من بعضهم البعض ما يشترون له به صندوق «البويه» لمسح الأحذية ويعلمونه علي كيفية الحصول علي معاشه وطرق الكسب إذ يرافقه أحد أبناء جنسه في البلد ولا يبخل عليه بتعليمه كيفية تنظيف الأحذية السوداء والصفراء. حتي إذا ترك حرفته هذه لكبره واستخدم بسبب مساعدتهم له سفرجيا أو خادما يأتي بأحد أخوانه ويعلمه ويدربه علي حرفته الأولي مع افهامه أن زيداً من الناس يدفع في مسح حذائه كذا وعمرواً كذا وهلم جرا. وإذ انتدبه أحد لبيته يدفع كذا. ثم يتركه داعياً له بالتوفيق والنجاح المستمر. وبهذه الواسطة يتعلم منهم فضل الاتحاد حتي توصل كثير منهم الآن إلي احتكار بعض القهاوي، غير تاركين لابن العربي واسطة أو سبيلاً بينهم للتعيش وسببة علمهم بأن أولاد العرب زملاتهم يقبلون علي مسح الأحذية برخيص الأثمان عنهم وفي ذلك مجلبة للخسارة عليهم لا يرضونها.

هذا الأمر مشاهد بينهم ومصدره المحبة والاتحاد. يضاف إلي ذلك العفة والحشمة والحياء والاعتبار بخلاف أمثالهم من أبناء العرب الذين لا يستحون من القبح والفجور حتي أنهم بعدوا عن طرق الخير ومسالكه بقدر ما زاغوا عن طرق المحبة والاتحاد والسير ضد الحشمة في جميع أطوارهم.

إذا عرفنا هذا وتذكرنا حال الفقير في صغره وهو الآخذ عن أبيه وأمه الكثير من القذف والفحش في مجالسه بين أهله وجيرانه وبين كبرائه وأهل محارمه لا يصده وازع لما أخذته به عوائد السوء في التظاهر قولاً وعملاً حتي أصبح خلق الشر موروثاً فيه أبا عن جد وولدا عن أب لا نستغرب فقدان المحبة التي تمحو البغضاء من نفوسهم وتشد آواخي الاتحاد المتين بينهم وأنت تراهم حتي في صلاتهم بجانب بعضهم متخاصمين ولو في ختام الصلاة ينظر كل منهم لأخيه قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله»

لما علي بصرهم وبصيرتهم من غشاوة البغضاء والشحناء بسبب فقدان المحبة من بينهم بل غاية ما يدركون الشتائم والسباب لأقل مناسبة حتي يتوصلون للمشاجرة واقتراف الجرائم بالاعتداء بالضرب والجرح. ونكاية بعضهم بعضا بشهادة الزور وخدش الأعراض بسب الآباء والأمهات. ويكفينا أننا لم نسمع كل يوم ازدياد مشاجرتهم وكثرة جرائمهم من مخالفات وجنح وجنايات رجالاً ونساء وأنهم يزيدون كل سنة عن غيرها في قتل الأب ابنه والأبن أباه والأخ أخاه أو أخته والأخت أختها أو أخاها ولا جدال في أن سبب ذلك فقدان المحبة من بينهم حتي جلبوا علي نفوسهم العطب في ليلهم ونهارهم.

نسأل الله أن يزيل المكروه عنهم ويهبهم إدراك معني قول المرشد الأعظم «صلي الله عليه وسلم» لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم علي بيع بعض وكونوا عباد الله أخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره التقوي ههنا وأشار إلي صدره ثلاث مرات بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم

الجبن

"وضعف عزيمة الفقراء"

الجبن الذي نحن في صدده هو قعود النفس عن الأقدام علي الأمور ولو كانت ممكنة لضعف متسلط عليها وانخذال في النفس عما فيه مصلحتها ومنفعتها وهو في الأمة المصرية عام يتناول الرجال والنساء والأطفال. وهو ذو سلطان قوي علي العقول والأجسام. إذا تملك وتأصل فيها أفسد نظامها وأضعف قوتها وقلل من حد عزيمتها وقد سري داؤه في أعصاب الأمة وشرايين جسمها سريان السم في العروق الجسمية حتي تكاد لا تجد فرقا بين طائفة وأخري في سيطرته علي رجال العلم والجهل فيه. والجبن في الأمة المصرية وراثياً من قرون مضت وعصور خلت وسبب ذلك الضغط والاستبداد الذي أتته الهيئة الحاكمة في تلك الأزمان التي توالت عليها وكثرة تعاقب تلك الحكومات وشدة ما هي عليه من التنافر في السياسة والأحكام والقوانين. حتي لقد تنقض دولة كل ما صنعته السالفة من الأحكام والشرائع تقصد بذلك تطلب الغاية التي تسعي إليها بكل قواها ومجهودها ويكفي لنا دليلاً علي تغير الأحكام والضرر الناجم عنه أن أربع دول تولت أمور القطر في المئة سنة الخالية هدمت كل منها ما وضعته الأولي وابدلت ونسخت كثيراً من الأمور وابطلت بعضا من العوائد المرعية. أما الشعب المصري باختلاف عناصره فهو ذو آقدام وحب للتقدم لو لم تصل أيادي الأقوياء من الأجانب إليه .

انظر ماذا صنع ابراهيم باشا الفاتح من مدهشات الأمور في فتوحاته وكيف أنه هدد كيان دولة لها بمصر روابط دينية وجنسية وهو لو لم تقيده يداه باغلال القوة من تداخل الدول الأوربية وحيلولتها دون كثير من مقاصده لاتي بما لم تستطعه الأبطال الأوائل والأقيال الاماثل. وهكذا فقد قيض الله أن يكون هذا القطر مطمع أبصار الطامعين ونهبة الناهبين ومحج

آمال المستعمرين لكثرة خيراته ودماثة أخلاق شعبه التي لشدتها تكاد تقرب أحياناً من الذل والهوان.

وليس بين الأمم أمة فعل بها الاستبداد فعله الذريع مثل الأمة المصرية. كما أنه ليس بين الأمم أمة أقام فيها الذل والهوان مثلها وهو الذي أورثها الخمول فتأصل فيها مرض الجبن ، والوهن بامتصاص دمائها وهي رافلة في قيود الاستبداد. حتي اشتهرت بالقهر والغلب علي أمورها وعلم عنها أنها الأمة الميتة حياة المندثرة وجوداً وليس من يعجب إذا قلنا أنها من جراء ذلك قد بليت بشر التقليد الذي يتولد في نفس المغلوب في كل فكر وعمل وعزيز ورخيص واستحكم فيها داء الجبن الذي يتولد عنه كثير من الخرافات والأمور السافلة. لاسيما وقد جهلت الأمة بأجمعها التربية الحقة وزاغت عن محجة الصواب في الأزياء والعوائد الوطنية وبعدت عن الاحساس والغيرة بعداً شاسعاً وعن الثبات والأقدام في أقل الأمور كما هو المنظور وأفراد الأمة ضعاف العقول كثيرو الأوهام حتي ليعتقدوا أحياناً أن في اليأس رجاءً وفي الحبوط أملاً وفي الذل مجداً وعزا كيف لا وهم لا يدرون الا خزعبلات الكلام وتخرصات الأوهام وأضغاث الأحلام التي احتلمونها في يقظة حياتهم التي هي أشبه بالسبات العميق لاعتيادهم الرعب من لا شيء والتخوف من لا خوف والرهبة والانزعاج من لا قوة ولا صوت.

فلا تستغرب إذا فساد رأيها وحزمها وعدم ثقتها بنفسها. وبسبب الجبن ترقد ولو نهبت أموالها وتسخر لأقل الأقوياء بأقل إشارة حتي إذا أكل أولئك الأقوياء علي ظهور أفرادها وشربوا ورموا لهم بالفضلات القليلة اكتفوا بها غداء نعوذ بالله من شر الجبن.

نعم أن الجبن في الأمة قد اختلفت حاله الآن كثيراً بفضل حكومتنا الحاضرة ونظامنا السديد فانحصر ذلك الداء الوبيل في فئة الأغنياء

والفقراء دون الوسط وما سبب ذلك الا أن هذا الوسط أكثر اقداماً علي استطلاع الأمور ومعرفة الحقائق وما عركه به الدهر وعلمه إياه الخبر دون الأغنياء والفقراء.

أما الأغنياء فجبنهم مشاهد منظور في سيرهم وحياتهم كلها كما مر بك والفقراء دلائل جبنهم ظاهرة في جهلهم وخوفهم وتحصيل معاشهم وكلامهم وأخذهم وعطائهم وفي مقابلتهم بمن يكون أعلي منهم مرتبة، إذ يعتقدون أن طالب الحق فاجر وتارك حقه مطيع والمشتكي المتظلم مفسد والنبيه المدقق ملحد والخامل المسكين صالح. ومما يدلنا بأجلي بيان علي زيادة الجبن والوهن فيهم هو ذلك اليوم الذي صدرت فيه الأوامر بتجنيد رجال العسكرية من أبناء المدن التي كانت معفاة من تجنيد أولادها قبل صدور الأوامر المذكورة.

فأن المتأمل في ذلك الحين كان يري أبناء الأغنياء كلهم يقدمون البدل العسكري عن سعة وانشراح مما أعطاهم الله من بسطة العيش والغني. أما أولئك الفقراء الذين ليس بيدهم شيء يشترون به حياة أولادهم كما يزعمون فقد كان أهلوهم وذوو قرباهم يبكون وينتحبون في الغداة والعشي وكنت تري الأب يفتدي ابنه بما يملكه من حطام الدنيا فيصبح صفر اليدين. والأم تبيع قرطها أو خلخالها (ولو كان خلخال زار) بأبخس الثمن حتي تجمع مقدار فدية ابنها من العسكرية ومع هذا كله لا يذهب الابن للكد والعمل ليعوض علي أبويه ما فقداه بسببه بل يعمل علي ما به ضعف همته وخمول وجدانه. والجبن داء الفقير كما هو سمير الغني وهو سبب من أهم الأسباب للانحطاط المشاهد في أمتنا المصرية عموماً وفي الاسلامية خصوصاً. بعد ما كانت ذات بطش شديد وساعد قوي. والا فلو كانت الأمة جميعها بعيدة عن الجبن مشهورة بمضاء العزيمة وشرف الهمة المؤدية لترقية الشعور وحب الوطن لتمكن من نفسها تربية نفوس

أهليها لدرجة مصاف الرجال والرجولية. بدلاً من أن يصبح الرجل كبيراً في السن ولكنه صغير في العمل يفوقه أقل رجل من الطوائف الأجنبية التي بين ظهرانينا.

نسأل الله أن يهدينا طريق النشاط والجد ويبعدنا عما يجلب علينا الموت الأدبي بطريق الجبن تحت كنف حكومتنا الحاضرة التي نبراسها منار بالحق ومبدد ظلام الباطل أن الباطل كان زهوقاً.

* * * * *

حرف الفقراء

أن فقد التربية وضعف الاعتناء بشأن الفقراء جعل حالتهم التي هم فيها كأنها لا تتأثر بمرور الزمن ولذا تري فقير اليوم كفقير الأمس هو هو يأكل خبزه بالكسب ويلبس لباسه بالخمول لا يعرف الشهامة والاقدام بل غاية ما يعرفه لتحصيل قوته وملبسه صغار النفس وقعود الهمة عن السعي لعلمه أن ما تسوقه إليه العناية والقدرة هو رزقه لا غير ولا سبيل للاستزادة منه. نعم قد وجد في فقير اليوم بعض من الشعور وعلم أنه مجبور علي تحصيل قوته وملبسه بنفسه ولكنه مع ذلك لم يهتد لمعرفة الواجب ولم يعلم احتياج الأمة إليه ليعمل بما فيه نفعها ونفعه ولم يهتم بأن يكون جسما عاملا بدلا من أن يكون جسماً خاملاً وان عليه الاهتمام بصالح الجمهور حتي يدرك ما قدر له حقيقة من الرزق بطريق الكد والكدح كما أمر الله الانسان بقوله «يأيها الانسان أنك كادح إلي ربك كدحاً فملاقيه» حتي م لا يستيقظ الفقير ويعتبر ويستفيد من تيقظ من يعاشرهم من نزلاء البلاد . بل هو باق علي حالته التي كان عليها من سنين غير ناظر إلي العمل نظرة العاشق لمرمي هواه والمريض إلي الصحة بدلاً من شكوي سوء أيامه وشق زمانه وتركه جل أموره «للصدفة»

مستعيباً ممارسة الأعمال لما نشأ عليه من حب الكسل وإيثار الراحة وفتور الهمة علي العمل. والفقير لعمري لو كان علي ضد ما ذكر وهدي نفسه إلي العمل لكان أقرب لجلب الغبطة علي نفسه في معيشته. وأقرب للفوز علي من يعاشره من الأجانب والأحوال بخلاف ذلك الأجنبي النازح عن بلده المغترب عن أهله وأقاربه والمقيم بين قوم ليسوا بقومه.

أما وقد أقام الفقير علي كسله المشاهد ودام علي توانيه المنظور فلا حق له في الشكوي من سوء حاله الحاضر ما دام هو الكسول في حركاته وسكاناته وليس أهلاً الا لأن يقصيه ذوو العمل وينبذونه عنهم وهو القليل المرؤة نحو نفسه القليل المنفعة لبلده المستعيب وسخ اليدين النافر عن رزق عرق الجبين.

وإنا نذكر للقارئ حرف الفقراء التي يحترفونها والتي يدعونها باشغالهم وفي مقدمة ذلك حرف البيع والشراء التي يقدمون عليها علي أمل الربح منها. وأهم ذلك أصناف المأكولات القليلة الثمن والربح يزاحمون فيها بعضهم بعضا رجالاً ونساء حتي أمسوا بسبب ذلك في أسوأ حالة فوضي فاقدي الصبر. يجرون علي أنفسهم ملل المعيشة فلذا قل من يداوم عليها. والا فسرعان ما يتركونها إلي ما يعبث بالأمن. وخلوهم من الأدب مع اضمحلال عقيدة الدين الآخذة بينهم بالتلاشي يلجأون إلي السرقة في بيعهم وشرائهم أو في غش ما يزينونه وما يكيلونه ويكاد يكون بيع الرجال والنساء واحداً. فالرجال بيعهم في الأمور الآتية . الكبريت والكتب والأحذية. والحلوي. وعلائق الثياب. والفستق والبطارخ والأثمار. والأقمشة. والجبنة والسميذ والجرائد. والفول السوداني، والزيوت والتمر الهندي. (وبيع الصفافير والأساور) وكل «حاجة بقرش صاغ» أو بيع الفخار علي ما يذكر القارئ.

والنساء يبعن الأزهار والأقمشة وماء الورد والأثمار واللبن والعسل

«والمسلى» يطوف الكل رجالاً ونساءً حاملين ذلك طول نهارهم علي أمل الكسب منه.

وهنا لا بأس من سؤال القارئ عما يربحه ولد اسرائيلي حامل بضع أوراق من ورق النصيب وهي خفيفة الحمل يربح منها بائعها أضعاف ما يربحه ذلك البائع الوطني الذي يضع علي رأسه ما يبلغ أحياناً كثيرة زهاء الخمسين رطلاً من البضاعة الدنيئة التي لا قيمة لها لا شك في أن حامل أوراق النصيب يعرف من أين يأتي الربح وذلك الوطني جاهل ذلك ولو كان أحدهما ولداً والثاني رجلاً فقل لي بحقك ما مقدار ربح الولد وقت بلوغه أشده إذا قسنا ما يربحه وهو في سن الحلم علي ما يستنبطه من أساليب الكسب وطرق الربح إذا استعمل عقله واعمل قريحته واستفاد مما مر عليه وهو صغير من الأمور والطوارئ. وبينما يكون الفقير وزوجته يكدحان وراء مبيع ما معهما من البضاعة الزهيدة القيمة يتركان أولادهما يطوفون الشوارع والطرقات بهيئة رثة كثيبة وأينما مررت أو أينما حللت تري زمراً من أولئك الأولاد منتشرين بحالة يرثي لها وهم بثياب بالية يتراكضون ويتضاربون علي كسرة من الخبز وفضلة طعام أو عقب سجارة. جالسين علي الأرض كأنهم ليس لهم آباء ولا أمهات تراهم يملأون الأزقة صراخاً ويركضون صاخبين لاعنين لا يردعهم عن السب والقبائح رادع الأدب والتربية لفقدانها منهم ولذلك تراهم من بنات وأولاد كثيري الجرأة والحيلة في مداهمة المارة وسلب ما وصلت إليه أيديهم من أمتعتهم يدفعهم إلي ارتكاب مثل هذه الدنايا دافع الجوع والعري وحب السلب وليس الذنب في ذلك كله الا علي آبائهم وأمهاتهم لأهمالهم تربيتهم فيشبون علي حب ارتكاب المحرمات واتيان المنكرات من الأمور فيكونون عالة علي الأمة وعبئا ثقيلاً علي كاهل الحكومة وهم لو تعلموا مبادئ التربية الحسنة لكانت لهم أعظم وازع عن هذه الأمور. وأغلب الأماكن التي يلجأ إليها هؤلاء الأولاد هي القهاوي والمطاعم وأبواب المعابد ودور الأغنياء ونحوها

وإذا من الله علي فئة منهم بعمل شيء من حرف المعاش إذا كبروا وهم ليسوا بأهل لعمل مفيد يباشرون حرفة مساحي الجزم[1] أولاً وإذا ساعدتهم الفرص إلي حرف المكارين (الحمارة)[2] والحمالين «الشيالين»[3] أو الحوذية [4] أو يأخذون في حرفة التجوال في الحواري «جعيدية» وقوفاً أمام الدور هذا ناقراً علي دفه ناشداً لقصة «الغزالة والجمل» وذلك حاكياً «قصة خضرة الشريفة» أو قصة «صبر أيوب» أو نادبين الزمن أو ذاكرين ألم الفراق للأهل أو متوجعين من ألم المرض وكثرة العلل ولو كان أغلبهم أصحاء الأجسام أقوياء البنية يحتاج اليهم الوطن يعمرونه والعمل ليغدق عليهم نعمه بدلاً من كسرة يطلبونها ببح الصوت أو مليم يأخذونه بعرق القربة أو باستنجاد أهل البيت والتشفع برجاء الأولياء والصالحين الذين لا يبيحون الصدقة علي أمثال هؤلاء[5] هذا هو العمل المشتغل فيه الرجال الفقراء والنساء الفقيرات غير أن للنساء الفقيرات حرفاً أخري كغسل الثياب وضرب الرمل ومعرفة الفال وقراءة القرآن في الطرق وغير ذلك من مثل بيع البرتقال أو الأدرة أو البلح أو الاستخدام في معامل الدخان وكل ذلك أسباب تتطرق بهن إلي الرذيلة من شيء إلي آخر ولينجتزئ الآن بذكر شيء عن بائعات البرتقال وشيء آخر عن استخدامهن في معامل الدخان.

أما بائعات البرتقال والبلح والادرة فنقول تبتدئ البنت منهن في بيع الأشياء المحكي عنها وتكون في أول عهدها حريصة علي ستر وجهها أن

(١) بلغ عدد مساحي الجزم بالقاهرة ١٢٦٢ سنة ١٩٠١ .

(٢) بلغ عدد المكارين (الحمارة) بالقاهرة ١٤٠٠ سنة ١٩٠١

(٣) بلغ عدد الحمالين (الشيالة) بالقاهرة ١٠٨٧ سنة ١٩٠١ .

(٤) بلغ عدد الحوزية(العربجية ركوب) بالقاهرة ٢٥٠٠ سنة ١٩٠١ .
أما عربجية النقل فقد بلغ عددهم في السنة المذكورة ٦٥٠٠ أخذنا من قلم - تنفيذ اللوائح - بمحافظة مصر.

(٥) من قول المتبولي رحمه الله - لا أحب الفقير ألا ان كان له حرفة تكفيه سؤال الناس - وكان رحمه الله يعمل في حياته في الغيط ويدير الماء وينظف القناة من الحشيش.

يظهر فتضع عليه النقاب خجلاً وحياءً ثم لا يمضي عليها قليل زمن حتي تتركه وتمشي في الأرض مرحا بغير نقاب ثم تبتدئ في تعليم النكت والهزار فلا يمر عليها عابر طريق من حوذي أو حمار الا وتناقشه النكتة. حتي رجال البوليس في دوريتهم اذكر أني كنت مرة في منتدي عمومي وكانت بالقرب مني امرأة من هؤلاء جالسة علي الأرض مفرطحة الأرجل فجاء إليها البوليس ضاحكا وابتدأ يخطر في الشارع بين ذهاب وإياب وهي ترميه بنكتة وهو يرميها بمثلها حتي آن وقت إيابه للمخفر فجاء إليها وأخذ جزءاً مما تبيعه وأوصي خلفه بها. وعلي هذا المسلك تجري بقية البائعات من النساء إي أن يضبطن في محال الخنا والفجور.

أما عن البنات اللواتي يستخدمن في معامل الدخان فهن قسم كبير كلهن يحضرن صباحاً ويذهبن مساء وهؤلاء هن شر البنات سيرة وارذلهن سريرة إذ يحكي أن منهن عدداً كبيراً متزوجات بشبان الاروام زواجاً غير شرعي. هذا وكثيرات من البنات الفقيرات يراهن المارون في شوارع العاصمة وغيرها من المدن جالسات يقرأن سورة القرآن الشريف علي مشهد من الجميع ومسمع وأخص لهن جهات السيدة زينب والسيدة نفيسة وكبري المتبولي وأبو العلا. ولا يخفي أن بعملهن هذا حطة لنا وازدراء بنا لأنهن يقرأن القرآن الشريف بين القذارة والطين وبين أيديهن أطفالهن يصرخون ويئنون فتختلط القراءة بالبكاء. وكأنهم شاعرون بتحريم ذلك فيبكون ويبرأون والا فما الداعي إلي بكائهم وعهدنا بالطفل يحن للصوت ذي الرنة والنغم. هؤلاء اللواتي يقرأن القرآن في الطرق لو اعتني بأمرهن جماعة من أهل الخير وعملوا لهن مكتبا صغيرا وجيء اليهن بمعلم يحرص عليهن في حفظ القرآن وتلاوته مضبوطاً. ثم يذهبن بين النساء في المآتم يقرأن لفتح لهن باب رزق حلال ولآثاب الله محضرهن بدلا من أولئك النادبات الملعونات .

هذه هي حرف بعض الفقراء وقد تركنا حرفاً أخري كثيرة يطول شرحها والمجموع يعملون في ايقاف حياتهم علي ما يوقف الثروة جبناً منهم لفرارهم من مواقف الكسب بالكد والكدح والا فأين الثروة مع كثرة السكان ما دام أهل البلاد يشتغلون علي ما تري بالتافه القليل. وفي العطلة والخزعبلات والشعوذة الشيء الكثير حتي أن المتأمل أصبح يقرع سن الندم ويصفق صفقة الأواه علي ما حاق بأمته وما خسرته جماعته بفضل الجهل المرتي المنظور ولله عاقبة الأمور.

* * * * *

الصناع الفقراء

أنه مع قلة المعامل والورش الصناعية في قطرنا العزيز بسبب عدم وجود المعادن في بلادنا المصرية وقعود الرجال وذوي الأموال عن تنشيط الصناعة فيها فان عدداً ليس بالقليل من الصناع الوطنيين الذي يصنعون للبلاد ما يلزم من بعض الحاجيات ولو كان أغلبها مجلوباً من البلدان الأجنبية موجود بين ظهرانينا لا ينتظرون لاظهار فائدتهم للبلاد الأ نهوض الاكفاء من الرجال لتعضيد الصناعة والأمة في حاجة إلي هؤلاء الصناع حاجة هؤلاء الفقراء إلي أفرادها من الأغنياء والكبراء. غير أنك لو شئت أن تعرف حقيقة حالهم فهم ضعاف الميل والعزيمة في أداء العمل الذي يناط بهم كثيرو الكفر بنعم مستخدميهم لأقل سبب ولو أنها نصيحة من ولاة أمورهم. إذ يعكسون الغرض من ذلك إلي حقد عليهم وعدم رضي بأعمالهم فيتولد لذلك في نفوسهم حب الانتقال من حرفة إلي أخري ولو لم يكونوا قد مارسوها من قبل.

وعدم الاطمئنان هذا مجلبة لقلة نجاحهم في أعمالهم فضلاً عن انتفاء الثقة بين الصانع منهم وزميله إذ هم كلهم مبغضون بعضهم بعضاً لما

ظهر منهم من حب التعريض والنميمة والسعاية التي تكون عقباها وخيمة عليهم أجمع وإذا علما ذلك شعرنا بأنهم لا يذوقون لذة العمل ولا يحرصون عليه حتي يبلغوا فيه الاجادة وكل هذه أسباب تجلب الفشل عليهم التأخر المستمر وتوجد فيهم حب الرضوخ لسلطان الصانع الأجنبي فلا تستغرب بعد هذا لو قلنا أن الصانع الوطني يكون مستسلماً للصانع الأجنبي مقبلاً علي طاعته يتصرف بقوته وقوة زملائه كيفما شاء علماً منه أن له من قوة هذا التضامن فوزاً وسبقاً أكيداً في نجاح عمله وبلوغه الغاية القصوي من اتقانه وحصوله علي الشهرة الطيبة. وهذا الأمر غريب من الصناع الوطنيين وهم مع ذلك كله بعضهم يدرونه ويعلمونه ويشاهدونه متأكدين من أن في اختلافهم هذا انحطاطاً وضعفاً ونذالة يجرونها إليهم عن متميز قصد واختيار. ولا ريب في أن ذلك يستمر ويزداد ما دامت في قلوبهم الكراهة والميل إلي الشقاق والنفور والفوضي وحق للأجنبي أن ينتصر عليهم ويسود. وأصدق شاهد علي ما نقول الحالة الرديئة التي وصل إليها أصحاب الصنائع الوطنيين من حدادين وبرادين ونقاشين ونجارين تضمهم جامعة الصناعة والأخوة والوطنية. ولنا علي ذلك مثال في عنابر بولاق وورشها والورش الأخري إذ تري كل هؤلاء الصناع لا يحافظون علي الوقت بينهم ولا يعرفون له قيمة وكثيراً ما أقدموا علي الشروع في عمل قبل أن يتمموا الذي قبله وأخلوا بترتيب أعمالهم وهو من أشد الأمور لزوماً للصانع عند تكاثر الأعمال.

زر أحدي المعامل المذكورة أو ورشة من ورش الوطنيين واقترب منهم تراهم يتركون ما بأيديهم ويقبلون علي التكلم معك بكلام طويل غير شاعرين بقيمة الوقت الثمينة. نعم لا ننكر أن هممهم عالية وعزائمهم ماضية يتحملون مشاق الأعمال ويكابدون أشد الأهوال ولكن ذلك لا يكون منهم الا دفعاً باليد خوفاً من سيطرة مسيطر عليهم.

تأمل فيهم تر أن أخص صفات الصانع منهم الجرأة علي الكذب والغش والاحتيال. أو فوض إليهم عملاً تراهم كثيري الاخلال بالمواعيد كأن العامل منهم لا يحسن عمله إلا بالخداع والمواربة. تفرس فيهم جيداً تراهم ينظرون إلي العرض في أعمالهم تاركين الجوهر. ظنا منهم أن الغاية الحقيقية هي في البهرجة والطلاوة لا في أحكام الصناعة ودقة الاحتراف وقد يعم فيهم هذا الحكم علي كل أعمالهم.

هذا وطريق الاقتصاد في مؤونة الأعمال الصناعية غير معروفة بينهم بل المعروف فيهم أخذ «المؤونة» أزيد من مطلوبهم وهم مشهورون بالخفة والطيش في العمل وعدم اتخاذ التروي ديدناً لهم وأعمال الفكرة دليلاً في ما يعملون وما ذلك إلا لفقدانهم فائدة الصبر والاعتماد علي النفس ولذلك كان هذا الأهمال والقصور في أحكام الصناعة ضارا بهم ماديا وأدبيا مضعفا أجسامهم كما يتبين ذلك لمن عاملهم.

* * * * *

دين الفقراء وتعصبهم

أن كل المصائب التي لحقت بالاسلام وأهله منذ ابتداء تقهقره إلي الآن لمصيبة صغري تلقاء منشأ تلك المصائب وكبراها وهي جهل فقراء المسلمين بحكم أوامر ونواهي دينهم الحقيقية. وعندي أن سبب ذلك هو عدم وجود رابطة عامة في مركز الخلافة الكبري لأكابر أئمة الاسلام تجمع كلمتهم علي حقيقة المراد من تلك الأوامر والنواهي بالبحث والاجتهاد والتفسير بكل اخلاص. ونرسل فتنشر نور تلك الحقيقة في العالم الاسلامي ليهتدي به وتتوحد أفكاره فتكون وجهته واحدة في كل أحواله الدنيوية «الأخروية» أما وهذه الرابطة «التي هي أمر جوهري» غير موجودة. ففي قطر من أقطار الاسلام بل في كل بلد بل في كل حارة من

دعاة الضلال عين التفقه في العلم المشتغلين بالدين حرفة للتعيش الناصبين إشراك البدع والفتنة للاغواء علي الرذيلة والانطواء لأحكام السفاهة المفسرين ايات الكتاب الكريم علي ما تدعو إليه أغراضهم العالمية السافلة الملفقين عن الرسول «صلي الله عليه وسلم» من الأحاديث ما تروج به مصالحهم وتقضي حاجاتهم ما تنوء تحت حمله الانسانية وترزح لثقله الأرض وتهتز له السموات جزعاً وينشق به فؤاد الفضيلة فرقا(١) هذا ما أضل عقول المسلمين وازاغ أبصارهم وفرق أهواءهم وغلبهم علي ارادتهم وانتزع من قلوبهم الرحمة وقطع منها علائق الاتحاد والائتلاف حتي أصبحوا شتيتاً لا يرجي جمعهم إذا استصرختهم لا يجيبونك وإذا هضمت حقوقهم واهنتهم استسلموا إليك صاغرين. يرون لجهالتهم ظلمات بعضها فوق بعض فيقولون نور علي نور حتي أصبح المنصف العادل من المسلمين لا يري وجهاً واحداً للحكم بأن هؤلاء من المسلمين الا إذا كفت شهادتهم باللسان، هؤلاء هم المسوغون لأخواننا المسيحيين أن ينعتونا بالتعصب وحبذا هذه الكلمة لو كانت فينا بمعناها الحقيقي. لأن التعصب لا يخرج عن حد غيرة المرء علي دينه ومحبته له والدفاع عنه إذا اقتضي الحال. وأتمني في هذا المقام من الكلام لو كان الذين ينعتوننا بالتعصب من المسيحيين يفهمون ما يقولون لأننا ما سمعنا أن أحداً من عقلائهم قال بذلك وما سمعناه الا ممن يتضرر العقلاء المتنورون من وجودهم مثلما تتضرر الفئة المتعلمة منا من جهلائنا الذين ذكرناهم.

أما وقد يظهر للعارف جهل المسيحيين والمسلمين لحقائق دينهم ودخول البدع فيه وتمسكهم بها ووضعهم إياها موضع الدين الصحيح فلا تعصب عندنا معاشر المصريين بل هو جهل عم الكل يرمون به بعضهم مزينا

(١) ويسدد هذه الضربات كساد أسواق العلم والعرفان بين عامة المسلمين بل في الشرق علي العموم بحيث لا يمكن أن يدرك أفراد العامة شيئاً من لحقيقة بنظرهم أو ببحثهم.

بحلي الدين والدين برئ منه لأنه من دعائم التوحش ومن دواعي الجفاء بين أهل الوطن الواحد لا توجد المحبة حيث يوجد وتتعالي الانسانية عن أن تحتل أرضاً يمثلها الجهل وتأنف المصالح أن تحط رحالها في أبواب أصحابها.

والا فلو علم الناس عموماً والمسلمون خصوصاً قواعد شريعتهم السمحاء وأركانها الحقة لما جهلوا ولا جرو المصائب عليهم وعلي قومهم كما لو عرف المسيحي الفرق بين لفظة تعصب ومغالات في الدين ما نعت أخوته في الوطنية بهذا النعت ولا تجاوز المقصود ورمي بأوهام باطلة وأفكار عاطلة. والأسلام ديانة تهذيب وآداب وأخلاق مرضية. وهو الدين الذي يأمر أهله بالمعروف وينهاهم عن المنكر وأساسه مكارم الأخلاق(١) وهو سلامة وسلام لا مشاغبة ولا خصام. إذا عرفنا هذا وعرفنا جهل عامة المصريين فقد بطلت أقوال القائل بالتعصب ومحقت مفترياته البعيدة عن الذمة والشرف. ما دام ديننا يعلمنا أن من كان علي نصرانيته أو علي يهوديته فأنه لا يرد عنها وأن للمسلمين دينهم والآخرين دينهم.

والمطلع علي التاريخ يعلم أن المسلمين والنصاري صلوا معا في جامع الأمويين بدمشق وجعل كل بينه وبين الآخر حاجزاً(٢) مدة سبعين عاماً ولطالما أؤتمن المسلم أخاه المسيحي علي ماله وأهله. وما وجدت الفتن ووقعت بواعث الجفاء بينهما الا في الأزمنة الأخيرة لجهل الجميع بمعرفة الدين ومقصده إذ طالما عاش الفريقان بسلام ومحبة وإلفة ووداد. ونحن نناشد كل مسيحي يرمي المسلمين بالتعصب بذمته وبقيته أن يقول الحق ويعترف به. هل توجد بلدان تكثر فيها جمعيات التبشير مثل بلادنا

---

(١) قال الفيلسوف آرنست: رينان «أن الاسلام هو أول ناشر للحضارة في ربوع أوربا وأن الفشل في هذه المدنية الحاضرة لهذا الدين الذي من أصوله حرية الفكر والارادة».

(٢) راجع تاريخ دمشق للقساطلي.

المصرية فيه حرية التبشير والمجامع الدينية ولا يعترض عليها معترض مثل ما يفعل أهالي البلدان الأخري حتي نفس المسيحية التي من مذهب مخالف لمذهب آخر هل يلحق بدعاة الدين المسيحي بالديار المصري اذي أو اضطهاد وحيف مثل باقي بلدان العالم التي كل يوم نسمع عنهم اضطرار حكوماتهم أن تدافع عنهم بالقوة والسياسة. أليس المرسلون يفعلون في مصر وفي جميع الممالك الاسلامية ما يثير النفوس ويجلب الظنون بنشراتهم وتعاليمهم فهل بعد ذلك التسامح والتغافل يرمي المسلم بالتعصب ونفس الطوائف المسيحية هي التي تولد التعصب بعضها بين بعض ولاختلاف المذاهب تلعن الطائفة أختها وتحرمها وتحكم بضلالها وكفرها[١] يرمون المسلمون بالتعصب لسبب اسلام شخص واظهار معتقده بالأسلام لأغراض سافلة فتقوم الطوائف بسبب اسلامه ترمي الدين بما هو برئ منه ويتمادون في سب المسلمين والمسلمات بما هم براء منه ولو كان الذي أسلم حلاق دنئ أو صبي صائغ لا شرف عنده ولا علم. لا المسيحية تبكي عليه ولا الاسلام في حاجة إليه. الا يكفي حجة علي خطاء أمثال هؤلاء قولهم أنهم أطلعوا علي ما في الديانتين فرأوا أنفسهم في خطاء فاتبعوا الصواب باسلامهم ولو سلمنا جدلاً وقلنا بصحة مدعاهم وأنهم أطلعوا علي الدينين واتبعوا ما اتبعوا فهل ذلك صحيح؟

والمسلم نفسه حاضره كما تقدم لا شك أن أمثال هؤلاء هم من السفلة الفاقدي الرشد لأنهم تركوا الدين الذي ولدوا فيه وليس من دافع لهم الا غرض في النفس. ويقولون أسلمنا حبا بالمسلمين. والدين لا يتبع حبا بالأشخاص بل حبا بحقيقة مبدأه وشرعه. فأين لامثال هؤلاء معرفة المبادئ والشرائع وهم المتبعون شرع أهوائهم بسوء التربية وسقم الادراك. والعاقل مسلما كان أو مسيحيا لا يهمه شيء من ذلك ما دام يعلم أن للأديان

(١) راجع ما تكتبه مجلاتهم الدينية بهذا الخصوص.

جميعا ربا يحميها أن كان حقيقة يرضاها وإلا فلا دين محمد يعتز بنفر أو نفرين ولا تخور همة دين السيد المسيح من ذلك. فإذا كان هذا من أمثال هؤلاء الجاهلين يوغر دائماً الصدور بين الطوائف المتألفة منها الأمة المصرية. فنحن ننشر داءنا منهم ومما يجرونه وينسبونه للدين لعل الطوائف الأخرى تحذو حذونا وتشهر دائها وتطلب شفاءه من عقلائها والمال كله لله فيثيب برحمته من يشاء ويعذب من يشاء وهو رب العالمين.

* * * * *

حاضر أهل الطرق

والأذكار

قال الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي رحمه الله «أن الصوفي من يضع الأشياء في مواضعها ويدبر الأوقاف والأحوال كلها بالعلم. يقيم الخلق مقامهم. ويقيم أمر الحق مقامه. ويستر ما ينبغي أن يستر. ويظهر ما ينبغي أن يظهر. ويأتي بالأمور من مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق واخلاص أ. هـ. وقال المرحوم علي مبارك باشا رحمه الله في خططه بعد أن ذكر ذلك «أقول لمن كانت هذه صفاته يستحق أن يقتدي به بقوله وفعله ونحن جميعاً نود أن تكون هذه الصفات لصوفية عصرنا المنغمرين في نعم خير بلادنا » أ. هـ. أما نحن فنقول حبذا لو ردوا إلي أصل دينهم بقوة القائمين علي حفظ الشريعة ليرجعوا إلي نقاوة في دين وطهارة في معتقد. والا فما حملة الرايات في هذا الزمن الا قوم ملئت نفوسهم بالتلاعب في أصول دينهم لينظرهم الغير وهم في «سياراتهم» التي تدور في الطرقات وأمامهم «الزي منير» وخلفها جماعة أهل الأذكار وأهل الطرق وهم مشتغلون بالصياح والتصفيق فيعدون عملهم من مباني الدين الاسلامي. والله يعلم

أنها أضاليل عامية ما أنزل الله بها من سلطان وتري الأجانب يعدون موكب الرؤية والمحمل في مصر من أكبر الاحتفالات الدينية عندنا ويكتبون عنه في كتبهم وجرائدهم ما نخجل لو قرأناه.

ويا ليتهم علي ما تقدم متفقون بل أصبحوا وهم طوائف يضعون القوانين والمغالط ليجعلوها مصايد لأهل العقول المستضعفة ليعتريهم خلل الخروج عن حالتهم التي نشأوا عليها وإليك بعض أعمالهم في حاضرهم نقصه عليك لتعلم نفاقهم وكذبهم علي الله والناس .

جماعة المتصوفة وأهل الأذكار قوم خبثاء ولو كانوا بهاليل يغشون أطراف البلاد للمتجر بالافتراء علي الدين الكذب وكسب حطام الدنيا بذكر الله ممزوجاً بدق الدف وقرع الكاسات. بلي بهم الاسلام فاحدثوا فيه بدعة الجدال في العقائد وخالفوا الله ورسوله في النهي عن الخوض في القدر، يخدعون عامة المسلمين ببهرج القول وزور الكلام حتي كان من فضلهم تفرقهم شيعا وأحزاباً فمن كانت طريقته رفاعية لا يميل ولا يصبو إلي من عهده بيوميا ومن كان عهده أحمديا يخالف من كان برهاميا وكل له أقوال يؤيد بها طريقه ويوهن بها طريق الآخر ولو كانت أوهاماً لا نسبة لها بين أصول الدين الصحيح والحق الواضح. كلها يا للأسف أعمال مجلبة للخزي والعار تصيب سهامها الدين والمعتقد لو رآها الغير ومن الغريب أنهم يرضون بتمثيلها عند الغير لمبلغ من المال. فيمثلون أركان الدين علي زعمهم في أشنع صورة وأقبح مثال[1] لتملك الجهل منهم وفشوه بينهم وكثرة جماعة البهاليل والكل مدع معرفة أسرار آلهية وهم في الحقيقة معتوهون ساقطو التكاليف الشرعية ودليل ذلك فيهم الرضي بالذهاب إلي

(١) لا ينسى القارئ الذكر الذى كتب عنه المؤيد الاغر في منزل البارون أو بنهايم قنصل ألمانيا بالاسماعيلية وكان حاضراً جماعة السياح نساءً ورجالاً وأهل الطرق يرقصون ويقولون لترجمانهم أن عملهم هذا من أس الدين وقواعده.

المعارض الأوربية[1] بغية عرض خزيهم ووقاحتهم التي جروها علي دينهم وأمتهم بفعالهم مثل رقصهم ودورانهم وانكسار الوسط منهم. وأشكال ملابسهم التي يلبسونها مما لو رآها أي انسان لضحك واستغرق في الضحك من مرآهم إذ منهم من له زنار وحزام ومن له شعر كشعور النساء وبيدهم العصي المضببة بالنحاس أو الحديد مما يشبه كل الشبه لجماعة أخوة تبع السيد المسيح عليه السلام[2] وهذه الأذكار أصبحت مفسدة للأخلاق مجلبة للخزي والعار علي أمة تأبي الضيم وتنفر من الأذي. والأنكي مما تقدم بيانه أن الذين ينشدون عليهم الأنشاد ينشدونهم من الأدوار والمواويل الغرامية مثل «عزيز حبك» (وكان عقلك فين) وهم كل امرد جميل أفرغ علي نفسه الحلل المزركشة والثياب المعطرة.

(١) ذكرت جريدة عثمانلى التركية أن بعض الأدنياء من أهالى سوريا ومصر اتوا إلي معرض باريس ودخلوا جنينة الحيوانات بهيئة دراويش يمثلون عوائد المسلمين وصلواتهم بطرق شنيعة مضحكة وكان الباريسيون يتقاطرون لمشاهدة تلك المساخر الجارة السخرية والهزء بدين الاسلام. فيا لله.

(٢) كتب المسيو فيكتور شاربونيل مقالة في مجلة المجلات الانكليزية سنة ١٨٩٩ زعم فيها أن قانون اليسوعيين ونظام رهبنتهم منقولان عن بعض الطرق الاسلامية. ثم قابل بين نظامهم ونظام تلك الطرق وادعى أن انياس لوابولا مؤسس الرهبنة اليسوعية (ولادة هذا الراهب في عام ١٤٩١ ووفاته عام ١٥٥٦م) أخذ عن تلك الطرق ونسج علي منوالها وأنه سجن أياماً في سجن التفتيش لعلة الاسلام أ هـ.

فاذا صح ذلك ولا نخاله الا صحيحاً ظهر معنا أن محاسننا التى كانت فينا ولم تكن في أمة أخرى قبلنا قد ضيعناها ونسيناها بفضل رجال الطرق عندنا وفقهائنا، نعم ذلك صحيح فان الملتفت إلي طغمة جماعة اليسوعيين يري بعض الشبه لما لا يخالف سير وسلوك أهل الطرق منا والا فهذا البناء العظيم وذاك الأساس المتين الذي اتي بفضل سيرهم وسلوكهم ما كان لنا وجروا عليه ونجحوا هذا النجاح الوافر فلم لا نرجع إلي ما كنا عليه. ولم لا نبعد تلك الأضاليل والأكاذيب التافهة التى فى مخيلة أهل الطرق والأذكار، ونبعد تلك الأقاصيص التي نقصها عن أوليائنا.وأهلينا ونتبع سير من سلف حتي ينجح بعض النجاح الذي نمحه من هم ناقلون عنا وآخذون منا.

وأغلب أذكارهم تكون في الموالد التي سيأتي الكلام عليها والتي فيها يستعمل الحيل والبطالة والدعابة والمزاح وتفقد العفة والزهد والطهارة حتي ينعكس قول أبو نصر السراج لضده.

ليس التصوف حيلة وبطالة ... وجهالة ودعابة بمزاح

بل عفة وفتوة ومروءة ... وزهادة وطهارة بصلاح

وتيقن وتصبر وتوكل ... وتذلل وتكرم وسماح

فإلي الصلاح غدوة ورواحه ... وإلي الرشاد مساؤه بصباح

ولأهل الطرق والأذكار أوهام كثيرة وخرافات عدة منها ما ينسبونه إلي الأوليـاء من الكذب والنقص كقول بعضهم أن السيد أحمد البدوي «رحمه الله» استنكف أخذ العهد من الشيخ الرفاعي وصعد إلي السماء مؤملا أخذ العهد من الرسول «صلي الله عليه وسلم» فسبقه الرفاعي ومد يده إليه فتناولها البدوي وأخذ العهد منها ثم قابله الرفاعي عند نزوله وسأله ممن أخذ العهد فقال له من الرسول «صلي الله عليه وسلم» فقال له أتعرف اليد التي قبضت عليها قال نعم فمد يده إليه قائلاً. أمثل هذه اليد فلما تأملها البدوي كظم غيظه.

ومنها أن في الركن الخراب مقاماً للسيد أحمد الرفاعي[1] وأنه موكل بالحيات والثعابين وسائر الهوام إلي غير ذلك من الكذب والافتراء الذي يسؤنا ذكره هذا ومما يحسن نقله عن جريدة «مصباح الشرق» الأغر

١) الحقيقة أن مقام السيد أحمد الرفاعى في أم عبيدة بالعراق في لواء عمار. رمم أخيراً علي نفقة جلالة مولانا السلطان عبد الحميد بمبلغ ٣٨٣٧١٧ قرش.

علي ذكر الثعابين أن المرحوم الشيخ البكري الكبير كان جالساً مع الشيخ الغلبان أمين الفتوي والشيخ علي الدرويش شاعر ذلك العصر واسمعيل افندي الخربتاوي من الأدباء فخرج عليهم ثعبان ففزعوا منه فقال لهم الشيخ كيف تفزعون من ثعبان وأنتم في حضرتي وكان الخدم قد عاجلوا علي الثعبان فقتلوه فقال له الشيخ الدرويش «أن الثعبان لم يخش جدك في الغار وبقي أثر ذلك فيه وفي ذريته» فتنحنح الشيخ البكري وضحك الحاضرون ومن أوهام مشايخهم أنهم «التزموا» بعض البلاد وصار كل صاحب طريقة منهم لا يقول بقبول ذكر الله في البلد الذي هو فيه الا إذا كان علي طريقته. اذكر مرة أنه لما كنت في بوستة قليوب أقيمت حلقة ذكر وذكرت جماعة بطريقة البيومية فجاء شيخ كان جالساً علي بعد ونبه القوم لكي لا يذكروا الا طريقة الرفاعية فوقع الخلاف بينهم حتي كاد يصل إلي ما لا تحمد عقباه لولا توسط نجل سعادة الشواربي باشا في المسئلة فانتهت بسلام. ويذكرون ويأتون في المساجد كل ما هو منهي عنه حتي باتت المساجد مثل حانات أو ملاهي لعب ترتفع فيها الجلبة والصياح عدا اتيان النقائص التي لم تكن تعرف قبلاً وهم بما يأكلون من لب البطيخ والقرع وما يلقونه من قشور الترمس وجذور الكراث وفتات الخبز يصير بعضها كأنه مستودع للزبالة ونحن ذاكرون في عجالتنا هذه قول علماء المذاهب الأربعة نقلا عن جريدة «الحياة» الغراء عدد ٣ سنة ٢ قالت.

استفتي بعضهم في سنة ١ ٦ للهجرة علماء المذاهب الأربعة الاستفتاء الآتي «ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين وفقهاء المسلمين وفقهم الله لطاعته وأعانهم علي مرضاته في جماعة من المسلمين وردوا الي بلد فقصدوا المسجد وشرعوا يصفقون ويشطحون فهل يجوز فعل ذلك

شرعا افتونا مأجورين يرحمكم الله»

فقال الشافعي

السماع لهو مكروه يشبه الباطل من قال به ترد شهادته والله أعلم

وقال المالكية

يجب على الحاكم زجرهم وردعهم وإخراجهم من المساجد حتى يتوبوا ويرجعوا والله أعلم

وقال الحنابلة

فاعل ذلك لا يصلي خلفه ولا تقبل شهادته ولا يقبل حكمه أن كان حاكما وإن عقد للنكاح عقداً فهو فاسد والله أعمل

وقال الحنفية

لا يصلي على الحصر التي يرقص عليها حتى تغسل والله أعلم

ذلك حكم الشريعة الغراء في أهل الذكر وأرباب الطرق منذ ست مئة سنة فما قولك الآن بعد مضي نيف وسبع مئة سنة أخرى لا شك أن الحالة أسوء من ذي قبل. ونذكر الأبيات الآتية من قصيدة لأبي بكر المقري التي قالها قديما ولكنها تنطبق على من ذكرناهم أيضاً حديثاً وهي

برغم سنة خير العجم والعرب أ - مساجدنا للهو واللعب
ما كان صلى عليه الله يأمرنا بضرب دف ولا زمر ولا قصب
بل سد عن مزمر الراعي مسامعه صونا لها ولنا من هذه اللعب

ومنها

فضحتمونا وصيرتم مساجدنا وهـي المصـونة كالحانات للعب
شوشتم الدين غيرتم محاسنه فعلتم فيه فعل النار في الحطب
صيرتم دينه هـزءا ومضحكـة لكل ذي ملة من قـوم كل نبي
هيهات والله ما في دينه عوج ولا بـملتـه نـقـد لمحتسـب
ولا دعانا إلي شيء نعـاب بـه ولا إلي فعلة تزري بذي حسب

ومنها

سألتكـم بالـذي لا تـكفـرون بـه والطائفـين ببيـت الله ذي الحجـب
هـل استـدار حوالـي أحـمـد خـلق فيما مضي من ذوي الاسلام والصحب
وقام فيهم مغنيهم كمثلكم للضرب بالدف والتزمير بالقصب

تا لله أنهم لو رجعوا إلي الحقيقة من دينهم لكان عملهم هذا السخري يتحول إلي عزة وجنونهم المشاهد وهزلهم المرئي إلي حكمة وعلم.

* * * * *

الفقراء والموالد

قال المرحوم علي مبارك باشا في خططه إن الموالد التي تعمل في السنة في مدينة القاهرة وضواحيها ما يقرب من الثمانين مولداً موزعة علي أشهر السنة هكذا

٧ في شهر شوال

٥ في شهر القعدة

١٠ في شهر ربيع أول

١ في شهر ربيع ثاني

١١ في شهر جماد أول

٧ في شهر جماد ثاني

١ في شهر رجب

٢٨ في شهر شعبان

منها موالد سلطانية كبيرة ومنها بسيطة قاصرة علي احياء ليال بسيطة ولقد بين رحمه الله أسماء أصحابها فمن أراد إحاطة العلم بها فليراجع الجزء الأول وجه ٩ من الخطط المشار إليها.

وبعض هذه الموالد يلزم زمنه وشهره العربي الذي يعمل فيه ولا يتحول شتاء وصيفاً فتارة يكون في الشتاء وأخري في الصيف هذا بخلاف ما يعمل منها في بلاد الأرياف مما لا يعلم عدده الا الله. وفي الموالد تكثر الحركة ويكثر الأخذ والعطاء والسلام والكلام لما يأتيها من الخلق الكثير من كافة البلدان كمولد النبي «صلي الله عليه وسلم» ومولد سيدنا الامام الحسين «رضي الله عنه» والسيدات والامامين والعفيفي والشيخ يونس بمصر وكبار الأولياء كالرفاعي والبيومي وغيرهما وفي الأرياف كمولد

السيد أحمد البدوي [1] وسيدي ابراهيم الدسوقي[2] فلذا يكثر فيها فعل الموبقات من سرقة وخطف وشرب المسكرات وتعاطي المخدرات إذ تجار المسكرات «السبيرتو» يجتهدون في عرض مسكراتهم ويحببون إليهم تعاطيها بأية واسطة كانت حتي أنهم يعلنون عنها في الجرائد السيارة[3] وبسبب الموالد يخترق العوام حدود الدين ويهددون حصونه بترهاتهم الكاذبة. يذكرون الله بألسنتهم ويسارقون النساء المارة النظرة بعد الأخري وأفواههم تقبل صغار الأحداث بينهم والمنشدون يجرئونهم علي أمرهم ويزيدونهم حماسة في ميلهم بنشيدهم (إذا امتنع بوس الخدود) (وكان عقلك فين) وبديهي أن أكثر من ثمانين في المئة من زوار الموالد مسوقون إليها بقوة الاعتقاد في أصحابها ولذا من عاقه عائق يمنعه عن الزيارة يتشاءم جدا من قطع عادته ويتوقع شرا. وهذا الاعتقاد القوي لو وجد له من يستطيع أن يستخدمه في طرق الخير كل سنة لكانت الموالد كلها بركات علي أهل القطر كافة.

ولكن من الأسف أن هذا الأعتقاد في نفوس العامة كله خيالات باطلة وأوهام ساقطة تجعلهم يرقبون الأولياء ويخشونهم أكثر مما يرقبون ويخشون الله .

(١) ولد سيدى أحمد البدوى في مدينة «فاس» بالمغرب سنة ٥٩٦ هجرية ولدم مصر من الحجاز سنة ٦٣٧ وأدركته الوفاة سنة ٦٧٥ بالغاً من لعمر ٧٩ سنة ولقد بلغ عدد زوار مولده سنة ١٩٠١ زهاء الثمانمائة ألف زائر.

(٢) وبلغ زوار مولد سيدي ابراهيم الدسوقى في السنة المذكورة مائتين وخمسين ألف زائراً.

(٣) وإليك صورة اعلان مهم.

"صورة الاعلان المشار إليه في الوجه السابق"

سيحتفل محل سبتية بار امام المحطة باحياء ليلة باهرة احتفالاً بمولد سيدى الأستاذ المتبولى وقد زين المحل بأنواع الزين وستقام الألعاب النارية من الساعة السابعة مساءً إلي الساعة الثانية عشرة وذلك مساء يوم الجمعة أي ليلة السبت، وقد احضرت مشروبات من أحسن نوع وعلى كل ستكون هذه الليلة من الطف الليالى وأبهجها . قسطندى نعوم.

ومثل هذه الأوهام التي ترسخ في الأذهان إلي هذا الحد تضر غالبا بالأخلاق وتبعدها عن أس المعتقد الصحيح. ونموذج الفضيلة والكمال الأدبي.

وهذه الموالد السلطانية التي هي مجتمع لأصناف الناس علي أزياء شتي ومقاصد متنوعة أكثرها مضر بالأخلاق والآداب بما لا يتصوره عقل عاقل. من خلط أوهام بحسن اعتقاد وفساد نية مع سذاجة أخلاق وطباع.

نسأل الله أن يبعث من يجدد للعامة دينهم ويثقف عقولهم ويحول بساطتهم ووساوسهم إلي عقائد حسنة تصلح بها أخلاقهم وآدابهم ففي ذلك فوز عظيم لهم ونجاح باهر إذا تحقق أمره. والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. وهو علي كل شيء قدير.

* * * * *

الأعياد والفقراء

أبهج الأيام وأجملها أيام الأعياد. إذ تكثر فيها أسباب الهناء والألفة وتروج فيها سوق المحبة والعشرة. بعد أداء فرض أكرام الرب، وسنة توثيق عري المودة بين أبناء الجنس. يخلد فيها المرء إلي الراحة بعد التعب وتروح فيها النفوس بعد عناء الأشغال ولا غرو فالأعياد يلبس فيها الجديد وتتزين فيها النفوس بثوب الزينة .

والأعياد عندنا معشر المصريين كثيرة جدا ولا يكاد يمر شهر من دون عيد عند طائفة من الطوائف المتكونه منها الأمة المصرية. ولكن لتعدد المذاهب المسيحية لا يعلم ابن طائفة بعيد ابن طائفة أخري. وكثيراً ما يعيد أحدهما الآخر فيسمع منه قوله أن العيد ليس بعيده. وكأنه يلزمه عند مصاحبته لصاحب أن يعلم مذهبه أيضاً حتي لا يقصر في معايدته أيان عيده ولهذا فالأعياد المسيحية تمر ولا يدري بها أغلب المسلمين حتي

وأغلب أبناء الطوائف المسيحية ولذا لا بهرجة للأعياد ولا تأثير لها مع كثرتها ولا تزاور ولا تواصل فيها وان علم شيء من واجبات الأعياد فأعياد المسلمين في مقدمتها. يذكر الصديق صديقه الغائب عنه والأخ أخاه النازح عن بلاده. والمرء أهله وذوي قرباه. فتتبادل رسائل الود والهناء حاملة أرق العواطف وأحر الأشواق وأخلص الأدعية وأذكي التحية. ولكن الزيارات الشخصية متعذرة عليهم جميعاً كأن كل فرد منهم في بلدة أو في مكان بعيد وليسوا عائشين في بلد واحد لاستبدالهم عوائدهم القديمة بعوائد وسنن الغربيين من ارسال رقاع الزيارة إشارة إلي المعايدة تقليداً للأفرنج في أعيادهم ولو كانت المعايدة علي هذا النسق أقل شعوراً بالواجب في أيام ما أصفي مسراتها وأبهج حفلاتها.

هذا قولنا بالأجمال عن الأعياد بين الأمة المصرية وأغلب ما ذكر معمول به بين الطبقتين العليا والوسطي. أما الفقراء المقصودون بالذات والذين هم تقريبا كل الأمة. فلا يعرفون شيئاً عن الأعياد ولذا لا يعبأون بها ولو كانت تمر عليهم تباعا فأغلبهم ينتهزون فرصتها للانغماس في الملذات والشهوات واعطاء النفس مشتهاها من أنواع المجون والانكباب علي المسكرات والمخدرات ومحلات الفحش والبغي والعقلاء منهم يسكنون مدة أيام الأعياد في «القرافات» بين الأموات وقليل منهم من يعرف الواجب منها فيتبادل مع أهله وأقاربه وصحبه عبارات المودة والاخاء مما يدعو إلي توفير أسباب الألفة. غير أن الدلائل دلت في هذه السنوات الأخيرة علي أن الأمة بدأت تدخل في دور اليقظة وتعلم فضل الأعياد الملية كما بدأت تعرف فضل الأعياد الوطنية فتحييها وتسر بها وتشترك العناصر المؤلفة منها الأمة المصرية باحتفال عيد سمو مولانا الخديو المعظم. مما يدل علي أن الأعياد في مستقبل الأيام ستظهر بمظهر الابهة والجلال وتأخذ معناها الصحيح المقصودة به. وما أحلاها إذا كانت الألفة موطدة والأمن معززاً والرغد ناشراً لواءه والسلام ضاربا أطنابه والجميع عائشين

في ظل الرحمة والعدالة مرتبطين بعري المحبة. كما يعيش الآن المصريون في ظل خديويهم المحبوب أطال الله عمره وأعلي في الخافقين بنوده وعزز كلمته.

* * * * *

سهر الفقراء

كان الفقراء لا يعرفون السهر قبلا الا في بعض ليالي الأفراح أو المآتم وكان جل سهرهم قبلا في بيوت جيرانهم بين نسائهم وأولادهم يقضون ساعات السهر بسماع قراءة القرآن الشريف أو بالافتكار في حل الحوازير أو سماع الحكايات والبحث في الحوازير هذه ملذ مفيد لأنها مدعاة لاحتكاك الفكر فيهم ومجلبة لتولد النباهة بينهم والحوازير كالألغاز والأحاجي تكون في الأكل أو اللبس وغير ذلك ولا ضرر منها عليهم إذا انتهت من غير كدر بل نفعها عظيم في صرف وقت السهرة في ضحك وسرور[1] أما الآن فقد تعود الفقراء السهر في القهاوي البلدية وتركوا عادتهم هذه لسماع القصص من القصاصين أو لسماع الرباب من الشعراء الكذابين الذين يقصون عليهم قصص زناتة[2] وسيرة بني هلال وقصة

(١) منها سؤال – ان كنت حدق ولبق وتعرف اللوق تفسر الجلد من جواً واللحم من فوق – جواب – (قونصة الفرخة)
ومنها سؤال – شيء مسكته من ايديه يحلق لي عينيه – جواب – (برقع)
ومنها سؤال – شيء قد النمنمة يجيب الخيل ملجمة – جواب «الكتابة»

(٢) غاية ما يعرف من مطالعة التاريخ عن جماعة (زنانة) أنهم كانوا قبيلة من أعظم قبائل أفريقية لبلوغ كتيبتها سبعمائة وخمسين فارساً. التجأ اليهم الأمير عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الأموى من ذبح السفاح فقابلوه بالترحاب ودخل مدينة أشبيلية وبقرطبة الرئيسان من طرف العباسية يتنازعان قيادة العسكر والسلطنة. فلا يبعد أن تكون قصة زنانة هذه وضعها القصاصون لإن في زمن هذين الرئيسين وقعت حرب ظفر أحدهما علي الآخر وبايعه أهل أسبانيا سنة ٧٥٦ للميلاد ونتج من ذلك الوقت انفصال الخلافة المغربية عن الخلافة المشرقية ببغداد. كما يعلم ذلك المطلع علي تاريخ الاسلام.

سيف بن ذي اليزن أو السلطان حسن[1] أو «دون چوان» [2] أو لسماع الأغاني التي يسمونها «الصهباء» في قهاوي الحشيش ومحال المسكرات أو الفرجة علي الرقص في مجالس الحناء والفجور علي أفظع أنواعه من الحركات المرذولة علي جملة معان. وهذه تزرع في نفوسهم التأثيرات السيئة وتوجد في أميالهم وأخلاقهم شيئاً كثيراً من المضار والمعايب وبالاجمال أن سهر الفقراء مضر بهم جالب الشقاء عليهم في معاشهم ومعادهم. إذ لا يخفي ما وراء السهر من فقدان القوة خصوصاً للفقراء الذين في حاجة إليها في صنائعهم وحرفهم. والذين لا يمكنهم النوم نهاراً بل ملزومين بالبكور علي العمل وليس مثلهم كمثل الأغنياء الذين ينطبق عليهم قول القائل.

ينام الفتي حتي إذا يومه إستوي   تنبه مثلوج الفؤاد مورما

* * * * *

(١) لا يبعد أن يكون السلطان حسن هذا هو الذي تولي سلطنة غرناطة سنة ١٤٦٥ ميلادية وقد كان معروفاً بالشجاعة وحب الوطن ولو رماه أهل غرناطة في زمانة بالتكبر والقسوة وتغلب حب جارية نصرانية علي عقله واختياره ولدها لان يكون خليفة دون ولده أبي عبد الله ابن السلطانة زوريا. ومن المأثور عن السلطان المذكور أن ملك مملكة نوارة والوارث لمملكة اراغون اللذين كان لهما التصرف في الممالك الثلاث طلب من السلطان حسن الجزية الذي كان والده يؤديها. فأبي قائلاً للسفراء. اذهبوا فقولوا لاسيادكم أن غرناطة ليس لديها ذهب بل حديد لاعدائها ثم دهم مدينة زهرة وأخذها سنة ١٤٨٠ م وبعدها التهبت نيران الحرب الداخلية إلي ما جاء في كتب التاريخ والسير والله أعلم.

(٢) غاية ما يعرف عن «دون جوان» أنه كان رجلاً قائداً نمساوياً حضر إلي حصن جوليطة بعد واقعة لبنته فأخذ تونس بلا ممانع ونأى عنها سنة ١٥٧٢ ميلادية ولعله هو المذكور في القصص التى تقرأها العامة.

الفقراء والمسكرات والمغيبات

لا يمنع الفقر والاعسار الفقير من تعاطي المسكرات بل الفقراء أكثر من الأغنياء في تعاطي الخمر ما دامت معامل الخمر كثيرة والشيطان قد أضل الفقراء بالمسكرات فقد استولي فيها عليهم الشر والمرض وهي معهم لا تذر شيئاً من الأمل يرجوه لهم مشفق عليهم. فلا تعجب يا من هداك الله واجتنبت الخمر من أشقائك في الانسانية وقد أوقعهم الشيطان في معاطب المسكرات والمغيبات يتعاطونها طوراً بحلاوة وطوراً بمرارة وأوجد فيهم تخيل انبساط في الأولي ولذة في الثانية فأصبحوا لا يبالون بما ينشأ عنهما من الأضرار ما داموا فيهما كليهما صريعي نشوات الغي يعطلون صفايا أعمارهم لأمر الشيطان وهو وليهم يحثهم ويشوقهم منه إلي ذلك يأمرهم بترك الجد واتباع الهزل فيصدعون بالأمر ويسيرون بأقدامهم في طريق أحزانهم أعوان الشيطان يرمون بصرهم نحو حانات الخمر ومعاملها الكثيرة في مخازن أعدت لهذا الغرض يسمونها «المعامل» داخلها (خبايا) براميل الالكول (الاسبرتو)والسائل فيها أما أحمر «وهو الكونياك» وأما أسود وهو (الروم) وأما بين ذلك وهو (الويسكي) يحلون مرارته بشيء قليل من السكر ويعطرون رائحته بشيء من الأرواح الطيبة يملأون الزجاجات الكبيرة منه بالثمن القليل فيشربها السكير الفقير بقليل من الدراهم متوهماً أنه يشرب خمرة طيبة مثل التي يشربها الأغنياء. فيحرق كبده ويذبل نضارة شبابه ويفسد دمه ودم سلالته ويسلب حياته بتقصير عمره واقلاق راحته بالسقم والأوصاب وجهل الفقير بفائدة الحياة ولذة الصحة مهد مع الشيطان لتلك المعامل مرشد إليها.

ومن مروجات باعة الخمر انتهاز الفرص لشهرة خمرتهم ومعاملهم. فما تم حرب الدولة واليونان الأخير. الا وتم عمل كونياك (أدهم باشا).

كما أنه ما تم حرب السودان الا وتم عمل ويسكي (كتشنر باشا). ووضعوه في القناني عليها صورة من ذكرنا. وهي نباهة وسياسة عقلية لجر المغنم الكثير من الفقير العسير حتي لا يكون محور كلام الشاربين الا علي الحرب ومهارة القائد الذي يشربون خمره. ولا يخفي اتساع باب السياسة سياسة حفظ الوقت عند الأوربيين وسياسة ضياع الوقت عند المصريين فمع الأخذ والعطاء في القول لا يقوم أحدهم الا وينطبق عليه قول القائل.

وكل شيء رآه ظنه قدحا ... وان رأي ظل شخص ظنه الساقي

في مثل هذا الطريق يتعاطي الفقراء المسكرات ولهم خلاف مشروب الخمر مشروب (البوظة) وهي كائنة أيضاً في محال حقيرة رطبة وكثيرة العدد تبلغ في مصر وحدها اثنتي عشرة بوظة أهمها ما كان في بولاق يشرب فيها الفقراء إلي ما يوصلهم إلي درجة السكر. أما المغيبات فمن أهمها الحشيش الذي له قهاوي عديدة والحشيش هو عصارة نباتية من نبات يسمي بالقنب الهندي وهو نوع من التيل تاريخه في المشرق قديم وقد ذكر المؤرخ الشهير المقريزي أن الذي اكتشف هذا النبات شيخ من الفقراء اسمه (حيدر) اكتشفه اتفاقا وأكل من أوراقه فحصل له نشاط وسرور فأخبر أصحابه به فأخذوا من أوراقه وأكلوا فحصل لهم من السرور والطرب ما حملهم علي كتمان أمره وصيانة سره عن باقي الفقراء. وقال لهم أن الله خصكم به ليذهب همومكم الكثيفة ويجلو أفكاركم وأمرهم بزرعه حول ضريحه بعد وفاته سنة ٣١٨ للهجرة. وكان قد أوصي أصحابه أن يوقفوا ظرفاء أهل خراسان وكبرائهم علي هذا النبات فاعلموهم بسره فاستعملوه وشاع أمر الحشيش في بلاد خراسان وفارس ثم حمل إلي العراق والشام ومصر. هذا غاية ما يعلم من أمر تاريخ الحشيش. والحشيش محرم شرعا بلا نزاع. ولقد افتي الإمام المزني تلميذ الامام الشافعي رحمه الله بحرمانه علي مذهب الامام الشافعي (رضي الله عنه).

ومما يذكر من نوادر الحشيش ما جاء في كتاب خلاصة تاريخ العرب من أن رجلاً يسمي حسن الصباح سافر كثيرا وتبحر في العلوم وعرف فرق الدين المحمدي أخذ في القرن الحادي عشر من الميلاد يعظ الناس ويحثهم علي اتباع مذهب جديد يغلب علي الظن أنه قريب من مذهب (الكرمانية) فتبعه خلق وجموع ملك بهم عدة قلاع وحصون واستوطن (حصن الموت) المشيد علي هضبة قرب قزوين فلقب بشيخ الجبل وأعلن العداوة للمسلمين والنصاري ورأي نفسه بمنزلة الاله الثاني الذي شغله الاقتصاص من الظالمين للمظلومين ونفذت أوامره فيمن معه. فكان إذا أمر بقتل أحد منهم بادر بالقاء نفسه من شاهق الجبل علي أسنة الرماح أو طعن بطعنة خنجر أو أمر بقتل أحد من غيرهم بادروا بقتله ولو وزيراً أو سلطاناً أو خليفة عباسياً. أخبر قومه أن شارب الحشيش يذوق جميع لذات الفردوس - فكانوا كالبهائم بسبب السكر بالحشيش مستعدين لارتكاب أكبر الجرائم - ولذا سماهم المؤرخون بالحشاشين لا بالحساسين أي القتالين كما زعم الافرنج - وأذن لهم في النهب فنهبوا وجالوا بأسلحتهم في الشام حتي بلغوا جبل لبنان وبنوا في الشام أماكن محصنة ونهبوا جميع القوافل التي تمر بأرضهم وقطعوا الطرق وملكوا في غرة القرن الثالث عشر من الميلاد كثيراً من المنازل في العراق والشام وحصوناً أخري قرب دمشق وحلب وتوطنوا من ابتداء سنة احدي وستين ومائة وألف ميلادية بالعراق الفارسي فبذل الملك شاه عزائمه في اعدامهم فلم يبالوا بذلك. بل يقال أن نظام الملك الذي كان الوزير الأعظم لهذا السلطان قتله أحدهم لشدة تعصبه وغيرته علي مذهبه الديني. وكان هؤلاء الحشاشون مع الفاطمية كحزب واحد لشدة مخاصماتهم وادمان مشاجرتهم مع أهل السنة[1]. ونحن نذكر ذلك وهو

(١) راجع وجه ١٣٨ من كتاب خلاصة تاريخ العرب للاستاذ (ستيد) المترجم بأمر المرحوم علي مبارك باشا.

غاية ما وصل إليه علمنا ومن شاء زيادة معرفة أصل الحشيش وتاريخه فليراجع ما كتبه المؤرخون الثقات يجد المجال فيها متسعاً والحشيش تأثيره يقرب من الأفيون بالنسبة لفعله السام ويزيد عليه أنه يحدث التسمم بالتدخين أو الاستنشاق فاذا دخنه شخص في السجاير أو في النرجيلة أو وجد في محال تدخينه فاستنشقه حصلت له أعراض التسمم بدرجات متفاوتة يعلمها الأطباء. كما يعلمها من شاهد الفقراء الحشاشين في مصر إذ هو المتصف بأنه المجلب للنحافة بالتدريج واصفرار الوجه والجسم وارتخاء الأجفان واحتقان العينين حتي لا تتحمل الضوء. كما أنه يكثر السعال وتنتهي حال شاربه بالبله وضياع الاحساس والعمر. فلذا قل جداً المعمرون من المدمنين علي تدخينه. والحشيش بين الفقراء علة متأصلة فيهم تذهب بنضارة شبيبتهم وبنشاطهم ونفع البلاد المرجو منهم. فلذا هو آفتهم وعلتهم الكبري التي دونها علة الخمر. واقدام الفقراء علي تعاطيه عما يجدونه فيه من الفرح والانشراح عند حلول الكدر والكآبة فتراهم يدلون بعضهم البعض بالاقدام علي استعماله في النراجيل حتي يزول ما بهم من الأسف والأسي وجهلهم بحرمانه سبب ثان لاقدامهم علي تعاطيه إذ في أمثالهم - أن الحشيش لا يمنع ولاية - ولو كان مخالفاً لما بيناه فيما تقدم الا أن الاقتداء والجهل العام بينهم المنتشر فيهم جعلهم عميا عن معرفة حقيقة ما يضر وما ينفع. وتكاد تكون النفس ميالة فيهم إلي تعاطيه بكمية تزيد كل يوم حتي يشتهروا علي زعمهم بامكان حل المشكلات وايجاد سرعة الخاطر بالتكلم بالألفاظ وبالنكت المضحكة التي تضيع الزمن بحيث لا يشعرون. ولقد جرب مفعول الحشيش كثيرون من العلماء وكتبوا عنه وحكموا بضرره وأنه

سبب مهم لافساد نظام الصحة وتعب الجسم والعقل والأمراض العاصية[1] زيادة عن الأمراض التي تبتلي بها الفقراء والحكومة المصرية تمنع دخوله وتفرض العقاب الشديد علي من يتجر به أو يسهل علي الناس تعاطيه في القهاوي ولكن جماعة الحشاشين لهم منتهي البراعة في جلبه من الخارج ومنتهي التفنن في تعاطيه من غير أن يشعر بهم أحداً[2]

(١) تناوب بعضهم مقداراً كبيراً من الحشيش بقصد التجربة العلمية ولما انقضى فعل الحشيش به وثاب إليه عقله وصل ما شعر به في أثناء فعله فقال

تمكنت الهواجس من نفسي ثم جعلت تحل قيودها وتنهال علي عقلي انهيال السيل وتتشكل في أشكال هندسية بالغة حد الاعجاز في أحكامها وألوانها وكانت هذه الأشكال تمر سراعاً أمام بصيرتي حتى يتعذر علي وصفها وصار رأسي اتوناً تنبعث النيران منه وتتفرع نجوماً لم أر في حياتي ما يشابهها في بهاء ألوانها وشدة أشراقها وضاع مني حكم الزمان فلم أدر أفي دقيقة حدثت تلك الحوادث أم في مئة عام واستولت علي الكآبة كأن قدمي غارتا في الأرض وغرقت فيها إلي الخناق لثقل ما علق في برجلي من الاثقال ثم وجدتني صرت خفيفاً كالاسفنج فأمسكت شجرة كانت بجانبي لكي لا أطير في الهواء ثم أخذ جسمي يرتعد كأن مجري كهربائيا جرى فيه وشعرت كأن طوقاً من الحديد طوق رأسي وضغطه حتى كاد يسحقه فاغمي على من شدة الألم. وحتى الساعة ترتعد فرائصي حينما أفكر بما كنت فيه من العذاب ولا يقاس رعبي حينئذ الا برعب من رمي من حالق أو ربط بالسلاسل ووضع تحته الحطب وأضرمت فيه النار وحسبت أن الحالة التي كنت فيها لا تنقضي مدى الدهر فاستولى علي القنوط ووددت أن اترك نفسي وافر منها لأنجو من هذا العذاب. ثم شعرت كأني أخذت أطول بسرعة حتى علوت فوق الأفق ونطح رأسي قبة السماء وانقطع فعل الحشيش فثاب الرجل إلي نفسه وعاد إلي بيته وبعد قليل خرج منه فعاوده فعل الحشيش وقال في ذلك. شعرت كأن جدران الكون انبسطت حولي وصدرت أصوات مطربة ازالت ما في نفسي من الغم والخوف وفتح أمامي فردوس النعيم وخضت في حبر من البهجة والحبور جسداً وعقلاً ونفساً وطفح الحب والسرور علي نفسي وبعد ساعات قليلة أخذت هذه المناظرة تقل وضوحاً وشعرت بجوع شديد فدخلت فندقاً أكلت فيه كل ما قدم لي من الطعام وأنا أحسبه ألذ ما ذقته في حياتي. ثم عدت إلي مخدعي وانطرحت إلي سريري فنمت الليل كله ونهضت في الصباح ولم يبق من تأثير الحشيش سوى اصفرار وجهي وتعب جسمي والأسف علي ما فات أ هـ. (مقتطف جزء ٩ سنة ١٨).

(٢) جاء في تقرير اللورد كرومر عن سنة ٩٠٠ م بلغ كل الحشيش الذي ضبطته مصلحة خفر السوحل في القطر المصري ١٣٥٥٥ كيلو غراماً والذي ضبطه البوليس ١٥١٦ كيلو غراماً والذي ضبط في الجمارك ٥٠٤ كيلو غراماً والمجموع ١٥٦٢٥ كيلو غراماً فهو يزيد عما ضبط سنة ١٨٩٩ م ٦٤٧٧ كليو غراماً ويزيد ٥ أطنان عما ضبط في أي سنة من السنين السابقة.

وهم يتعاطونه ضمن المعاجين والملبس وغيرها أو قد يذهبون لتدخينه في الجهات الغير مأهولة بالسكان مثل جهات مدافن الأموات البعيدة عن نظر رجال الضبط. وتري شاربي الحشيش مع هبوط قوتهم وارتخاء مفاصلهم يهرعون إلي محال شرب الحشيش. وأنت لو كلفت أحدهم بأمر من ورائه نفع له لا يقوي علي عمله ويعتذر بضعفه. وأكثر أقدام الفقراء لتعاطي هذه الأشياء المسممة لأجسامهم يكون في الأيام الأول من أيام الزواج. فأنهم يوصون بعضهم بعضاً بأخذ المقويات للجماع من مثل المعجون المسمي بدواء المسك والمعجون الهندي والرومي والجراوش والمنازيل الأخري التي منها الباهنج المستعمل في الهند والجانجاه التي تستعمل علي هيئة سجاير في بلاد كلكته والشيرة التي هي مادة راتنجية مختلطة مع أوراق الحشيش وغير ذلك من الأصناف العديدة.

هذا وكهول الفقراء يتعاطون الأفيون المحتوي علي المورفين الذي قد يحدث الهلاك لمناسبة أنه من المواد السمية. وعلي ذكر الأفيون يدعون من يتعاطونه منهم أنه غير مضر بسبب أنهم يتعاطونه من زمن مديد ولم يمسهم بسوء. اللهم الا ما يوجب الكيف وهم يحللونه ويحرمون الخمر ولعمر الحق أن الشيطان يزين لهم أعمالهم. ويزيدهم طغيانا حتي يسوقهم إلي اسبتالية المجاذيب ومن أوضح الأدلة علي ما يصيب الفقراء من كثرة الضرر لتعاطيهم المسكرات والمغيبات وما يجلب علي نفوسهم من التعاسة والويل وضروب الخسف وجهد البلاء ما نذكره من المخازي للعشاق الاحصائيين عن قوم يتعللون من فرائس الجهل الذي هم قائمون فيه رجالاً ونساءً علي أسوأ ما يتصوره الخيال من سوء الحال مما يستعدي بكاء الحجر الأصم نذكره نقلاً عن تقرير اسبتالية المجاذيب الذي عمله جناب المستر ورنوك مدير الاسبتالية المذكورة في سنة ١٩٠٠ م قال:

قد بلغ عدد الذين دخلوا الاسبتالية المذكورة من الذكور سنة ١٩٠٠

م ٤٥٤ وقد تبين أن ١٢٥ منهم جنوا من تعاطي الحشيش وان ٢٧٤ مريضاً خرجوا في السنة المحكي عنها مع أنهم لم يزالوا مرضي لايجاد محلات لمن هم في اصابات عظمي عنهم. وفي التقرير المذكور بين جناب المدير عدد الموجودين في الاسبتالية من المجانين لغاية أخر سنة ٩٩ م وبين أجناسهم وأديانهم فقال بعد أن شكي كثيراً من ضيق المحلات.

عدد المجانين وأجناسهم وأديانهم		عددهم بالنسبة للحرف	
الجنس	عدد	وظائف	عدد
مسلمون مصريون	٤١٣	علماء	٩
أتراك	١٤	كتبة	٣١
برابرة	١٧	معلمون وتلامذة	٢٥
سودانيون	٣٥	تجار	٢
أحباش	٣	عساكر بوليس وبراجمة وخفراء	١٥
هنود	١	نجار وجدادون ونقاشون	٨٩
مراكشيون	٣	بناؤون وسقاؤون وفحامون	٢٢
		خدم وساقة ومكارون	٢٩
أقباط	٢٥	مغنون وشحاذون وباعة	٥٩
أحباش قبط	٢٥	حرف مختلفة	١١٩
سوريون	١٩		
فرنسويون	٣		
طليانيون	٧		
مالطيون	١		
يونانيون	١٨		
انكليز	٢		
نمساويون	١		
سويسريون	١		
أرمن	٣١		
أسبانيول	٢		
يهود	١٩		

عددهم بالنسبة لأسباب الجنون			
عدد المجانين وأجناسهم وأديانهم			
	المجموع	ذكور	أناث
حشيش	٢٠٥	١٨٧	١٨
الكحول	١٦	١٢	٠٤
داء الزهري	٢٧	١٩	٠٨
داء السل	٠٢	...	٠٢
داء الصرع	٣٩	٢٩	١٠
قلة غذاء	١٣	٠٦	٠٧
حمى تيفوئيدية	٠٣	٠٢	٠١
اغماء	٢٤	١٥	٠٩
نزيف دموي	٠٧	٠٧	...
بالوراثة	٢٩	٢٤	٠٥
جنون دماغي	١٠	٠٧	٠٣
تقدم في السن	١٠	٠٣	٠٧
افراط في الجماع	٠٣	٠٣	...
حزن وفقر وشقاء	٣٤	٣١	٠٣
أسباب غير معلومة	١٨٨	١٢٩	٥٩

ثم بين في جدول نمرة ١ ونمرة ٦ من التقرير المحكي عنه الجهات الوارد منها المجانين من محافظات ومديريات فمن المحافظات مصر وهي الأهم ثم تليها الاسكندرية ومن المديريات مديرية الغربية تليها المنوفية فالدقهلية والشرقية فجرجا.

وبالجملة أن ضرر المسكرات بالحشيش والمغيبات علي الفقراء أشد

نكالا من الفقر بل هم بالحقيقة مرضي في عقولهم دائهم شهواتهم علتهم ضعف ارادتهم تنصرف قوتهم فيما يضر سفها وجهلا فهل للانسانية من نصير ينظر لهذا الأمر الخطير بعين الرأفة ويقوم بعمل نتيجته انتشال هؤلاء الفقراء من وهدة البلاء والفقر وما تلك الوهدة الا الجهل.

* * * * *

أوهام الفقراء وخرافاتهم

قال الحكيم اتركوا الجهالات فتحيوا وسيروا في طريق الفهم.

الأوهام هي صورة المرئيات أو المحسوسات أو المسموعات يكبر حجمها أو يصغر بقدر اشتغال الفكر لقبول الخرافات أو رفضها فهي إذا صورة مأخوذة عن حقيقة بواسطة منظار عدسته تكبر الأجسام أو تصغرها بعامل الميل الشخصي إلي تعظيم الأمور أو تحقيرها فعليه لا تعتري الأوهام الا ذوي العقول الضعيفة وقلما تعتري غيرهم الا إذا كان عندهم ضعف في الدماغ أو انحراف في الجهاز العصبي. فنستنتج مما تقدم أن الأوهام مرض عام منتشر مكروبه في كل مكان الا أن العاقل المتعلم يقوي عليه فيضعفه. والجاهل غير المتعلم لا يقوي عليه فيصبح مرتعاً له فيسرح فيه ويمرح. وأعظم شاهد علي ذلك ما هو مرئي بين العامة لشدة استعدادهم لقبول تأثير الأوهام والخرافات عليهم، وما ذلك الا لشدة انغماسهم في الجهالات. وأكثر أوهام العامة في المسائل الدينية وخرافاتهم في المسائل العمومية.

أما الأوهام الدينية فنقتصر علي ذكر شيء منها غير السابق ذكره في الفصول السالفة إذ عندهم الأوهام معتقد آخر لا يمكن امالتهم وزحزحتهم عنه. فمن ذلك الاعتقادات الوهمية فيهم في الحجب والاحراز الكثيرة التي يعتقدون فيها البركة والشفاء من الأمراض (والأرياح)

والآلام والأسقام. ويعتقدون فيها النفع حال الدخول علي الوزراء وأرباب الأقلام. ويعتقدون فيها أنها مجلبة المحبة والقبول. وأنها تمنع عنهم كيد الأشرار في سري الليل وسفر النهار، وتنفع من لدغة العقرب. والشعبان وهي كثيرة منها «حرز الغاسلة» «وحرز الأسقام» «وحرز الانذرون» «ودعاء عكاشه» «والمخلفات» «وحرز الجوشن» «والسبع عهود السليمانية» وغير ذلك.

هذا عدا عن أدعية كثيرة تتلي أو تكتب في اوعية أما بماء الورد أو الزعفران ثم يشربونها علي أمل الشفاء من أسقامهم وأوجاعهم. ومن قبيل أدعيتهم هذه دعاء أوله «لمخيثا وشمخيثا» الخ وهي وأيم الحق دعوات مجهولة لا تعرف لها حقيقة ولا أصل ولا معني في اللغة العربية الا عندهم فيزعمون أنها من الأسماء العظام والأدعية المستجابة. وهي لا تزيدهم الا بعدا من الله وقربا من الشيطان وربما كان في اعتقادهم فيها ما يخرجهم عن دائرة الايمان الصحيح. ومن أدعيتهم التي يتلونها سبع مرات بعد صلاة الصبح الدعاء الذي أوله (ياكشهشطليوش كشهشطليوش) أقمني وأقم صورتي وذاتي ووجهي عندك وعند خلقك آمين يا أرحم الراحمين.

وبخلاف الأدعية لهم عزائم تقرأ كثيراً بعضها يعزمون بها لوجع الضرس أو لتسكين الصداع وآلام الرأس وللصداع دواء آخر وهو أن الزعفران إذا حك بخل ولطخ به الصدغان يسكن الألم ولباقي آلام الجسم عزائم. ولهم جملة كتابات لطرد النمل وباقي الحشرات منها أنه لو كتب علي جريدة خضراء أو خوصة خضراء «أطلع الرب فنظر والعيوب فستر وللذنوب فغفر ارحل أيها النمل كما رحلت الرحمة عن شيوخ القري الذين باعوا الجفن باللقم نسيج منسج نمرا» يهرب النمل ولا يوجد له أثر. وجملة كتابات لمنع الحبل وما يكثر النسل منعنا عن الاتيان علي وصفة منها قلة

الأدب فيها. وللعامة خرافات واعتقادات جمة في نسبة الولاية لكل مشعوذ أو مشعوذة أو مهبول أو مهبولة. فلذا كثر المجاذيب في هذه الأيام من المدعين الولاية وكثر ما نسمعه كل يوم عن اتيان المبدع والمنكر التي تمس الدين وتشين الشرع الشريف لأن ظهور هؤلاء بهذه المظاهر أمر يدعو إلي فساد العقيدة وأفساد عقول الناشئة والعامة. هذا بخلاف ما في نفوس العامة من الاعتقادات حتي في الجنازات فأنهم أن أسرع حاملوها في المسير ظنوا في الميت الولاية فيفرحون ويؤمنون بكرامته ويقلبون له النعال ليبطيء في سيره.

وكثيراً مما تتجاوز أوهامهم الخرافية سن العقل حتي أنهم قد ينسبون الولاية إلي الحيوانات والنباتات فالجمل لو رأوه يرغي ويزبد ينسبونه للولاية ويلتمسون منه البركة. وشاهدنا علي ذلك جمل المحمل وأهم النباتات التي يعتقدون فيها الأشجار الضخمة والأجذاع النخرة فان هذه لو رأوها يقرأون لها الفاتحة ويقبلونها. مثال ذلك الشجرة التي (تدعي الشيخه خضره) في جامع الحنفي رحمه الله فان الزائر يجدهم يتبركون بها ويقبلونها فضلا عن ترك أثرهم عليها معلقاً بمسمار كما أن كل شجرة غليظة الساق تكون من مدة سبقت يطلقون عليها لقب «سيدي الأربعين» وأغلب هذه الأشجار من شجر الجميز[1] وكثيراً ما يقومون بعمل الموالد لهذه الأشجار[2] وكما يعتقدون بالأشجار يعتقدون بالأبواب الأثرية القدمية ويتبركون بها ويقرأون لها الفاتحة لو مروا عليها ولدينا شاهد

(١) فى خرافات المصريين القدماء انه كان في الصحراء شجرة جميز يسكنها ثالوث من معبوداتهم وتأوي إليه أرواح الناس بعد الموت. ولعل هذه الخرافة باقية بين العامة من خرافات المصريين القدماء حافظوا عليها وبقوا ينظرون إلي شجرة الجميز نظراً يمازجه الوقار الديني   أحمد بك كمال   مقتطف   جزء ١٢ سنة ٢٤.

(٢) فى دائرة المرحوم جلال باشا شجرة جميز يعمل لها مولد فى غرة مارس من كل سنة وأحياناً يحضر مولدها المجال المرحوم جلال باشا.

«بوابة المتولي» فان عليها رجلاً درويشاً يأخذ النذور وهو معلق راية بجانبه وفانوساً في النهار حتي إذا مر عليه السياح الأجانب يشاهدونه ويأخذون منه شاهد علي تأثير الأوهام الفاسدة في عقولنا والجهل المتسلط علي أفكار المسلمين في دينهم.

وفي جامع الأمام الحسين «رضي الله عنه» عمود من الرخام يشكو إلي الله من فساد اعتقاد الملتمسين له المتبركين به وهذا العمود يدعي العامة وبعض من الخاصة بأن السيد البدوي يحضر إليه في كل ليلة «حضرة»

وللعامة وهم واعتقاد في بئر «غير البئر التي في جامع أولاد عنان» في صحن جامع السلطان الحنفي وأنها موصلة إلي بئر زمزم ويروون رواية كذبها ظاهر من أول مرة وهو أن رجلا كان مرة في مكة المشرفة يشرب من بئر زمزم فسقطت فيها الطاسة التي كان يتناول الماء بها فلما حضر إلي مصر وجدها في هذه البئر.

هذا بعض من أوهام العامة الدينية الذين هم كل الأمة تقريباً ذكرناها ولا نرجو الا الاجتهاد في صرف أفكارهم عنها فقد كفاهم باقي حاضرهم الشاهد المعيب وقد ضجت الأرض إلي بارئها مما ينتهكون به حرمات الله وبه يجحدون «وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون»

. أما خرافاتهم علي العموم فشيء لا يعد ولا يحصي. ومن أهمها اعتقادهم في العرافين بأن في إمكانهم قتل الانسان أو قلب صورته الأدمية إلي أية صورة أرادوها بكتاباتهم السحرية وبتكليفهم ارهاط «الجن» عمل ما يريدون عمله لأنهم في عرفهم مسخرون لقضاء أغراضهم وهم في استطاعتهم «ربط» الرجل عن امرأته حتي إزالة أعضاء تناسله.

وتعويق المرأة عن الحبل وفك المشاهرة منها أو إغاظة زوجها ان لم يكن طوع إرادتها أو كان في عزمه التزوج عليها. وكل ذلك بما يسمونه «الشبشبة وحلب النجوم»(١) ومن خرافاتهم عدم غسل الملابس في يوم الأربعاء آخر الشهر أو تفصيل الملابس يوم الجمعة ولهم في الأحلام تفاسير كثيرة يتخوفون منها أو يفرحون وللكابوس تأثير مخيف جداً علي أذهانهم صغيرهم وكبيرهم وهم يعتقدون بأنه روح شيطاني يفاجئ النائم ويسومه أشد العذاب فيتقونه بالأحراز التي تقدم الكلام عليها، أو بعمل الاحجبة من أولئك المتخذين الشعوذة والتدجيل حرفة لهم للتحصيل والاكتساب(٢) وعندهم خرافة أن في كل بيت ثعباناً يسمونه «عامر البيت» ولذا هم لا يؤذونه لو نظروه حتي لا يؤذيهم بل يحضرون له أحد «الحواة» لاخراجه(٣). ولهم اعتقادات جمة في الطير من حمام وغراب وغير ذلك من باقي الأشياء التي ضربنا صفحاً عنها خوف الاطالة المملة هذا بعض من أوهام العامة وخرافاتهم علي العموم التي يأخذونها من صور المرئيات أو المحسوسات أو المسموعات التي تكبر فيهم بقدر ميلهم الشخصي وعلي قدر عقولهم الضعيفة. ذكرناها للقارى مثالاً ليستعيذ من شرها ويسأل الله البعد عنها أنه أكرم مسأول.

* * * * *

الزار والفقراء

لم يكتف الزمن بما حاق بالمصريين من المصائب والأخطار التي تنازعهم ويتنازعونها بل أخذ يجرهم كل يوم إلي هوة التأخر والاضمحلال

(١) انظر الكتاب الثانى من طب الركة وجة ٦.

(٢) أن شئت تعلم أن حقيقته وعوارضه وقول العلماء المحققين عنه راجع وجه ٢٢٨ من السنة الثامنة عشر من المقتطف الأغر

(٣) الحواة قوم يحملون الأجربة علي أكتافهم وينادون في الشوارع والازقة بقولهم يا رفاعى مدد غرضهم بذلك التعيش بمسك الثعابين ولهم مهارة وحيل في القبض عليها.

مستعيناً بالنساء علي قضاء لبانته بابتداعه كل يوم بدعة جديدة تسقط بها الأمة المصرية في أعين الأمم الحية الشاعرة بواجباتها.

فمن أهم هذه البدع بدعة الزار الذي هو عبارة عن جمعية نسائية تشترك الجارية والسيدة فيها ثم يأخذن بدق الطبول دقات مزعجة ويتبادلن فيه الرقص والتمايل والبكاء الهائل. والركوع والسجود وضرب الخدود وحل الشعور وقرع الصدور في وسط تتلي فيه الأكاذيب علي الله ورجاله الصالحين فكم من ولي بعد حياته وصلاحه أتهم بالكفر والشيطنة ونسبت إليه كرامات لا يرضاها ومعجزات يأباها من قوم يدعون بأن الشياطين يركبوهم متخذين هيئة ملك أو سلطان أو جواري وغلمان مجرد حيل وترهات دونها حيل أبليس لقضاء شهوات رديئة لا يمكنهم نوالها الا بهذا الكذب والافتراء حتي أن الزار أودي بالعائلات إلي حضيض المسكنة والهوان. والزار مع أنه عام بين المصريين كافة الا أنه يكاد يكون خاصا بالمسلمين وأسبابه الحقيقة عدم التربية وتهذيب الأخلاق بفهم الدين كما مر.

والا فضعف التربية وعدم تهذيب الأخلاق يزري بالمرء إلي أكثر من ذلك وقلة فهم المعيشة الزوجية من أهم مسببات الزار. والمتأمل يعلم أن أسباب الزار هو سيطرة الرجل علي المرأة ومعاملته لها بالقسوة والحدة والغضب فتعمد الزوجة إلي الانتقام من زوجها بواسطة تعللها بالزار وبأن عليها «ريحا» من الجن لا تستريح منه الا بزيارة الأولياء.

ومكر النساء وحيلهم أكبر من أن يدركه الرجال وجهل الأهل بالتوفيق بين الزوجين يسعد الزوجة علي توفير مبتغاها في هذا الطريق السافل.

ولذا تأخذ من أدعت بالزار بالاستعانة بأهليها في أمرها حتي إذا

اكتسبت مساعدتهم ضد زوجها فأما أن تجري مشتهاها من الزار في بيتها أو في الأماكن المعدة له. وكم من عائلة أتاها الزار وهي مطمئنة فخرب بناؤها وجعلها في أسفل الدرجات والزار له نساء مخصوصات تدعي واحدتهن «بالكدية» وله أعوان من النادبات، وله مطالب من عال ودون فتذهب فيه الأموال جزافاً واسرافاً، ولو كان في شيء تافه من مثل دجاجة بيضاء ونعجة سوداء تأخذ دماؤها في اناء وتدلك به المفاصل وله مرقي يرقي به صاحب الزار حتي يجاوب «العفريت» علي حقيقة حالته ومقصده وهؤلاء «العفاريت» لهم أسماء كثيرة بعضها أسماء تشبه الأسماء التركية أو العربية وبعضها غير مفهوم لها معني مطلقاً وأهم محلات الزار في مصر وأغلب جهاته المساجد ومقامات الأولياء الذين لا يرضون بهذا العمل ويغضبون منه.

وقد شاهدنا الزار في مساجد كثيرة ومقامات عديدة في أغلب أيام الجمع ساعة صلاة الجمعة وهي في «جامع البيدق» جهة العشماوي «والشيخ يونس» «وأبو السعود» «والشيخ نجم الدين» «وسيدي عوف»

ولا يقتصر الحال فقط علي ذلك فان له نقطاً كثيرة أيضاً كجهات السبتية وسوق العصر ومقابر باب النصر كل هذه الجهات هي مأوي الزار وعشه الذي يبيض ويفرخ فيه يجتمع فيها الرجال والنساء مختلطين بدعوي الزار فيضربون علي الدفوف ويدقون علي كؤوس النحاس وينفخون في عيدان الغاب حتي أنه من كثرة هذا الاختلاط لا يصعب علي الرجل لو شاء أن يهوي إلي أذن المرأة فيوحي إليها ما يوحي بلا حياء من أمام أو شيخ مقام فان هذا لا يهمه شيئاً سوي أخذ الرسم وهو قرش

هذا والزار محظور عمله شرعا بفتوي صدرت من مشيخة الجامع الأزهر ومحظور عمله قانوناً بأمر من الحكومة فأنها فرضت العقاب علي من يقدم عليه. ولكنه يعمل في الأماكن المتقدم ذكرها إلي الآن وليس

هناك من يواخذ عنه من رجال الأوقاف ولا من يخبر عنه الحكومة من مشايخ الحواري لأن الأولين لهم منه مغنم والآخرين يعود منهم عليهم وناهيك بحقيقة مشايخ الحواري فأنهم من الرجال المفقودي الذمة المتغافلين عن عملهم بالاستقامة وحقهم ذلك ما داموا مسخرين لقضاء أغراض لا ينالون عليها أجرة فيلتزمون أخذ الرشوة والتغافل عما قضته الشريعة وقرره القانون.

* * * * *

الفقراء المرضي

«يقول الله أن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي» فالسعي بدرء ما يعتري أخواننا من المرض مأمور به في ديننا عدا ما في سجية المرء العاقل من الحنان والشفقة علي الفقراء المرضي دون أن يذكره مذكر ليشعر بالألم فيدرأه بالوسائط الممكنة. وما الانسانية الا شعور بمحبة تسكن القلب واللب وتندمج في فطرة الانسان نحو اخوانه وبني جلدته. وما دامت هذه العاطفة عاطفة حنان شريفة وحمية سامية تأخذ بالمرء لمشاطرته بني طينته آلامهم ومصائبهم وتحدو به إلي السعي في مؤاساتهم. وما دام الواجب علي العاقل أن يسدي من هم أقل منه ثروة وجاها صحة وعقلاً ويمنحهم ما يتأتي علي يده من الخير ويوفق بين نسبة سعادة حاله وسعادة أحوالهم لعلمه أن المرء كثير باخيه قليل بغيره. فليذكر الانسان حينما يري فقيراً مريضاً أنه أحد أخوته وأن السعي في مؤاساته ومداواته واجب عليه وأنه متي أسدي إليه خيراً فقد اتصف بصفة العقلاء الذين يجرون علي قول قائل مشهور.

«كل رجل في الدنيا نسيب لغيره غير غريب عنه لعلمه أنه رجل»

وهؤلاء فقراء المصريين كافة والمسلمين خاصة محتاجون إلي ما يدرأ

عنهم المرض بواسطة انشاء المستشفيات والملاجئ ويقيهم ما هم معرضون له بفضل جماعة المتطببين الجهلاء الذين أن أرادوا أن يفيدوا اضروا «والمريض أجهل من المتطبب طبعا» بواسطة الحبوب التي يعطونها وكثيراً ما يكون فيه الزئبق فتزيد المرض وتؤدي إلي الموت.

علم الله أن أهم حاجة لهم المستشفيات أولاً والتعليم ثانياً. وما التعليم ازاء المستشفيات بشيء يذكر لما في المستشفيات من شفاء الجسم وتقوية الأبدان والجسم بعد شفائه من أمراضه يقبل العلم ويتلقي الصنائع ويستعد للحرف لأنه يكون سالماً وفيه طاقة الادراك وقوم العزم وقد قيل أن العقل السليم في الجسم السليم وما أصح هذا القول.

لا يرضي العقلاء بمرض الفقراء لأنهم كل الأمة وكيانها أفلا يأسفون إذ يرونهم مرضي الأجسام متحملين كل أنواع المرض بين برص ومجذومين وعرج ومشلولين ومقعدين وخرس وصم ومسلولين.

أيظن المصريون أن مستشفيات الحكومة تكفي لمرضي الأمة وتفي بحاجاتهم. وأقل طائفة من نزلاء البلاد قد تعاونت وشادت لطائفتها المستشفيات والملاجئ أو لا يأسفون إذ يرون فقراءهم يلقونهم في طريقهم أو في نزهتهم ويحومون عليهم طالبين الدرهم وحقهم أن يطلبوا الدواء لو عقلوا لأن الناظر إليهم يقرأ علي وجوههم علامات المرض في قلوبهم والرمد في عيونهم. أم يظن عقلاء المصريين أن الأطباء منهم يقبلون تطبيب الفقراء مجاناً بناء علي ما هو مكتوب علي باب كل منهم «للفقراء مجاناً» تالله لا طبيب منهم يطبب فقيراً بغير أجرة ولا رأينا في حياتنا من واحد منهم فعل ذلك غير المرحوم الدكتور دري باشا الذي كان مستوصفه شبه مستشفي مجاني للفقراء المنهوكين بالأمراض والعاهات وكان يجتمع فيه من كل الطوائف ذكوراً واناثاً فلما توفاه الله انقطع عن الفقراء كل هذا الخير العميم.

وأصبحت مستشفيات الأجانب فيها ملاذ المرضي وعياذ ذوي الأدواء ولولاها لعدم الفقراء حياتهم وساء مصيرهم. وكفانا تحدثنا بمبراتهم أنهم يلتقطون أولاد الفقراء وقد نبذهم أهلوهم نبذ النواة فيربونهم ويعلمونهم حتي يبلغوا أشدهم ويقووا علي تحصيل معايشهم لقد كثر اللوم وتعدد المنددون وكل يوم نسمع الأجانب يعيروننا بكثرة مرضانا وقلة اهتمامنا بانشاء مستشفي لهم حتي أصبحت أحوالنا تحزن العقلاء وتبكي المؤمنين.

ولكي يكون القارئ علي علم بحالة أمتنا المصرية نأتي علي ذكر بعض ماثر الأجانب ليتبين له حالتهم الخيرية لقاء حالتنا التعيسة المحزنة فنقول.

قامت النزالة الفرنساوية في العاصمة بعمل مستشفي خاص لها العباسية صرفت عليه ما ينيف علي المئة والستين ألف فرنك وساعدت الحكومة الفرنساوية القائمين بأمره بمبلغ ٣٠ ألف فرنك فهل لنا شيء من ذلك نحن المصريين وعددنا زهاء التسعة ملايين والفرنساويين عندنا لا يبلغون الخمسة عشر ألفاً أفلا نخجل وننتحب علي سوء حالتنا وطول تقاعدنا وتقصيرنا.

وفي عزم الايطاليين التشبه بالفرنسويين في بناء مستشفي لهم أيضاً وقدروا المبلغ اللازم لذلك بمئتي ألف فرنك وقد تبرع لهذا العمل الخيري جلالة ملكهم بمبلغ ٥٠ ألف فرنك والخواجات روفائيل وفيلكس سوارس بمبلغ ١٨٠٠ فرنك ومحل كوجيني بمبلغ ١٥٠٠ فرنك وتبرع باقي أغنياء الطليان بالمعدات والأدوات اللازمة لذلك. هذا بخلاف ما تنفقه جمعيتهم في هذه العاصمة فأنها تنفق كل سنة علي فقرائها زهاء ٨٠ ألف فرنك وتشاركها في ذلك حكومتها بخمسة عشر ألف فرنك سنوياً. وكفاهم فخراً أنهم المؤسسون لمستشفي داء

الكلب[1] فأين عملنا نحن التسعة ملايين من عملهم وهم أقل من الخمسة وعشرين ألفاً. وفي عزم النمساويين بناء ملجأ لليتامي بالاسكندرية بدل الدار المستأجرة الآن لهذه الغاية فأين أيتامنا من أيتامهم.

وفي الإسكندرية ملجأ ردولف العظيم تحت رئاسة المستر كرفر يطعم فيه الفقير المسكين وقد ظهر من تقريره عام ١٩٠٠ أن ادارة هذا الملجأ آوت في العام المذكور ٥٣٨٣ نفساً أو يزيدون وفي قليوب ملجأ لليتامي أيضاً وهو تابع للارسالية الهولاندية فيه علي ما بلغنا نحو العشرة من اليتامي ولليونان مستشفي بالاسكندرية وآخر من تبرع له من اليونان المسيو جورج يوانيدس فأنه تبرع بمبلغ خمسة مئة جنيه عن روح قرينته. ولما توفي المسيو اكيلوبولو التاجر اليوناني الشهير بمصر وقرئت وصيته في دار القنصلية اليونانية بالاسكندرية وجد أنه أوصي بمبلغ ٩٠٠٠ جنيه لانشاء مستشفي لبني جنسه في القاهرة.

هذا ومن الملاجئ العظيمة في مصر ملجأ العجزة بشبرا والفجالة تقام له سوق كل سنة تدعي بسوق الشفقة وتباع فيه الأدوات والهدايا النفيسة[2] وفي أصوان ملجأ لمبعوثي أخواننا المسيحيين من الكاثوليك

---

(١) بلغ عدد الذين جاءوا مستشفي الكلب في هذه العاصمة سنة ٩٠٠ م ١٦٠ فصرف منهم ٣٠ إذ تبين بعد مجيئهم أن الكلاب التي عقرتهم غير كلبة وعولج الباقون فبلغوا ١٠٩ من الوطنيين (تامل) و١٢ من اليونان و٧ من الايطاليين و٥ من الفرنساويين و٣ من الانكليز و٢ من الترك و١ من الألمان و ١ من البلجكيين وقد جاء أكثرهم من مديريتي الشرقية والقليوبية وجاء كثيرون من بلاد أخري وخصوصاً من سورية «بيروت» والبلدان القريبة. هذا وقد تيسر للمستشفى أن يحسن أثاثه ويتقن عدده وآلاته في سنته الثانية بالمال الذي تكرمت به عليه الحكومة المصرية وقدره ٢٥٠ جنيهاً والجمعية الخيرية الايطالية بهمة جناب مديرو الدكتور تونين المشهور في معالجة داء الكلب.

(٢) بلغ ما جمع في هذه السوق سنة ١٩٠١م ١٨٠٠٠ ألف فرنك بخلاف ما جمع من إحياء ليلة خيرية في الأوبرا الخديوية.

بذلوا جهدهم في انشائه للأيتام وفيه الآن ما يقرب من المئة وخمسة وعشرين طالباً و٦٠ طالبة. وللشركة الانكليزية التي نالت عمل الخزان ملجأ للمرضي تعالج فيه عمالها وفيه ما يقرب من العدد الأول من أبناء العبيد. وقد قررت اللجنة التي تألفت لاقامة أثر للمرحومة اللادي كرومر أن يفتح ملجأ للقطاء في جهة القصر العيني وسيسع هذا الملجأ نحو ستين لقيطاً والخلاصة أنه لا ينقضي شهر الا ونسمع لهم مآثر حسنة تجعلنا نغبطهم ونتمني لنا بعض ما لهم من الملاجىء الخيرية.

قال عمرو بن العاص «رضي الله عنه» أن أهل مصر أعقل الناس صغاراً وارحمهم كباراً» فلم لا نجعل لهذه الشهادة بيننا أثراً ونسمع أنين المرضي الفقراء ونخفف عنهم آلامهم في ضيقهم وشدتهم وخصوصاً التي ينالنا منها ضرر بالعدوي ولنا بمحوها واستئصال شأفتها حاجة ماسة.

لقد سئمت النفوس من تكرار طلب الاعانات علي الدوام ومن عهد قريب فتحت اكتتابات كثيرة حتي أن البعض كان يتبرع بثمن كتب ألفها وما يجمع من ثمنها يقدمه اعانة. فلم لا ندع قول عمرو يتحقق فينا نحن المصريين فنشمر عن ساعد الجد وتقوم كل طائفة منا بعمل مستشفي لفقرائها خاص بها كما قال جناب اللورد كرومر في فندق «سافوي» حينما اجتمع بعض الانكليز والأميركان للمداولة في بناء مستشفي لنزلاء الأمتين «أن المستشفي الأوربي في العباسية سوف يبطل لأن كل أمة صارت لها موضوع خاص لنزلائها في مصر» وحتي لا يقال أنه لو ترك الأفرنج أهل مصر لا يبقي لهم صحة ولا تجد فيهم عافية ولو كانوا كثيرين.

* * * * *

مآتم الفقراء

قال علي «كرم الله وجهه» أن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب

أن ما يجري في مآتم الأغنياء يجري عند الفقراء مثله أو يزيد مما لا يرضي به عاقل ولا يجوزه شرع ولا تأمر به عدالة فان الفقراء يفوقون الأغنياء في أحزانهم لكثرة أيامها وتعدد أوقاتها ويكاد «يوم الخميس» عند الفقراء ينعت بيوم الأحزان. إذ تجول فيه النساء من حي إلي حي نهاراً ويجاريهن الرجال في ذلك ليلاً لحضور المآتم بعضهم عند بعض فتري النساء مبكرات بكور الزاجر للتعزية قاطعات المسافات المترامية مشيا علي الأقدام أو ركوباً علي عربات النقل متزاحمات متسابقات لادراك هذه الغاية ومنطلقة من الجمالية إلي بولاق أو إلي النصرية من الأحياء الوطنية ولا يرجعن إلي منازلهن حيث تركن أطفالهن الا عند العصر أو بعده. وليس لهذه العادة أثر عند نساء بقية الطوائف.

أما حديثهن وهن ذاهبات إلي المآتم فمقصور علي مدح النادبات وتشويق بعضهن بعضاً إلي ما سوف يسمعنه من ندبهن الذي يثير الشجون ويحدر صيب الدمع من سماء العيون ويتمادين في تفضيل احدي النوادب علي الأخري حتي يفضي بهن الأمر إلي الخصام والمشاحنة وقد يأخذ من بعضهن ذهول ينسين عنده أنهن ماشيات علي قارعة الطريق فتزاح عنهن الستور ويظهر ما في أعناقهن من المناديل المطرزة بالسواد علاوة علي ما في أيديهن من المناديل التي يغطين بها وجوههن عند ذرف الدموع وقتما تلقي علي مسامعهن النوادب الأدوار الشجية الباعثة علي النوح والانتحاب والداعية إلي الحزن والاكتئاب ومن غريب أمر المعددات أنهن

بعرفن فقيد كل حاضرة في المأتم فيعددن أوصافه علي حدة ويشغلن بذلك وقتاً طويلاً. ولا عجب فان هذا العلم الذي تحذقه النادبات فيه من متنوع أساليب التأبين والرثاء. ما تعجز عنه خواطر الأدباء وقرائح الشعراء. فلذا لا يصعب عليهن أن يقلن ما يؤثر في نفوس السامعات ما دمن قادرات أن يبكين الحاضرات علي الشيخ الهرم كما علي الفتي اليافع ولكن من العجيب أنهن يبكين من حولهن وهن خاليات من الشجو فلا تسمع لهن زفرة ولا تري في عيونهن دمعة والنساء الفقيرات يفقن الغنيات في الحزن إذ ليس لهن رادع من أهل ولا جيرة يعلمون ضرر ذلك بهن صحيا فيسرفن في لطم خدودهن والضرب بأرجلهن أمام رجالهن علي المقابر ولو فوق الموتي الذي يبكينهم تحت التراب، والفقراء يتكبدون مع شدة فاقتهم نفقات طائلة في مآتمهم قياماً بما يحيون من الليالي وما يعدون من المآكل مدة الأربعين يوماً ولهم في التعزية أمور مغايرة للسنة فيعزون الأب الذي فجع بابنته بما يقرب من التهنئة بوفاتها كقولهم «ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرمات» ومن يتأمل ير أن هذه التهنئة في صورة التعزية كانت معروفة في الجاهلية الأولي عندما كانوا يئدون البنات أي يدفنونهن حيات والغريب أن المشايخ وبعض العلماء يعزون أصحابهم ومعارفهم بمثل القول المتقدم ذكره قولاً وكتابة ولعل هذا سبب كره الآباء للبنات. أما زيارة القبور المقصود منها التذكر بمن سلف والترحيم عليهم والتصدق علي المساكين استراحاما لهم. فهو عند الفقراء جار علي وجه نخجل من ذكره إذ أنهم يقيمون ليلاً ونهاراً علي المقابر طابخين وآكلين وشاربين وقد احضروا معهم الأولاد والنساء والفرش والأغطية علي عربات النقل أو علي ظهور الحيوانات وفي ذلك دليل علي أن لا احترام عندهم ولا أكرام لمدافن الموتي وكفاها امتهانا أنهم جعلوها أشبه بفنادق السياح

يجلسون فيها فتمثل لهم أنواع ألعاب «الحواة» وتعرض علي أذهانهم أقوال «الادبتية»

والمقابر في القطر المصري كثيرة لا تكاد تخلو منها قرية حقيرة وفي القاهرة وحدها ست «قرافات» لدفن الموتي وكلها خارج المدينة وهي قرافة «السيدة والامام. وباب الوزير والمجاورين، وقايتباي، وباب النصر» وجميعها أعدت منذ أيام الفتح لدفن أموات المسلمين وأوقفت علي ذلك بحيث لا يصح فيها تصرف بيع ولا شراء فيذهب إليها الأهالي في أيام معينة من السنة مثل أيام العيدين ويوم أول جمعة من رجب ويوم نصف شعبان وأيام الجمع علي مدار السنة لمن توفي له أهل أو أقارب ولم يحل عليهم الحول، يتعهدها المرء فيراها مأوي لجماهير كثيرة من أنحاء العاصمة وغيرها من المدن من جميع طبقات الشعب الاسلامي علي اختلاق الهيئات والأزياء من غني وفقير وغرض الجميع زيارة قبور موتاهم وحبذا هذه الزيارة لو كانت وفق الشرع الشريف أو لو كانت مجردة عما نهي الشرع عنه وعمل الكل بما يعود علي الأموات بالبر والاحسان ذاكرين ما قاله ذلك الفيلسوف الحكيم العربي.

خفف الوطء ما أظن أديم ... الأرض الا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وأن قدم العهد ... هوان الآباء والأجداد
سران أسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالا علي رفات العباد
رب لحد قد صار لحدا مراراً ... ضاحكاً من تزاحم الأضداد

نعم حبذا ذلك لو خلا من معايب اللهو واللعب والقذف بأقبح الشتائم وارذل الاشارات. حتي أن «القرافات» تكاد تكون مجتمعا يغشاه

لفيف الشحاذين أصحاب الأمراض والعاهات. ومنزلاً لعصابات المتشردين واللصوص كل يحتال علي أخيه لاجتناء الصدقة منه وهو لا يستحقها ولا مندوحة لنا عن ذكر شيء من أعمال الحفارين «التربية» وهم الذين يحفرون أجداث الموتي ويوارونهم التراب وقد ورثوا هذه الحرفة عن آبائهم وأجدادهم ولهذه الطائفة أعمال مرذولة وأمور تجلب السخط عليهم من جميع طبقات الأمة إذ هم الناهبون السالبون الذي يتلقفون ما تصل إليه أيديهم ويوزعونه سهاماً بعضهم علي بعض بعد أن يريشوا في قلوب منكسري القلوب من ذوي الميت سهاماً لا تشفي جراحها إلي يوم العرض. فان الجنازة لا تصل إليهم محمولة علي أعناق الرجال مشيعة بدماء العيون ووراءها النساء يبكين وينحن بما تتفطر له الأكباد ويذوب منه قلب الجماد إلا يبدأ هؤلاء التربية بطلب أجرتهم بالمنازعة والخصام بما يخمد جذوة الحزن علي الميت «ولا يخمد جذوة الحزن علي الميت الا شيء أصعب منه» ويحل محلها الغضب أولا ثم الأسف ثانياً ثم الحزن مع الغيظ علي ما ينال الأعراض من الشتائم والقذف والكلام البذئ لأنهم إذ لا يرضون بالقليل ولا بالجزيل من الأجرة يضجون ويجلبون ويصيحون ويصخبون ويوغلون في عرض ما عندهم من بضاعة سفالة الأخلاق وحطة الشأن فيقع ولي أمر الميت بين مصيبتين مصيبة أولئك الطماعين وهي شديدة علي النفس الأبية ومصيبة الخجل من أخوانه وأصدقائه المشيعين معه وهي أشد وقعاً في مثل هذا الحال. وهو لا يرضيهم الا إذا أفرغ جيوبه أمامهم. فاذا تيقنوا أن لا سبيل إلي الزيادة رضوا بما أخذوه ولهم عليه الفضل. وليس لهؤلاء أجرة معروفة ولا جعل معين فكلما رأوا الخجل يزداد ظهوراً علي وجه صاحب الشأن زادوا قحة وجرأة وعلي قدر ما يزيد لهم الأجرة ليترضاهم ينفرون منه كأنه لم يدفع لهم شيئا. وقد تدفعهم الجرأة والقحة في أكثر الأحيان إلي أن يمسوا كرامة الميت بالشتيمة والقذف. تلك حال «التربية» عند

وقوفهم علي قبور الأموات وهو الموقف الذي يجب أن يكون منزهاً عن كل خصام علي حطام الدنيا ، وهي حال قد شاهدناها وعرضت لنا في هذه السنة ثلاث مرات وكثيرون غيرنا يشاهدون مثلها كل يوم بل كل ساعة ما دام «الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب»

وفي الظن أنه لو كان المقام مقام شكوي وأذنت الحالة للناس في رفع دعاو واختصام إلي البوليس والنيابات والمحاكم لاقتضي لنا عشرة أمثال ما عندنا من رجال البوليس والمحاكم لفصل تلك القضايا والحكم فيها. ولكن المقام مقام احترام وفي الوجوه بقية حياة وخجل تحول دون شكوي ولي ميت رجلا دفن له ميته. ولما كان الأمر علي ما ذكر وكل يوم تشعر الأمة بأجمعها بهذا الألم ولاسيما الفقراء الذين يتجرعون أكثر من غيرهم غصص التقريع والتنغيص ويهانون علي مسمع من نسائهم وأولادهم وأصدقائهم آن للأمة بأجمعها أن تطالب رجال الحكومة بالضرب علي أيدي اولئك الطغام الأوباش ضربة تعلمهم قليلاً من الأدب وجزءاً صغيرا من مراعاة الانسانية ولها الحق بهذا الطلب ما دامت الحكومة هي المسؤولة عن راحة الشعب وهي القادرة علي كبح جماح كل معتد يعبث بأقدس شيء لدي الناس ويهين الكبير والصغير بلا موجب سوي قلة الأدب والاستطالة علي عباد الله وليس من وسيلة تصلح بيننا وبين من لا مفر لنا من وقوعنا في أيديهم يوماً ما الا أن تجمع الحكومة رجال هذه الطائفة الباغية فتنتحب منهم أهل استقامة وأدب وتسن لهم لائحة موافقة وتعين لهم رواتب شهرية يتقاضونها من خزينتها وتفرض هي رسماً يسد تلك الرواتب أو يزيد عليها وتأخذه من الأهالي عند اعطاء ورقة التصريح بالدفن من مكتب مفتش الصحة ومهما يكن ذلك الرسم فالأهلون يقبلونه بكل ارتياح إذ يتخلصون به من تلك المعاملة الوحشية والأطماع الاشعبية ويقوم التربية بوظائفهم ولا

جناح من شاء أن يدفع لهم شيئاً علي سبيل الهبة من الأهالي. وبهذا تلجم ألسنتهم فلا يعود في وسعها الانطلاق علي الناس بالقدح والسباب. والبذاءة التي يندي لسماعها جبين الآداب ولا نظن الحكومة تغفل مثل هذا الاقتراح ولنا في اهتمام عطوفة ناظر الداخلية الاكرم وسعادة المحافظ ما يحقق لنا الرجاء وينيلنا الاصلاح المطلوب، إذ لا يصح أن يكون لأحقر حرفة مثل «مساحي الأحذية» «والحمارة» والعربجية لائحة يجرون عليها ولا يكون لهؤلاء «التربية» قانون ولا لائحة ليعلم الناس حقيقة من سيلحدهم ويلتقطهم فرادي ومثني إلي ملاقاة رب كريم مستقبلين من الكرام البررة «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلي ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»

* * * * *

الأوقاف الاسلامية وحاضرها

قد رأينا بعد اتمام فصول كتابنا هذا وترتيبها أن لابد للقارئ عند وصوله إلي كلامنا عن الفقراء أن يسأل عن حالة الأوقاف الاسلامية المحبوسة علي ما فيه تيسير بعض الضنك الموجودين فيه ولذلك نختم كتابنا بذكر حقيقة حاضر الأوقاف حتي يتبين للقارئ مقدار نفع الفقراء من إيراد أوقاف أقل ما يقال عنه أنه يزيد عن إيراد كثير من الممالك الصغيرة في العالم (١) ومما سنذكره يعلم علاقة الأوقاف بسكان القطر ونفعها من عدمه. فيقلان مما عندهما الحبيب الغابط والعدو الحاسد ويترك محبوا

(١) نذكر لك واحدة وهي مملكة سان مارينو في جبال إيطاليا في الجهة الشمالية الشرقية منها عدد سكانها ١٥٠٠٠ نفس ودخلها يقارب مدخول ديوان الأوقاف المصرية وغيرها كثيرا تراجع في قوائم البلدان المطولة.

الاصـلاح الآن النظر في زيادة الايراد ونقصـانه مـا دام باب الانتـفـاع به مسدوداً

الغرض من الأوقاف

الغـرض من الأوقـاف امـداد ذوي الضـعف الذي عـجزوا عـن الكسب ووقف بهم الزمـن عن العـمـل لعـاهـة أو آفـة. ونشـر العلم والأدب والدين وحبذا القصد والغرض.

وأول من نظر إلي الأوقاف المصـرية نظرة حكيم عـاقل وأصـدر أمـره بتشكيل ديوان لهـا خاص هو سـاكن الجنان «عـباس باشا الأول» لما شـاهده وقتئذ مـن سوء التـصرف، وقـرر رحمـه الله حق مرجع النظر في أمـورها إليـه ولمن يتـولي الخـديوية من بعـده وقـد مـضـي من عـهـده للآن مـا يزيد عن الأربعين سنة والأوقـاف يغل سنويا مـبلغـاً كـبيـراً كله مرصـود لعـمل الخيـر حسب شروط الواقفين التي حصرت الحق في ديوان الأوقـاف هذا. وجعلت له حق الاشراف علي كل ما هو موقـوف من أملاك وعقارات في المحافظات والمديريات وحق اتخـاذ الطرق الشـرعـيـة المؤدية إلي تحـسين الأطيـان والعقـارات ونمو ريعهـا. وهو متـول ذلك يرضي الأمـة الاسلاميـة. فلذا كـان الواجب علي من ولي الأمـر أن لا يـألو جهـداً في اتخـاذ الذرائع لانجاح مـا أتمنتـه الأمـة عليـه طارفـاً كـان أو تليـداً. ولبـعض الناس حق علي الأوقـاف مثل الاشراف وغيرهم وهذا الحق يختلف بـاختلاف درجاتهم. فـمنهم المتصل نسـبهم بـالرسـول «صلي الله عليـه وسلم» والعلمـاء والفـقـهـاء الشـافـعـيـة والحنفيـة والمالكيـة والحنابلة ومنهم الصـوفـيـة والفـقـراء والعـمـيـان والمرضي والمجانين ومـا أشبـه ذلك حسب شروط الواقـفين التي قـصدوا بهـا التقـرب والزلفي إلي الله تعالي. ولعمـارات الأوقـاف حق وللمسـاجد حق تجديدهـا.

حتي أن للمصابيح حق معلوم إذا كسرت مثل ذلك يقال عن المكاتب والمدارس.

هذا هو الغرض من الأوقاف وهذا هوالحق الذي له والواجب الذي عليه إذا عرفنا ما ذكر عن الأوقاف لزمنا البحث عن حالته الحاضرة لنري هل ديوان الأوقاف قائم بالغرض الذي جعل لأجله وأفاد أو لم يفد فنقول.

بلغ إيراد ديوان الأوقاف في سنة ١٨٩٩ ٢٣٠٦٦٢ جنيه والمصروف ١٨٢٧٧٧ جنيه ونسبة المنصرف منه علي الأبواب الآتية هكذا ٤١٢٩٣ جنيه علي مستخدمي ديوان العموم وفروعه أي ١٨ في المئة من الإيراد العمومي

١٠٢٧ علي مستخدمي لجنة الآثار أي ١/٢ في المدة من الايراد العمومي

٤٦٢٤٤ جنيه علي المصاريف العقارية والزراعية بما يشمل مستخدميها الداخلين الهيئة والخارجين وغير ذلك من عوائد أملاك وحفظها وترميمها ومال وعشور أي ١/٢ ٢٠ في المئة من الايراد العمومي.

٢٨٧٨٥ جنيه علي المساجد والأضرحة أي ١/٢ ١٢ في المئة من الايراد العمومي

٢٧٥٢٥ جنيه علي التعليم منها ٦٥٩٢ جنيه مقررة لنظارة المعارف نظير ادارتها لمكاتب الأوقاف ومنها ٥٠٠ جنيه لمكاتب يديرها الديوان نفسه و ١٤٤ جنيه اعانة لمدرسة دمياط الأهلية وهذا المبلغ معه الريع الناتج من تفتيش الوادي مع فرضنا إياه أنه عشرين ألف جنيه أي ١٢ في المئة من الايراد العمومي

. ٦٨٠٠ جنيه علي التكايا سواء كان يديرها الديوان بمعرفته أو بمعرفة مشايخها أي ٢/٤ ٣ في المئة من الايراد العمومي

. ١٥٦١٠ جنيه علي عمل الخير مثل مرتبات واعانات للكتبخانة ومعاشات ومصروفات متنوعة أي ٦ في المئة من الايراد العمومي

. ١٠٦٨٠ جنيه علي اقامة شعائر أي ١/٢ ٤ في المئة من الايراد العمومي

هذا هو إيراد ديوان الأوقاف ومقدار صرفه علي الأبواب المتقدمة. ولعمري أنه يظهر من أول وهلة أن الديوان يصرف علي جماعة المستخدمين الذي يأكلون خبزهم كما تعودوا جالسين علي الارائك في ظلال السجوف خوفاً من حرارة الشمس والسعي في معترك الحياة أعظم مما يصرف في السيل التي أوقفت عليها هذه المنافع من عمل الخير ولبيان ذلك نأتي علي حالة كل باب من الأبواب المتقدمة فنقول:

"مستخدموا ديوان العموم وفروعه"

هم أظهر عضو في جسم الأوقاف أهل الحل والعقد فيه.وهم أكثر المستخدمين علاقة بمن يتصل أمره بالأوقاف ويسؤنا أن نذكر هنا كثرة الشكوي منهم ومن أعمالهم وقلة الرضي عنهم ويسؤنا أيضاً أن نقول بانحطاط معارفهم وأن أغلبهم استخدم في الديوان وكان الفضل باستخدامه للمحسوبية والقرابة عند من سلف وتولي نظارة هذا الديوان. ومع ذلك هم أرقي خدمة هذه النظارة وأحسن عملاً من أمثالهم في المحافظات والمديريات. ولابد أن سمع القارئ ببعض أعمال تسيء الظن فيم. أما عددهم فعلي ما يقول الخبيرون زيادة عن حاجة الديوان ولذا يقول العارف بأمرهم أنه يلزم لهم نظرة من أولي الأمر وأخري يمتنع بها عنهم ما

يرمون به من التهاون بالأعمال ومن تعطيل الأمور وتصعيبها ولو كانت منجزة سهلة.

"مستخدموا الفروع الأخري"

هؤلاء مستخدمو المحافظات والمديريات وأغلب أشغالهم بعد العقارات المزروعات وهم يعدون في الطبقة الثانية بعد مستخدمي ديوان العموم. الا أنهم أكثر منهم فائدة ولو كانوا أقل منهم مرتبا. غير أن في سير بعضهم أيضاً ضرباً من الفوضي وضعف الادارة والكسل وكثيراً ما تؤدي بهم أطماعهم إلي ما فيه دمار كثير من الأوقاف المزروعة والعقارات المؤجرة وسوابق ذلك كثيرة يعلمها الديوان نفسه.

"المساجد والاضرحة والزوايا ومستخدموها"

قال المرحوم علي مبارك باشا في خططه الجديدة أما عدد الجوامع الآن في مصر فهي مائتان وأربعة وستون جامعاً أ. هـ.

والله أعلم بعدد الجوامع في باقي داخلية القطر وبعدد الزوايا المبثوثة في أنحائه التي تقام فيها الصلاة. وبعض هذه الجوامع تابع مباشرة إلي ديوان الأوقاف وبعضها تابع للأوقاف الأهلية. يصرف عليها وعلي مستخدميها مما خصص لها من الريع الموقوف عليها وبعضها يمتد تاريخه من عهد دخول الاسلام في مصر كجامع «عمرو» وبعضها تاريخه من سنتنا الماضية أو الحاضرة ولكي يكون القارئ علي علم من حقيقة حالتها وحالة مستخدميها نقول.

حالة الجوامع كحالة الأفراد تسعد حينا وتشقي أحياناً حتي تندثر معالمها وتعفو لعدم اعتناء الخلف بما تركه منها السلف وكرور السنين

وتقلب الأيام أوجد كثيرين ممن كانوا يأخذون من عمارة هذا الجامع وأنقاض ذاك المسجد ومخلفات تلك الزاوية ليبنوا بها عمارة أخري لهم يسمونها بأسمائهم فينقرض عمل الأصل ويظهر عمل الفرع وأنت لو سألت الأعمدة في المساجد لانبأتك عن كثرة تنقلها من مواضعها في سنين عدة والميل لحب الافتخار في من حكم الديار المصرية محي أثر الكثير من الجوامع فعدمت بالمرة أو بقيت ذكراً ناطقاً بسوء عمل الخلف لما تركه السلف. غير أنا لا ننكر أن بعض هذه المساجد حفظت ورممت أخيراً وبالأخص الأثرية منها إذ لولا زخرفها وفخامتها لمحيت بالمرة كما محي كثير منها وكما محيث آثار دور التعليم وملاجئ الخير والمستشفيات التي كانت بجوانب الجوامع المذكورة في كتب السير وأسفار التواريخ ولا يزال بعض تلك الجوامع مهملاً أمره متروكاً يعمل فيه ضد الغرض المنشأ له كجامع الظاهر[1] وجامع قلاوون وغيرهما.

الأول منهما خالف القصد الذي بني لأجله وأضحي مخزنا ومذبحاً ومخبزاً توقد فيه النيران بدلا من اقامة الصلاة. وثانيهما تلعب فيه الأولاد

(١) «جامع الظاهر» قال المقريزى رحمه الله، هذا الجامع خارج القاهرة بالحسنية انشأه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى العلائي وكان موضعه ميداناً يعرف بميدان قراقوش وكان متنزه الملك ومحل لعبه بالكرة. فلما أهتم بعمارته اختاره فرسم الجامع في قطعة منه ورسم بأن يكون بقية الميدان وقفاً علي الجامع بحكر (تأمل ما حوله الآن) ورسم بين يديه هيئة الجامع وأشار ان يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية وان يكون محرابه قبة علي قدر قبة الامام الشافعى «رضى الله عنه» وكتب في وقته الكتب إلي البلاد باحضار عمد الرخام وكتب باحضار الآلات من الجديد والاخشاب النفسيةبرسم الابواب والسقوف وغيرها وولى عدة مشيدين علي عمارة الجامع وشرع في العمارة سنة ٦٦٥ هجرية ثم في سنة ٦٦٦ سافر السلطان إلي بلاد الشام فنزل علي مدينة يافا وتسلمها من الافرنج وهدم قلعتها وقسم أبراجها علي الأمراء وأخذ من أخشابها جملة ومن الألواح الرخام التى وجدت فيها ووسق منها مركباً سيرها إلي القاهرة ورسم بان يعمل من ذلك الخشب مقصورة في الجامع والرخام يعمل فى المحراب فاستعمل كذلك وكملت بناية الجامع سنة ٦٦٧ أ هـ. فتأمل حاضره الآن.

وتمرح وقاعته مؤجرة مخزن آواني النحاس وبضائع التجار وليس فيه مكان لاقامة الصلوات سوي غرفتين مع أن سعته عظيمة ولا يبعد أن يصير مصير الأول بعد زمن. وأني يرضي المسلمون عن الأول وهو بين مبان فخيمة باذخة جميلة ولا يمر عابر سبيل بقربه إلا ويأسف علي ما حاق به. ولو دري بانيه رحمة الله عليه بأنه سيأتي يوم يصبح فيه الجامع مخبزاً لما وضع فيه حجراً

"خدام الجوامع"

خدام الجوامع جماعة ممن جمعتهم جامعة الفشل في تعلم علم الدين ولم ينجحوا فيه ولكسلهم وخمولهم وحبهم للحياة خالية من التعب وأكل الخبز بلا تعب ولا عمل التزموا مساجد الله باسم خدمة. فأحتكروها أو التزموها قل ما شئت عنهم يورثونها أبنائهم من بعدهم وأحفادهم من بعد أبنائهم. وهؤلاء خدمة المساجد تدفع لهم مرتبات قليلة من قبل ديوان الأوقاف لقاء خدمتهم فيها ومباشرة نظافتها ومع كل فتري كثيراً من الجوامع المذكورة مهملة فيها شروط النظافة بالمرة. ونحن نقص عليك شيئاً من حالة الجوامع الكبيرة ونترك لك القياس عليها في المساجد الصغيرة. نذكر لك جامع ابنة البتول وبنت ابنة الرسول وبنت ابن «عمه رضوان الله عليهما جميعاً» ففي كل يوم أحد من كل أسبوع تفرش أرضه بقشور «الفول» وفتات الخبز وجذور «الكراث» وهناك يمر المار حافيا فيزلق بالأوساخ ويجد بفضل خدمة هذا المقام الشريف عكس الآية الشريفة «فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين» فيه يسحب البق بعضه بعضاً علي جدرانه من فضل الجالسين مطمئنين وهم بثياب رثة ولباس قذرتين وليس من يزجرهم أو يجبرهم علي النظافة أو من يعمل بالحديث الشريف «ابنوا المساجد وأخرجوا القمامة منها فمن بني لله بيتاً بني الله له

بيتا في الجنة» يتعلقون بأذيال الزائر عند الزيارة ويتجاذبونه من كل جانب رجاء أن يعطيهم شيئا لله وغرضهم أن ينشلوا منديله من جيبه وما شاكل ذلك وما من رادع يردعهم ولا عجب أن يكون ذلك كذلك ما دام خدمة الجوامع يدركون معني «وثيابك طهر والرجز فاهجر» ولا يعملون أو كيف يرجي ممن جمعتهم جامعة الفشل رجاء وهم إذا أرادوا الكنس كنسوا بسعف النخيل مع علمهم أن ذلك لا يزيل وسخا بل يزيد الطين بلة وهم لاهون عن مباشرة النظافة باستقبال الوفود من أصحاب النذور وملاقات الأصحاب والأحباب بالطبع تلهي المحب

وجامع السيدة نفسية رضي الله عنها يأتي إليه الناس من جهات متعددة بحجة الزيارة والتبرك غير أن بعضهم يتفقون مع خدمة الجامع للمنامة فيه ولا حاجة للاطالة وغير ذلك في مصر من أمثال هذه الجوامع الشهيرة يجري فيها الأمور لمخالفة السنة والدين والأدب والنظافة علي خط مستقيم فهل لا يعلم بذلك ديوان الأوقاف أو يمكنه أن ينكره. أو لا يعلم أن في جامع الامام الحسين «رضي الله عنه» يباع ويشتري ما يباع ويشتري في الأسواق من قصص وحكايات ومساوك وسبح وسعوط وكحل وعلب داخلها الأفيون. ذلك كله يراه خدام الجوامع الكبيرة أمثال من ذكرنا ويتعامون عنه ما دام الود بينهم متواصلا. فيتركون البائع علي هواه مع علمهم بقوله تعالي «أفرأيت من اتخذ الهه هواه» هذا وفي علمنا أكثر مما ذكرنا فنحول الانظار إليه. وأما الجوامع الصغيرة فليس لها اعتناء بالنظافة علي الاطلاق. وإذا سألك سائل ما الذي لا يغيره الدهر ويخالف المثل «الدهر بالناس قلب» قل له حصر هذه المساجد التي من اليوم الذي تفرش فيه لا تقام منه أبداً اللهم إلا ما يعلق منها في أرجل المصلين وسببه إن من يستخدم في هذه المساجد هم من الفقراء المتقدمين في السن وبعضهم

من العميان ويأخذون المرتبات القليلة جدا. حتي أن المكلف منهم بالآذان وان يك يصعد خمس مرات في أوقات مختلفة متعددة من النهار والليل حتي يبلغ عنان السماء يعطي ثلاثين غرشاً شهريا. والمكلف بملئ الميضة والخلايا مستقياً من البئر يعطي كذلك وعليه أن يباشر نظافتها وشؤون خدمتها فكيف يعتني أمثال من ذكرنا بالنظافة ويعملون بالآية الشريفة للمصلين الذي لا تصح صلاتهم الا طبق ما جاء فيها «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم للصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلي المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلي الكعبين الآية» وبعضهم لو تركوا خدمة الجوامع وعملوا مع الفعلة لتناولوا أجرة لا تقل عن المئة والخمسين غرشاً في الشهر أو كيف يأتمن أمثال هؤلاء علي ما يصرف لهم من الزيت ونحوه لانارة هذه المساجد وهم لا غني لهم عن بيعه ليعيشوا بثمنه وفي باب الشعرية بمصر زيات يبيعه خدمة الجوامع زيوت الجوامع ليقتاتوا بثمنها. ويا ليتهم يعرفون ثمنه فيقبضونه ولكنهم يبيعنه بأقل من نصف الثمن ومثل تفريطهم في الزيت تفريطهم في أنقاض الجوامع ومخلفاتها من شبابيك وحجارة فسيفساء.
وبعض هذه الجوامع الصغيرة أيضاً قد تحولت لضد الغرض المنشئة لأجله وعددها من الأسف كثير في كل بلد وحي نذكر لك منها الجامع الذي في أول باب البحر في رأس حارة «درب الجامع» فان هذا الجامع وان كان إيراده علي ما يقال يبلغ العشرة جنيهات شهرياً. فأنه من مدة قريبة أجر لبعضهم وعمل «بوظة» يجتمع فيه الأوباش من رعاع القوم ولما تشكي الجيران «وأغلبهم من النصاري» أبطلت منه البوظة وجعل مغلقاً للخشب.
ويوجد أيضاً في الجهة المذكورة زاوية وقف العنانية أجر بعضها مخزناً لأحد الأروام فجعل ميضتها مخزن تصافي الخمور وقد قدمت شكوي في أواخر سنة ١٩٠٠ للديوان من بعض سكان تلك الجهة المسلمين فلم يلتفت إليها.
وفي جهة الصليبة وجهات بولاق جوامع عدة بعضها فيه ورش للحدادة

والنجارة وبعضها لعمل الحصر ولخزن أصناف التجارة من سمن وعسل. كما أن بجانب البوستة في الأزبكية جامعاً فيه أسطبل لسواري بوليس العاصمة. هذا ولا يذهب عن فطنة القارئ ما تقدم بيانه من عمل الزار في بعضها. ذلك حال الجوامع وحال خدمتها وهو القول الحق الذي لا مراء فيه نذكره مع الأسف الشديد. ولو كان ذكره يؤلم عواطف البعض من رجال الأوقاف.

"الأضرحة وحالتها"

قال المرحوم علي مبارك باشا الموجود الآن بالقاهرة من الاضرحة مائتان وأربعة وتسعون ضريحاً بعضها داخل مزارات وله خدمة والبعض داخل بيوت وفي زوايا الحارات[1] ونحن نترك الكلام عن الأضرحة الموجودة في البيوت والحارات إذ الله أعلم بحالها ونقتصر علي المزارات التي لها خدمة مخصوصة من طرف ديوان الأوقاف فنقول. أنه لسبب تعيين الأوقاف مستخدمي هذه المزارات كبيوت الأصنام ولسبب جهل مستخدميها شروط الزيارة الشرعية يتركون الزائر يتبرك بالأضرحة ويتوسل بمن فيها الذي صعدت أرواحهم لبارئها وبقيت عظامهم البالية (وفي حكم العقل أن تلك العظام لا تغني شيئاً) وكذلك كانت عبدة الأصنان يفعلون تماماً[2]

(١) خطط جزء أول وجه ٨٩.

(٢) ومما يزيد الانسان أسفا تهاون الكثير من علماء الدينْ بالانكار علي ما يفعله هؤلاء مع علمهم أن هذا ان لم يكن شركاً فقريب منه وهم يشاهدون هذا بأعينهم ويسمعون بآذانهم ولا يتحركون فاذا صح السكوت هذا فعلى أي شيء ينكرون أصلحهم الله هل غاب عن علمهم أن الاسلام ما جاء الا لمحاربة هذه الأعمال الوثنية وتطهير الناس منها فكيف يرضي رجال الدين بأن تفعل هذه الأعمال المنكرة وهم المطالبون بازالتها وتفهيم الناس أنها من الشرك الذي لا يجتمع مع الدين وهذا الواجب ملقى علي عاتقهم لا يمكنهم التنصل منه مطلقاً.

ولو كان الله أمر المؤمنين بقوله «وإذا سألك عبادي عني فأني قريب أجيب دعوة الداعي» الآية يحصل ويراه خدمة الأضرحة من الزائرين وبالأخص من النساء وهن في داخل الأضرحة حيث يتوسلن إليها كآلهة تفعل ما تشاء ينظرونهن وهن يهززن الأضرحة ويصحن بألفاظ الكفر ولا يمنعونهن بل يصرحون لهن بعمل ما يريدون عمله ولقاء مبلغ تافه يتركونهن يكنسن بمناديلهن أرض المقام ويقلبن حصيره على من يردنه صارخات بالاستغاثة بالضريح وصاحبه دون الله الآمر رسوله والمؤمنين بقوله «قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا» الآية وكيف يلتفت الخدم إلي واجباتهم وهم في شغل شاغل مع بعضهم إما في مشاجره أو سباب ومخاصمة.

"تكايا الأوقاف"

الغرض من التكايا ايواء ذوي العاهات والأسقام والأمراض من فقراء المسلمين. وغاية ما يمكنا القول عن تكايا الأوقاف أن أكثر من فيها الآن هم من جماعة الترك الاصحاء الأبدان الأقوياء العضل يراهم الرائي في تكيتي طره بمصر والقباري بالاسكندرية فيعجب لصحتهم كما يعجب السياح الذين يتفرجون عليهم. وبالأخص لو علم أن أمثال هؤلاء لهم الحق بالاعتناء بهم وتوفير شروط المعيشة لهم كالعجزة والضعفاء والمنقطعين الذين هم في الحقيقة المقصودون بهذا الخير من أصحاب هذه المبرات وقعد بهم الدهر فأصبحوا في الفقر والخصاصة ومما يلاحظ علي تكايا الأوقاف غير ما تقدم أنها تحتاج للنظر ومضاعفة العناية من أولي الأمر لتغل أيد الخدمة عن الطمع في أرزاقهم. نعم وان كانت نظارة الأوقاف أظهرت أخيراً بعض اعتناء بشؤون التكايا ولكن لا تزال الشكوي كثيرة وخصوصاً من الصعوبات التي تقام أمام الفقراء الذين يرغبون الانضمام إلي التكايا. إذ هؤلاء لا يقبلون الا بعد كثرة التردد بين المحافظة والأرقاف علي أنه ينبغي

أن يلاحظ في التكايا أنها ملجأ العجزة والفقراء الذين لا يقدرون علي الكسب فلذا يلزم أن يكون لها نظام لا يتعدي حدوده ومع أن التكايا التي من هذا القبيل قليلة عندنا فلا يزال نظام الملاجئ التي أنشأها أبناء الطوائف الأخري في هذا القطر وسواه أرقي من نظام تكايا الأوقاف وأكثر سعيا في سبيل الأجر والثواب. ولو كنا أحوج الكل إلي الاكثار منها بالنسبة إلي كثرة عدد العجزة والضعفاء منا.

"ما يصرفه الأوقاف علي التعليم"

لدي ديوان الأوقاف أموال كثيرة مخصصة للمشروعات العلمية والأدبية أوقفها موقفوها «رحمهم الله» علي أخوانهم في الانسانية إعلاء لمنار العلم والأدب. تباري السالفون فيها ولم يقصروا بل رغبوا في وقفها احياء لبث التعليم ومكافأة رجال العلم وعلماً منهم أن الأمة لا تبلغ المقام الذي ترومه من العزة والمنعة الا إذا استنارت عقول أفرادها بأنوار العلم والأدب وكثر عدد العلماء والمتعلمين ودليل ذلك الأوقاف الكثيرة التي حبسوها علي هذا الخير والتي يبلغ ريعها من ٣٠ ألف جنيه إلي ما يقرب من الأربعين ألفا كلها موقوف علي بث العلم بين الفقراء الذين هم في حاجة كبري إلي التعليم والإرشاد. وكفانا أن نذكر منها تفتيش الوادي وزوائد المساحة في المديريات التي أوقفها المرحوم الخديوي الأسبق «اسماعيل» والحصص التي آلت إلي بيت المال وغيرها مما يسأل عنه ديوان الأوقاف. ومن الغريب أنه قد عمت الشكوي حتي اتصلت بسمو مولانا الخديوي المعظم حفظه الله الا أن شاور وزراءه والكثيرين من نبلاء الأمة ثم أمر فضمت تلك الكتاتيب التي كان يديرها ديوان الأوقاف إلي نظارة المعارف وتقرر أن ما يؤول أمره منها في المستقبل يناط بنظارة المعارف حتي يكون أمر التعليم كله تحت إدارة واحدة وقد تحسنت أمر الكتاتيب

هذه نوعاً ما كما تقدم لنا بيانه. وان كان ديوان الأوقاف قد عارض في ذلك معارضة شديدة شأن كل مصلحة تحافظ علي سمعتها وترغب في عدم تقليل اختصاصاتها. ولكننا نرجع فنقول أن ديوان الأوقاف لم يبسط يده علي التعليم ليكون ينبوعاً مساعداً علي انتشار العلم وتعليم النشأة الحديثة الفقيرة التي هي في حاجة إلي التعليم ولعمر الحق أن مبلغ ٢٧٥٢٥ جنيه من إيراد قدره ٢٣٠٦٦٢ جنيه مبلغ قليل جداً علي أمة مثل أمتنا تريد أن تباري الأمم الحية المتقدمة عليها.

"ما يصرف علي عمل الخير"

أما ما يصرفه الأوقاف علي عمل الخير فلا ندري ما هو اللهم غاية ما يمكننا أن نقوله أنه ربما يقصد بذلك ما يعطيه لجماعته من المستخدمين الذين يستولون علي ما يقرب من ربع الايراد أو ما يصرفه وهو مبلغ ١٥٦١ جنيه فان من هذا المبلغ يصرف اعانة للكتبخانة ومعاشات لافراد قليلين نعم أننا نجهل حقيقة ما فى ذمة ديوان الأوقاف تماماً لعمل الخير، ولكن العقل يرشدنا أن في ذمة ديوان الأوقاف لعمل الخير شيءٌ كثير ودليلنا عليه النظر لتبرع السلف الصالح وما هو مكتوب في سير الخلفاء والامراء الذين كانوا يوقفون من سعتهم ما يضمن للفقراء والعجزة راحتهم في حال ضيقهم وشدتهم فكم من خليفة وسلطان وأمير بني بجانب الجامع المستشفى رحمة منه وحناناً علي أمته من بعده. ومن ذلك وقف اقامه أخيراً الخديوى الأسبق «اسماعيل» لانشاء دار للعجزة يراها الطلع ذات شرط فى وقفيه المذكور وخصص لها أربعة آلاف جنيه وللآن لم يسمع أحد ما هو غرض الأوقاف من هذا الشرط. ولو فتشنا الأوقاف نرى مثل هذه الشروط أشياء كثيرة كلها فى ذمة الديوان المذكور بخلاف المبالغ التي لبعض المستحقين وقد طال عليها الأمد ولم يطالب أحد الديوان بها والمرجع

عـقـلاً أن أكـثـرهم مـاتوا ولا وارث لهم وعلي ذلك يمكننا القـول أن في استطاعة الديوان أن يعمل بهذه المبالغ عملاً يخفف به بلاء العجزة والمساكين ممن لا سند لهم ولا معين ولا لاولاد وبنات خدمة الجوامع أو لجماعة الأزهريين الذين هم لكثرتهم في حاجة إلي مستشفي وكيف لا ولنا في حادثة الكوليرا واحتياج المجاورين أقرب شاهد. فانهم إذا أصيب أحدهم بمرض تعدي إلي غيره بسهولة. ولا اعتراض في ذلك لو اخرج الأوقاف ما ذكر من حيز القول إلي حيز العمل. فان ذلك أولى بمجدنا ومجد الذين اوقفوا عمرهم علي تعليم قرآننا وديننا وليس بشيء أصعب علي الحر من أن يري ذلك المتعمم بالعمامة والمرتدى بالطيلسان والمتزى بزى أمة تنفر من المن والأذى يخر بين يد انكليزي أو الماني ليفتح له خراجاً في قلبه وما في قلبه الا محبة خالصة وسريرة صالحة بعيدة عن البغضاء بعد الأرض عن الجوزاء وفي الحديث الشريف «داووا مرضاكم بالصدقة»

"قضايا الأوقاف"

بما أن للاوقاف حقوقاً وعليه واجبات ولسبب تنوع اختصاصاته في أملاكه وعقاراته ولغرض استثمار موارد ايراده ترى ديوان الأوقاف كثير المشاكل كثير القضايا وهى اما له أو عليه وأغلب التى تقام عليه من تصرفات مستخدميه فلهذا السبب اتخذ الديوان له جملة محامين مستخدمين لديه بمرتبات باهظة كي ينظروا في دعاويه ومشاكله وأوجد مستشاراً قضائيا خاصا له «وهو الوحيد الذي يماثل المستشار القضائي في نظارة الحقانية من جهة الاختصاصات وما شاكل ذلك» والغريب في هذه القضايا أن بعضها يجرى فيها التلاعب الكثير بعضه بمعرفة رجال الديوان وبعضه بمعرفة المحامين فمثلاً القضايا المختصة بجماعة الأغنياء أصحاب الجاه والنفوذ فان هؤلاء يراعون لصحبتهم مع رجال الديوان وقد تحفظ

قضاياهم من سنة إلي عشرة. اما المختصة بالفقراء فتظهر بمظهر الاهتمام ويأخذون أصحابها قسراً إلي المحاكم ويطالبون بحقوق الديوان وأما لو كان للفقراء حقاً عليه فهناك المماطلة وتصعيب الأمور ولو كانت سهلة واضحة مذللة وشاهدنا تلك القضية الفقيرة الكبيرة التي قامت بين الديوان في سنة ١٨٩٥ وبين فقراء العميان الأزهريين وحكم لهم فيها سنة ١٨٩٧ علي الديوان بدفع ٣٦٠ جنيه والفضل في ذلك لرجل الفضل والمرؤة والنبل أحمد بك الحسينى نصير الضعيف ومرشد القوى للحق. والغريب أن الديوان لا يطالب بالفوائد في قضاياه ولكن يدفع الفوائد التي تحكم بها عليه المحاكم يدفعها من أمواله المجموعة من أهل البر والاحسان. وهو يحرم علي نفسه أخذها لو اودع شيئا من ماله في أحدى المصارف ولا ندرى الحكمة في ذلك ولا نعلم كيف يحل دفع الفوائد في عرفه. ولو تأملت أبواب ميزانيته سنة ١٨٩٩ لوجدت له في باب المصروفات ٢٤٠٠ جنيه بالقلم العريض تحت عنوان المصاريف القضائية أي أن ما يذهب علي قضاياه ضعف ما يصرف علي مستخدمى لجنة الآثار أو ما يقرب من ثلث ما يصرفه علي تكاياه.

« خلاصة القول عن الأوقاف»

هذا وفي الختام نقول أن ما ذكرناه عن ديوان الأوقاف الاسلامية انما نقصد به بيان الحالة لا مس كرامة أحد وان نوقف القارئ علي الحقيقة التي لا مندوحة عنها ولابد منها. ولا نقصد بكل ما تقدم بيانه الا أن نعد في مصاف أهل الحق والحرية الذين بقدر ما تسعهم القدرة يدرأون الخلل باشهار الوصمات والنقائص ليجتمعوا مع أمثالهم فينشطوا إلي الصعود والرقى من الدركات الهابطة ولا يخفى ما فى الجهر بالحق والقول بالصدق من أن التقدم القومى وأننا لا نرى ما يراه البعض أصحاب الهمة الفاترة من أن الستر علي النقائص أولي ومن أهم الخصائص.

تالله لو اتبع الأوقـاف سنتـه التي وجـد لاجلهـا وفطنوا لسـر هذه الأوقاف ما وضعت له لوجدوا من المسلمين من يعضـدهم ويأخذ بيدهم والا فالحاضر مشاهد من أنه لعدم الشقة فيـه الآن، وبسبب ما يلحق شروط الواقفين من التغيير والتبديل في أقرب زمن ترى عدد الوافقين يقل عاماً فعاماً فيتركون مخلفاتهم لأبنائهم من بعدهم فتذهب أكثرها ضحية التبذير والاسراف ولنا فيما تقدم من الكلام عن حالة أولاد الأغنياء ما فيه عبرة للمعتبر، علي أننا نود لو كان الناس ينشطون للعمل ويرشدون للاشتغال بالاعمال الدنيوية النافعة كالتجارة والصناعة وتحسين الزراعة فلا يكونون عـالة علي أوقافهم ومتروكات آبائهم لأن من أعظم الأدلة علي أننا أمة اتكالية وجود هذه الأوقاف بيننا وحصول التنازع فيها دائماً وأبداً سواء بين المستحقين أو المتطاولين عليها أو الناظرين إليها. وقد مضى علي الاسلام قرون متوالية لم يكن فيه أوقاف منتشرة كما هي الآن ولم يكن الا الأقاف الخيرية المحضة في السبل العامة لا غير وهذا يدلنا علي أن السلف الصالح كان همهم وعمدتهم إنما هو الاتكال علي النفس بعد الاتكال علي الله وهذه سيرة «الرسول صلي الله عليه وسلم» وسيرة الخلفاء الراشدين والخيرة من أصحابه والتابعين وتابعيهم تدلنا دلالة ظاهرة لا ارتياب فيها علي ما نقول ونتكلم عنه فعسى قومنا تهزهم داعية العمل فينشطون وينبذون عنهم مطارف الكسل ويكون الانسان انساناً بنفسه غنيا بنفسه واثقا بجده لا بجده معتمداً علي ما وهبه الله من التدبير لا ما جاءه من متروكات آبائه من الفتيل والقطمير، وهكذا الرجل يعيش أينما كان بسعيه واجتهاده قال تعالي {**وأن ليس للإنسان الا ما سعي وأن سوف يرى ثم يجزاه الله الجزاء الأوفى وأن إلي ربك المنتهى**} صدق الله العظم

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الفهرس

هذا الكتاب

نحن امام كتاب فريد في موضوعه، عجيب في محتواه، خاصة حين نعلم أنه قد نشر للمرة الاولى في عام ١٩٠٢، أي في بداية القرن العشرين، على حد علمنا، لا نعتقد أن هناك كتابا مصريا آخر في هذه الفترة قد وضع بنفس هذا المنهج المحكم، الذي حرص على المنحى الاحصائي الكمي، والبحث الميداني، أو اهتم بتلك التفصيلات الدقيقة التي اهتم بها كتاب «حاضر المصريين أو سر تأخرهم».. إذ استطاع الكاتب محمد عمر من خلال كتابه أن يجعلنا نعيش أجواء تلك الفترة بكل دقائقها، وألوانها، وروائحها، ونكهتها الشعبية، بحيث نعتقد أنه سيكون معينا أساسيا لكل باحث جاد في أي مجال من مجالات المعرفة في بداية القرن في مصر، إذ لن يستطيع الإعراض عن تصفحه ومراجعته، نظرا لما احتواه من معلومات تفيد الباحث في الانثروبولوجيا والاجتماع، والفلسفة والاعلام، والاقتصاد والتاريخ واللغة والسينما.. الخ، والمثقف بوجه عام.

الناشر المكتب المصري لتوزيع المطبوعات
٥ شارع مصطفى طموم - المنيل ت: ٣٦٥٥٤٨٧